إشراقات قرآنية

«حزب المُفَصَّل»

سلمان العودة

الجزء الأول

من «سورة الحجرات» إلى «سورة الحديد»

مقدّمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفُسِنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ﴿ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ وَءَاتُواْ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: 1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: 70- 71].

أما بعدُ:

فإن المتأمِّل في القرآن الكريم يجد سياق آياته في غالبها مما يسهل فهمه على الناس: الشاب والشيخ، والمتعلِّم والأُمِّي، والذَّكي وغير الذَّكي.

وفي الوقت ذاته يجد من دقيق المعاني ولطيفها ما لا يدركه إِلَّا الخواص؛ فالعامِّي يفهم ما يحتاجه، والمتخصِّص يجد ما يغنيه ويشبع تطلُّعَه.

وكلما مر القارئ على آية أو سورة تجدَّد له بالتأمُّل والتدبُّر من الأسرار واللَّطائف ما لم يكن لديه من قبل.

وكلما مر جيل وحدثت للناس معارف جديدة لم يكونوا يعلمونها من قبل، وجدت أن القرآن يستوعبها؛ لجهة عدم وجود ما يخالفها، أو كون بعض الإشارات تدل عليها.

ومنهج القرآن في ذلك إرشادي، يقوم على دعوة الناس إلى المعرفة والاكتشاف والضرب في الكون وإعمال العقول والانتفاع بخيرات الأمم، ولا يصلح أن يتحوَّل ذلك إلى الإغراق في ربط منجزات العلم التفصيلية بنصوص الكتاب.

وإنني لأشعر بانشراحٍ وأُنْسٍ عند الوقوف مع الآيات وتدبُّر معانيها، وتكرار النظر فيها؛ **ولذلك أحببتُ أن أضع بين يدي القارئ الكريم تنبيهات ينبغي مراعاتها عند تدبُّر القرآن والتأمُّل في معانيه:**

الأول: إذا وقفت أمام آية من آيات الكتاب الكريم، وخفي عليك إعجازها وبلاغتها وأسرارها، فإياك أن يذهب بك الظن إلى أن هذه الآية ليس فيها أسرار، ولكن ربما يكون عجزُ العقل حالَ دون إدراك هذه الآية وأسرارها، وربما يكون تكرار القراءة أو سماعها من قارئ حسن الصوت سببًا في قدح زِناد التدبُّر.

الثاني: أن الله تعالى جعل في القرآن ألوانًا من الأسرار، منها ما يتعلَّق باللغة، ومنها ما يتعلَّق بالتشريع، ومنها ما يكون إعجازًا علميًّا، ومنها ما يكون إعجازًا تاريخيًّا، أو أخلاقيًّا..

والله تعالى قد وزَّع المواهب بين الخلق، فمِن الناس مَن يطرب لجوانب البلاغة والإعجاز اللَّفظي، ويستنبطها وتروق له؛ ولذلك يشعر بتجاوب مع هذا النوع من الإعجاز، ومنهم مَن تكون اهتماماته علمية بحتة، فهو يبحث عنها، ومنهم مَن تكون ميوله روحانية، فيأنس حين يجد الله سبحانه في القرآن يخاطب عباده ويعرِّفهم بنفسه مباشرة، ويخاطب رسله وأنبياءه، ويكشف للخلق حياتهم وسرَّهم ومصيرهم.

والله قد جعل القرآن منهلًا يَرِدُه الخلقُ كلُّهم فيَسَعُهم، وكل إنسان يجد فيه بُغْيته وطلبته إذا كانت طِلْبَةَ حق؛ ولذلك فالواردات والخواطر الصحيحة على الذهن، لا بد أن تكون أصولها متضمّنة في القرآن الكريم.

والقرآن ليس كتاب جيل فحسب، بل هو كتاب الأمة كلها والتاريخ كله، فلم يحتو على معلومات موغلة في الغرابة، ولو كانت صحيحة؛ لئلا تكون فتنة لمَن لم يكتشفها، ولا تزال كشوف العلم ومستجداته تزيد القارئ فيه فهمًا وبصيرة وغوصًا على أسراره بما لم يقع لأجيال سبقت.

والإنسان يُؤتى من قِبَل ضعف قواه ومَلَكاته وقدراته؛ ولذا كان كمال العلم البشري دعوة إلى الإيمان بالله، وكان الأئمة يعتنون بالتدبر والفهم والغوص على أسرار القرآن.

وقلما تجد عالمًا مشهورًا إلَّا وصنَّف في التفسير، وبعض ذلك نقل وتكرار، أو جمع مرشَّح أو غير مرشَّح.

وبعضهم يعتني بجانب لا يعتني به غيره، كما تجد البلاغة والإعجاز اللُّغوي في «الكشَّاف» للزَّمخشري، وكُتب عبد القاهر الجُرْجاني، و«التحرير والتنوير» للطاهر ابن عاشور.

ومنهم مَن يهتم بالأحكام الفقهية، ويطيل النفس في آياتها، كالقرطبي، وابن العربي، والشنقيطي.

ومنهم مَن يهتم بالإشارات الدقيقة الروحانية والصوفية، وهذه منها قدر طيب انتفع به علماء كثيرون، كابن تيمية وابن القيم، وقدر هو محل تردد، ومنها ما هو تحريف للكَلِم عن مواضعه.

واهتم المعاصرون بالإعجاز العلمي، وسبق إليه الأستاذ فريد وجدي، ثم طنطاوي جوهري، ثم د. مصطفى محمود، و د. زغلول النجار، والشيخ عبد المجيد الزنداني، و د. عبد الله المصلح، وغيرهم، ومنهم مَن تعاطاه بنَفَس معتدل، وحصل من آخرين تكلُّف في إقحام بعض المعاني وربطها بالقرآن الكريم.

الثالث: أن من المعاني اللَّطيفة ما يدركه مَن يتكلم العربية وهي لغته، بخلاف مَن تعلَّمها وتكلَّمها، فإنه يفوته كثير من صور التدبر؛ لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ﴾ [الزخرف: 44]، ومن شكر نعمة الله هذه أن يُقْبِل صاحب اللغة العربية على القرآن الكريم، ويستدرك هذه المعاني اللَّطيفة التي قد تفوت على غيره.

وكلما فتحتُ المصحف وشاهدتُ الحرف العربي، تجدَّد شعوري بالنعمة والاصطفاء بكون اللغة العربية لغة القرآن هي لغتي الأصلية.

الرابع: من ألطاف القرآن الكريم ما يقع في النفوس وتُشرق به القلوب ويُعْجِز الألسنةَ الإفصاحُ عن معانيه، حتى يكون القارئ حين استقبال هذه الموجات العالية من الإيمان والمشاهدة غير راغب في تدوينها أو الحديث عنها؛ لأن ذلك يقطع حبل تسلسلها واتصالها، ولأن اللغة لا تستوعبها؛ ولذا قال النِّفَّري: «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة»[1]. وباليقين وقع للأنبياء عليهم السلام ثم الصحابة رضي الله عنهم ثم أكابر المحقِّقين والمؤمنين الراسخين ومَن دونهم من ذلك ما لا يخطر على بال.

ولذا فالقرآن هو أعظم أدلة الوجود والوحدانية والإيمان، وعلى الداعية والمحاور والمدافع عن حقائق التوحيد أن يعمِّق صلته به؛ إذ ليس الإيمان معنًى عقليًّا صِرْفًا كالمسائل الرياضية، بل هو حجة عقلية وضرورة قلبية وحياتية ومعرفية قد

---

(1) ينظر: «المواقف والمخاطبات» للنِّفَّري (ص51).

يضعفها الجدل فيها، إِلَّا ما دعت إليه الحاجة؛ لتثبيت إيمان، أو إقامة حجة، أو رد شبهة عارضة.

ولا يزال المتأمِّل في كتاب الله عز وجل يتلقَّى أنواعًا من المعاني العظيمة التي تُشرق لها النفس وتحيا وتطمئن.

ولذا رأيتُ أن أتلقَّى هذه الإشراقات، مستعينًا في ذلك بجهد السابقين من علماء الأمة في تفاسيرهم المشهورة المعتمدة.

ورأيتُ البداءة بـ«**جزء عم**»؛ فإن عامة سور هذا الجزء هي أول ما خُوطبت به البشرية من كتاب الله عز وجل، وقضاياه هي قضايا الوجود الإنساني كله، كما أن سور هذا الجزء القصيرة هي ما يحفظه أغلب المسلمين ويقرؤونه في صلواتهم.

كما أني رأيتُ أغلب المفسرين إذا وصلوا إلى هذا الجزء، وهو آخر جزء في القرآن، لا يكون عطاؤهم كما كان عند ما شرعوا في التفسير من أول جزء.

وقد طُبع «**جزء عم**» في جزءين منذ أربع سنوات، وقد أعدتُ النظر فيه مرة أخرى، بالاختصار والمراجعة والتنقيح.

ثم تابعت الأجزاء من بعده صُعُدًا: «**جزء تبارك**»، ثم «**جزء قد سمع**»، وهكذا حتى نهاية «**المُفَصَّل**»..

وقد كانت البداءة بهذه الإشراقات في دروس ألقيتُها، وكان للإلقاء والتفاعل مزيته، ثم أعدتُ كتابتها واجتمعتُ عليها، وكان للتأمُّل والاستغراق مزيته الأخرى.

ثم ها هو الجهد بين يديك، سائلًا الله أن يسلكني وإياك في سِلْك أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن يجعلنا ممن هداهم الله بهذا القرآن للتي هي أقوم وأنالهم به كريم البُشرى بأن لهم أجرًا كبيرًا.

وإنني أَطْمَحُ من قرَّاء هذا الكتاب إلى التواصل معي عبر وسائل الاتصال؛ لتوصيل أي ملحوظة أو اقتراح أو نقد أو تعديل؛ فهذه التغذية الراجعة، هي دومًا من مصادر فرحي وسعادتي، وهي تُسْهِم في تطويري ذاتيًّا، مثلما تُسْهِم في تطوير الكتاب وتحسينه.

والشكر لكل مَن يقتطع جزءًا من وقته لقراءة الكتاب، أو يضيف جزءًا آخر لكتابة تعديل أو تصويب وإرساله إليَّ.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات..

سلمان العودة

1 ربيع الثاني 1437هـ

❍ ❍ ❍

سورة الفاتحة

* **سورة الفاتحة**[1] سورة عظيمة، يقرؤها المسلم أو يستمعها في اليوم الواحد بعدد ركعات الصلوات؛ لقوله صلى الله عليه وسلم- كما في «الصحيحين» من حديث عُبادة بن الصامت رضي الله عنه-: «**لا صلاةَ لَمن لم يقرأْ بفاتحة الكتاب**»[2].

وقد ذكر الشُّرَّاح أن معنى الحديث: أن يقرأ بها في كل ركعة من صلاته[3]، فدل هذا على عظيم شأنها، وجليل قدرها، وأنه ينبغي تأمل معانيها، فلحكمة بالغة شرع الله تكرارها في الصلوات من بين جميع سور القرآن.

*** تسمية السورة:**

لها أسماء كثيرة، وكثرة أسمائها تدل على عظيم قدرها[4]:

«**سورة الفاتحة**»: فقد سمَّاها النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**فاتحة الكتاب**»، كما في حديث عُبادة رضي الله عنه المتقدِّم؛ وذلك لأنها أول ما يُقرأ من القرآن، فهي أول

(1) هذه السورة لكثرة قراءة المسلم لها في صلواته، وحاجته إلى معرفة معانيها؛ كانت البداءة بتفسيرها، كما فعل بعض العلماء، ومنهم: الشيخ عبد الله كنُّون رحمه الله في «تفسير سور المُفَصَّل»، والشيخ محمد الأشقر رحمه الله في «تفسير العُشر الأخير»، والشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله في تفسيره لـ«جزء عم».

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (756)، و«صحيح مسلم» (394).

(3) ينظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (2/ 370)، و«إرشاد الساري» (2/ 85)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (2/ 169- 174).

(4) ينظر: «تفسير الرازي» (1/ 156)، و«إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص69)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (1/ 182)، و«بصائر ذوي التمييز» (ص128- 129)، و«الإتقان» (1/ 187- 191)، و«التحرير والتنوير» (1/ 131).

سورة مكتوبة في المصحف، وإن لم تكن أول سورة نزلت، ولهذا سمَّاها النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**فاتحة الكتاب**»[1].

وسمَّاها النبيُّ صلى الله عليه وسلم أيضًا: «**أم القرآن**»، فقال: «**أمُّ القرآن هي السَّبْعُ المَثاني، والقرآنُ العظيمُ**»[2]؛ لأن معاني القرآن ترجع إلى مضمونها؛ فهي شاملة للمعاني الكلية، والمباني الأساسية التي يتكلم عنها القرآن.

وتسمَّى: «**أم الكتاب**»؛ لما ورد في رواية لحديث أبي هريرة رضي الله عنه المتقدِّم: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾: **أمُّ القرآن، وأمُّ الكتاب، والسَّبعُ المثاني**»[3].

وإنما سُمِّيت بذلك؛ لأنها مشتملة على أصول التوحيد في القرآن؛ توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى ذكر المعاد والجزاء والحساب، والتحذير من طرق المخالفين لما عليه الأنبياء والمرسلون، ومنهم اليهود الذين غضب اللهُ عليهم، والنصارى الذين ضلُّوا عن سواء السبيل.

وخالف في ذلك الحسن البصري وابن سِيرين فقالا: «إن أم الكتاب هو: اللوح المحفوظ»[4].

وقد جاء في قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: 39]. و**أم الكتاب** هي: أصل الكتاب وجملته التي لا يدخلها محو ولا نسخ[1].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص193)، و«تفسير مقاتل» (1/ 33)، و«سنن النسائي الكبرى» (10/ 5)، و«تفسير الطبري» (1/ 105)، و«تفسير القرطبي» (1/ 112)، والمصادر الآتية.

(2) أخرجه البخاري (4704) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) أخرجه أحمد (9790)، وأبو داود (1457)، والترمذي (3124)، والطبري في «تفسيره» (14/ 123)، وصحَّحه الترمذي.

(4) ينظر: «تفسير الماوردي» (1/ 46)، و«تفسير القرطبي» (1/111)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 101).

والذي ألتمسه- والله أعلم- أن أم الكتاب تكون في القَدَر، وتكون في الشرع، فأما في القَدَر، فكما ذكر اللهُ تعالى في هذه الآية: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد: 39]. أي: القَدَر الثابت الذي ينتهي إليه من شقاوة وسعادة أو موت وحياة ونحو ذلك.

وأما في الشرع فـ«أم الكتاب» هي التي لا يدخلها النسخ ولا التغيير، فالعقائد متفق عليها بين الأنبياء، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم- كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه-: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياءُ إخوةٌ لعَلَّاتٍ**[2]**، أمهاتُهم شتَّى، ودينُهم واحدٌ**»[3]. فالدِّين- الذي هو العقيدة في الله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقَدَر- لا يتغيَّر من نبيٍّ إلى آخر، بل هو باق محكم لا يُبَدَّل ولا يُنسخ.

وتُسمَّى: «**السَّبْع المَثاني**»، كما في الحديث المتقدِّم؛ وذلك لأنها سبع آيات تُقرأ مرة بعد مرة[4]، وسُمِّيت بـ«**المَثاني**»؛ لأنها شاملة لمجملات المعاني المُفَصَّلة فيما سواها.

و«**القرآن العظيم**»، فقد سمَّاها بذلك النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فقال: «**هي السَّبْعُ المَثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أُوتيتُهُ**»[5]. وكما في الحديث المتقدِّم أيضًا.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (13/ 571)، و«تفسير الماوردي» (3/ 118)، و«تفسير البغوي» (3/ 27)، و«زاد المسير» (2/ 500)، و«التحرير والتنوير» (25/ 162).

(2) **أولاد العلَّات**: الذين أمهاتهم مختلفة، وأبوهم واحد. أراد أن أصل إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة. ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (15/ 119).

(3) أخرجه البخاري (3443) واللفظ له، ومسلم (2365).

(4) ينظر: «الكشاف» (2/ 587)، و«روح المعاني» (7/ 321)، و«التحرير والتنوير» (14/ 80)، والمصادر السابقة والآتية.

(5) أخرجه البخاري (4474) من حديث أبي سعيد بن المعلَّى رضي الله عنه.

وتُسمَّى: «**سورة الحمد**»[1]؛ لأنها بدأت بحمد الله عز وجل في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

و«**الصلاة**»، كما في الحديث القدسي: «**قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سألَ؛ فإذا قال العبدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾. قال اللهُ تعالى: حَمَدَني عبدي. وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾. قال اللهُ تعالى: أَثْنَى عليَّ عبدي. وإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾. قال: مجَّدني عبدي**- وقال مرة: **فوَّض إليَّ عبدي- فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾. قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سألَ. فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾. قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سألَ**»[2].

فسمَّاها: «**الصلاة**»، إما لأنها ذكر ودعاء؛ فإن السورة فيها دعاء وتبتُّل إلى الله بأعظم مطلوب، وهو الهداية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، فسُمِّيت السورة ببعض أجزائها وبعض معانيها، وهو الدعاء.

والدُّعاء في اللغة يسمى: صلاة، كما قال الله عز وجل: ﴿تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن﴾ [التوبة: 103]، **يعني: ادْعُ لهم**[3].

وقد قال الأَعْشَى[1]:

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (1/ 45)، و«معاني القرآن» للنحاس (1/ 47)، و«سنن الدارقطني» (4/ 310)، و«تفسير الثعلبي» (1/ 126)، و«تفسير الرازي» (1/ 156)، و«تفسير القرطبي» (1/ 112)، و«تفسير الخازن» (1/ 15).

(2) أخرجه مسلم (395) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (11/ 659)، و«معاني القرآن» للزجاج (2/ 467)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص490- 491) «ص ل ا»، و«تفسير القرطبي» (1/ 168)، و«البحر المحيط في التفسير» (5/ 499)، و«تاج العروس» (38/ 437) «ص ل و».

تقولُ بنتي وقد قَرَّبْتُ مُرتحِلًا: *** يا ربِّ جنِّبْ أبي الأوصابَ والوجعا
عليكِ مثلُ الذي صلَّيْتِ فاغتمضي *** نومًا، فإن لجنب المرء مُضَّجَعَا

يعني: لك من الدعاء مثل الذي دعوت به لي.

أو سُمِّيت بذلك؛ لأنه لا تصح الصلاة إلَّا بها[2].

وتُسمَّى: «**الرُّقية**»، كما في قصة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين نزلوا على حيٍّ من أحياء العرب، وفيها أن سيِّد ذلك الحي لُدغ، فرقاه أحدُ الصحابة، فجعل يقرأ بفاتحة الكتاب وينفث عليه، فبرأَ، فلما ذكروا ذلك للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ضحك، وقال: «**وما أدراكَ أنها رُقيةٌ**»[3].

ولها أسماء أخر، كـ«الشفاء»، و«الوافية»، و«الكافية»، و«الأساس»، و«أم المحامد»، و«سورة الشكر»، وغيرها[4].

ويكفي في شرفها أنه لا يكاد يوجد مسلم في الدنيا إِلَّا ويحفظها، حتى إن الإنسان أول ما يدخل في الإسلام وينطق بالشهادتين يحفظ «سورة الفاتحة» قبل غيرها؛ لكي تصح صلاته، ولو أنه اقتصر عليها في الصلاة لكفته، فما زاد عنها فهو نفل مستحب، وليس بواجب[5].

---

(1) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص101).

(2) ينظر: «فقه العبادة» للمؤلِّف (2/ 237– 238).

(3) أخرجه البخاري (5736) واللفظ له، ومسلم (2201) من حديث أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه.

(4) ينظر في أسماء «سورة الفاتحة» ومعانيها تفصيلًا: «تفسير الفاتحة» لابن رجب (ص 21– 34).

(5) ينظر: «بدائع الصنائع» (1/ 111– 160)، و«المدونة» (1/ 163)، و«المجموع» (3/ 349)، و«المغني» (1/ 291– 333)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (2/ 176).

* **عدد آياتها:** سبع آيات بلا خلاف[1]، ومَن لم يعد ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ آية، فقد عدَّ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ آية[2].

* **وهي مكية** على قول الأكثرين، وهو مروي عن علي رضي الله عنه، والحسن، وأبي العالية، وقتادة.

وقيل: مدنية. وهو قول أبي هريرة رضي الله عنه، ومجاهد، وعطاء بن يسار، والزُّهري.

ورُوي القولان عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: نزلت مرتين، مرةً بمكة ومرةً بالمدينة؛ ولذلك سُمِّيت: مثاني.

وقيل: نزل نصفها بمكة، ونصفها الآخر نزل بالمدينة. قال ابن كثير: «وهو غريبٌ جدًّا»[3].

والأظهر ما رجَّحه كثير من الأئمة أنها مكية؛ لأن الله تعالى مَنَّ على الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ﴾ [الحجر: 87]. والمراد منها: فاتحة الكتاب، و«سورة الحجر» مكية بالإجماع[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (1/ 105)، و«البيان في عدِّ آي القرآن» (ص139)، والمصادر الآتية.

(2) ينظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (1/ 10)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص278-279)، و«تفسير ابن جزي» (1/ 63)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 101)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (1/ 35)، و«تفسير السمرقندي» (1/ 15)، و«تفسير البغوي» (1/ 70)، و«زاد المسير» (1/ 17)، و«تفسير القرطبي» (1/ 115)، و«روح المعاني» (1/ 35)، و«التحرير والتنوير» (1/ 135)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (14/ 5)، و«تفسير الماوردي» (3/ 147)، و«تفسير الرازي» (1/ 160)، و«اللباب في علوم الكتاب» (1/ 166)، (11/ 422)، و«فتح القدير» (3/ 145)، و«روح المعاني» (7/ 249)، والمصادر السابقة.

ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حُفظ أنه كان في الإسلام صلاةٌ بغير ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

يدلُّ على هذا قوله صلى الله عليه وسلم: «**لا صلاةَ لِمَن لم يقرأْ بفاتحة الكتاب**»[1]. وهذا خبرٌ عن الحكم، لا عن الابتداء.

* ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾:

اختلف أهل العلم هل «البسملة» آية من «سورة الفاتحة»، أم آية من القرآن، أم آية من كل سورة؟[2].

وكل سورة في القرآن تبدأ بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، إلا «سورة التوبة».

* وفي هذه السورة خاصة قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، فأعاد هذين الوصفين العظيمين لله تعالى.

وفيها ذكر خمسةٍ من أسمائه الحسنى، وهي: «الله»، «الرَّب»، «الرَّحمن»، «الرَّحيم»، «المَلِك».

* **الله:** وهو الاسم الأعظم، على قول بعضهم، وهو أكثر الأسماء ترددًا في القرآن والسنة، وعلى ألسنة المخلوقين بمختلف لغاتهم وألسنتهم، وهو الذي تُنسب الأسماء الأخرى إليه، فيقال: الله المَلِك، الله الخالق، الله العليم... ولا يشاركه في هذا الاسم غيره؛ فلم يتسمَّ به أحدٌ قطُّ، ولهذا قال سبحانه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: 65].

---

(1) تقدم قريبًا.

(2) ينظر: «التمهيد» (2/ 228)، (20/ 215)، و«الاستذكار» (1/ 457- 462)، و«المغني» (1/ 344- 345)، و«المجموع» (3/ 334- 340)، و«مجموع الفتاوى» (22/ 405- 443)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (2/ 165- 169).

الله الذي تألهه القلوب، أي: تحن إليه، وتشتاق إلى لقائه ورؤيته، وتأنس بذكره، وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: «**وأسألُك لذَّةَ النظر إلى وجهك، والشوقَ إلى لقائك..**»[1].

ومن معانيه: أنه الذي تحار فيه العقول، فلا تحيط به علمًا، ولا تدرك له من الكُنْه والحقيقة إلا ما بيَّن سبحانه في كتابه، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا تعلم كيفية ذاته سبحانه، ولا تحيط به؛ وإذا كانت العقول تحار في بعض مخلوقاته في السماوات والأرض، والبر والبحر، فكيف بذاته جَلَّ وعلا؟! فالعقل يرتد كَلِيلًا حَسِيرًا عن إدراك ذاته تعالى، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: 110].

وفي حديث الشفاعة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**فأستأذنُ على ربي، فيُؤذنُ لي، ويُلهمني محامدَ أحمدُهُ بها، لا تحضرُني الآن، فأحمدُهُ بتلك المحامد، وأَخِرُّ له ساجدًا..**»[2].

فأخبر أن الله يعلِّمه من المحامد ما لا يعلمها الآن، ويفتح عليه من العلم به آنذاك ما لم يكن لديه من قبل.

ومن معانيه: أنه الإله المعبود المتفرِّد باستحقاق العبادة؛ ولهذا جاء هذا الاسم في الشهادة؛ فإن المؤمن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، ويقول: الله أكبر.

أُطلق هذا الاسم العَلَم الذي هو أصل لكل الأسماء الأخرى؛ إظهارًا للاعتقاد أنه لا معبود بحقٍّ إلا هو: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا﴾ [الحج: 62][1].

---

(1) أخرجه أحمد (18325)، والنسائي (3/ 54)، وابن خزيمة في «التوحيد» (1/ 29- 30)، وابن حبان (1971)، والطبراني في «الدعاء» (625)، والحاكم (1/ 524) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما.

(2) أخرجه البخاري (7510)، ومسلم (193) من حديث أنس رضي الله عنه.

* **الرب**: فهو ربُّ العالمين، ربُّ كل شيء وخالقه والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته وكل مَن في السماوات والأرض عبد له، في قبضته، وتحت قهره، وهو متولِّي أمورهم وحياتهم وأرزاقهم، المتفضِّل عليهم(2).

* **الرحمن**: واسمه سبحانه: «**الله**» و«**الرحمن**» من الأسماء الخاصة به، لا يشاركه فيهما غيره، ولهذا قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: 110].

أما الأسماء الأخرى، فيُسمَّى أو يُوصف بها غير الله، كالرَّحيم، والسَّميع، والبَصير، كما قال سبحانه عن نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: 128]، وكما قال: ﴿إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [الإنسان: 2].

والاسم يدل على صفة الرحمة لله سبحانه، وعظمتها وتقديمها، حتى ورد في «الصحيح» أن اللهَ خلقَ مئة رحمة، أنزل منها رحمةً في الدنيا، وادَّخر باقيها ليوم الحساب(3).

وجعل كتابه رحمة، وأرسل رسوله رحمة، وقال: ﴿ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [الأعراف: 156]، وبدأ كتابه العزيز بهذا الاسم؛ تأكيدًا على استشعار الرحمة في العبادة وفي التعليم وفي الدعوة وفي الدعاء، وأن مَن خرج منها إلى أن يكون مغضوبًا عليه، فبسبب إمعانه في الغي وإعراضه عن الله.

---

(1) ينظر: «اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص23)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص43- 53).

(2) ينظر: «اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص32).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (6469)، و«صحيح مسلم» (2752)، و«كتاب الأربعين في فضل الرحمة والراحمين» لابن طولون الصالحي.

* **الرحيم**: وهو مثل «**الرحمن**» في أصل الاشتقاق، **واختلفوا في الفرق بينهما**:

فقيل: «**الرحمن**»: رحمة عامة بجميع الخلق، و«**الرحيم**»: رحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: 43].

وقيل: إن اسم «**الرحمن**» بالنظر إلى وجود الصفة، وأما «**الرحيم**» فبالنظر إلى متعلَّقها في الخلق، يعني: حصول أثرها في الخلق برحمته تعالى لهم، أشار إليه ابن القيم[1]، فالله هو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

والأقرب أن «**الرحمن**» على وزن فَعْلان، صيغة مبالغة، تدل على الامتلاء والتناهي في التحقق بالصفة وعظمتها، وأما «**الرحيم**» فهي بصيغة فَعِيل التي تدل على التكرار، وأن هذه صفة دائمة، وليس هذا الاختيار ببعيد عما قبله[2].

وهاهنا ينبغي أن نتأمَّل سرًّا من أسرار تكرار هذين الاسمين؛ فإن الإنسان إذا أراد أن يقرأ أو يدخل أو يخرج أو يأكل أو يخطب أو يتكلَّم قال: «بسم الله الرحمن الرحيم».

وقد ورد: «**كلُّ أمر ذي بال لا يُبدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»**- وفي رواية: **بـ«الحمد لله»- فهو أَبْتَرُ، أو أَقْطَعُ، أو أَجْذَمُ**»[3]. **والمعنى**: ناقص البركة[1].

---

(1) ينظر: «مدارج السالكين» (1/ 32).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (1/ 124)، و«الكشاف» (1/ 6)، و«تفسير القرطبي» (1/ 105)، و«روح المعاني» (1/ 64)، و«التحرير والتنوير» (1/ 173)، و«زهرة التفاسير» (1/ 53).

وينظر أيضًا: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص28)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص38)، و«معارج القبول» (1/ 67- 68)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص55- 64).

(3) ينظر: «مسند أحمد» (8712)، و«سنن أبي داود» (4840)، و«سنن ابن ماجه» (1894)، و«صحيح ابن حبان» (2)، و«سنن الدارقطني» (1/ 427- 428)، و«طبقات الشافعية الكبرى» (1/ 7- 22)، و«إرواء الغليل» (1- 2).

لكن من المعلوم أن العبارة تقال هكذا: «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، فلم يقل أحد من الناس قط: بسم الله المنتقم الجبار، أو: بسم الله العزيز الحكيم، مع أن هذا حق، وفي هذا إشارة إلى قوله عز وجل في الحديث القُدسي: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[2].

على الإنسان أَلَّا يقنط من رحمة الله مهما أسرف على نفسه، قال تعالى: ﴿**قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾**﴾ [الزمر: 53]، وقال سبحانه: ﴿**وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ**﴾ [الحجر: 56]، وقال عز وجل: ﴿**إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾**﴾ [يوسف: 87]؛ ولهذا كان اليأس من رحمة الله، والأمن من مكر الله من صفات الكافرين، فينبغي للمؤمن أن يتشبَّث أبدًا بطلب رحمته جَلَّ وعلا، وأن يعلِّم الناسَ الثقة برحمته سبحانه.

وكثيرًا ما كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يعلِّم أصحابه الرجاء فيما عند الله، وأن تكون ثقتهم بالله وبرحمته أعظم من ثقتهم بعملهم؛ فإن العمل قد يداخله الرِّياء أو العُجْب، أو لا يكون على وفق ما شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيُرَدُّ على صاحبه، وقال صلى الله عليه وسلم: «**لن يُدخِلَ أحدًا عملُه الجنةَ**». قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني اللهُ منه بفضل ورحمة**»[3].

ينبغي أن يُدْعَى الناس- والعصاة بخاصة- إلى الله، بتذكيرهم برحمته، مع تذكيرهم بعقوبته، فالله عز وجل يقول: ﴿**نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ**

(1) ينظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (7/ 263)، و«شرح البخاري» للسَّفِيري (1/ 68)، و«فيض القدير» (5/ 14).

(2) أخرجه البخاري (7422)، ومسلم (2751) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) أخرجه البخاري (5673، 6463)، ومسلم (2861) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر: 49- 50]. فقدَّم المغفرة والرحمة على العذاب، وجعلها صفة له، بينما عبَّر في الآية الأخرى عن عذابه بأنه أليم، ولم يصف نفسه بالمعذِّب أو الباطش أو المعاقِب.

وبعض الدُّعاة يفيضون في الحديث عن الوعيد والتشديد والتخويف والترهيب، إلى درجة تُحدِث أثرًا عكسيًّا، وهو تقنيط العصاة من رَوْح الله ورحمته، فيتملَّكهم اليأس، ويفقدون الأمل، فيتشبثون بما هم عليه من المعاصي، ويستغرقون فيها!

أما فتح أبواب الرجاء في القلوب فأسلوب قرآني عظيم يواجهك في مطلع أول سور القرآن الكريم، حتى إن الذي يريد أن يتكلم عن النار سيقول في أول حديثه: «بسم الله الرحمن الرحيم»، والذي يريد أن يتكلم عن الحدود الشرعية يبدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم». فينبغي أن يُعطى هذا الحديث قَدْرَهُ عند الناس، ويُذكَّروا دائمًا بأن يتعلَّقوا بالله الرحمن الرحيم.

وأصول الأسماء الحسنى هي: «**الله**»، و«**الرَّب**»، و«**الرَّحمن**»، فاسم «**الله**» متضمِّن لصفات الألوهية، واسم «**الرَّب**» متضمِّن لصفات الربوبية، واسم «**الرَّحمن**» متضمِّن لصفات الجود والبر والإحسان.

فالربوبية من الله لعباده، والتأليه منهم إليه، والرحمة سبب واصل بين الرب وبين عباده، فبرحمته أرسل رسله، وأنزل كتبه، وبها رزق عباده وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة[1].

*** المالك**: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾:

أي: يوم يُدان الناس بعملهم، ويجازون به خيرًا أو شرًّا[1]، فبعدما اعترف لله قائلًا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ زاد الاعتراف قوة وثباتًا بأن أثنى على الله بصفاته وأسمائه:

---

(1) ينظر: مقدمة «مدارج السالكين».

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، وفي قراءة سَبْعية[2]: ﴿مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ بالقصر بلا مد[3]؛ وكلاهما جائز أن يُقرأ به في الصلاة.

وقد استفتح السورة **بالحمد**، وهو: الثناء على المحمود بإفضاله وإنعامه، أما **المدح**، فهو: الثناء عليه بصفات الجلال والجمال والكمال[4].

فالحمد: ثناء على الله تعالى بما أنعم عليك، وما أعطاك، فإذا قيل: إن فلانًا حمد فلانًا. فمعناه أنه شكره على إحسان قدَّمه إليه، لكن إذا قيل: مدحه. فلا يلزم أن يكون مدحه بشيء قدَّمه، بل قد يكون مدحه ببلاغته وفصاحته، أو بجماله، أو بقوته، أو بإحسانه لقوم آخرين.

وعليه، فالمدح أعم من الحمد؛ لشموله الثناء بصفات الجمال والجلال والكمال مطلقًا؛ فالحمد فيه معنى الشكر، ومعنى الاعتراف بالجميل.

وعبَّر ابن القيم عن ذلك، فقال: «الإخبار عن محاسن الغير، إما أن يكون إخبارًا مجرَّدًا من حب وإرادة، أو مقرونًا بحبه وإرادته، فإن كان مجرَّدًا عن الحب والإرادة، فهو المدح، وأما الحمد، فهو إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه»[5].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (1/ 159)، (21/ 485)، و«تفسير الماتريدي» (1/ 362)، و«الدر المنثور» (15/ 287).

(2) أي: من القراءات السبع المتواترة، وهي قراءة نافع وغيره.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (1/ 149- 150)، و«السبعة في القراءات» (ص104)، و«حجة القراءات» (ص77)، و«النشر في القراءات العشر» (1/ 271)، و«معجم القراءات» (1/ 8- 13).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (1/ 36)، و«تفسير الماتريدي» (1/ 349)، و«تفسير الماوردي» (1/ 53)، و«الكشاف» (1/ 8)، و«المحرر الوجيز» (1/ 66)، و«تفسير القرطبي» (1/ 133- 134)، و«التحرير والتنوير» (1/ 155).

(5) ينظر: «بدائع الفوائد» (2/ 93).

والحمد يتضمن الاعتراف، والاعتراف فيه معنى عظيم؛ لأنه إقرار من العبد بتقصيره وفقره وحاجته، واعتراف لله بالكمال والفضل والإحسان، وهو من أعظم ألوان العبادة؛ وقد يعبد الإنسان ربه عبادة الْمُدل الْمُعْجَب؛ فلا يُقبل منه؛ لأن الإعجاب لا يتفق مع الاعتراف والذُّل؛ فلا يدخل العبد على ربه من باب أوسع وأفضل من باب الذُّل والانكسار؛ بل هذا هو معنى العبادة المذكورة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، تقول العرب: طريق معبَّد، أي: مذلَّل تطؤه الأقدام[1]؛ **فمن أعظم معاني العبادة**: الذُّل له سبحانه.

كان النبي صلى الله عليه وسلم كثير الاعتراف لله تعالى على نفسه، فكان يقول: «**اللهمَّ اغفرْ لي ذنبي كُلَّهُ؛ دِقَّهُ، وجِلَّهُ، وأَوَّلَهُ وآخِرَهُ، وعلانيَتَهُ وسِرَّهُ**»[2].

حتى قول: «اللهمَّ اغفرْ لي» فيه معنى الاعتراف على النفس بالذنب والنقص، والاعتراف لله تعالى بأنه هو الغفور الرحيم.

ونقيض الاعتراف: الإنكار والجحود؛ فالذنب الذي كفر به إبليس هو الجحود؛ فإبليس يعرف ربه، ويدعوه ويحلف به، كما قال تعالى: ﴿□ □ □ □ □﴾ [ص: 82]، ويعرف البعث: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦﴾ [الحجر: 36]، ولكن ذنبه الجحود والاستكبار عن الطاعة والعبادة، وهكذا قال عز وجل عن فرعون وقومه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ﴾ [النمل: 14].

فإذا قال العبد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تبرَّأ من هذا كله، وكأن أول ما تدل عليه الكلمة: أن العبد وهو واقف يقول: أعترف بأنني عبد محتاج، فقير، ذليل،

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (1/ 48)، و«معاني القرآن» للنحاس (1/ 64)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص543)، و«تاج العروس» (8/ 340) «ع ب د».

(2) أخرجه مسلم (483) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مقصِّر، وأنك الله ربي المنعم المتفضِّل، فهذا فيه معنى الحمد، إذ إن العبد يحمد ربه على فضله عليه في دينه ودنياه.

* ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾:

في هذه الآية أعظم المعاني؛ وهو الإقرار بالعبودية، وهو أصل التوحيد، الذي بُعث به الرسل: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ﴾ [هود: 26].

والشرك في الألوهية أخطر ألوان الشرك الذي بُليت به الأمم؛ لأن الاعتراف بالله خالقًا ورازقًا أمر تقر به الفطر والنفوس، وإن كان يحتاج إلى ترسيخ وتذكير؛ لأنه يستلزم الإيمان بالألوهية وصرف العبادة لله.

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾: تقديم الضمير إشارة إلى التخصيص؛ يعني: لا نعبد إِلَّا إياك، ففيها حصر وقصر[1].

﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾: إثبات الاستعانة بالله، ونفي الاستعانة بمَن سواه، فلا نطلب إلا عونك؛ ولا نستعين بغيرك، ولا نستغني عن فضلك، فمن الناس مَن يستعين بغير الله، ومنهم مَن يستعين بالله وبغيره[2].

وهذه الآية التي بين الله وبين عبده، فمن العبد الدعاء والعبودية، ومن الله العون والقوة، حتى على العبادة، إذ ليس للعبد قدرة على تحول أو فعل إلا إذا استمد من ربه واعتصم به، ولهذا كان من قول أهل الجنة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف: 43].

* ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾:

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (1/ 183).

(2) ينظر: «تفسير السمعاني» (1/ 37)، و«تفسير البغوي» (1/ 75)، و«تفسير القرطبي» (1/ 94)، و«روح المعاني» (1/ 50)، و«التحرير والتنوير» (1/ 186).

من معانيها:

1- ثبِّتنا حتى لا ننحرف أو نزيغ؛ لأن الإنسانَ يكون اليوم مهتديًا، وغدًا من الضالين، أي: ثبِّتنا على الصراط المستقيم.

2- قوِّ هدايتنا؛ فالهداية درجات، والمهتدون طبقات؛ منهم مَن يبلغ درجة الصِّدِّيقيَّة، ومنهم مَن يكون في أدنى درجات الإسلام، وبحسب ذلك تكون منازلهم في الجنة، وبحسب هدايتهم يكون سيرهم على الصراط؛ فإن لله تعالى صراطين: صراطًا في الدنيا، وصراطًا في الآخرة، والأمن على الصراط الأخروي، هو بقدر الاستقامة على الصراط الدنيوي.

والصراط الدنيوي هو: طريق الله سبحانه، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا﴾ [الشورى: 52- 53]، وقوله: ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢﴾ [الفتح: 2]، وهو بطاعة الله فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه.

وصراط الآخرة هو: الجِسر المنصوب على جهنم، وهو دَحْض مَزَلَّة، يمشي الناسُ فيه بقدر أعمالهم: فمنهم مَن يمرُّ كطَرْف العين، ومنهم مَن يمرُّ كالبَرْق، ومنهم مَن يمرُّ كالرِّيح، ومنهم مَن يمرُّ كالطَّير، ومنهم مَن يمرُّ كأَجَاويد الخيل والرِّكاب، ومنهم مَن يمشي تارة ويعثر أخرى[1].

وعليه فالمعنى: زِدْ إيماننا وعلِّمنا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه: 114]؛ فالعلم من الإيمان، وكلما ازداد العبد التزامًا بالصراط المستقيم، ازداد علمه، كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾ [التوبة:

(1) ينظر: «مسند أحمد» (11200)، و«صحيح البخاري» (7439)، و«صحيح مسلم» (183، 195)، و«رؤية الله» للدارقطني.

124]؛ فزيادة الإيمان هي زيادة ثبات على الصراط المستقيم؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى﴾ [محمد: 17]؛ وكقوله عن أصحاب الكهف: ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمًا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ [الكهف: 13].

وقد كتب الإمام الهروي «منازل السائرين إلى الحقِّ المبين»، ثم شرحه ابن القيم في «مدارج السالكين»، وهو تفصيل لمنازل الناس ومقاماتهم في سلوكهم إلى رب العالمين، فأعظم الهداية هي الهداية إلى الله، وحسن فهم أسمائه وصفاته والقرب منه، ودوام المناجاة، والسلامة من الجهل به، أو الغفلة عنه، أو نسبة ما لا يليق به إليه.

3- جَدِّد هدايتنا؛ إذ إن معنى الصراط المستقيم: أن يفعل العبد في كل وقت ما أُمر به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولا يفعل ما نُهي عنه.

وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ويعمل ما أُمر به في ذلك الوقت وما نُهي عنه، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور، وكراهة جازمة لترك المحظور، فهذا العلم المُفَصَّل والإرادة المُفَصَّلة لا يتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد، بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله سبحانه في قلبه من العلوم والإرادات ما يهتدي به في ذلك الصراط المستقيم[1].

وبصفة عامة، فالعبد يحتاج إلى هذه الهداية في جميع ما يأتي ويذر:

- من أمور قد أتاها على غير الهداية، فهو يحتاج إلى التوبة منها.

- وأمور هُدي إلى أصلها دون تفصيلها، أو هُدي إليها من وجه دون وجه، فهو يحتاج إلى إتمام الهداية فيها؛ ليزداد هدىً.

- وأمور هو يحتاج إلى أن يحصل له من الهداية فيها بالمستقبل مثل ما حصل له في الماضي.

---

(1) ينظر: «مجموع الفتاوى» (14/ 37).

- وأمور هو خال عن اعتقاد فيها، فهو يحتاج إلى الهداية فيها.

- وأمور لم يفعلها، فهو يحتاج إلى فعلها على وجه الهداية.

- وأمور قد هُدي إلى الاعتقاد الحق والعمل الصواب فيها، فهو محتاج إلى الثبات عليها.. إلى غير ذلك من أنواع الهدايات، فلما كان العبد محتاجًا إلى هذا كله، فرض الله سبحانه عليه أن يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله مرات متعدِّدة في اليوم والليلة[1].

ولتحقيق الهداية لا بد من:

1- معرفة الموقف الصحيح، وماذا يريد الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم منه في هذه المسألة، وما هو الصواب والأصح له في هذه القضية.

2- العمل وفق هذه الرؤية، ولا عمل دون وجود إيمان قوي في قلب العبد يحدوه إلى ذلك.

فحين يتلو العبد هذا الدعاء، فهو ينادي ربه قائلًا: يا ربنا، دُلَّنا على ما تحب وترضى في كل ما يواجهنا من أمور الحياة، ثم قوِّنا وأعنَّا على العمل بهذا الذي عرفناه، والذي دللتنا عليه وعلَّمتنا إياه.

وسر الانحراف يرجع إلى فقد أحد هذين الأمرين: العلم والعمل، والوقوع في ضدهما، وهما:

1- **الجهل**: فإن الإنسان قد توجد عنده الرغبة في عمل الخير، ولكن يجهل الطريقة لتحصيله، فيسلك طرقًا غير موصِّلة، ويجهد نفسه فيها بغير طائل، وكم من إنسان يسير بسرعة هائلة نحو هدفه، فيكتشف في نهاية المطاف أنه كان يسير في الاتجاه المعاكس، وأنه كان يسرع ويمعن في البعد عن ذلك الهدف!

(1) ينظر: «الصلاة» لابن القيم (ص144- 145).

وكم من المسلمين مَن يجتهد ويتعب في أعمال غير مشروعة، وهو يظن أنه ممن يُحسنون صنعًا، وذلك بسبب قلة العلم، فهو يسأل ربه ألَّا يبقى في ضلال الجهل متخبِّطًا على غير بصيرة.

2- **الهوى**: فقد يرتفع الجهل ويكون الإنسان عالمًا، ولكن ليس لديه العزيمة التي تجعله ينبعث للعمل، فيترك الواجب أو يرتكب المحرَّم عامدًا مع علمه بالحكم؛ لضعف الإيمان، وغلبة الشهوة وتعجل المتعة الدنيوية.

* ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾:

هذا تأكيد للمعنى السابق وتفصيل له؛ لأن القرآن مثاني، يُعاد معناه مرة بعد أخرى[1].

ونسب الصراط للذين حازوا الهداية التامة ممن أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا، فهم الذين سلكوه ولزموه وماتوا عليه، ومَن سلكه من بعدهم فقد تأسَّى بهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: 90].

﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾: **والمغضوب عليهم**: هم الذين عرفوا الحقَّ وتركوه، قال الله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ﴾ [المائدة: 60]،

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (14/ 112)، و«الكشاف» (2/ 587)، (4/ 123)، و«تفسير ابن عرفة» (3/ 388)، و«فتح القدير» (3/ 170)، و«روح المعاني» (7/ 321)، و«التحرير والتنوير» (1/ 135)، (23/ 386).

ومنهم اليهود الذين عرفوا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، كما في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه مرفوعًا: «**اليهودُ مغضوبٌ عليهم، والنصارى ضالونَ**»[1].

ولكن الغضب ليس محصورًا في اليهود؛ فقد قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ** ﴾ [النساء: 93].

وقال صلى الله عليه وسلم: «**مَن حلف على يمينِ صبرٍ**[2]؛ **يقتطعُ بها مالَ امرئ مسلم، هو فيها فاجرٌ، لقي اللهَ وهو عليه غضبانُ**»[3].

وفي قصة الثلاثة من بني إسرائيل: الأبرص والأقرع والأعمى، قال: «**إن اللهَ قد رضي عنك، وسَخِطَ على صاحبيكَ**»[4].

فالمغضوب عليهم لم يهتدوا إلى الصراط المستقيم، بسبب الهوى، فهم يعلمون ولا يعملون.

وقدَّم الله تعالى ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ على ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لأن أمرهم أخطر، وذنبهم أكبر، فإن مَن كان ضلاله بسبب الجهل، فإنه يرتفع بالعلم، وأما إن كان بسبب الهوى، فإنه لا يكاد ينزع عن ضلال.

ولهذا جاء الوعيد الشديد في شأن مَن لا يعمل بعلمه، حتى قال صلى الله عليه وسلم في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما: «**يُجاءُ بالرجل يومَ القيامة، فيُلقى في**

---

(1) أخرجه الطيالسي (1135)، وأحمد (19381)، والترمذي (2953م، 2954)، وابن أبي عاصم في «الأوائل» (158)، وابن خزيمة في «التوحيد» (1/ 381)، وابن حبان (6246، 7206)، والطبراني في «المعجم الكبير» (17/ 98) (236). وينظر: «بيان الوهم والإيهام» (4/ 668- 669)، و«فتح الباري» (8/ 159)، و«السلسلة الصحيحة» (3263).

(2) يمين الصبر: التي يحبس الحالف نفسه عليها.

(3) أخرجه البخاري (2356، 7183، 7445)، ومسلم (138) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(4) أخرجه البخاري (3464)، ومسلم (2964) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

النار، فتَنْدَلِقُ أَقْتابُهُ في النار، فيدورُ كما يدورُ الحمارُ برحاه، فيجتمعُ أهلُ النار عليه، فيقولونَ: أيْ فلانُ، ما شأْنُكَ؟! أليس كنتَ تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟! قال: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»[1].

فهو عالم يعرف المعروف والمنكر، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولكنه لا يعمل؛ ولهذا كان بهذه المثابة من العذاب[2].

أما الضالون: فهم الذين تركوا الحقَّ عن جهل وضلال، وربما طرأ عليهم بعد ذلك العناد والإصرار والتعصب، ومنهم كثير من النصارى الذين كذَّبوا عن جهل وضلال.

ومع أن المثل يُضرب بأهل الكتاب، إلا أنه كما قال حذيفة رضي الله عنه: «نِعْمَ الإخوةُ لكم بنو إسرائيل، إِنْ كانت لكم كلُّ حُلْوَة، ولهم كلُّ مُرَّةٍ، والله لتَسْلُكُنَّ طريقَهم قدر الشِّراك»[3].

فلا يحسن أن يكون سَوق المثل صارفًا عن النظر في هذه الأمة، علماءً وحكامًا ودعاةً وعامةً، أين أصبنا وأين أخطأنا، وأين هُدينا وأين ضللنا، أما تزكية النفس باللسان والإمعان في الحال التي عليها الإنسان دون بصيرة ولا مراجعة ولا تقوى، فليست من خصال المهتدين.

إننا الآن أمام ثلاث طرق:

---

(1) أخرجه البخاري (3267)، ومسلم (2989).

(2) ينظر التعليق على «مختصر صحيح مسلم للمنذري» للمؤلِّف (1237).

(3) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (2/ 20)، والمروزي في «السنة» (65)، والطبري في «تفسيره» (8/ 459)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (4/ 1143)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (2/ 737) (1012)، والحاكم (2/ 312)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (3/ 50)، (4/ 179).

الأول: الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وطريقتهم مشتملة على العلم بالحق والعمل به، يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الصف: 9].

الثاني: طريق المغضوب عليهم، مَن يعرفون الحق ولا يعملون به.

الثالث: طريق الضالين الذين يعملون بغير علم، ولهذا قال سفيان بن عُيينة رحمه الله: «مَن فسد من علمائنا، ففيه شبهٌ من اليهود، ومَن فسد من عُبَّادنا، ففيه شبهٌ من النصارى»[1].

ونحن في كل قراءة للفاتحة نسأل الله أن يسلك بنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، وأن يجيرنا من طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين، وفي كل مرة يحدث لنا تدبُّر جديد، يناسب الحال التي نحن عليها وما يطرأ من تحولات، ولكل حال هداية تختلف عن غيرها، وما يزال الحي متنقِّلًا بين الغنى والفقر، والصحة والمرض، والقوة والضعف، والشباب والشيخوخة.. وفي كل مرة هو يسأل ربه الهداية الملائمة لحاله.

❍ ❍ ❍

(1) ينظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (1/ 79)، و«مجموع الفتاوى» (1/ 197)، (13/ 100)، (16/ 567)، و«إغاثة اللهفان» (1/ 24)، و«بدائع الفوائد» (2/ 32)، و«تفسير ابن كثير» (4/ 138)، و«البداية والنهاية» (14/ 821)، (19/ 42).

سورة الحجرات

* «**سورة الحُجُرات**»: هي أول «حزب المُفَصَّل»، **وقيل**: أوله: «**سورة** ﴿قٓ﴾»- في عشرة أقوال- إلى نهاية «**سورة**: ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنْ﴾»[1].

* وسُمِّي: مُفَصَّلًا؛ لكثرة الفصل بين سُوره بالبسملة، **وقيل**: لقصر أعداد سُوره من الآي، **وقيل**: لقلة المنسوخ فيه[2].

*** تسمية السورة:**

اسمها المشهور، ولا تُعرف إلا به: «**سورة الحُجُرات**»[3]. وهي لحُجُرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم.

* **عدد آياتها**: ثماني عشرة آية عند جميعهم[4].

* **وهي مدنية** عند جميع العلماء، سوى قولٍ شاذٍّ لا يُعتدُّ به[1].

---

(1) ينظر: «تفسير ابن كثير» (7/ 392- 393)، و«فتح الباري» (2/ 249، 259)، و«البرهان في علوم القرآن» (1/ 245)، و«الإتقان» (1/ 221)، و«تفسير سور المُفَصَّل» لعبد الله كنُّون، والمصادر الآتية.

(2) ينظر: «شرح صحيح البخارى» لابن بطال (2/ 393)، و«المفهم» (2/ 455)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (6/ 106- 107)، و«التوضيح» لابن الملقن (24/ 142)، و«فتح الباري» (2/ 259)، و«تاج العروس» (30/ 167- 168) «ف ص ل»، و«مباحث في علوم القرآن» لصبحي الصالح (ص146)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص610)، و«تفسير الطبري» (21/ 335)، و«المحرر الوجيز» (5/ 144)، و«تفسير القرطبي» (16/ 300)، و«التحرير والتنوير» (26/ 213).

(4) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص230)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (2/ 581)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 545).

وهي سورة نبؤها عجيب، **وموضوعها**: تهذيب الأخلاق، وترسيخ الفضائل والقيم، بدءًا بالأخلاق مع الله سبحانه وتعالى، ومع الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم أخلاق المسلمين مع أنفسهم، ثم مع أعدائهم وخصومهم، ثم تكريس المبدأ العام في المساواة والتكافؤ، وأنه ليس بين الناس فرق إلا بالتقوى(2).

وهي تعكس طبيعة المجتمع النبوي في مرحلته الأخيرة؛ حيث التمايز الواضح بين الصحابة السابقين رضي الله عنهم، كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليٍّ، من الذين هذَّبهم الإيمان ورسخ في قلوبهم، وأرادوا اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، وبين مجموعات أخرى من العرب هم حُدثاء عهد بإسلام، ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم؛ لأنهم دخلوا رغبة ورهبة حين رأَوْا أمر الإسلام قد استتبَّ واستوثق.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١﴾:

تكرَّر الخطاب بوصف الإيمان خمس مرات في السورة، في حين أن النداء بـ﴿أَيْمَٰنُكُمْۚ﴾ ورد مرة واحدة، ومثل هذا الخطاب نادر في سورة مدنية، والغالب أن ﴿أَيْمَٰنُكُمْۚ﴾ في القرآن المكي؛ لأنه خطاب عام، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في القرآن المدني(3).

بدأ تعالى باستثارة إيمانهم الذي هو أعظم أعمالهم وأفضلها، وهو الذي تُبنى عليه الشرائع والأحكام والأوامر: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ أي: لا تقترحوا على الله

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 212)، و«زاد المسير» (4/ 141)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (3/ 5)، و«الإتقان» (1/ 49)، و«روح المعاني» (13/ 284)، والمصادر السابقة.

(2) كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «**أَلَا لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا أحمرَ على أسودَ، ولا أسودَ على أحمرَ، إلَّا بالتقوى**». وسيأتي تخريجه آخر السورة.

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (3/ 409)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (3/ 1551)، و«تفسير الماوردي» (4/ 5)، و«الكشاف» (1/ 89)، و«المحرر الوجيز» (1/ 105).

ورسوله أمرًا تسبقون به ما يأتي من الله تعالى، أو من رسوله صلى الله عليه وسلم، فالمقصود بالتقديم أو التقدُّم هنا: الاستعجال[1].

وقيل: إن الآية نزلت في الذين يذبحون الأُضحية قبل صلاة العيد[2].

وقيل: نزلت في الذين يصومون يوم الشَّكِّ قبل رمضان، أن لا يصوموا قبل أن يصوم نبيُّهم صلى الله عليه وسلم[3].

فهذا نموذج للتقديم، والواجب على المؤمنين أَلَّا يسابقوا هَدْي الرسول صلى الله عليه وسلم، أو يأتوا بشيء لم يأت به، ولو على سبيل الاحتياط، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة»[4]؛ لأن الزيادة والنقص كلاهما خطأ.

وفي قراءة بفتح التاء والدال: ﴿لَا تَقَدَّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[5]، وهي تحمل المعنى ذاته[6].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص610)، و«تفسير مقاتل» (1/ 459)، (4/ 89)، و«تفسير الماوردي» (5/ 325)، و«زاد المسير» (4/ 141– 142)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 364)، و«اللباب في علوم الكتاب» (17/ 521)، و«التحرير والتنوير» (26/ 218)، والمصادر السابقة والآتية.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 336)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 31)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 322)، و«تفسير السمعاني» (5/ 212)، و«روح المعاني» (13/ 286)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 322)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 150)، و«تفسير البغوي» (4/ 252)، و«المحرر الوجيز» (5/ 144)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 335)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 69)، و«زاد المسير» (4/ 142)، و«الإتقان» (2/ 43)، والمصادر السابقة.

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 337)، و«معاني القرآن» للأزهري (3/ 24)، و«المبسوط في القراءات العشر» (ص412)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 375)، و«تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص562)، و«معجم القراءات» (9/ 75).

(6) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 31)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 339)، و«المحرر الوجيز» (5/ 144)، و«تفسير الرازي» (28/ 92)، والمصادر السابقة.

وقيل: نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما- وهو الأشهر من أسباب النزول- أنه قدم رَكْبُ بني تَميم على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر: أَمِّر القعقاعَ بنَ مَعْبد. وقال عمرُ: بل أَمِّر الأَقْرعَ بنَ حابس. فقال أبو بكر: ما أردتَ إلَّا خلافي! قال عمرُ: ما أردتُ خلافكَ. فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...﴾ إلى قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ٣﴾[1].

فقد نهاهم عن الاقتراح قبل أن يسألوا، وإلا فإن المشورة قائمة، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم كان يستشير أصحابه؛ حتى قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيتُ أحدًا قطُّ كان أكثرَ مشاورةً لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم»[2].

وقد استشارهم صلى الله عليه وسلم يوم بدر وأُحد والخندق وغيرها[3].

---

(1) أخرجه البخاري (4367، 4845، 4847، 7302). وينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص385)، و«المحرر الوجيز» (5/ 145)، و«فتح الباري» (8/ 591).

(2) أخرجه الشافعي في «الأم» (7/ 100)، وفي «المسند» (ص277)، وعبد الرزاق (9720)، وأحمد (18928)، وابن المنذر في «الأوسط» (11/ 293)، والطبري (21/ 296)، وابن أبي حاتم (3/ 801)، وابن حبان (4872)، والبيهقي (7/ 73)، (9/ 366)، (10/ 186)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (2/ 391).

وفي إسناده انقطاع، وأصله في «صحيح البخاري» (2711، 4180)، وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (1/ 233- 235)، و«فتح الباري» (5/ 334)، (13/ 340).

وأخرجه أبو الشيخ في «أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم» (763) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(3) ينظر: «مسند أحمد» (14787)، و«صحيح البخاري» (4757)، و«صحيح مسلم» (1763)، و«تفسير الطبري» (6/ 188- 190)، و«تاريخ الطبري» (2/ 440)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (3/ 801)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (3/ 35)، و«زاد المعاد» (3/ 240- 243)، و«البداية والنهاية» (5/ 81)، و«الدر المنثور» (4/ 87- 89)، و«مرويات غزوة الخندق» (ص200- 203)، و«مع المصطفى صلى الله عليه وسلم» للمؤلِّف (ص63- 70).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾: فهذا الأدب من كمال التقوى، والسورة اعتنت بالتقوى، ودارت عليها موضوعاتها؛ ومجمل الأوامر والنواهي في السورة إنما هي على سبيل الأخلاق، دون الجزم بحلال أو حرام، فإذا كان قلب الإنسان تقيًّا فالغالب أنه يُميِّز بين الخطأ والصواب، بخلاف ما إذا كان مغلَّفًا أو فاجرًا، فإنه قد يقدم على أشياء واضحة المنع، وقد يتأوَّل، ويلتمس العذر لنفسه!

ولأن معظم ما تقدَّموا به كان أقوالًا ومقترحات لفظية قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع أقوالكم، ﴿عَلِيمٞ﴾ يعلم مقاصدكم ونياتكم.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾:

قد يكون هذا نهيًا عما حدث من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما- كما في الحديث السابق[1]- **فالمقصود**: رفع الصوت فوق ما يُحتاج إليه أو أكثر مما جرت به العادة، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم كان لا يرفع صوته إلا بقدر الحاجة، ففي ذلك نهي عن المبالغة في رفع الصوت مما لا حاجة إليه، أما إذا كان ثَمَّ حاجة، مثل رفع المؤذِّن صوته بالأذان، أو الخطيب، أو المُبلِّغ، أو ما أشبه ذلك، فهذا غير داخل في النهي، وهو نهي عن حالة خاصة بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم.

ويدخل في النهي: كثرة الكلام بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم، دون مراعاة حاجاته وأوقات راحته ونومه، فهو بشر يحتاج إلى أن يخلو للعبادة، وإلى أن يخلو

(1) وفي بعض رواياته: «فأنزلَ اللهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ...﴾.

بأهله، وإلى أن يخلو للراحة، وكل أحد لا يرى إلا قضاء حاجته، ولذا أُمروا أن يتصدَّقوا قبل مناجاته، كما سيأتي في «سورة المجادلة»[1].

وكان الصحابة رضي الله عنهم يقتصرون على القدر الضروري من الصوت ومن الكلام، حتى إن عمرَ رضي الله عنه بعد نزول هذه الآية كان إذا حدَّثَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بحديث حدَّثه كأخي السِّرار[2]، لم يُسْمِعْهُ حتى يستفهمه[3]، ورُوي أن أبا بكر رضي الله عنه كان يفعل هذا أيضًا[4].

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أي: لا تخاطبوه بالأسلوب الذي يخاطب به بعضُكم بعضًا، كما قال سبحانه: ﴿إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ⟨٢⟩﴾ [النور: 63].

ويدخل في النهي: مناداته باسمه المجرد: يا محمد، ويدخل فيه الجفاء ورفع الصوت.

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة المجادلة»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾.

(2) أي: كصاحب السِّرار، أو كمثل المساررة لخفض صوته، يعني: كالمناجي سرًّا.

(3) كما في «صحيح البخاري»، وهو حديث تماري أبي بكر وعمر رضي الله عنهما المتقدِّم، وينظر: «فتح الباري» (8/ 590- 591).

(4) أخرجه الحارث (957- بغية)، والبزار (56)، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (2/ 668)، وابن عدي (2/ 803)، والحاكم (3/ 74) من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

وأخرجه الحاكم (2/ 462)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (ص379)، وفي «شعب الإيمان» (1431)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (2371) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه لما نزلت: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ قال أبو بكر: «والذي بعثك بالحقِّ، لا أكلِّمك بعد هذا إلا كأخي السِّرار». وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (3/ 326- 327)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 365- 366)، و«مختصر تلخيص الذهبي للمستدرك» لابن الملقن (3/ 1191- 1193).

﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾: **حبوط العمل**: ذهابه[1]؛ وذلك أن العرب تقول للناقة إذا أكلت النباتات السُميَّة ثم انتفخ بطنها وماتت: «حَبِطَتْ الناقةَ»[2].

ويشهد لهذا المعنى: قوله صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ كلَّ ما يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقتلُ حَبَطًا أو يُلِمُّ، إلَّا آكِلَةَ الخَضِرِ، أَكَلَتْ، حتى إذا امتلأَتْ خاصرَتَاها استقبلتِ الشمسَ، ثَلَطَتْ أو بَالَتْ، ثم اجترَّتْ، فعادت فأَكَلَتْ**»[3].

وفيه تخويف لَمن عمل صالحًا أن يقع في موبقات أو كبائر تحبط عمله، وهذا الأمر قد يقع شيئًا فشيئًا دون أن يشعر بذلك صاحبه، فهي حالة غفلة ترين على القلب ثم تتطوَّر وتكبر حتى تُحبط العمل[4].

وقد ذكر البخاري قصة ثابت بن قيس بن شَمَّاس رضي الله عنه، وكان خطيب الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وكان جهوري الصوت، فلما نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ...﴾ جلس ثابت في بيته، وقال: أنا من أهل النار. واحتبس عن النبي صلى الله عليه وسلم، فسأل النبيُّ صلى الله عليه وسلم سعدَ بنَ معاذ، فقال: «**يا أبا عَمرٍو، ما شأنُ ثابت؟ اشْتَكَى؟**». قال سعدٌ: إنه

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 342)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 324)، و«تفسير الماوردي» (5/ 327)، و«الكشاف» (4/ 354)، و«تفسير الرازي» (28/ 94).

(2) ينظر: «تأويل مشكل القرآن» (ص303)، و«لسان العرب» (1/ 58)، و«تاج العروس» (19/ 192) «ح ب ط».

(3) أخرجه البخاري (1465، 2842)، ومسلم (1052) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(4) قال النووي: «معناه: أن نبات الرَّبيع وخَضِره يقتل حَبَطًا بالتُّخَمة لكثرة الأكل أو يقارب القتل، إلا إذا اقتصر منه على اليسير الذي تدعو إليه الحاجة وتحصل به الكفاية المقتصدة، فإنه لا يضر، وهكذا المال هو كنبات الرَّبيع مستحسن تطلبه النفوس وتميل إليه، فمنهم مَن يستكثر منه ويستغرق فيه، غير صارف له في وجوهه، فهذا يهلكه أو يقارب إهلاكه، ومنهم مَن يقتصد فيه فلا يأخذ إلا يسيرًا، وإن أخذ كثيرًا فرَّقه في وجوهه، كما تَثْلِطُهُ الدابة، فهذا لا يضره». ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (7/ 142)، و«فتح الباري» (11/ 247- 248).

لجاري، وما علمتُ له بشكوَى. قال: فأتاه سعدٌ، فذكرَ له قولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ثابتٌ: أُنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتًا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعدٌ للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**بل هو من أهل الجنة**»[1].

هذا حال القلوب المرهفة التي تتفقَّد إيمانها، وتخاف عليه الحبوط، بمجرد سماعها تحذيرًا ليس فيه تصريحٌ بحبوط إيمان أحدٍ بشخصه، ولو غيرهم سمعه لقال: إن المقصود بذلك غيري، وكيف أكون أنا المقصود وقد عملتُ كذا وكذا... ثم يسترسل في استذكار أعماله التي يراها صالحة!

* ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾:

ثناءٌ على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وإشادة بموقفهما واستجابتهما السريعة بغض أصواتهما بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: اختبر الله قلوبهم- وهو أعلم- فوجدها صالحة مستعدَّة مؤهَّلة، فغرس فيها التقوى واليقظة والحياة[3].

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: **فالمغفرة** هي: الصفح عن الذنوب والأخطاء، وأما **الأجر العظيم** فهو: الثواب، فكفَّر الله تعالى عنهم سيئاتهم، وتقبَّل منهم حسناتهم

---

(1) أخرجه البخاري (3613، 4846)، ومسلم (119) من حديث أنس رضي الله عنه.

(2) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 6989)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 345)، و«زاد المسير» (4/ 143- 144)، و«تفسير القرطبي» (16/ 308)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 508)، و«التحرير والتنوير» (26/ 222).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 343)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 73)، و«تفسير السمعاني» (5/ 215)، والمصادر السابقة.

وضاعفها لهم: ﴿ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾ ﴾ [الزمر: 35](1).

وقد صار ما أمرت به الآية الكريمة خُلُقًا عند المسلمين في غضِّ الصوت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعدم الصَّخَب أو رفع الصوت بحضرته، حتى بعد وفاته صلى الله عليه وسلم عند قبره، كما في «صحيح البخاري»، أن عمر رضي الله عنه وجد رجلين يرفعان أصواتَهما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاهما، فقال: «مَن أين أنتما؟». قالا: من أهل الطائف. قال: «لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما؛ ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم!»(2). فعذرهما؛ لأنهما غريبين عن المدينة.

وكره العلماء رفع الصوت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم، وكان مالك رحمه الله إمام دار الهجرة لا يرضى لأحد أن يرفع صوته في مسجده صلى الله عليه وسلم(3).

ويُؤخذ من هذا أن على المسلم أن يستحضر هذا الأدب الرَّفيع إذا كان قريبًا من الحجرة النبوية، أما زجر الناس ودفعهم بالأيدي- ولو على سبيل الإنكار- وما أشبه ذلك، فهذا لا يليق بمثل هذا المقام، وينبغي أَلَّا يقف في مثل هذا المقام إلا المؤهَّل علمًا وخُلُقًا.

* ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 90)، و«تفسير الطبري» (21/ 344)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 324)، و«تفسير الرازي» (28/ 95)، والمصادر السابقة.

(2) أخرجه البخاري (470).

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 145)، و«الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (2/ 41)، و«ترتيب المدارك» (2/ 101)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 368)، و«إمتاع الأسماع» (14/ 616)، و«الخصائص الكبرى» (2/ 445)، و«سبل الهدى والرشاد» (11/ 439).

لعل نزول الآية كان بسبب وفد بني تَمِيم حين قدموا إلى المدينة النبوية، قيل: كانوا تسعين أو ثمانين رجلًا، ومعهم: عُيينة بن حِصن، والأَقْرع بن حابس، وقيس بن عاصم، والقَعْقاع بن مَعْبد، ومعهم سادة وأئمة، وكانت فئة منهم محدودة ذات جفاء وغلظة بطبيعتها؛ لأنها عاشت في الصحراء، ولم تتعلَّم آداب الإسلام، فأحدثوا قدرًا من الفوضى في المدينة، ودخلوا المسجد، ثم قال قائلهم: اخرُجْ إلينا يا محمدُ، فإن مدحَنا زَيْنٌ وذمَّنا شَيْنٌ. فخرج صلى الله عليه وسلم، وقال: «**إنما ذلكم اللهُ**»[1]. يعني أنهم عظَّموا أنفسهم بهذه المقالة بما لا يليق بالبشر[2].

والحُجُرات المذكورة جمع: حجرة، وهي بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت تسع حُجُرات متلاصقة صغيرة متواضعة.

ودخل الحسن البصري رحمه الله هذه الحُجُرات، فكان يلمس سقفها بيده[3]، وكانت موجودة إلى العهد الأُموي، وأمر الوليد بهدمها، فلم يُرَ في المدينة أكثر باكيًا

---

(1) أخرجه أحمد (15991، 27203)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (1178)، والطبري (21/ 346)، والطبراني في «الكبير» (878)، والضياء (4/ 321) (1500– 1503) من حديث الأَقْرع بن حابس رضي الله عنه، أنه نادى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات، فقال: يا رسولَ الله. فلم يجبه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسولَ الله، أَلَا إن حمدي زَيْنٌ، وإن ذمِّي شَيْنٌ.

وأخرج الترمذي (3267)، والنسائي في «الكبرى» (11451)، والرُّوياني (307)، والطبري (21/ 345) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: قام رجلٌ... نحوه.

(2) وقيل في سبب نزول الآية أقوال أخرى. ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 345– 346)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 324)، و«تفسير الماوردي» (5/ 327)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص387– 388)، و«المحرر الوجيز» (5/ 146)، و«زاد المسير» (4/ 144)، و«تفسير القرطبي» (16/ 309)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 369)، و«التحرير والتنوير» (26/ 225).

(3) ينظر: «طبقات ابن سعد» (1/ 431)، و«الأدب المفرد» (450)، و«المراسيل» لأبي داود (497)، و«قصر الأمل» لابن أبي الدنيا (245)، و«شعب الإيمان» (10249).

من يومئذٍ، وقال الناس: يا ليت الوليد ترك هذه الحُجُرات؛ حتى يعلم الناس كيف كان يعيش رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه[1].

وهنا مأخذ لطيف، وهو أن الأماكن المقدَّسة كلما كانت أقرب إلى الطبيعة وأبعد عن التكلُّف في العمران والمواد والبُسط والأثاث وسواه؛ كان أدعى إلى إحياء القيم الروحانية، فهي ليست مدنًا اقتصادية تفتخر بالتشييد والمعمار والزخرفة والشموخ، بل مواضع للخشوع والسكون والقرب من الله؛ ولذا ورد النهي عن تشييد المساجد وزخرفتها[2].

لقد كانت حُجراته صلى الله عليه وسلم ضيقة صغيرة؛ وكان صلى الله عليه وسلم إذا صلَّى في حُجرة عائشة رضي الله عنها وهي أمامه إلى قبلته، وأراد السجود غمزها، فقبضت رجليها، فسجد صلى الله عليه وسلم في موضع رجليها، فإذا قام بسطت رجليها، ولم يكن عندهم مصابيح ولا سرج آنذاك لترى هي حال النبي صلى الله عليه وسلم[3].

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: أكثر ذلك الوفد الذي قدم للنبي صلى الله عليه وسلم، ولم يقل: «كلهم»، مع أنه لو قال لم يكن هذا مجافيًا للحال، إذ إن الحكم

---

(1) ينظر: «الروض الأنف» (4/ 271)، و«فتح الباري» (3/ 257)، و«خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى» (2/ 130).

(2) كما عند أبي داود (448)، وأبي يعلى (2454، 2688، 2689)، وابن حبان (1615)، والطبراني في «الكبير» (13000- 13003)، وأبي نعيم في «حلية الأولياء» (7/ 313)، والبيهقي (2/ 615) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «**ما أُمرتُ بتشييد المساجد**».

وصحَّحه جماعة، واختلف في وصله وإرساله. ينظر: «فتح الباري» لابن رجب (3/ 283- 284)، و«فتح الباري» لابن حجر (1/ 540)، و«كتاب الصلاة من شرح بلوغ المرام» (ح256).

(3) كما في «صحيح البخاري» (382، 513، 1209)، و«صحيح مسلم» (512) من حديث عائشة رضي الله عنها.

للغالب، ولكنه بيَّن أنه حكم غالب لا مطلق؛ إذ فيهم العقلاء، ولا يتحمَّل أحدٌ وزر غيره، كما أن عادة الناس أنهم لا ينادون أجمعين، وإنما ينادي بعضُهم.

والمقصود هنا هو العقل التأديبي، عقل الأدب وعقل التهذيب والذوق، ولعله قريب مما يسميه العلماء اليوم بـ«الذكاء الاجتماعي»، أو «الذكاء العاطفي» الذي يعني نجاح الإنسان في علاقته بالآخرين.

وبعض الناس قد يكون عبقريًّا، ولكنه يفتقد هذا النوع من الذَّكاء، فيخسر الناس، وكلما مدَّ حبل الوصال بأحد انقطع عند أول توتر وسوء فهم!

* ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾:

لو أنهم صبروا دون أن ينادوك وانتظروا خروجك إلى الصلاة ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدنيا في تحصيل ما جاؤوا من أجله؛ فإن من المجرَّب أنك حين تُكره إنسانًا على شيء أو تخاطبه وهو مشغول الذهن أو مكدود الخاطر، فإنك لا تحصل على مرادك.

وقد ورد في بعض الروايات أن هؤلاء الذين نادوا الرسولَ صلى الله عليه وسلم قد جاؤوا لإطلاق بعض أسراهم، فأطلقَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعضَهم ولم يُطلق الآخرين، فلو أنهم صبروا لربما أُطلق الجميع، ولكنهم استعجلوا[1].

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: خاتمة عظيمة؛ لأن المقام مقام أخلاق وتربية وتقوى، وليس مقام نكاية ولا وصم أو تعيير أو إلصاق عارٍ لا يزول، بل هو درس في التوقير ومعرفة أقدار الكبار، وتربية الأمة العربية حديثة الإيمان على معاني الأدب والاحترام والتقدير وفهم مراتب الناس.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 348)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 326)، و«تفسير الماوردي» (5/ 328)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 348)، و«زاد المسير» (4/ 145)، و«تفسير الرازي» (28/ 97)، و«تفسير القرطبي» (16/ 310).

وفي هذا تربية للمسلمين على سرعة الرجوع إلى الله، والاعتراف بالذنب، وحثٌّ على تقوية إيمانهم، والترقِّي في مدارج الكمال.

كما أن فيها تنبيهًا للمؤمنين السابقين أن يتعاملوا مع هؤلاء بالصبر؛ لأن بعضهم ربما تأخذه عليهم حَمِيَّة أو غضب، حيث رفعوا أصواتهم، فالرحمة هي أولى ما يُقدَّم في الدعوة، وقد قدَّمها الله تعالى على العلم في قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ [الكهف: 65].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾:

روى أحمد، وغيره عن الحارث بن ضرار الخزاعي رضي الله عنه قال: قدمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاني إلى الإسلام، فدخلتُ فيه، وأقررتُ به، فدعاني إلى الزكاة، فأقررتُ بها، وقلتُ: يا رسولَ الله، أَرْجِعُ إلى قومي، فأدعوهم إلى الإسلام، وأداء الزكاة، فمَن استجابَ لي جمعتُ زكاته، فيرسلُ إليَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رسولًا لِإِبَّانِ كذا وكذا[1] ليأتيكَ ما جمعتُ من الزكاة.

فلما جمع الحارثُ الزكاةَ ممن استجابَ له، وبلغَ الإِبَّانَ الذي أراد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يبعثَ إليه، احتبسَ عليه الرسولُ، فلم يأته، فظنَّ الحارثُ أنه قد حدثَ فيه سَخْطَةٌ من الله عز وجل ورسوله، فدعا بسَرَواتِ قومه[2]، فقال لهم: إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان وقَّتَ لي وقتًا يُرسلُ إليَّ رسولَه ليقبضَ ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله صلى الله عليه وسلم الخُلْفُ، ولا أَرَى حبسَ رسوله إِلَّا من سَخْطَة كانت، فانْطَلِقُوا فنأتيَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم.

---

(1) إبَّان الشيء: وقته.

(2) أي: أشرافهم.

وبعثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الوليدَ بنَ عُقبةَ رضي الله عنه إلى الحارث ليقبضَ ما كان عنده مما جمعَ من الزكاة، فلما أن سارَ الوليدُ حتى بلغَ بعضَ الطريق، فَرِقَ، فرجعَ، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، وقال: يا رسولَ الله، إن الحارثَ منعني الزكاةَ، وأرادَ قتلي. فضربَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم البعثَ إلى الحارث، فأقبلَ الحارثُ بأصحابه إذ استقبلَ البعثَ وفصلَ من المدينة، لقيهم الحارثُ، فقالوا: هذا الحارثُ. فلما غشيهم قال لهم: إلى مَن بُعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولِمَ؟ قالوا: إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان بعثَ إليك الوليدَ بن عُقبةَ، فزعم أنك منعته الزكاةَ، وأردتَ قتلَه. قال: لا، والذي بعث محمدًا بالحقِّ، ما رأيتُه بتَّةً، ولا أتاني. فلما دخل الحارثُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**منعتَ الزكاةَ، وأردتَ قتلَ رسولي؟!**». قال: لا، والذي بعثك بالحقِّ، ما رأيتُه، ولا أتاني، وما أقبلتُ إلا حين احتبسَ عليَّ رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، خشيتُ أن تكونَ كانت سَخْطَةً من الله عز وجل ورسوله. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ إلى هذا المكان: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[1].

---

(1) أخرجه أحمد (18459)، وابن أبي عاصم (2353)، والبغوي في «معجم الصحابة» (2/ 68) (457)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (1/ 177)، والطبراني في «المعجم الكبير» (3395)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (2/ 783) (2081)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص391).

وإسناده ضعيف، وله شواهد ضعيفة. ينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (3/ 332- 334)، و«الإصابة» (2/ 363)، (11/ 340)، و«الدر المنثور» (13/ 545- 549)، و«لباب النقول» (ص180)، و«المحرر في أسباب نزول القرآن» (2/ 917- 919)، و«الاستيعاب في بيان الأسباب» (3/ 272- 278)، و«السلسلة الصحيحة» (3088).

وهل الفاسق هو الوليد بن عُقبة؟ معظم الروايات ترجِّح ذلك، وحكاه بعضهم إجماعًا، ولا يصح، والأسانيد ليست قوية على طريقة المحدِّثين، وكلمة ﴿فَاسِقٌۢ﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعم، ويدخل فيها ما كان سببًا للنزول دخولًا أوليًّا، والله أعلم[1].

ويحتمل أن يكون التوجيه للوليد بن عُقبة بأن لا يقبل خبرًا من أحد غير متحقَّق، إذ ربما قال له قائل: إن هؤلاء القوم يعدُّون لك العُدَّة. وفي سبب نزول هذه الآية أقوال أخرى[2].

والمقصود هنا: مَن ظاهره عدم العدالة، وهو ضد الصادق[3].

وعلى المسلم أن يتمهَّل قبل أن ينقل الأخبار، خاصة عندما يتعلَّق الخبر بشيء مهم، وفي الحديث: «**كفى بالمَرء كذبًا أن يحَدِّثَ بكلِّ ما سَمِعَ**»[4].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص610)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 220)، و«تفسير الطبري» (21/ 348)، و«تفسير الماوردي» (5/ 328)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 348)، و«الكشاف» (4/ 359)، و«المحرر الوجيز» (5/ 146)، و«تفسير القرطبي» (16/ 311)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 371).

(2) ينظر: «الاستيعاب في بيان الأسباب»، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (26/ 233)، و«أضواء البيان» (8/ 300)، والمصادر السابقة.

(4) أخرجه مسلم في «المقدمة» (5)، وأبو داود (4992)، وابن حبان (30)، والحاكم في «المستدرك» (1/ 112)، وفي «المدخل إلى الصحيح» (ص108)، والبيهقي في «الآداب» (297)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (1319) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ورُوي مرسلًا. أخرجه أحمد في «الزهد» (249)، ومسلم في «المقدمة»، وأبو داود (4992)، والبزار (8201).

ورجَّح المرسل غير واحد. ينظر: «غرر الفوائد المجموعة» للرشيد العطار (ص309- 311)، و«الإلزامات والتتبع» (ص130)، و«علل الدارقطني» (5/ 317)، (10/ 275- 276)، و«تعليقات الدارقطني على المجروحين» (ص41)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (1/ 272)، و«الأذكار» (ص583)، و«فتح الباري» (10/ 407)، و«السلسلة الصحيحة» (2025)، و«أحاديث ومرويات في الميزان» لمحمد عمرو عبد اللطيف (ص38- 53- حديث الفينة).

والشائعات تكثر ويتكرر سماعها، حتى يميل المرء بطبعه إلى تصديقها أو اعتقاد أن لها أصلًا، ومع توافر وسائل الاتصال يسهل التناقل جدًّا، ويصبح باستطاعة أي شخص يملك حسابًا في وسائل التواصل الاجتماعي أن ينال خصمه بالإيذاء والافتراء عليه بأغاليط وأكاذيب، يصدِّقها السُّذَّج، ويروِّجها المُغْرِضون[1].

﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾: وفي قراءة: ﴿فَتَثَبَّتُوٓاْ﴾، وكلاهما قراءة سَبْعية[2]، **والمعنى**: التحقق من صدق الأخبار قبل نقلها واعتمادها[3].

وهذه هي الطريقة الصحيحة لنشر الوعي الإعلامي الممحَّص، وحصار الشائعات، وحفظ الأعراض، وإسكات الأشرار المُغْرضين، وحين يشيع هذا الأدب الجميل يتوارى المُغْرِضون والمروِّجون والأَفَّاكون؛ حرصًا على سمعتهم، وخوفًا من افتضاحهم.

﴿أَن تُصِيبُواْ﴾ أي: لئلا تُصيبوا[4].

﴿قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ أي: تنسبوا خبرًا لقوم بغير علم ودون تحقيق وتوثيق[5].

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة التغابن»: ﴿نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا فَأَنكِحُواْ﴾.

(2) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص236)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 251، 376)، و«معجم القراءات» (9/ 79).

(3) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص126)، و«الحجة للقراء السبعة» (3/ 173- 174)، و«حجة القراءات» (ص209).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 353)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 349)، و«تفسير السمعاني» (5/ 217)، و«تفسير الرازي» (28/ 99)، و«تفسير القرطبي» (16/ 312).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 353)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 327)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 6996)، والمصادر السابقة.

﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ بعدما تنكشف الحقيقة، ويُعلم أن الخبر لم يكن صحيحًا، والمؤمن يقع منه الخطأ ثم يندم عليه، فـ«الندم توبة»[1]، وهو علامة إيمان، ويقظة ضمير، ومراجعة ومحاسبة للنفس، والندم ينبغي ألَّا يُفضي إلى اليأس.

* ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾:

تذكير لهم بهذه النعمة العظيمة، نعمة وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم، يعلِّمهم، ويؤدِّبهم، ويدعو لهم، ويصلِّي بهم، ويستغفر لهم.

وهو تذكير ينطوي على الإشارة اللَّطيفة إلى اقتراب أجله؛ فقد نزلت الآية في السنة التاسعة من الهجرة، وبقي النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعدها نحو سنة.

وهي تشبه من هذا الوجه «سورة النصر»: ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ﴾، وما فهمه منها عمر وابن عباس رضي الله عنهما[2].

وفي الآية تذكير بأن الوحي موجود، وأن بعض ما تقترحونه قد يتحول إلى واجب أو إلزام[3]، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «**أعظمُ المسلمينَ في المسلمينَ جُرْمًا: مَن سألَ عن أمر لم يُحَرَّمْ، فحُرِّمَ على الناس من أجل مسألَتِهِ**»[4]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ [المائدة: 101]، فلا تستعجلوا باقتراح الأقوال، وتذكَّروا ﴿أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾.

---

(1) كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه. أخرجه الطيالسي (380)، وأحمد (3568، 4012)، وابن ماجه (4252)، وابن حبان (٦١٢، ٦١٤)، والحاكم (4/ 243).

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة النصر».

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 354)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 329)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 78)، و«تفسير البغوي» (4/ 258)، و«زاد المسير» (4/ 146)، و«تفسير الرازي» (28/ 104).

(4) أخرجه البخاري (7289)، ومسلم (2358).

﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾: **العَنَت**: المشقة والصعوبة[1]، وقد يُطلق على الإثم[2]، فلو أطاعكم صلى الله عليه وسلم في كثير من الأمور لأَعْنَتكم، ومن صفته أنه ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة: 128].

والناس تتفاوت طاقتهم، ويختلف احتمالهم، فرفع اللهُ المشقة والعَنَت، وراعت الشريعة الضعفاء، فكان التيسير ورفع الحرج من مقاصد التشريع، قال سبحانه: ﴿فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النساء: 77]، فلو أطاعكم في كثير من الأمور التي تتمنَّونها أو تقترحونها بسبب عجلتكم أو حماسكم أو عجزكم عن فهم طبائع الناس وأعذارهم؛ لوقع لكم بذلك العَنَت.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ بفضله ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ أي: دعاكم إلى حبِّه وأغراكم به ببيان آثاره العظيمة في الدنيا من الحياة الطيبة، وفي الآخرة من الجنة والرضوان[3]، ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ فأصبحتم تحبون الإيمان، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوةَ الإيمان: مَن كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهُما، ومَن أحبَّ عبدًا لا يحبُّهُ**

---

(1) ينظر: «لسان العرب» (2/ 61)، و«تاج العروس» (5/ 12) «ع ن ت»، والمصادر الآتية.

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 93)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 6996)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 350)، و«تفسير البغوي» (4/ 258)، و«تفسير القرطبي» (16/ 314).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 356)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 34)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 341)، و«تفسير الماوردي» (5/ 329)، و«تفسير الرازي» (28/ 102)، و«تفسير القرطبي» (16/ 314).

إِلَّا لله عز وجل، **ومَن يكرهُ أن يعودَ في الكفر بعدَ إذ أنقذَهُ اللهُ منه، كما يكرهُ أن يُلْقَى في النار**»[1].

وأكثر الناس لا يقع لهم الإيمان دفعة واحدة، بل هو غرس ينمو ويثمر مع الوقت ومع السقي والتعاهد والحماية من عوامل الذُّبول والموت.

والتدرج مهم للترقِّي الصحيح الذي لا يخضع لردود الأفعال والعواطف المؤقتة، والشبهات مع مرور الأيام تنجلي، والطاعات تسهل على العبد؛ لأنه تعوَّد عليها، كالصلوات الخمس، والصوم، حتى لو أخل بها لشعر بنقص؛ لأنها أصبحت جزءًا من حياته، فحبَّب اللهُ سبحانه الإيمان للمؤمنين، وهذا عطاء عظيم أن تكون نفس المرء تحب الخير والطاعة وتكره الشر والمعصية، ولو توفَّر هذا في المؤمن العاكف على معصية لسهل انتقاله عنها وإفلاته منها.

﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾: وهذه ثلاثة أشياء متداخلة؛ الكفر والفُسوق والعصيان، وهي تجتمع في الفعل الواحد، فيكون كفرًا وفُسوقًا ومعصية، كما هو واضح، ولكن حين تجتمع الألفاظ الثلاثة في سياق واحد- كما هنا- فلا بد أن يكون لكل لفظ معنى خاص به:

فالمقصود بالكفر: الخروج من الإسلام، **والفسوق**: ارتكاب الكبائر، من الكذب والسرقة والزِّنا والفواحش التي يصبح المرء فاسقًا إذا أصرَّ عليها ولم يتب منها، **وأما العصيان**: فلعله ما دون ذلك من الصغائر[2].

---

(1) أخرجه البخاري (21)، ومسلم (43) من حديث أنس رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 329)، و«تفسير الرازي» (28/ 102)، و«تفسير القرطبي» (16/ 314)، و«اللباب في علوم الكتاب» (3/ 401)، و«فتح القدير» (5/ 71).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي: أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، وحبَّب إليهم الإيمان، وزيَّنه في قلوبهم، فصاروا هم الراشدين، وكأن الرُّشد صار صفة راسخة في أشخاصهم وسلوكهم وأدبهم، وهذا اللفظ لم يرد في القرآن في غير هذا الموضع بلفظه، فكانت أهميته من ندرته[1].

* ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾:

فهذه الخصائص التي أورثتهم الرُّشد هي فضل الله تعالى تفضَّل عليهم بها، وهي نعمة تستوجب الشكر.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾: يعلم ما انطوت عليه قلوبهم من القابلية والتأهُّل للتقوى، فرزقهم ذلك[2]، وإن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم أطيبها وخيرها، فاختاره للنبوة، ونظر في قلوب الناس، فوجد قلوب أصحابه أقرب القلوب إلى الطاعة والحقِّ، فاختارهم لصحبته، وصاروا هم أتباعه ووزراءه وورثة شريعته ونقلة وحيه والخلفاء من بعده[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 355)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 329)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 350)، و«الكشاف» (4/ 361)، و«زاد المسير» (4/ 146)، و«تفسير الرازي» (28/ 103)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 373).

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (28/ 103)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 514)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 373)، و«اللباب في علوم الكتاب» (17/ 537)، و«فتح القدير» (5/ 71)، و«روح المعاني» (13/ 301)، والمصادر السابقة.

(3) كما قال ابن مسعود رضي الله عنه. أخرجه الطيالسي (243)، وأحمد (3600)، والبزار (1702)، والآجري في «الشريعة» (1144)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (1/ 422).

ورُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «الفروسية» لابن القيم (ص298- 299)، و«العلل المتناهية» (1/ 280)، و«السلسلة الضعيفة» (532، 533).

* ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩﴾:

قصة هذا الآية- كما في «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه- أنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: لو أتيتَ عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ. فانطلقَ إليه، وركب حمارًا، وانطلقَ المسلمونَ، وهي أرضٌ سَبِخَةٌ، فلما أتاه النبيُّ صلى الله عليه وسلم قال: إليك عنِّي، فوالله، لقد آذاني نَتْنُ حمارك. فقال رجلٌ من الأنصار: والله، لحمارُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيبُ ريحًا منك. فغضبَ لعبد الله رجلٌ من قومه، فغضبَ لكل واحد منهما أصحابُه، فكان بينهم ضربٌ بالجَريد وبالأيدي وبالنِّعال.

قال أنس رضي الله عنه: فبلغنا أنها نزلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا...﴾[1].

وذهب كثير من المفسرين إلى أن هذا هو سبب النزول[2].

والحق أن القصة متقدِّمة في أول الهجرة، والسورة متأخرة، إلا أن تكون هذه الآية نزلت قديمًا، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بوضعها في موضعها في السورة.

والأقرب أن الآية نزلت في خلافات وقعت بين الأَوْس والخَزْرج، وكان بينهم ثارات في الجاهلية، وكانت تثور حتى يتضاربوا بالعصي والحجارة وغيرها[3].

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (2691)، و«صحيح مسلم» (1799).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 358)، و«التفسير البسيط» للواحدي (4/ 153)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص392- 393)، و«تفسير البغوي» (4/ 258)، و«المحرر الوجيز» (5/ 148)، و«تفسير القرطبي» (16/ 315)، والمصادر السابقة والآتية.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 358)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 330)، و«تفسير الماوردي» (5/ 330)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (4/ 148)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 374)، و«فتح الباري»

والطائفة هي: الجماعة القليلة[1]، كما قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: 122]، أي: مجموعة قليلة[2]، فهذه إشارة إلى تقليل العدد.

ووصفهم بالإيمان وإن اقتتلوا واختلفوا فيما بينهم، فهذا لا ينفي صفة الإيمان عنهم، فضلًا عن الإسلام؛ وأن المرء يظل مسلمًا حتى لو ارتكب بعض المعاصي والذنوب أو الكبائر، إلا أن يشرك بربه: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ﴾ [النساء: 48].

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾: وهذا يؤكِّد أن الاقتتال حدث في دائرة محدودة قليلة العدد، ولذا أمر جمهورَ المسلمين وعامتهم بالسَّعْي في الصلح بينهم، وليس في الانضمام إليهم وتكثير عددهم.

ومن معنى الصلح: أن يذهب أفراد القبيلة إلى المجموعة المنتسبة إليهم فيسكِّنوهم ويحذِّروهم ويمنعوهم من المضي إلى العناد والقتال، ويحذِّروهم من مغبته؛ لئلا يظنوا أنهم يمثِّلون القبيلة بفعلهم، ومن هنا يتعيَّن وجود رؤوس وأعيان ووجهاء مهمتهم الإصلاح.

وفي زماننا ينبغي أن تقوم مؤسَّسات مختصَّة لرأب الصَّدْع بين المختلفين، وبخاصة ذوي القُربى، فالمهمة الأولى هي الصلح، بوسائط الصلح وأدواته من الحوار

(5/ 299)، و«التحرير والتنوير» (26/ 238)، و«المحرر في أسباب نزول القرآن» (2/ 920- 924)، و«الاستيعاب في بيان الأسباب» (3/ 278- 282)، والمصادر السابقة.

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (2/ 460)، و«معاني القرآن» للنحاس (4/ 497)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص531- 532)، و«لسان العرب» (9/ 226).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (12/ 77)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (6/ 1912)، و«تفسير الماوردي» (2/ 415)، و«تفسير الرازي» (28/ 104)، و«تفسير القرطبي» (8/ 249).

والاحترام والصبر، ومع الصبر يتحقق الإصلاح بإذن الله، خاصة مع وجود الصدق في الصلح، قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ﴾ [النساء: 35].

﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ بأن رفضت الصلح أو نقضته بعد تمامه، أو اعتدت على الطائفة الأخرى[1].

﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى﴾ أي: الفرقة الباغية التي باشرت البغي، ﴿حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وهو الصلح، ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ ورجعت عن بغيها ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾: فذكر الصلح أولًا، ثم أعاده بعد بغي إحداهما على الأخرى وقرنه بالعدل؛ إشارة إلى أن الإصلاح بعد البغي يلزم منه ضمان كل طائفة ما أتلفت على الأخرى، وأن يحكم في ذلك بالعدل والقسط والميزان، وذكر العدل يعني أن بغي إحدى الطائفتين ثم رجوعها لا يعني أن تُظلم ويُجار عليها بحجة ما جرى منها، ما دامت فاءت إلى الحق وقبلت الصلح[2].

وكل بلد بحاجة إلى الصلح العادل، خاصة البلدان المكونة من قبائل متنوعة وطوائف دينية أو مذهبية أو تيارات فكرية، فتحتاج إلى المصالحة فيما بينها؛ وأدًا لنوازع الطائفية والحروب الأهلية.

﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾: فليس الأمر بالعدل محصورًا في طائفتين من المؤمنين اقتتلوا، وإنما أمرنا بالإقساط مطلقًا، فعلى المسلم أن يكون مُقْسِطًا؛ قال النبي

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 357)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 154)، و«زاد المسير» (4/ 148)، و«تفسير القرطبي» (16/ 316).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 360)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 331)، و«تفسير الماوردي» (5/ 331)، و«تفسير البغوي» (4/ 359)، و«تفسير الرازي» (28/ 105)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 516)، و«روح المعاني» (13/ 301)، و«التحرير والتنوير» (26/ 239).

صلى الله عليه وسلم: «**إن المُقْسِطينَ عند الله على منابرَ من نور، عن يمين الرحمن عز وجل- وكلتا يديه يمينٌ-: الذين يَعْدِلُونَ في حُكمهم وأهليهم وما وَلُوا**»[1].

وفي الآية دعوة إلى العدل الذي قامت عليه السماوات والأرض؛ حتى العدل بين الأولاد: «**فاتَّقُوا اللهَ، واعْدِلُوا بين أولادكم**»[2]. وبعض الناس لا يبالي أن يُعطي أبناءه الذكور ما لا يُعطي عشر معشاره لبناته، ولا شك أن هذا من الجَوْر المحرَّم، وهو من كبائر الذنوب.

والعدل قيمة مطلقة، لا استثناء فيها، وليس في العدل صورة تُذَم، لذا يجب العدل حتى مع الأعداء والمخالفين، فبالعدل قامت السماوات والأرض.

* ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾: توكيد وتكريس لمعنى الإخوة الإيمانية؛ ليعم كلَّ مَن تحقَّق له وصف الإيمان، سواءً كان عربيًّا أو أعجميًّا، أو تقيًّا أو مقصِّرًا، كما تشير إليه السورة لاحقًا.

﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، وفي قراءة: ﴿إِخْوَتِكُمْ﴾[3]. أي: بين الفريقين[4]، والمعنى عام، حتى لو كانت الخصومة بين اثنين من الناس، أو بين إخوة أشقاء أو أصدقاء، فالمطلوب السعي في الإصلاح بينهم، وتضييق الفجوة والقطيعة[1].

---

(1) أخرجه مسلم (1827) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(2) أخرجه البخاري (2586، 2587)، ومسلم (1623) من حديث النعمان بن بَشِير رضي الله عنهما.

(3) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص606)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 376)، و«معجم القراءات» (9/ 83).

(4) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص330)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 209)، و«حجة القراءات» (ص675).

ومن اللَّطيف أن الله تعالى قال: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾، فذكر واو الجماعة، ثم قال ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾، ولم يقل: «فأصلحوا بينهم».

والسر في ذلك: أن الجميع يباشرون القتال، أما الصلح فلا يتم بين آحاد الأفراد، وإنما يتم بين الطائفتين من خلال القادة والزعماء الذين يديرون عملية الصلح[2].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: بسبب رغبتكم في الصلح، وتغليب أمر الإيمان الذي يجمع قلوبكم ويقوِّي شوكتكم على عصبية القبيلة والحزب والطائفة والمنطقة.

إن هذه الآيات الكريمات أصل في التعامل مع الخلافات السياسية التي ينجم عنها صراع عسكري بين دولتين أو جماعتين من المسلمين، وضرورة تدخل الأمة المسلمة، لا بنصرة فريق على آخر لمجرد المصالح والأجندات الخاصة، بل لحماية السِّلْم الاجتماعي والاستقرار والأمن، وقطع دابر الحروب والنزاعات بين الأقاليم والقبائل والأحزاب، وتوحيد وجهتها صوب المصالح العامة للوطن، **وهي تنطوي على ثلاث دعوات**:

الأولى: الإصلاح، وهو أساس التدخل بين المتقاتلين بالحجة والإقناع، ومعرفة رؤية كل فريق، وإزالة اللَّبْس، وضمان حسن النية بينهما.

الثانية: قتال الفئة الباغية، لا بقصد إبادتها وإفنائها وقطع دابرها، بل لكف بغيها فحسب.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 363)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 332)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 355)، و«تفسير الرازي» (28/ 106)، و«تفسير القرطبي» (16/ 323)، و«روح المعاني» (13/ 320).

(2) ينظر: «النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام» (4/ 176)، و«تفسير الرازي» (28/ 106)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 135)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (5/ 423)، والمصادر السابقة.

الثالثة: الإصلاح بالعدل بعد فيئة الفئة الباغية والقِسْط وتضامن الحقوق بينهما.

* ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾:

السُّخْرية هي: الازدراء والتنقص لأحد، إما بماله أو بشكله أو بعشيرته أو بقبيلته أو بلونه أو بجنسه[1].

والقوم هنا هم الرجال، كما قال الشاعر[2]:

وما أدري وسَوفَ إِخالُ أَدري *** أَقَومٌ آلُ حِصْنٍ أم نِساءُ؟

واللَّطيف أن الله تعالى قال: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾، والعادة أن السُّخرية تكون من فرد واحد، في حين أن الاستعمال القرآني فيه الإشارة إلى أن السُّخرية ظاهرة اجتماعية مرتبطة بالأجناس والأقوام والشعوب والأمم، وليس مجرد الأفراد!

فجاء الإسلام بهذه القيم الجديدة المعبِّرة عن العدالة واحترام الإنسان بغض النظر عن جنسه ولونه.

ويدخل في النهي: ما تتوارثه الأجيال من ازدراء أهل بلد ووصمهم بالتحقير، وهو شعور متبادل غالبًا، فعوضًا عن تبادل التقدير والتكريم والاحترام بين شعوب العرب والمسلمين والعالم يتناقل الأحفاد عن الأجداد مشاعر التنقص والسُّخرية والوصم بالعيب كالبخل أو الجبن أو رداءة العرض أو رداءة الأصل أو النفاق أو غيره!

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 333)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 105)، و«تفسير السمعاني» (5/ 221)، و«تفسير البغوي» (4/ 261)، و«تفسير الرازي» (28/ 108)، و«تفسير القرطبي» (16/ 324)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 376)، و«التحرير والتنوير» (26/ 247).

(2) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلمى» (ص17).

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾: و﴿عَسَىٰٓ﴾ من الله واجبة[1]، أي: سيكون المسخور منه خيرًا من الساخر، أما بالنسبة للتاريخ فهذا مؤكَّد، أي: مَن نزلت فيهم هذه الآيات فإنهم حُدثاء عهد بإسلام سخروا من السابقين الأولين؛ لأنهم فقراء أو ضعفاء أو غير عرب، حتى إنهم كانوا يأنفون من التعامل معهم، وهذا يجعل المسلم يحذر من مغبَّة السُّخرية بالآخرين، خاصة الضعفاء من العمال والخدم وغيرهم.

ما بيننا عربٌ ولا عجمٌ *** مهلًا يد التقوى هي العُليا

خَلُّوا خيوطَ العنكبوت لِمَن *** هم كالذباب تطايروا عميا

وكذلك في الموقف المنهي عنه، فالساخر آثم بسُخريته، والمسخور منه مأجور بصمته وتركه لهذه المعصية، ومأجور إن علم وصبر وآثر ما عند الله، وهو بهذا خير من الساخر.

﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ﴾: والنساء يدخلن في مسمى القوم في الأصل، ولكن لما ذكرهن على سبيل التخصيص صار الظاهر عدم دخولهن، لإفرادهن بالذكر[2].

وقد ورد أن بعض أمهات المؤمنين سخرت من صفية رضي الله عنها، وقالت: إنها يهودية[3].

---

(1) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (2/ 112)، و«مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (1/ 430)، و«البرهان في علوم القرآن» (4/ 288)، و«الإتقان» (2/ 241)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (2/ 625).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 364)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 333)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 327)، و«تفسير السمعاني» (5/ 222)، و«زاد المسير» (4/ 148- 149)، و«تفسير القرطبي» (16/ 326).

(3) كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: بلغَ صفيةَ أن حفصةَ قالت: بنتُ يهوديٍّ. فبكت، فدخلَ عليها النبيُّ صلى الله عليه وسلم وهي تبكي، فقال: «**ما يُبْكيكِ؟**». فقالت: قالت لي حفصةُ: إني بنتُ يهوديٍّ.

وورد في رواية أخرى وصفها بأنها قصيرة[1]!

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: فلمز أخيك المسلم هو لمز لنفسك، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: 29]، وقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِى تَسَآءَلُونَ﴾ [الهمزة: 1][2].

وفي الهَمْز واللَّمْز كلام كثير للمفسرين والشراح وعلماء اللغة[3]، خلاصته أنه التعبير عن التنقص والازدراء لشخص، إما بكلمات صريحة، أو كلمات خفيَّة، أو بالإشارة بالعين أو باللِّسان واليد.

وهو منهي عنه، سواء كان في وجهه، أو في غيبته، أو لكونه لا يعرف اللغة؛ فليس من المروءة والأخلاق أن ترسل لسانك بالسُّخْرية ممن لا يفهم لغتك.

فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**إنك لابنةُ نبيٍّ، وإن عمَّك لنبيٌّ، وإنك لتحتَ نبيٍّ، ففيمَ تفخرُ عليك؟**». ثم قال: «**اتقي اللهَ يا حفصةُ**».

أخرجه أحمد (12392)، وعبد بن حميد (1248)، والترمذي (٣٨٩٤)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨٧٠)، وأبو يعلى (3437)، وابن حبان (٧٢١١)، والضياء (5/ 172– 175) (1793– 1796).

وأخرج أحمد (25002)، وأبو داود (4602)، وابن ماجه (1973) من حديث عائشة رضي الله عنها، نحوه، وفيه أن زينب بنت جحش رضي الله عنها هي مَن قالت ذلك. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (3205).

(1) كما في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: حَسْبُكَ من صفيةَ كذا وكذا، تعني: قصيرة. فقال صلى الله عليه وسلم: «**لقد قلتِ كلمةً لو مُزِجَتْ بماء البحر لمَزَجَتْه**». أي: لو خُلِطت بماء البحر لغيَّرته وأفسدته.

أخرجه أحمد (٢٥٥٦٠)، وأبو داود (٤٨٧٥)، والترمذي (٢٥٠٢)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (3/ 113)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (٢٠٣).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 366)، و«تفسير الرازي» (28/ 109)، و«تفسير القرطبي» (16/ 327)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 136)، و«تفسير النسفي» (3/ 354)، و«تفسير الخازن» (4/ 181)، و«اللباب في علوم الكتاب» (17/ 547).

(3) وللفرق بين الهَمْز واللَّمز ينظر ما سيأتي في «سورة الهمزة».

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾: **التنابز** هو: التعيير، كما قال الأول[1]:

أُكَنِّيه حين أُناديه لأُكْرِمَهُ *** ولا أُلَقِّبهُ، والسَّوْأةُ اللَّقَبا

واللَّقب هو ما أَشْعَر بمدح أو ذم، فإن أَشْعَر بمدح فلا إشكال فيه، كاللَّقب بوصف يدل على الشجاعة والكرم ونحو ذلك، وإن أَشْعَر بتنقص فلا يجوز، وكانوا في المدينة يفعلون ذلك أول الإسلام، ولما جاء النبيُّ صلى الله عليه وسلم كان كل واحد له اسمان أو ثلاثة، فربما دعاه النبيُّ صلى الله عليه وسلم باسم فقالوا: يا رسولَ الله، إنه يكره أن يُدْعَى به. فنزلت الآية[2].

واليوم صار التنابز بالألقاب شعارًا إعلاميًّا، وتهمًا جاهزة، وتصنيفًا عشوائيًّا، ولمزًا بالانتساب إلى مذهب أو جماعة أو تيار بعلم وبغير علم، واستدعى هذا ولوج العامة والدَّهْماء فيه دون بصيرة، وتحوَّل إلى وشاية وتحريض وحرمان من حقوق الانتساب للوطن أو للمجموعة.. ولا شيء يداوي هذا كتوجيه القرآن بتجنب السُّخرية والغمز والهمز وسوء الظن.

وورد عن جماعة من السلف، كعطاء بن أبي رباح أنه قال في الآية: هي أن يقول الإنسان: يا كافر، يا فاجر، يا فاسق[3].

﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾: فأسوأ ما يكون الأمر حينما تكون الألقاب تنقصًا يُقصد به الحط من قدر أحد، أو إقصاء أحد، أو الحُكم عليه بفسوق أو كفر أو

---

(1) ينظر: «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (ص805)، و«الحماسة البصرية» (2/ 7)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (9/ 140) منسوبًا إلى بعض الفزاريين.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 368)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 327)، و«تفسير الماوردي» (5/ 332)، و«زاد المسير» (4/ 149)، والمصادر الآتية.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 369)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 334)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 358)، و«الكشاف» (4/ 371)، و«فتح القدير» (5/ 76)، والمصادر السابقة والآتية.

فجور أو كذب، ويجتمع الشر كله حينما يجتمع مع التنابز تكفير وسوء ظن وجهل، فهي ﴿أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ﴾ [النور: 40].

فيحذرنا من أن نقع في مثل التنابز بالألقاب والازدراء، فنصبح مستحقِّين للفسوق بسببه بعدما مَنَّ تعالى علينا بالإيمان؛ لذا استهل الآية بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وختمها بـ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ﴾ أي: فأنتم مؤمنون بالله ورسوله، فحاذروا أن يتحوَّل وصف الإيمان إلى وصف الفسوق بسبب السخرية والتنابز[1].

﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: دعاهم إلى التوبة؛ مما يدل على أنه كانت تقع من بعضهم هذه الزلات، وتوعَّد مَن لم يتب بأنه من الظالمين؛ فهو ظالم لنفسه بالمعصية، وظالم لغيره بالتعيير[2].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾:

هذا النداء الخامس في السورة العظيمة بوصف الإيمان، و﴿ٱلظَّنِّ﴾ هو: التوقع المبني على غير حجة ولا يقين ولا معرفة ولا أدلة[3]، وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإن الظَّنَّ أكذبُ الحديث، ولا تجسَّسُوا، ولا تحسَّسُوا**»[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 372)، و«المحرر الوجيز» (5/ 150)، و«تفسير الرازي» (28/ 109)، و«تفسير القرطبي» (16/ 328)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 518)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 376)، و«التحرير والتنوير» (26/ 249)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 373)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7005)، و«تفسير السمعاني» (5/ 224)، و«التحرير والتنوير» (26/ 249).

(3) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص539)، و«النهاية» (3/ 163)، و«لسان العرب» (3/ 272)، و«الكليات» للكَفَوي (ص594)، و«تاج العروس» (35/ 365) «ظ ن ن».

والأمر بالاجتناب هو نهي عن الظَّنِّ وعن اتباع الظَّنِّ أو الحديث عنه أو تحقيقه لغير موجب، وقد نهى عن كثير منه، ولم ينه عنه مطلقًا؛ مما يدل على أن بعض الظَّنِّ لا يُجتنب، بل قد يكون واجبًا، مثل حسن الظَّنِّ بالله سبحانه، والظَّنِّ الحسن بالمؤمنين، فهذا ظَنٌّ، لكنه لا يُجتنب؛ لأنه ظَنٌّ حسن.

وفي الشريعة أبواب كثيرة يُؤخذ فيها بغلبة الظَّنِّ، ويُؤخذ فيها بالأدلة الظنيَّة، فهذا مما يُعمل به؛ فإن اليقين القاطع في كثير من مسائل الحياة مما لا يتيسر، ولا يزال الناس تعرض لهم الاحتمالات والترددات، ولو لم يبن شيء إلا على يقين لفسدت الحياة وتوتَّرت العلاقات؛ ولذا يُعمل بالظن الغالب في سائر التعاملات، ما لم يعارضه ما هو أقوى منه، وقد يُؤخذ بالظَّنِّ في حالات، تسهيلًا على العباد، وتحقيقًا للمصالح.

وثمة ظَنٌّ محرم، وهو ظَنُّ السوء المبني على غير دليل.

وثمة ظَنٌّ ينبغي التوقف فيه والتأنِّي، وهو ما كان مبنيًّا على أدلة ضعيفة.

﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾: أمر تعالى باجتناب كثير من الظَّنِّ؛ سدًّا لذريعة سوء الظَّنِّ المحذور هنا، وجاء التعليل بأن ﴿بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾، ولم يقل بأن كثيرًا من الظَّنِّ إثمٌ، وهذا يدل على أن بعض الظَّنِّ المنهي عنه يوافق الواقع، ومع هذا نهى عنه؛ سدًّا لذريعة الفساد والتسرع والاتهام بغير بينة[2].

---

(1) أخرجه البخاري (5143، 6064)، ومسلم (2563) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 375)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 36)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 335)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 328)، و«تفسير الماوردي» (5/ 334)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 359)، و«زاد المسير» (4/ 151)، و«تفسير القرطبي» (16/ 331).

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾: والتجسُّس هو ثمرة الظَّنِّ السوء، فالغالب أن المرء إذا ظَنَّ بدأ يتجسَّس، ولذلك جاء في الحديث- إن صح-: «**إذا ظننَّتَ فلا تُحَقِّق**»[1]. أي: لا تبحث لتأكيد ظنك.

إنها دعوة للأفراد، وللقيادات والحكومات أن تحفظ أعراض الناس وأسرارهم وعوراتهم وخاصة حياتهم، ولا تُنتهك تحت ذرائع الاتهام الناجم عن سوء ظن، أو تفسير فاسد لموقف أو سلوك، كما روى معاوية رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال له: «**إنك إن اتَّبَعْتَ عوراتِ الناس أفسدْتَهُمْ، أو كِدْتَ أن تُفْسِدَهُم**»[2].

وحكومات العالم اليوم وشركاته صنعت أجهزة تحصي على الناس تحركاتهم وهمهماتهم وكلامهم، وهؤلاء المخبرون الباحثون عن الأسرار ينشأ في نفوسهم سوء الظَّنِّ بالناس، وتتحوَّل العلاقة إلى علاقة موتورة مبناها على الدسائس والنمائم والوساوس، وتصبح سببًا في التوتر وسوء العلاقة.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾: والغيبة ثمرة من ظَنِّ السوء في الغالب، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم قال: «**أتدرونَ ما الغيبةُ؟**». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**ذكرُكَ**

---

(1) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (1962)، والمحاملي في «أماليه» (343)، والطبراني في «المعجم الكبير» (3227)، وأبو الشيخ في «التوبيخ والتنبيه» (155، 242) من حديث حارثة بن النعمان رضي الله عنهما.

وإسناده ضعيف، وله شواهد ضعيفة. ينظر: «أنيس الساري في تخريج فتح الباري» (1/ 300- 302).

(2) أخرجه أبو داود (4888)، وأبو يعلى (7389)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (426)، وابن حبان (5760)، والطبراني في «الكبير» (19/ 379) (890)، والبيهقي (8/ 578)، وفي «شعب الإيمان» (9212).

أخاكَ بما يكرهُ». قيل: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقولُ؟ قال: «**إن كان فيه مَا تقولُ، فقد اغتبتهُ، وإن لم يكنْ فيه فقد بهتَّهُ**»[1].

وهي من أسوأ آفات اللِّسان، واعتياد المرء عليها يجعل مجلسه لا يطيب إلا بها، ويجرِّئ جلسائه عليها، وقد يخرجها مخرج الملاحظة والنقد البريء، أو يقدِّم لها ثناءً أجوفَ غير ذي معنى، أو يُبهم اسم المذموم، ولكنه يحدِّده بما يعلم السامعون جميعًا بمقصوده.

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾: فهذا تبشيع للفعل، فمَن الذي يحب أن يُؤتى له بلحم أخيه من أمه وأبيه ميتًا فيأكل لحمه؟

وفي المثال توظيف للخيال للتنفير من الذنب، فهذا لحم يقدَّم لك وأنت جائع تنظر وتهم وتتناول منه، فإذا قيل لك: إنه لحم غير مذكًّى كرهته. ولو قيل: هو لحم آدمي. لكان أشد كرهًا، فكيف إن كان لحم أخيك الميت؟

﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: بمجرد ما سمعتم هذا الوصف كرهتم الأكل، وكرهتم المثل والصورة التي تتخيَّلونها، فهذه هي حقيقة الغيبة[2].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ لأن الغيبة والتنابز بالألقاب وسوء الظَّنِّ والتجسُّس نقيض التقوى.

﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ لمَن تاب وأناب وكفَّ نفسه عن هذه المنهيات المذكورة في الآية، وحتى حين يكون المؤمن مبتلَى بخطيئة يتوب منها ثم يعود إليها فهو يتذكَّر أن الله ﴿تَوَّابٌ﴾ أي: كثير التوبة على العاصين، وهي صيغة مبالغة من: «تائب»، فالمكلَّف

---

(1) أخرجه مسلم (2589) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 380)، و«تفسير الماوردي» (5/ 335)، و«تفسير السمعاني» (5/ 228)، و«المحرر الوجيز» (5/ 152)، و«تفسير الرازي» (28/ 111)، و«تفسير القرطبي» (16/ 335)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 380).

خطَّاء، أي: كثير الخطأ، والله ﴿تَوَّابٌ﴾ أي: كثير التَّوْب، واسع المغفرة، وهو ﴿رَّحِيمٌ﴾، فالعفو أحب إليه من المؤاخذة[1].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾:

انتقل الخطاب من مناداة المؤمنين إلى مناداة الناس أجمعين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، وهو خطاب مدني متصل بما سلف، فالله يخاطب الناس كلهم- بما فيهم المؤمنين- بالتذكير بأجمل الخُلُق؛ تأكيدًا على قيمة الفضل بالعمل والتقوى، وليس بالنَّسَب أو الشكل أو المظهر أو غيره، كما قيل[2]:

النَّاسُ من جِهَةِ التَّمثيلِ أَكْفاءُ *** أبوهمُ آدمٌ والأمُّ حَوَّاءُ
نفسٌ كنفسٍ وأرواحٌ مُشاكِلَةٌ *** وأَعْظُمٌ خُلِقَتْ فيهمْ وأعضاءُ
فإنْ يَكُنْ لهم من أَصْلِهِمْ حَسَبٌ *** يُفاخِرُونَ به فالطينُ والماءُ
ما الفضلُ إلَّا لأهل العلم إنهمُ *** على الهُدَى لمَنِ اسْتَهْدَى أَدِلَّاءُ
وقَدْرُ كُلِّ امرئٍ ما كان يُحْسِنُهُ *** وللرجال على الأفعال أسماءُ
وضِدُّ كُلِّ امرئٍ ما كان يَجْهَلُهُ *** والجاهلونَ لأهلِ العلم أعداءُ

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 381)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7009)، و«اللباب في علوم الكتاب» (17/ 553)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» (235)، و«الفقيه والمتفقه» (2/ 150)، و«تذكرة الخواص» لسبط ابن الجوزي (ص426)، و«تفسير القرطبي» (16/ 342)، و«نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف» لجمال الدين الحبيشي الوصابي (ص71) منسوبًا إلى علي رضي الله عنه.

ويُنسب أيضًا إلى الشافعي وغيره. ينظر: «تاريخ بغداد» (5/ 157)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» لأبي بكر البقاعي (6/ 127).

ويمكن أن يكون المقصود بالذكر والأنثى: الأم والأب، فكل إنسان له أم وأب، خُلق من التقائهما من ماء الرجل وبُويضة المرأة.

ويمكن أن يكون المقصود: آدم وحواء؛ فهما الأصل الأول للناس، والمعنيان متداخلان[1].

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾: **المقصود بالشعوب**: غير العرب، **وبالقبائل**: العرب، أو الشعوب بالمعنى الأوسع، فتستوعب القبائل وغيرها، والقبائل تتفرع إلى بطون وأفخاذ[2].

والجَعْل معناه: أن الله تعالى ألهم الناس ذلك، وليس موجودًا في أصل خلقتهم، فالناس سواسية، كما ألهمهم تنظيم الأسبوع ثم الشهر ثم السنة، من أجل انتظام أمر الحياة، فهذه الأشياء جعلها بحكمته من أجل التواصل والتعارف وصلة الأرحام والتعاون الذي يساعد على انتظام الحياة والعلاقات وانضباطها وسهولتها.

هي في الأصل معان إيجابية حوَّلها بعض الناس إلى عنصرية وسب وشتم ومفاخرة ومباهاة وتوارث أحقاد قديمة ومعان مرذولة، ونسوا الأصل الواحد، وفي الحديث: «**الناسُ بنو آدمَ، وآدمُ من تراب**»[3]. وقال صلى الله عليه وسلم في حَجَّة الوداع: «**يا أيها**

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 382)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 337)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 329)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7010)، و«تفسير الماوردي» (5/ 335)، و«الكشاف» (4/ 374)، و«تفسير الرازي» (28/ 112)، و«تفسير القرطبي» (16/ 341)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 385)، و«فتح القدير» (5/ 79)، و«التحرير والتنوير» (26/ 258).

(2) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 223)، و«تفسير الطبري» (21/ 383)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7010)، و«تفسير الماوردي» (5/ 335)، و«تفسير القرطبي» (16/ 343)، و«روح المعاني» (13/ 312)، والمصادر السابقة.

(3) أخرجه أحمد (8736، 10781)، وأبو داود (5116)، والترمذي (3955، 3956) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الناسُ، أَلَا إن ربَّكم واحدٌ، وإن أباكم واحدٌ، أَلَا لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا أحمرَ على أسودَ، ولا أسودَ على أحمرَ، إِلَّا بالتقوى»[1].

فالفضل هو بالتقوى، وليس بسلسلة النسب والآباء والأجداد.

والتعارف عند كثير من المفسرين معناه أن يعرف بعضُهم بعضًا في النَّسب[2]، وهو معنى صحيح أولوي.

ويدخل في التعارف: أن تتواصلوا فيما بينكم بالمعروف والبِرِّ والإقساط، فتصل القريب وغير القريب، مع كون القريب أولى؛ فتأخذ بالمعروف وتُعطي بالمعروف، **فالمعنى**: لتتبادلوا وتتعاطوا المعروف بينكم، ويكون هو أساس علاقة بعضكم ببعض.

ومن معاني التعارف: تبادل المعرفة والعلم، ولذلك كان العلماء خليطًا من العرب والموالي والفرس والعجم وغيرهم، وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم: سلمان الفارسي، وبلال الحبشي.. وكان هؤلاء أفضل من كثير من العرب الذين تأخر إسلامهم، أو كان في إسلامهم نقص وفتور وضعف.

إن الحرب على العنصرية المتغلغلة في أعماق النفس وأعماق الثقافة ليست سهلة، ولا تزال في الناس إلى يوم القيامة، وهي تحتاج إلى أن نتعاهد أنفسنا منها، ونتسامى عن نظر العصبية المبنية على غير عمل الإنسان وسلوكه.

وأخرجه الترمذي (3270)، وابن حبان (3828) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2803، 1009).

(1) أخرجه أحمد (23489)، والحارث (51- بغية) من حديث رجل من الصحابة رضي الله عنه. وأخرجه أيضًا (21407) من حديث أبي ذر رضي الله عنه نحوه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2700).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 386)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 337)، و«تفسير الرازي» (28/ 113)، و«تفسير القرطبي» (16/ 343)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 522)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 385)، و«التحرير والتنوير» (26/ 261).

وهذه الآية دليل على عدم اعتبار كفاءة النسب في الزواج، كما قال ابن كثير[1]، والقول بعدم اعتبار الكفاءة هو مذهب جماعة من العلماء، كأبي الحسن الكَرْخي، وسفيان الثَّوْري، والحسن البصري، وابن حزم الظاهري، وهو رواية عن الإمام أحمد، وهو قول عن ابن مسعود رضي الله عنه، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهم[2].

والمؤسف أن موضوع الكفاءة في النكاح صار سببًا للصراع وسفك الدماء وتفرقة الأسر بعد اجتماعها!

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾: فالكرم بالتقوى، وليس بالنسب والحسب والجاه، والمقصود به الشرف والرِّفعة، فأتقى الناس هو أكرمهم[3].

والسورة كلها تدور حول التقوى، أن يكون في قلب الإنسان تقوى الله، بحيث لا يرتكب المحرمات، ولا يترك الواجبات، وإذا حدث منه خطأ أسرع بالتوبة، ولم يُصِرَّ على الذنب وهو يعلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾: يعلم مَن يستحق الكرامة، ويعلم أهل التقوى وأهل المغفرة.

* ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير ابن كثير» (7/ 388).

(2) ينظر: «بدائع الصنائع» (2/ 317)، و«المبسوط» (5/ 21)، و«التمهيد» (19/ 162- 168)، و«مغني المحتاج» (3/ 165)، و«المغني» (9/ 387)، و«المحلى» (10/ 24)، و«الإنصاف» (8/ 108)، و«فتح الباري» (9/ 132)، و«سبل السلام» (3/ 1007)، و«السيل الجرار» (2/ 291).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 386)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7012)، و«تفسير الماوردي» (5/ 336)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 366)، و«الكشاف» (4/ 375)، و«تفسير القرطبي» (16/ 345).

نزلت هذه الآية في الأعراب الذين أتوا المدينة من بني أَسَد بن خُزيمة، بعد أن أصابهم القَحْط والجفاف، فقدموا المدينة برجالهم ونسائهم وأطفالهم، وأغلوا الأسعار، وملؤوا الأسماع بالكلام الذي لا ترشد إليه الآداب ولا تقبله الأذواق، وكانوا يمنُّون بإسلامهم على الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ويقولون: آمنا بك من دون قتال، والناس لم يؤمنوا لك حتى قاتلوك، ونحن أتيناك بأنفسنا وأهلينا. وهم حدثاء عهد بإسلام، ولم يأتوا المدينة إلا بعدما استقر أمر الرسالة ودانت العرب وعرف الكافة أن الدائرة على الكافرين والمعاندين[1].

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ فهو عليم بما في نفوسكم.

﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾: لم يقل: «ولكن أسلمتم»؛ لأن الله لا يريد أن يشهد لهم بالإسلام، وإنما يريد أن يلقِّنهم ما كان واجبًا عليهم أن يقولوه؛ لأن الإسلام الظاهري حدث حيث أنهم استسلموا والتزموا بالواجبات الشرعية الظاهرة كالصلاة ونحوها، ولكن لم يتحقَّق الإيمان في قلوبهم[2].

فالإيمان درجتان: الأولى: وجود أصل الإيمان، أي أن يؤمن بأن الله سبحانه هو المستحق للعبادة، ويؤمن بأركان الإيمان الستة[3]، ولا إيمان إلا بهذا؛ لأنه لو صلَّى

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص612)، و«تفسير الطبري» (21/ 388)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 329)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص396)، و«تفسير البغوي» (4/ 268)، و«تفسير الرازي» (28/ 115)، و«تفسير القرطبي» (16/ 348)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 389)، و«التحرير والتنوير» (26/ 263)، والمصادر الآتية.

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 89)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7014)، و«تفسير الماوردي» (5/ 337)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 368)، و«زاد المسير» (4/ 154)، و«فتح القدير» (5/ 82)، والمصادر السابقة.

(3) وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرِّه.

وصام وهو لا يؤمن بالله أو لا يؤمن بشيء من أركان الإيمان الستة، فلا ينفعه صومه ولا صلاته.

الثانية: مقام الإيمان الذي هو فوق الإسلام ودون الإحسان، أن يكون الإيمان قد خالط قلبه، وصار لديه تقوى ويقظة ونشاط للخير وانكفاف عن الشر، وهذا المقصود هنا- والله أعلم- فنفى عنهم هذه الدرجة، وأمرهم أن يتحدَّثوا عن أنفسهم بما هو دونها، وهو الإسلام.

والمؤمن الصادق المحسن المتَّقي لا يدَّعي هذا الادِّعاء، فلا يقول: «أنا مؤمن تقي محسن»، لأنه يخاف على نفسه، ولكن قد يقول: «أنا مؤمن» على معنى الاعتراف بالأركان الستة.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾: وهو هنا جاء بلفظ أرجى من الأول؛ فقد نفى عنهم الإيمان، ردًّا على دعواهم، ثم زاد الأمر بيانًا بأن المقصود أن الإيمان لم يصل بعدُ إلى قلوبهم فيحرِّكها لتصبح نقية تقية خاشعة، واستعمل أداة النفي «لَمَّا» المعبِّرة عن قُرب احتمال الشيء، فهي أحسن من «لَمْ» وأرجى، وكأن اللفظ يقول: لَمَّا يحدث هذا، ولكنه قارب، ففيه تحفيز لهم وتشجيع على الخير، والترقِّي في معارج الفضل[1].

﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالأعمال الظاهرة، ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينقصكم شيئًا، فأعمالكم محفوظة، وهي تزكِّي إيمانكم[2].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 392)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 38)، و«تفسير السمعاني» (5/ 231)، و«الكشاف» (4/ 376)، و«تفسير الرازي» (28/ 116)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 389)، و«الإتقان» (2/ 277).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص612)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 339)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7016)، و«تفسير الماوردي» (5/ 337)، و«تفسير السمعاني» (5/ 231)، والمصادر السابقة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: وهذا مناسب للمقام؛ لأن عندهم ما عندهم من الخطأ والتقصير، ففيها إغراء بمغفرة الله ورحمته لَمِن تاب وصحَّح المسار.

* ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾:

خطاب للأعراب الذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ بالله؛ لتأكيد أنهم لم يؤمنوا بعدُ.

و﴿إِنَّمَا﴾ تدل على الحصر، فـ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ الصادقون في إيمانهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إيمانًا صحيحًا ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ أي: لم يقع في إيمانهم ريب، ولا شكٌّ، ولا تردُّد، في حين أنكم أنتم وقع من بعضكم الإيمان الذي خالطه ضعف وشك[1].

ولعل في هذه إشارة إلى فضلاء السابقين من الأنصار والمهاجرين الذين يقع عادة من بعض حُدثاء الإسلام استصغار منهم، فهو يزكِّيهم ويُثني عليهم، ويدعو هؤلاء الداخلين الجُدد إلى التأسِّي بهم والاقتباس بالحب والمجالسة والتعلم منهم، دون استنكاف أو تعال أو تكبر.

﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾: في حين أنكم لم تجاهدوا بأموالكم، وإنما أتيتم لتطلبوا الأموال، وتقولوا: نحن جياع، فأطعمنا، وعُراة، فاكسنا، وقد كانوا جاؤوا إلى المدينة لهذا السبب وبهذه النية، بخلاف أولئك الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وجاهدوا، وهاجروا[2].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 99)، و«تفسير الطبري» (21/ 395)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 330)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 160)، و«الكشاف» (4/ 377)، و«المحرر الوجيز» (5/ 154)، و«تفسير القرطبي» (16/ 349).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 395)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 340)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 266)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 370)، و«تفسير السمعاني» (5/ 231)، و«الكشاف» (4/ 377)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 524).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾: فهذا ثناء على الصحابة رضي الله عنهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وفيه إغراء بالصدق، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة: 119]، وتذكير بأن الأمر متعلِّق بالقيم والمبادئ، وليس مجرد سباق بين القبائل، أو انتهاز للفرص، أو طلب للعاجل، فالمسألة مسألة تضحية وبذل، رجاء ثواب الله وفضله، وليست مكسبًا عاجلًا زهيدًا.

* ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦﴾:

فهو يعلم خبايا نفوسكم، وحقائق تصرفاتكم ونواياكم.

وهذا من العتب الشديد عليهم، فكيف تظنون أنكم تعلِّمون الله بدينكم؟ وهو أعلم بما في النفوس، والدِّين ليس ادِّعاءً أجوف، ولا تفاخرًا، وإنما حقيقته إيمان وإخبات ونفع للعباد.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: وهم كانوا بحاجة إلى مثل هذا المعنى؛ لأنه قلَّما تخطر معاني مراقبة الله لهم وعلمه بما في قلوبهم ونفوسهم؛ لأنهم حُدثاء عهد بإسلام، فاحتاج الأمر إلى أن يُذكِّرهم بأن الله تعالى ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

ولعل الآية تشبه قوله تعالى: ﴿مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ [يونس: 18]. والمراد بها النفي، فإذا نفاه الله تعالى فهو غير موجود، وإن ادَّعَوْ

وجوده، ولذا فهو يقول: هل أنتم تعلمون شيئًا لا يعلمه الله، حيث ينفيه وأنتم تثبتونه[1]؟!

* ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾:

نزلت هذه الآيات في قوم من الأعراب، قيل: من بني أَسَد، وليس مهمًّا تحديد مَن هم، إنما المهم المعنى؛ إذ يستنكر عليهم القرآن إظهارهم المنَّة على الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهم لم يحاربوه كما حاربه غيرهم، ودخلوا في دينه طوعًا، ويلقِّن رسولَه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم: لا تمنُّوا بإسلامكم عليَّ، بل المنَّة عليكم لله ولرسوله.

وذَكَر المنَّة بالإيمان والهداية إليه؛ لأنه لا يشعر بالفضل والمنة إلا المؤمنون الصادقون الذين خالط الإيمان شغاف قلوبهم، أما مَن أظهر الإسلام فحسب فربما استثقل التكاليف وتبرَّم بها ولم يشعر بالمنَّة، ووضع القيد تشكيكًا في أصل الدعوى.

* وختم بتأكيد علمه تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾:

فالغيب عنده شهادة، والسر عنده علانية.

ختمت السورة الكريمة التي احتشد فيها الكثير من الآداب والأخلاق في الأقوال والأعمال مع الله سبحانه، ومع رسوله صلى الله عليه وسلم، ومع المؤمنين في حال السِّلْم والحرب، وحال الأخوَّة والاختلاف، ثم الانتقال أيضًا إلى الطبيعة

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 396)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7020)، و«تفسير الماوردي» (5/ 338)، و«المحرر الوجيز» (5/ 154)، و«زاد المسير» (4/ 155)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 390).

الإنسانية وبني آدم والعلاقة بينهم، وكيف يجب أن تكون، وختم السورة بالحديث عن هؤلاء الأعراب وعن الناس جميعًا، ومنَّة الله تعالى عليهم بالإيمان، وأنه لا أحد يَمُنَّ على الله تعالى بإيمانه[1].

❍ ❍ ❍

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 396- 398)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 39)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 340)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 330)، و«تفسير الماوردي» (5/ 338)، و«تفسير الرازي» (28/ 117)، و«تفسير القرطبي» (16/ 350)، وفتح القدير (5/ 81)، و«التحرير والتنوير» (26/ 269).

سورة ﴿قٓ﴾

* «**سورة ﴿قٓ﴾**»: هي أول «حزب المُفَصَّل»- فيما صحَّحه ابن كثير، وغيره- **وقيل**: أوله: «**سورة الحُجُرات**»، وقيل غير ذلك، كما تقدم في «سورة الحُجُرات».

* تسمية السورة:

تسمَّى: «**سورة ﴿قٓ﴾**»، أو: «**سورة ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾**»[(1)].

وبذلك سمَّاها الصحابة رضي الله عنهم[(2)]، ولا يُعرف لها اسم غيره.

وذكر السيوطي في «الإتقان» أنها تسمَّى: «سورة الباسقات»[(3)].

وهو حزب في القرآن الكريم كان الصحابة يقرؤونه في ليلة، وقد سُئل بعض الصحابة- كما في حديث أَوْس بن أَوْس، وهو أَوْس بن حُذيفة رضي الله عنه-: كيف كنتم تُحَزِّبون القرآن؟ أي: تقسمونه وتقرؤونه، فقال: «نُحَزِّبُهُ: ثلاثَ سُوَرٍ، وخمسَ سُوَرٍ، وسبعَ سُوَرٍ، وتسعَ سُوَرٍ، وإحدى عشرةَ سورةً، وثلاثَ عشرةَ سورةً، وحزبَ المُفَصَّل من ﴿قٓ﴾ حتى يَخْتِمَ»[(4)].

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 227)، و«صحيح البخاري» (6/ 138)، و«جامع الترمذي» (5/ 243)، و«السنن الكبرى» للنسائي (10/ 269)، و«تفسير الطبري» (21/ 400)، و«المستدرك» (2/ 464)، و«تفسير الماوردي» (3/ 447)، و«التحرير والتنوير» (26/ 273).

(2) ينظر: «صحيح مسلم» (457، 458، 872، 873، 891)، وما سيأتي في «سورة القمر».

(3) ينظر: «الإتقان» (1/ 194)، و«التحرير والتنوير» (26/ 273- 274).

(4) أخرجه الطيالسي (1204)، وابن أبي شيبة (8583)، وأحمد (16166، 19021)، وأبو داود (1393)، وابن ماجه (1345)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (1578)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (1371)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (1988).

«**ثلاث سُور**» يعني: البقرة، وآل عمران، والنِّساء.

و«**خمس سُور**» يعني: المائدة، والأَنْعام، والأَعْراف، والأَنْفال، والتوبة.

و«**سبع سُور**» يعني: يُونس، وهُود، ويُوسف، والرَّعد، وإبراهيم، والحِجْر، والنَّحل.

و«**تسع سُور**» يعني: الإِسْراء، والكَهْف، ومريم، و﴿طه﴾، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنُّور، والفرقان.

و«**إحدى عشرة سُورةً**» يعني: الشُّعراء، والنَّمل، والقَصَص، والعَنْكبوت، والرُّوم، ولُقْمان، والسَّجْدة، والأَحْزاب، وسبأ، وفاطر، و﴿كَانَ﴾.

و«**ثلاث عشرة سُورةً**» يعني: الصَّافات، و﴿ صٓ ﴾، والزُّمُر، وغافر، وفُصِّلت، والشُّورى، والزُّخْرف، والدُّخَان، والجاثية، والأَحْقاف، ومحمد، والفتح، والحُجُرات.

و«**المُفَصَّل**» من «سورة ﴿قٓ﴾» إلى «سورة الناس»، على الخلاف السابق ذكره.

فهذا التحزيب الذي كان الصحابة رضي الله عنهم يعتمدونه لَمن أراد أن يختم القرآن في سبعة أيام[1].

* **عدد آياتها:** خمس وأربعون باتفاق علماء العَدِّ[2].

* **وهي مكيِة** بالإجماع، كما ذكره غير واحد[3].

---

(1) ينظر: «البرهان في علوم القرآن» (1/ 247)، و«معجم علوم القرآن» (ص13 – 14).

(2) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص231)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص309).

(3) ينظر: «الناسخ والمنسوخ» لابن حزم (ص57)، و«المحرر الوجيز» (5/ 155)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 280)، و«التحرير والتنوير» (26/ 274).

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن آية: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [ق: 38] نزلت بالمدينة، وكانت ردًّا على ادِّعاء اليهود الذين قالوا: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح يوم السبت. تعالى الله عن ذلك.

والصحيح أن الآية، وإن كانت واردة في المعنى ذاته، إلا أنها مكيَّة، وحكايات اليهود وأخبارهم ليست مقصورة على المدينة؛ إذ كانوا يتردَّدون على مكة، ويختلطون بالعرب، ربما سمعوا منهم مثل هذه المقالات الفاسدة[1].

❊ ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ①﴾:

﴿قٓ ۚ﴾: حرف واحد ينطق بالمَدِّ، وهو اسم للحرف العربي المعروف.

﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ يجوز أن تكون ﴿قٓ﴾ من القرآن، أو ﴿قٓ﴾ من قدير، أو ﴿قٓ﴾ اسم للسورة، أو ﴿قٓ﴾ اسم من أسماء الله، أو ﴿قٓ﴾ حرف من الحروف التي يتكون منها القرآن، على حسب الأقوال المختلفة[2].

ومن الخطأ ما ذكره بعضهم أن ﴿قٓ﴾ جبل محيط بالأرض، والأرض متصلة به[3]. فهذا مما لم يرد في كتاب ولا سُنَّة، ولا ثبت بأثر صحيح، كما أنه غلط مجافٍ للواقع.

---

(1) ينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص397)، و«تفسير القرطبي» (17/ 1)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 528)، و«فتح القدير» (5/ 83)، و«التحرير والتنوير» (26/ 274).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 400)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 92)، و«تفسير البغوي» (4/ 270)، و«تفسير القرطبي» (17/ 2– 3)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 394).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 75)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 41)، و«تفسير الماوردي» (5/ 339)، و«التحرير والتنوير» (26/ 275)، والمصادر السابقة.

ومن الخطأ الكبير أن تُقَدَّم معلومات مغلوطة عن الكون أو الفلك أو الإنسان، وتساق مساق تفسير القرآن الكريم؛ لأن هذا من شأنه أن يفتح للأجيال أبوابًا من الشك، والعُزُوف عن كتب التراث ومرويَّاته، وذلك حين يأتي متخصِّص في الجغرافيا أو الرياضيات أو الفيزياء فيُقَدِّم لهم معلومات علمية، وحقائق مجافية لما نُقِل لهم، وإنما ثار الناس على الكنيسة لَمَّا اعتمدت أقوالًا منافية للعلم، وثبتت الحقائق العلمية بخلافها، أما القرآن فـ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: 42]، فمن الخطأ أن تُساق مثل هذه الأقوال في كتب التفسير على أنها تفسير لكلام الله عز وجل.

﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾: أقسم تعالى بالقرآن؛ لأنه كان موضع شكٍّ عند هؤلاء المكذِّبين.

وسماه: «القرآن» باعتباره مقروءًا، **ويسمَّى**: «الكتاب» باعتباره مكتوبًا، **فالقراءة** تسمعها الآذان، وتستعذب ألفاظه ومعانيه، **والكتابة** تراها العيون، ولكل منهما وقعه الخاص على النفس وتدبر القلب وحضوره[1].

و﴿ ٱلْمَجِيدِ ﴾: صاحب المجد، **فمجد القرآن**: عظمته وكماله، وإحكامه، وكونه ناسخًا لما قبله من الكتب السماوية، وبقاؤه وتأثيره[2].

والقَسَم بالقرآن: إشادة بعظمته، وإشارة إلى مادته المكوَّنة من الحروف التي ينطقها العرب، وأن هذه السورة واحدة من سوره العظيمة المنطوية على الإعجاز.

والسورة تدور حول معنيين أساسيين: الألوهية والبعث.

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (1/ 56)، و«تفسير ابن جزي» (1/ 13)، و«تفسير الثعالبي» (1/ 150-151)، و«التحرير والتنوير» (1/ 73).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 379)، و«تفسير النسفي» (3/ 361)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 125)، و«روح المعاني» (13/ 322)، «التحرير والتنوير» (26/ 277). وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص760)، و«بصائر ذوي التمييز» (4/ 485)، و«تاج العروس» (9/ 151) «م ج د».

* ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾:

﴿بَلۡ﴾: تُستعمل للإضراب والانتقال إلى بيان كفرهم وشبهاتهم، وما جرى منهم من التكذيب[1]، بعدما استهل بإلماح سريع أشاد فيه بمجد «**القرآن**» وعظمته[2].

وقد عجب الله من عجبهم واستغرابهم أن يأتي نذير؛ لأنه لم يأتهم نذير قبله: ﴿أَمۡوَٰلَكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢ وَإِنۡ﴾ [القصص: 46].

وعجبهم واستغرابهم أيضًا أن يكون النذير منهم؛ أن يكون بشرًا، وفي زعمهم يجب أن يكون مَلَكًا ينزل عليهم من السماء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [الأنعام: 9].

وليس العَجَب من عجبهم فحسب، بل من تسرعهم في الكفر والتكذيب، ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾.

* ثم شرع في بيان استغرابهم للأمر الآخر؛ وهو «**البَعْث**» بعد الموت: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣﴾:

وهم يعرفون الموت، كما تعرفه الدوابُّ والبهائم، وأنهم يصيرون ترابًا؛ لأنهم يشاهدونه عيانًا.

وأتى أُبَيُّ بن خَلَف رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعظم بالٍ، فقال: يا محمدُ، أنتَ تزعمُ أن يُبعثَ هذا بعد ما أَرِمَ. ثم فَتَّهُ بيده، ثم نفخه في الرِّيح نحوَ رسول الله

---

(1) ينظر: «علل النحو» (ص377)، و«شرح المُفَصَّل» (5/ 25).

(2) ينظر: «روح المعاني» (13/ 323)، و«التحرير والتنوير» (26/ 277)، وما سيأتي في «سورة الذاريات»: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾.

صلى الله عليه وسلم، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**نعم، أنا أقولُ ذلكَ، يبعثُهُ الله وإيَّاك بعد ما تكونان هكذا، ثم يُدخلُك اللهُ النارَ**»[1].

﴿ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴾: مستبعد في عقولهم التي لم تتعوَّد على التفكر الصحيح، والنَّظَر في الكلام الجديد عليها[2]، وهم يقولون: ﴿بَعِيدٞ﴾؛ لأنه غير مألوف في تفكيرهم السَّطحي التقليدي.

وعادة أكثر الناس التَّسَرع في رفض ما لا يعرفون، وإنكاره وتسفيهه، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ﴾ [يونس: 39]، فبمجرد ما يسمع أحدُهم خبرًا غير مألوف يبادر بتكذيبه، والقرآن يلهمنا إزاء المعارف والمعلومات الجديدة التي نسمعها لأول وهلة أن لا نتسرع في رفضها؛ لأن عقولنا لا تستوعبها أو لم تتهيَّأ لها، وأن لا تتسرع في قبولها دون برهان أو حجة: ﴿ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ ﴾ [النمل: 64]؛ لأن المرء قد يُكَذِّبُ بالحقِّ لغرابته، وقد يُصَدِّقُ بالباطل لكثرة ما يسمعه، واعتياده عليه، حتى لا يسأل عن دليله.

واستبعادهم للبعث هو من الجهل؛ لأن الشرائع السماوية كلها جاءت بتقريره وتثبيته، وأنه ركن من أركان الإيمان، وهو يستقر في نظر الناس؛ لأنهم يرون ظالمًا ومظلومًا يموتون دون فصل بينهم، ويرون قصصًا في الحياة لم تكتمل ولها بقية تظهر في البعث الآخر، وهو معتقد شائع معروف في أمم الأرض كلها، ومستقر في ثقافتها

---

(1) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (1/ 361)، و«الروض الأنف» (3/ 198).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 42)، و«الكشاف» (4/ 380)، و«تفسير القرطبي» (17/ 4)، و«تفسير النسفي» (3/ 362)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 395)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (5/ 444)، و«التحرير والتنوير» (26/ 280).

وشعرها وأساطيرها، ولكن العرب الوثنيين لم يكونوا مؤمنين به غالبًا؛ لجهالتهم وبعدهم عن أنوار النبوة والوحي، وكان قائلهم يقول[1]:

حياةٌ ثم موتٌ ثم نَشْرٌ *** حديثُ خُرافَةٍ يا أمَّ عَمْرِو

والسِّياق يكشف تناقضهم؛ فهم يعرفون أنهم يعودون ترابًا، ثم يستبعدون الرَّجْعَة، وينسون أنهم كانوا قبلها ترابًا، ثم الله خلقهم وأنشأهم أول مرة، والرَّجْع أهون من الإنشاء؛ لأنه إعادة، وكله على الله هيِّن، ولكن في حكم العقل فإن الذي أَسَّسَ وأنشأ يسهل عليه أن يعيد.

* ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ﴾: ها هنا العلم الإلهي الشامل المحيط، وهو سبحانه يعبِّر بضمير الجمع للتفخيم والتعظيم، وهو يحاصر جهلهم وغفلتهم، ويذكِّرهم بذاته العَلِيَّة، ويضعهم في مكانهم اللائق بهم، وهم جثث بالية هامدة مَطْمُورَة في التراب، والأرض تأكلها شيئًا فشيئًا، وهنا يفعِّل الخيال لدى هذه الرِّمَّة الهالكة يعيث فيها الدُّود، ويبليها التراب، ويعبث بجمال وجهها، ويدخل في عينيها وفخذيها، وفمها وأذنيها، وتجاويف جسدها!

إنها دعوة للتواضع والذُّلِّ لله الحيِّ الباقي، والتوقف عن التكذيب.

صاحِ، هذي قبورُنا تملأُ الرَّحْـ *** ـبَ فأينَ القبورُ مِن عهدِ عادِ
خَفِّفِ الوَطء ما أظنُّ أَدِيم الـ *** أرض إلا من هذه الأجساد
رُبَّ لَحْدٍ قد صار لَحْدًا مرارًا *** ضاحكٍ من تزاحُمِ الأضدادِ

---

(1) ينظر: «ثمار القلوب» (ص130)، و«رَبيع الأبرار» (4/ 350) منسوبًا إلى ابن الزِّبَعْرَى، و«محاضرات الأدباء» (2/ 436) منسوبًا إلى ديك الجن، و«تلبيس إبليس» (ص72)، و«البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة» (ص76) منسوبًا إلى أبي العلاء المَعَرِّي.

ودَفِيـنٍ على بقـايـا دَفِيـنٍ *** في طـويـلِ الأزمـانِ والآبـادِ[1]

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾: مكتوب عند الله، وفيه شيء من علمه عز وجل فيما يتعلَّق بالبشر والخلق[2].

و﴿حَفِيظٌۢ﴾ أي: محفوظ عند الله، فلا يصل إليه أحدٌ، وهو حافظ لكل شيء، لا يَنِدُّ عنه شيء مما هو مقدور ومكتوب، أو ما هو مفعول من قبل الناس[3].

* ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥﴾:

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾: تسرَّعوا بالتكذيب، دون تأنٍّ ولا تبيُّن، وهو حقٌّ، فهم إذًا في ضلال وصُدُود؛ لأنهم ﴿كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾، وليس بغيره، وهم لو كَذَّبوا بأمر متردِّد أو مشكوك دون تبيُّن وبحث لكانوا مَلُوْمِين، فكيف وقد ﴿كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾ المبين الجليِّ الذي جاء به الوحي عن الله على ألسنة رسله؟

﴿فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾: **والمَرِيج**: المضطرب المختلط[4]، كما في قوله سبحانه: ﴿مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا﴾ [الرحمن: 19].

---

(1) ينظر: «نشوار المحاضرة» (5/ 223)، و«تاريخ بغداد» (4/ 464)، و«الحماسة المغربية» (2/ 880)، و«إنباه الرواة على أنباه النحاة» (1/ 82)، و«مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (15/ 446) منسوبًا إلى أبي العلاء المَعَرِّي.

(2) ينظر: «تفسير القرطبي» (17/ 4)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 530)، و«فتح القدير» (5/ 85)، و«التحرير والتنوير» (26/ 283).

(3) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 235)، و«تفسير البغوي» (4/ 270)، و«تفسير الرازي» (28/ 125)، و«تفسير القرطبي» (17/ 4)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 13)، و«التحرير والتنوير» (26/ 283)، وما سيأتي في «سورة الواقعة»: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ﴾، و«سورة النبأ»: ﴿رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾.

(4) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 341)، و«المحرر الوجيز» (5/ 157)، و«تفسير القرطبي» (17/ 5)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 530)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 395)، و«التحرير والتنوير» (26/ 285).

ولها هنا معنيان:

1- أنهم لا يستقرون على شيء؛ فمرة يقولون: ﴿سَاحِرٌ﴾ [ص: 4، الذاريات: 52]، ومرة يقولون: ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ [الحاقة: 42]، ومرة يقولون: ﴿﴾ [الطور: 30، الحاقة: 41]، ومرة يقولون: ﴿كَذَّابٌ﴾ [القمر: 25]، ومرة يقولون: ﴿أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: 5]. فلم يستقروا على شيء؛ لأنهم مُكَذِّبون، ولا استقرار إلا بالإيمان والتصديق[1].

2- أنهم انتقلوا من التَّعَجُّب إلى الاستبعاد ثم إلى التكذيب[2]، والعاقل إذا استغرب الشيء ينتقل من الاستغراب إلى البحث، ومن البحث إلى المعرفة واليقين والعلم، وليس إلى الكفر والتكذيب، فهذا من مروج الأمر عندهم.

وفي الآية: دليل على أن مَن ترك الكتاب والسُّنَّة فإنه لا يستقر على حال، ولا يهتدي إلى الخير، وأمره مَرِيج مضَّطرب.

وفيها: أن المذموم هو التكذيب بالحق الذي جاء من الله سبحانه على ألسنة رسله عليهم السلام، أما آراء الناس واختياراتهم ففيها الصواب والخطأ، وليس ردها أو التردد فيها سببًا للأمر المريج.

* ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾:

استفهام إنكار أو تقرير؛ لما كذَّبوا بهذه السرعة بدون تبصر[3]، نبَّههم تعالى أن بإمكانهم أن يرفعوا رؤوسهم إلى السماء، فالأمر لا يتطلَّب أكثر من ذلك.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 346)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 163)، و«تفسير السمعاني» (5/ 235)، و«تفسير البغوي» (4/ 271)، و«تفسير القرطبي» (17/ 5)، و«التحرير والتنوير» (26/ 285).

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (28/ 127)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 531)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (26/ 285).

والسَّماء هي: كل ما علا وارتفع[1]، فكل ما هو فوقك فهو سماء، فلماذا لا يستدلون بالسَّماء التي خلقها الله تعالى فوقهم، والنجوم والشمس والأقمار التي يشاهدونها، فيستدلون بها على خالقها، ويرون كيف بناها؟

وهنا بدأ السياق يجرهم إلى الدَّليل العقلي على مسألة البعث، فذكر لهم أربعة أدلة:

أولًا: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ٦﴾، فهذا الدليل، وهو خلق السماء بما فيها من قوة وجمال.

وفي الآية تذكير بالعلو؛ لأن البناء دائمًا يكون مرتفعًا فوق الأرض، فكذلك «**السَّماء**» سماها الله تعالى: ﴿نَفْسًا﴾ [البقرة: 22]؛ لأنها عالية مرتفعة، فهذا مفهوم مباشر قريب مشهود.

وذكر مع البناء «**الزِّيْنَة**»، فالسماء زُيِّنت بالنُّجُوم: ﴿فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ﴾ [الملك: 5]، و**الزِّيْنَة** مقصد في خلقه تعالى؛ فمن حكمة الله أنه جعل النُّجُوم زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النحل: 16].

الزِّيْنَة في الأرض بجمال النبات، وتنوع الأرض من بحر ونهَر، وسهل وجبل، واستجلاء هذا الجَمَال، ومشاهدته، والإعجاب به تدبرًا وتفكرًا مما يقرِّب المسلم إلى ربَّه.

كذلك جمال خَلْق الإنسان فيه إبداع إلهي عظيم؛ في جمال الصورة، وجمال الرُّوح، وجمال المنطق، وجمال العقل والتفكير، وهو دعوة إلى استكمال «**الزِّيْنَة**»،

---

(1) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص427) «س م ا»، و«لسان العرب» (14/ 397)، و«تاج العروس» (38/ 301) «س م و»، وما سيأتي في «سورة النازعات»: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ﴾، و«سورة الشمس»: ﴿كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ﴾.

واستكمال الجمال في كل شيءٍ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: 31]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «**إن اللهَ جميلٌ يُحبُّ الجمالَ**»[1]. بجمال اللِّباس، والرائحة، والشَّعَر، بجمال الفم ونظافته، وبجمال الأخلاق، وبجمال القول.

وهم حينما ينظرون إلى السماء، يرون قبة زرقاء، ليس فيها ثقوب ولا شقوق، فهذا من الآيات الإلهية الربانية: ﴿فَإِن طِبۡنَ... فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا﴾ [الغاشية: 17- 18].

*** ثانيًا:** ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧﴾:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾، فهي قريبة منهم، وفي متناولهم، **والمَدُّ** هو: البَسْط[2]، فهم يرون «**الأرض**» ممدودة مستوية حينما يمشون عليها، ﴿ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ [الملك:15]، وهم في الغالب لا يعرفون حقيقة الأرض، إن كانت كُرَوِيَّة أو غير كُرِويَّة، أو ثابتة أو تدور؛ لأنهم كانوا أُمِّيِّين، كما أن القرآن الكريم لم ينزل ليكون كتابًا في الفَلَك، إنما هو كتاب هداية، يلفت الأنظار إلى ما يهدي إلى الله ببديع خلقه في السماء والأرض والخلق، **فالمقصود**: بيان بَسْط الأرض، ومثله قوله: ﴿ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ [الغاشية:20].

فـ«**السَّطْح**» و«**البَسْط**» معناه: أن الناس يمشون على الأرض، ويبنون عليها، ويقع لهم الاستخدام الأَمْثل لها فيما يرون، وهذا لا ينافي أن تكون كُرَوِيَّة؛ لأن الكلام هنا عن الأرض التي يعيشون عليها في مدنهم وقراهم وأماكنهم، أما مجمل الكرة الأرضية فهو أمر آخر لم يتم الحديث عنه هنا، وربما يُؤخذ من قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ

---

(1) أخرجه مسلم (91) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 409)، و«تفسير البغوي» (4/ 271)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 531)، و«فتح القدير» (5/ 85)، و«التحرير والتنوير» (26/ 288).

عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر:5]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس:40][1].

﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ أي: وضعنا فيها، **والرَّواسِي** هي: الجبال[2]، مأخوذة من الرُّسُوِّ؛ لأنها تثبِّت الأرض، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن﴾ [النحل: 15]، **فالجبال** تمنع الأرض من الاضطراب والزلزلة، وتحفظ توازن الكرة الأرضية من أن يقع لها اضطراب أو زلزال أثناء دورانها، فهذا من مقاصد حكمة الجبال، والامتنان على الناس بوجودها[3].

ومن الخطأ أن تقحم هذه الآية الكريمة بأنها دليل على أن الأرض ثابتة لا تدور، فهذا من أعظم الجناية على الدِّين؛ أن نجعل الحقائق الدِّينية في مواجهة الحقائق العلمية؛ وبخاصة بعدما تتحول الأقوال العلمية إلى قطعيات لا يختلف الناس عليها، فهي ليست محل شكٍّ، وإنما هي مُسَلَّمات يعرفها الناس ويشاهدونها.

﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾: ﴿مِن﴾ أي: كثيرًا من الأزواج البَهِيجة من النباتات، والوصف بـ«**البَهِيج**» دليل على الجمال الذي هو مقصد في خلق السماء والأرض، فينبغي الاحتفاء بهذا الجَمَال، واستجلاؤه، والتأثر به، وذكر الله تعالى عنده، وهو يصنع جزءًا من تربية الإنسان على الذَّوْق، ورؤية الجَمَال، والحفاوة به.

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة الذاريات»: ﴿ وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن ﴾، و«سورة نوح»: ﴿فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم ﴾، و«سورة الغاشية»: ﴿ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾.

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 111)، و«تفسير الطبري» (21/ 409)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 42)، و«تفسير البيضاوي» (3/ 208)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 396)، و«التحرير والتنوير» (26/ 288)، وما سيأتي في «سورة المرسلات»: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾ [المرسلات: 27].

(3) ينظر ما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾.

* ﴿ تَبۡصِرَةً وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ ﴾:

التَّبْصِرة تعني: تبصير الإنسان بحيث يكون عنده بصيرة في عقله؛ بالتأمل واليقظة والعِظَة.

ويحتمل أن تكون التَّبْصِرة تتعلق بالدلالة على التوحيد، والإيمان بوحدانية الله، وهم كانوا يجادلون في ذلك[1].

و«**التَّبْصِرة**» و«**التَّذْكِير**» يحصل لكل عبد من عباد الله تعالى منيب إليه.

و«**الإِنَابَة**»: الرجوع إلى الله عند الخطأ والغفلة[2]، فالذي يعتبر من آيات الله في السماوات والأرض، وآيات الله في القرآن؛ هو المقرُّ بعبوديته، المنيب كلما أخطأ رجع إلى الله، وتاب وأناب.

* **ثالثًا:** ﴿ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ ﴾:

لما ذكر **السماء ثم الأرض،** ذكر شيئًا مشتركًا بينهما؛ وهو: **المطر:** ﴿مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾.

ووصفه البركة؛ لأن الله تعالى جعل فيه مضاعفة النفع للزرع والضَّرْع والثمر، وعليه تقوم حياة كثير من الناس، ولذا قال: ﴿ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴾ [الأنفال:11]، فكان المطر من جنود الله تعالى، حتى في الحرب.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 410)، و«تفسير البغوي» (4/ 271)، و«تفسير الخازن» (4/ 187)، و«تفسير القاسمي» (9/ 8)، و«التحرير والتنوير» (26/ 290).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 410)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 43)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 333)، و«تفسير الماوردي» (5/ 342)، و«تفسير السمعاني» (5/ 236)، و«الكشاف» (4/ 381)، و«زاد المسير» (4/ 158)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 396)، و«التحرير والتنوير» (26/ 291).

﴿ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾: **الجَنَّات** هي: الأشجار الكثيرة المُلْتفَّة، كالغابات[1].

﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾: ما يُحصد من الزُّروع[2]، مثل: الشَّعير، والأُرْز، والحِنطة، وغيرها مما يستخرج حبه للأكل.

وفي الآية إشارة إلى معنيين:

1- أن هذا الزرع والحِصيد لكم أيها البشر؛ لكن السَّاق الذي يتم التخلص منه يصبح أعلافًا للأنعام، كما قال تعالى: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن﴾ [النازعات:33]، وفي ذلك ملمح جميل إلى أن متاع الدنيا بذاته يشترك فيه الإنسان مع الأنعام، فأنت تأكل الحَبَّ وتترك التِّبْن للبهائم، فينبغي أن يكون الإنسان متساميًا، ولا يقتصر من الحياة الدنيا على مجرد هذا المتاع.

2- سرعة زوال الدنيا، فعلى العاقل أَلَّا يغتر بها؛ ولذا وصف الله تعالى الأمم التي أهلكها بالحَصِيْد، كما في قوله: ﴿تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ﴾ [يونس:24].

* ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠﴾:

نصَّ على النَّخْل؛ لأنها معروفة بكثرة في بلاد العرب، ولها واحات مشهورة في الجزيرة العربية، والعراق، وفي غيرها من بلاد العالم، **والنَّخْل** صديق للبيئة العربية، وورد في وصفها أنها «الرَّاسِخاتُ في الوَحْل»، أي: في الطين، و«المُطْعِماتُ في

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 487)، و«تفسير أبي السعود» (1/ 260)، و«روح البيان» (1/ 427)، و«التحرير والتنوير» (1/ 353)، وما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 411)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 43)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 95)، و«تفسير السمعاني» (5/ 236)، و«تفسير البغوي» (4/ 271)، و«تفسير القرطبي» (17/ 6)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 396)، و«التحرير والتنوير» (26/ 292).

المَحْلِ»[1]، أي: في المجاعة. وفيها ألوان من المكونات الغذائية التي يحتاجها جسد الإنسان.

والبُسُوق: الارتفاع الشديد[2].

والنَّضِيْد: المَنْضُود: المتراكب المنتظم[3]، والسياق هنا يثير الاهتمام بشكل **الطَّلْع**، وانتظامه العجيب، وفي موضع آخر وصفها بأن ﴿ أَيۡمَـٰنُكُمۡ ﴾ [الشعراء: 148]، أي: سهل الهضم، ومنظِّم للهضم، وهو معنى معروف مُجَرَّب[4].

* ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١﴾:

﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ أي: أعطاه الله وأنزله ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ﴾، كما أنه تعالى أنزل الوحي ﴿ تَبۡصِرَةٗ ﴾ للعباد، وأنزل المطر رزقًا لهم، فجمع الله لهم خير الدنيا والآخرة؛ لأولئك الذين آمنوا به.

---

(1) ورُوي مرفوعًا، ولا يصح.

(2) ينظر: «العين» (5/ 85)، و«معاني القرآن» للفراء (3/ 76)، و«الصحاح» (4/ 1450)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص123)، و«لسان العرب» (10/ 20) «ب س ق».

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 348)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 333)، و«تفسير الماوردي» (5/ 343)، و«تفسير البغوي» (4/ 271)، و«تفسير القرطبي» (17/ 7)، و«التحرير والتنوير» (26/ 293).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص418)، و«تهذيب اللغة» (12/ 5) «ض د ن»، و«الصحاح» (2/ 544)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص810)، و«لسان العرب» (3/ 424) «ن ض د».

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (17/ 619)، و«تفسير الثعلبي» (7/ 176)، و«تفسير السمعاني» (4/ 61)، و«تفسير القرطبي» (13/ 128)، و«تفسير ابن كثير» (6/ 156).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للنحاس (5/ 95)، و«تهذيب اللغة» (6/ 66)، و«الصحاح» (5/ 2059)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص842)، و«لسان العرب» (12/ 613) «هـ ض م».

رابعًا: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: بالمطر، وهذا هو الدليل الرابع العقلي على إثبات البعث بعد الموت، فشبَّه خروج الناس من قبورهم بحياة الأرض بالمطر، ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج: 5]، فالآية تقرِّب معنى البعث، وأنه ليس مستحيلًا، فالذي أحيا الأرض قادر على إحياء الناس.

وفيه معنى آخر لطيف، وهو أن القلوب الميتة يمكن أن تحيا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾، ثم قال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ [سورة الحديد:16- 17][1].

فلا ييأس الإنسان من روح الله أن يصلح قلبه.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ **يدل على أمرين:**

1- **إثبات البعث**، فيكون هذا من باب القياس؛ قياس الأمر الخفي المستقبل الذي لم يحدث على الأمر الظاهر الواقع الحادث، فقاس أمر البعث الأخروي على الأمر المشاهد بحياة الأرض بعد موتها[2].

2- **بيان صفة البعث** يوم القيامة[3]، وقد فصَّله النبيُّ صلى الله عليه وسلم في أن الله تعالى ينزل من السماء ماءً، فينبت الناس منه، ثم ينفخ في الصور، فتطير الأرواح إلى أجسادها[1].

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة الحديد».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 414)، و«تفسير السمعاني» (5/ 237)، و«الكشاف» (4/ 381)، و«تفسير القرطبي» (17/ 7)، و«التحرير والتنوير» (26/ 294).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 111)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 333)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 270).

وفيه اعتماد **الأدلة العقلية** مع **الأدلة النقلية** في النفي والإثبات؛ حيث ذكر تعالى هاهنا **الأدلة النقلية** ثم أتبعها بذكر **الأدلة العقلية** التي تدعو غير المؤمن إلى التأمُّل، وتزيد المؤمن إيمانًا إلى إيمانه.

❋ وبعد أن ذكر الله تعالى منته في الكون، والسماء والأرض، والمطر والنبات، والجمال في السماء، والجمال في الأرض، والدعوة إلى التدبر، أعقب ذلك بجولة تاريخية على الأمم الغابرة: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢﴾:

ونوحٌ عليه السلام أول الرُّسل، وكان آدم عليه السلام نبيًّا معلَّمًا مكلَّمًا، أما نوح فكان نبيًّا رسولًا، وذكر الله تعالى قصته في سورة خاصَّة، وأطال بذكرها في «سورة الأعراف»، و«سورة هود»، و«سورة الشُّعَراء»، و«سورة الصَّافَّات»، وسواها.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ ذُكروا في قوله: ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ﴾ [الفرقان: 38]، و﴿ٱلرَّسِّ﴾ هو: الحَفْر، ومنه: رَسَّ البئر، أي: حفره[2]، قيل: هم القتلة الذين ذكرهم تعالى في «سورة البُروج»[3]. فأجمل ذكرهم هنا؛ وذلك أنهم ألقوا المؤمنين في الحفرة التي تشبه الشِّق أو البئر في الأرض، ورجَّحه الطَّبَري[4].

(1) ينظر: «مصنف ابن أبي شيبة» (37637)، و«صحيح البخاري» (4935)، و«صحيح مسلم» (2955)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (8/ 2784)، و«المستدرك» (4/ 496- 497)، وما سيأتي في «سورة المعارج»: ﴿ ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ﴾، و«سورة نوح»: ﴿إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا﴾.

(2) ينظر: «العين» (7/ 191)، و«تاج العروس» (16/ 121) «ر س س».

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 344)، و«المحرر الوجيز» (5/ 158)، و«تفسير الرازي» (28/ 132)، و«البحر المديد» (5/ 447)، و«فتح القدير» (5/ 86)، وما سيأتي في «سورة البروج».

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (17/ 453).

وقيل بأن ﴿ٱلرَّسِّ﴾ قرية من اليمامة، يُقال لها: الفَلْج[1]. وفي نَجْد مدينة اسمها: ﴿ٱلرَّسِّ﴾ ربما يكون المقصود قريبًا منها.

والحاصل أنهم قومٌ بُعث إليهم رسولٌ فَكَذَّبوه، فذكر تعالى شأنهم.

﴿وَثَمُودُ﴾: قوم صالح عليه السلام، وكانوا في الحِجرْ شمال الجزيرة العربية، وقد فصَّل القرآن قصتهم، ودعا العرب إلى الاعتبار بها؛ خاصة وأنها كانت على طريقهم، وهم يمرون بها، وآثارهم باقية مشهودة[2].

* ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ١٣﴾:

﴿وَعَادٌ﴾ هم: قوم هود عليه السلام، وكانوا بالأَحْقاف جنوب الجزيرة في أقصى اليمن[3].

﴿وَفِرْعَوْنُ﴾: وخصَّ فرعون؛ لأنه أكثر مَن طغى وبغى، ونازع الله في ألوهيته[4].

﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾: هم قوم لوط عليه السلام، وهو لم يكن منهم؛ فإن لوطًا عليه السلام كان عبرانيًّا، وهم كانوا كنعانيين، فلم يكن من قبيلتهم[5]؛ ولكنه بُعث إليهم، فسموا: «**إخوانه**» من هذا الوجه[6].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (17/ 452)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (8/ 5222)، و«الكشاف» (3/ 280)، و«تفسير القرطبي» (13/ 32)، و«تفسير ابن كثير» (6/ 111)، و«التحرير والتنوير» (26/ 296).

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة الحاقة»: ﴿وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، و«سورة الشمس»: ﴿تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾.

(3) ينظر ما سيأتي في «سورة الفجر»: ﴿ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ﴾.

(4) ينظر ما سيأتي في «سورة النازعات»: ﴿نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ﴾.

(5) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 271)، و«تفسير الماوردي» (5/ 344)، و«تفسير الخازن» (4/ 187)، و«فتح القدير» (5/ 86)، و«التحرير والتنوير» (26/ 295).

(6) ينظر ما سيأتي في «سورة الحاقة»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن﴾.

* ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤ ﴾:

﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ ﴾: **الأَيْكَة** هي: الشجرة الملتفَّة[1]، وهم قوم شُعيب عليه السلام، وكانوا بمَدْيَن من أرض الشام[2].

﴿ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ ﴾: وهم: حِمْيَر من العرب[3]، ومنازلهم في اليمن، وذكر قومه؛ لأنه كان مؤمنًا وهم كافرون، والله أعلم، وقد ورد في هذا آثار؛ أنه كان ينتظر مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه كسا الكعبة، ودعا قومه إلى الإيمان، واسمه: أَسْعد أبو كُرَيْب[4]، والسياق هنا يشهد لها.

﴿ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾: ومَن كذَّب برسول واحد فقد كذَّب بجميع الرُّسل[5]؛ لأن رسالتهم واحدة، وهي تحقيق توحيد الله تعالى، ونَبْذ الشِّرْك.

﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي: فحق وعيدي عليهم بالعذاب[1]، وقد وقع عليهم عذاب الاستئصال في الحياة الدنيا، وهو تحذير لقريش أن يُعَذِّبَهم الله كما عَذَّبهم، وقد حدث

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (2/ 565)، و«البحر المحيط في التفسير» (6/ 481)، و«اللباب في علوم الكتاب» (11/ 482)، و«تفسير أبي السعود» (5/ 87).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص98)، و«لسان العرب» (10/ 394)، و«تاج العروس» (27/ 55) «أ ي ك».

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (3/ 638)، و«تفسير الطبري» (17/ 632)، و«تفسير ابن فورك» (1/ 262)، و«تفسير الماوردي» (5/ 345)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (7/ 178)، و«تفسير ابن كثير» (6/ 159).

(3) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 334)، و«المحرر الوجيز» (5/ 158)، و«تفسير القاسمي» (8/ 420)، و«التحرير والتنوير» (26/ 296).

(4) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 238)، و«تفسير الخازن» (4/ 187)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 258)، و«فتح القدير» (5/ 86).

(5) ينظر: «تفسير ابن كثير» (7/ 397).

هذا لهم بعد ذلك بأيدي المؤمنين في معركة بدر؛ فضلًا عن الجوع الذي أصابهم، كما ورد أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لما أبطأت عليه قريشٌ وتأخَّرت قال: «**اللهمَّ أعنِّي عليهم بسَبْعٍ كسَبْعِ يُوسفَ**». أي: سبع سنين، فأصابتهم مجاعة، حتى كانوا يرون ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان من الجوع، وحتى أكلوا أوراق الشجر والعظام من الجوع، وقالوا: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الدخان: 12][2].

* ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥﴾:

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾ أي: خلقناكم المرة الأولى بلا مشقة ولا لُغُوب[3]، ولم يقع في الخلق اختلال أو عجز، وحين يسألهم ربُّهم هذا السؤال، ويسوق فيه ضمير العظمة: (نا)؛ يكون ذلك تحدِّيًا، والتحدِّي ممن؟ إنه من الله الخالق العظيم، يخاطبهم ويحرِّك عقولهم، ويدعوهم للاعتبار.

﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ **واللَّبْس** هو: التحير أو عدم وضوح الأمر[4]، وذلك أنهم كَذَّبوا بالبعث، وكانوا يقولون: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣﴾،

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 238)، و«الكشاف» (4/ 382)، و«تفسير القرطبي» (17/ 8)، و«تفسير الخازن» (4/ 187)، و«فتح القدير» (5/ 87).

(2) أخرجه البخاري (4809، 4822، 4823)، ومسلم (2798) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وينظر ما سيأتي في «سورة المعارج»: ﴿تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ﴾.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 419)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 334)، و«تفسير البغوي» (4/ 272)، و«تفسير القرطبي» (17/ 8)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 397)، و«التحرير والتنوير» (26/ 297).

(4) ينظر: «تفسير البغوي» (4/ 272)، و«تفسير القرطبي» (17/ 8)، و«التحرير والتنوير» (26/ 298).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للفراء (3/ 77)، و«مختار الصحاح» (ص278)، و«لسان العرب» (6/ 204) «ل ب س».

فهذا هو الـ«**اللَّبْس**» الذي عندهم، وهم قد غفلوا عن أن الذي خلق أول مرة قادرٌ على الخلق مرة أخرى، وليس البعث شيئًا مستحيلًا؛ بل هو ممكن الحدوث، والفطرة والعدل مما يقتضيه، والرسالات عبر التاريخ جاءت لتقرِّره وتؤكِّده، وتدعو الخلق إلى الإيمان به، والعمل له.

* ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: تفريع على المعنى السابق، فهو حديث عن الخلق الأول، **والمقصود**: جنس الإنسان[1]؛ فإن الخلق، ومعرفة ما في نفس الإنسان، والقرب منه قرب علم وإحاطة؛ هو مما لا يختص بأحد دون أحد، فهو شامل للمؤمن والكافر، على أن السياق في مجادلة الكافرين والجاحدين، ويدخل في هذا خلق آدم دخولًا أوليًّا، وكذلك ذريته من الذكور والإناث.

﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ﴾: وهذا اكتفاء بالأدنى عن الأعلى؛ فإن علم الباري سبحانه بوسوسة النفس يلزم منه العلم بما هو أظهر من ذلك من الأقوال والأعمال التي تُكتب عليه، ويُسأل عنها، **فالعلم** يدل على الحساب والسؤال، **والإخبار عن الوَسْوَسَة** إخبار عما فوقها: ﴿زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ﴾ [الملك: 14]، فهو لطيف يعلم تفصيلات الأشياء، وما توسوس به النفس من الخواطر والهواجس، والأفكار والأسرار، وما دونها، فلا تخفى عليه خافية، وهذه العقيدة تمنح المؤمن إحساسًا عظيمًا بالحضور، والرقابة، والمعيَّة، وتصنع الفرق في شخصيته وحياته.

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 334)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 301)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 282).

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾: والعرب كانوا يضربون المثل في القُرْب بنحو قول الشاعر[1]:

فهُنَّ ووادي الرَّسِّ كاليَدِ للفَمِ

وبِشِراكِ النَّعْل، كقول أبي بكر رضي الله عنه:

كلُّ امرئٍ مُصبَّحٌ في أهله *** والموتُ أَدْنَى من شِراكِ نَعْلِهِ[2]

وفي الحديث: «**الجنةُ أقربُ إلى أحدكم من شِراك نَعْله، والنارُ مثلُ ذلك**»[3].

فهذا النَّمَط من المقارنة من أسبقيات القرآن، ومعانيه اللطيفة.

والحَبْل مفرد: حِبَال؛ وهي: العروق[4]، وتسميتها: «حِبَالًا» واضح المناسبة من حيث الشَّبَه.

والوَرِيد: شريان من الشرايين، وفي الجسم وريدان: يمين، وشمال؛ وهو عرق متصل بالقلب ويمتد على طول الجسم ليمده بالدم، كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ ﴾ [الحاقة:43- 46]، ويسمى: **نِياطُ القَلْب**، وضربُ المثل بـ﴿ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ تأكيد للاطلاع على الأسرار

(1) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلْمَى» (ص104)، و«شرح المعلقات التسع» (ص189)، و«الكامل في اللغة والأدب» (3/ 67).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (1889). ويُنسب إلى غيره أيضًا.

(3) أخرجه البخاري (6488) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(4) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 76)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص418)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص217)، و«النهاية» (1/ 333)، و«لسان العرب» (11/ 135) «ح ب ل».

وحركات القلب كلها[1]، حتى تلك التي تخفى على صاحبها أو تَحْدُث في حال شرود أو سهو أو منام: ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [سبأ: 3].

وقرب الله سبحانه هو بعلمه المحيط، وسلطانه الشامل، الذي لا يَنِدُّ عنه شيء، وتدبيره اللَّطيف الذي لا يقع شيء إلا بإذنه[2].

ولعل من مقصود الآية: قرب الملائكة الموكَّلة به في حياته، المكلَّفة بقبض روحه، ولذلك قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي: المَلَكان[3]، ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: فعن يمين الإنسان مَلَك الحسنات، وعن شماله مَلَك السيئات، ومَلَك الحسنات كأنه أمين أو متقدِّم على مَلَك السيئات[4].

والقَعِيْد هو: القاعد[5]، كالصَّديق الذي لا يفارقك، ومنه تسمى الزوجة: قَعِيْدَة، كما قال الحُطَيئة:

أُطَوِّفُ ما أُطَوِّفُ ثم آوي *** إلى بيتٍ قَعِيدتُهُ لَكَاعِ[6]

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (2/ 522)، و«تفسير التستري» (ص75)، و«تفسير الطبري» (11/ 112)، و«تفسير الماوردي» (2/ 308)، و«تفسير البغوي» (4/ 272)، و«التحرير والتنوير» (26/ 301).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (7/ 268)، و«الكشاف» (4/ 383)، و«المحرر الوجيز» (5/ 159)، و«تفسير القرطبي» (17/ 9)، و«التحرير والتنوير» (26/ 301).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 422)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 335)، و«تفسير القرطبي» (17/ 9)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 398)، و«التحرير والتنوير» (26/ 304).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 424)، و«الكشاف» (4/ 385)، و«تفسير القرطبي» (17/ 10)، و«تفسير القاسمي» (9/ 17).

(5) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 239)، و«تفسير البغوي» (4/ 272)، و«تفسير القرطبي» (17/ 10)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 302)، و«التحرير والتنوير» (26/ 302).

(6) ينظر: «ديوان الحُطيئة» (ص128)، و«لباب الآداب» للثعالبي (ص136).

ومن طبع الإنسان أن يتحفَّظ من جلسائه، ولو كانوا من خاصَّته، الذين يتبسَّط معهم بالحديث، إلا أن ثمة أمورًا لا يفعلها ولا يقولها بحضرتهم، فالنَّصُّ يلقي في حِسِّ السامع أن ثمة قعيدين لا يفارقانه في يقظة ولا منام، وهما أجدر بالتحفظ والحياء.

* ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾:

لم يذكر هنا إلا «**القول**»، ولم يذكر «**الفعل**»، **ولذلك أسرار**:

منها: أن «**القول**» أساس «**الفعل**»، والغالب أن المرء يتحدَّث عما يريد أن يفعل، ويكون حديثه ترسيخًا لإرادة «**الفعل**»، وتحفيزًا للغير على المضي في «**الفعل**».

ومنها: أن سياق السورة حديث عن أقوال المشركين والمكذِّبين[1]، ولذا يتكرَّر فيها لفظ: ﴿قَالَ﴾ بدءًا من قوله: ﴿فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

ومنها: أن المَلَك إذا كان يكتب «**الأقوال**»، فكتابة «**الأفعال**» من باب أولى[2].

ومنها: أن السياق يتدرَّج ويترقَّى من التحذير من «**وسوسة النفس**» التي يكون بمقدور المكلَّف تجنبها، إلى «**الأقوال**» التي يلفظها، إلى «**الأفعال**» التي تقع مرة ثم تتحوَّل إلى طبع وعادة، كما في قوله: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾.

والرَّقِيب هو: الحاضر، **والعَتِيد** هو: المتهيِّئ المستعد للكتابة والتدوين والإحصاء.

وأكثر المفسرين على أن ﴿رَقِيبٌ﴾ بمعنى: مراقب و﴿عَتِيدٌ﴾ بمعنى: حاضر[1].

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (26/ 303).

(2) ينظر: «روح البيان» (9/ 115)، و«التحرير والتنوير» (26/ 303)، و«تفسير الحجرات، الحديد» لابن عثيمين (ص297).

وقيل: إنه يكتب كل شيء، ثم يمحو ما لا قيمة له من الأقوال العادية التي لا يتعلق بها ثواب ولا عقاب، ولا حلال ولا حرام[2].

* ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾:

السَّكْرة هي: ذهاب العقل، ومنه: السُّكْر والسكران[3]، فالموت سَكْرة تجعل الإنسان في غيبوبة بغياب عقله عما حوله، وهو ﴿ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ ﴾ [المدثر: 46- 47][4]، وقد أدركتُ الناس وهم يسمون الموت بـ«**الحق**»، ويقولون: فلان جاءه الحق، أي: مات.

ومن معاني الحقِّ: أن سَكْرة الموت تكشف للإنسان ما كان يجحد، فإذا احتُضر أدرك الحقائق التي كان يجادل فيها، وكثير من الناس إذا مرض ذهب عناده، وبدأ قلبه يميل إلى الإيمان، فكيف إذا احتُضر؟ والله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِرْ[5]، أي: ما لم تبلغ الرُّوح الحُلقوم[6]، وحال فرعون وتشبثه بالإيمان وهو يغرق تشير إلى هذه الإفاقة التي فات أوانها.

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 335)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7041)، و«تفسير الماوردي» (5/ 347)، و«المحرر الوجيز» (5/ 161)، و«تفسير القرطبي» (17/ 11).

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 99)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (5/ 3757)، و«تفسير السمعاني» (5/ 240)، و«تفسير البغوي» (4/ 272)، و«المحرر الوجيز» (5/ 160)، و«تفسير القرطبي» (17/ 11)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 534)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 399).

(3) ينظر: «لسان العرب» (4/ 373) «س ك ر»، و«التحرير والتنوير» (26/ 306).

(4) ينظر ما سيأتي في «سورة المدثر».

(5) كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن اللهَ تعالى يقبلُ توبةَ عبده ما لم يُغَرْغِرْ**». أخرجه أحمد (6408)، والترمذي (3537)، وابن ماجه (4253)، وابن حبان (628)، والحاكم (4/ 257).

(6) ينظر: «الميسر في شرح مصابيح السنة» (2/ 544)، و«مرقاة المفاتيح» (4/ 1623).

﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أي: تهرب[1]، كما قال سبحانه: ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ ﴾ [الجمعة:8]، والطبع البشري ميَّال إلى كراهية الموت، حتى المؤمنين، وأشار إلى ذلك صلى الله عليه وسلم لما قال: «**مَن أحبَّ لقاءَ الله، أحبَّ اللهُ لقاءَهُ، ومَن كَرِهَ لقاءَ اللهَ، كَرِهَ اللهُ لقاءَهُ**». فقالت عائشة رضي الله عنها: يا نَبِيَّ الله، أكراهيةُ الموت، فكُلُّنا نكرهُ الموتَ؟ فقال: «**ليس كذلك؛ ولكنَّ المؤمنَ إذا بُشِّرَ برحمة الله ورضوانه وجنته أحبَّ لقاءَ الله، فأحبَّ اللهُ لقاءَهُ، وإن الكافرَ إذا بُشِّرَ بعذاب الله وسخطه كَرِهَ لقاءَ الله، وكَرِهَ اللهُ لقاءَهُ**»[2].

وكان صلى الله عليه وسلم يقول في مرض الموت: «**إن للموت سَكَرات**»[3]. ويمسح العرق عن جبينه، ويضع خَمِيصة على وجهه يتغطَّى بها، فإذا اغتمَّ بها كشفها[4]، حتى رأت فاطمةُ رضي الله عنها ما يعانيه، فقالت: واكرب أباه! فقال لها: «**ليس على أبيك كَرْبٌ بعد اليوم**»[5].

والمؤمن يتلقَّى البشارة عند موته؛ أن لا يخاف، ولا يحزن، ويُبَشَّر بالجنة ولقاء الأَحِبَّة.

ولا يصح حديث في ذكر الآلام المبرحة التي يحكيها الوُعَّاظ عند الموت، ولكن في القرآن ما يدل على أنها للكافر الجاحد، كما في قوله سبحانه: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ [محمد:27]، وقال:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 428)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 272)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 100)، و«الوجيز» للواحدي (ص1023)، و«تفسير البغوي» (4/ 273).

(2) أخرجه البخاري (6507)، ومسلم (2684) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(3) أخرجه البخاري (4449) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(4) أخرجه البخاري (435، 4443)، ومسلم (531) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(5) أخرجه البخاري (4462) من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ﴾ [الأنفال:50]، وقال: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ [الأنعام:93]، أي: بالضرب للكافرين والفاجرين[1].

وقد يعاني المؤمن من آلام المرض الذي يسبق الموت، ولا يبعد أن يكون لنزع الروح بعض الألم، وقد كتب الإمام ابن حزم رسالة سماها: «ألم الموت وإبطاله»، وكتب ابن مِسْكَوَيْه نحوها، فليتأمَّل ما ذكروه، ويقارن بما دلَّت عليه النصوص الصحيحة[2].

* ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠﴾:

انتقل السياق من الدنيا إلى الآخرة، وذكر تفصيلات **البعث**، وما يحدث فيه بدءًا من حياة البرزخ في القبر، ثم البعث؛ ليؤكِّد جِدِّية الأمر، ووجوب الاستعداد له، والإيمان به.

والصُّور هو: القَرْن الذي ينفخ فيه إسرافيلُ[3]، وهي النفخة الثانية، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ [الزمر:68]، وحقيقته وماهيته غيبٌ لا يعلمه إلا الله، والإنسان بطبعه يتخيَّل الأشياء بحسب ما يعرف مما يشبهها في عالمه الدنيوي، ولا شك أن ثَمَّ شبهًا اقتضى أن تسمى بتلك الأسماء المعروفة لدى البشر،

---

(1) ينظر: «تفسير ابن كثير» (3/ 302)، و«تفسير السعدي» (ص264)، و«أضواء البيان» (7/ 382).

(2) نُشرت رسالة ابن حزم: «ألم الموت وإبطاله» ضمن «رسائل ابن حزم الأندلسي» بتحقيق إحسان عباس (4/ 357- 360).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (4/ 290)، و«التفسير البسيط» للواحدي (22/ 413)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 225)، و«تفسير ابن كثير» (5/ 200)، و«فتح القدير» (4/ 429).

لكن ثَمَّ فرقٌ عظيم لا يحيط به الإنسان بين ما يعلم ويرى وبين حقائق الآخرة وأخبارها.

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾: وهو يوم الوعد، فالقيامة فيها الوعد والوَعِيد[1]، وإنما قَدَّم ﴿ٱلۡوَعِيدِ﴾؛ لأن السياق في المشركين المكذِّبين، فكان من المناسب أن يقدِّم ﴿ٱلۡوَعِيدِ﴾ الزاجر لهم[2].

* ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ ... ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾:

كل الناس يبعثون، و ﴿كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾؛ ﴿سَآئِقٞ﴾ يقودها، ﴿وَشَهِيدٞ﴾ عليها[3]، وهذا يشمل المؤمنين وغير المؤمنين[4]، كما قال سبحانه: ﴿ ٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ [الزمر:71]، ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ﴾ [الزمر:73].

ويمكن أن يكون المقصود: الكافر فقط؛ لما أسلفناه من أن السياق مخاطبة للكافرين[5]، ولذلك قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾، وهذا يصدق على الكافر، بخلاف المؤمن الممدوح، فإنه خُصَّ ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ﴾ [ص: 46].

وعبَّر بقوله: ﴿فِي غَفۡلَةٖ﴾، **فالغفلة** وعاء محيط به، ومُطْبِق عليه.

﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾: وكأن «**الغفلة**» كانت غطاء على عقله، ثم على جوارحه، فلا يرى الحقائق ولا يدركها.

---

(1) ينظر: «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (5/ 450)، و«فتح القدير» (5/ 90).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (26/ 307).

(3) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 229)، و«تفسير الطبري» (21/ 429)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 45)، و«زاد المسير» (4/ 161)، و«تفسير القرطبي» (17/ 14)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 401).

(4) ينظر: «تفسير الرازي» (28/ 135)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 28)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (4/ 85).

(5) ينظر: «التحرير والتنوير» (26/ 307).

﴿ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ أي: حادٌّ[1]، فنظرك اليوم قادر على رؤية الأشياء واستحضارها وتصورها.

وقد عاب الله تعالى عليهم أنهم لم يكلِّفوا أنفسهم عناء النظر إلى السماء فوقهم، كيف بناها وزَيَّنَها، وما لها من فُروج، والنظر إلى الأرض كيف مدَّها، وألقى فيها رواسي، وأنبت فيها من كل زوج بَهِيج، فلم يكن بصرهم في الدنيا حَدِيدًا، بل كان كَلِيلًا مُعْرِضًا، أما اليوم فهو حَدِيد، حيث لا ينفعهم إلا الخوف والترقُّب والتوجُّس.

وقد يكون الحديد هو: الشاخص، كحالة تلقائية لسَكْرة الموت وخروج الروح، فإذا خرجت الرُّوح تبعها البصر[2].

* ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾:

القَرِيْن ذُكر في السورة مرتين، وهل هو القَرِين الرَّحماني أو القَرِين الشَّيطاني؟ هل هو قَرِين السُّوء أو المَلَك؟ **والأقرب**: أن مع الإنسان قَرِينين: مَلَكي، وشَيْطاني، كما في قوله: ﴿ تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ ﴾ [الزخرف: 36]، وقوله: ﴿ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [فصلت:25]، وفي الحديث: «**ما**

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 335)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7046)، و«زاد المسير» (4/ 161).

وينظر أيضًا: «تأويل مشكل القرآن» (ص239)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص419)، و«بصائر ذوي التمييز» (2/ 438)، و«الكليات» للكَفَوي (ص412).

(2) كما جاء في حديث أم سلمة رضي الله عنها، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الرُّوحَ إذا قُبِضَ تَبِعَهُ البصرُ**». أخرجه مسلم (920).

منكم من أحد إِلَّا وقد وُكِّلَ به قَرِينُهُ من الجن». قالوا: وإِيَّاكَ يا رسولَ الله؟ قال: «**وإِيَّايَ، إِلَّا أن اللهَ أعانني عليه فَأَسلمَ**[1]**، فلا يَأْمُرُني إِلَّا بخير**»[2].

والمقصود هنا: المَلَك؛ لقوله: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: حاضر مهيَّأ، وهو يشير إلى صحيفة أعمال صاحبه، وهو قول الحسن وقتادة والضَّحاك[3].

* ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾:

أي: شديد العِنَاد، لا يلين ولا يستسلم للحجة، والمخاطَب مفرد على الظاهر[4]، وهذا جارٍ على قواعد اللغة، كما في قول امرئ القَيْس:

خَليلَيَّ مُرَّا بي على أُمِّ جُنْدَبِ *** نُقَضِّ لُبَاناتِ الفُؤادِ المُعذَّبِ[5]

وقوله:

قِفا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ[6]

وهو كثير في الشِّعْر، وقد يقول الشاعر بعدها: يا صاحِ.. أو يا صاحبي.. مما يدل على أن المخاطَب مفرد.

---

(1) قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (17/ 157- 158): «برفع الميم وفتحها، وهما روايتان مشهورتان، فمَن رفع قال: معناه: أسلمُ أنا من شرِّه وفتنته، ومَن فتح قال: إن القرين أسلمَ، من الإسلام وصار مؤمنًا، لا يأمرني إلا بخير...».

(2) أخرجه مسلم (2814) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 357)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 336)، و«تفسير السمعاني» (5/ 242)، و«تفسير القرطبي» (17/ 16)، و«فتح القدير» (5/ 90)، و«التحرير والتنوير» (26/ 310).

(4) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 336)، و«تفسير القرطبي» (17/ 16)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 303)، و«التحرير والتنوير» (26/ 312). وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص590)، و«مختار الصحاح» (ص219)، و«لسان العرب» (3/ 307) «ع ن د».

(5) ينظر: «ديوان امرئ القيس» (ص74).

(6) ينظر: «ديوان امرئ القيس» (ص21).

ويجوز أن يكون المخاطَب مثنى[1]، وهما ملكان؛ إما السائق والشهيد- وقد مر ذكرهما- أو غيرهما.

* ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: يمنع الخير عن الآخرين، وقد يمنع الإيمان ويحارب أهله، فهو ينهى عبدًا إذا صلَّى، ويحارب الضعفاء إذا أسلموا، ويحاول أن يُؤَثِّرَ على عقول الناس، ويحجز بينهم وبين الإيمان.

﴿مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾: يعتدي على الناس، والوصف يشير إلى عموم العدوان اللَّفظي والحِسِّي، **والمُرِيْب**: مَن عنده رَيْب، أي: شكٌّ في نفسه، ويصيب الآخرين بالارتياب[2].

* ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾:

فهو مشرك مع الله، وهذه أفعاله التي دل عليها كتابه، وهذه عنواناتها.

﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ تأكيد للأمر الأول[3]، وتحديد للدَّرْك الذي يستحقه، والعذاب الذي أُمروا أن يضعوه فيه.

* ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 101)، و«تفسير القرطبي» (17/ 16)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 303).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 387)، و«تفسير الرازي» (28/ 137)، و«تفسير القرطبي» (17/ 17)، و«تفسير النسفي» (3/ 366)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 399)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 537)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 402)، و«تفسير القاسمي» (9/ 22)، و«التحرير والتنوير» (26/ 312).

(3) ينظر: «تفسير القرطبي» (17/ 17)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 142)، و«روح البيان» (9/ 124)، و«فتح القدير» (5/ 91)، و«تفسير القاسمي» (9/ 23).

﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ ﴾: القَرِين الأول الذي قال: ﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ هو القَرِين المَلَكي، **والقَرِيْن** هنا هو الشيطاني؛ حيث يتبرَّأ من صاحبه، كما في «سورة إبراهيم»: ﴿طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾[1].

فهذا القَرِيْن يدافع عن نفسه، ويقول: لست أنا الذي حملته على المعصية والطغيان، ولكن هو الذي اختار ذلك، و﴿كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

والموقف صعب، والخَطْب جَسيم، والنَّكال مُخيف، ولا أحد يريد أن يتحمل وزر أحد، حيث ﴿كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا﴾ [عبس: 34- 36]، ﴿ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [المعارج: 13]، و﴿نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ ﴾ [الدخان: 41]، فيتبرَّأ الزعماء والقادة والكُبراء من أَتْباعهم، والعُبَّاد من معبوداتهم، والمعبودات من عابديها، والجنُّ من الإنس، والإنس من الجنِّ، وينفصل كلُّ أحد عن كل أحد، و﴿عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ﴾ [الانفطار: 19].

* ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾:

﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ ﴾: ليس هذا وقت الخصومة، ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ في الدنيا، كما نقرأ الآن ونحن في الحياة الدنيا، وهو تعالى يخبرنا بهذا الأمر الآن، وكأننا نرى المشاهد عَيانًا؛ لنعتبر ونضع أنفسنا في ذلك الموقف، وندرك ما يتوجَّب علينا فعله قبل حلول العذاب.

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 230)، و«تفسير الطبري» (21/ 440)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 102)، و«تفسير السمعاني» (5/ 243)، و«تفسير البغوي» (4/ 274).

* ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾:

أي: هذا إلى الجنة، وهذا إلى النار، وكل إنسان يُجزَى بعمله.

هذا هو المعنى، وهذا لا يمنع ولا يعارض أن يرحم الله من عباده مَن سيغفر لهم من أصحاب الكبائر مما دون الشرك.

وكذلك لا ينفي هذا أن ينسخ حكمًا من الأحكام، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ ﴾ [البقرة: 106].

وفي قصة الإسراء أُمِر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بخمسين صلاة، وخُفِّفت حتى أصبحت خمسًا، ثم قال الله تعالى: «**أمضيتُ فريضتي، وخفَّفْتُ عن عبادي، وأَجْزِي الحسنةَ عشرًا**»[1].

وفي رواية: «**إنه لا يُبَدَّلُ القولُ لديَّ، كما فرضْتُهُ عليك في أُمِّ الكتاب، قال: فكلُّ حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسونَ في أُمِّ الكتاب، وهي خمسٌ عليكَ**»[2]. فهذا هو القول الأخير الذي استقر الأمر عليه، ولا نسخ بعده.

﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾: فهو تعالى أدخلهم النار بذنوبهم، وبعدما قامت عليهم الحُجَّة، ولو أن الله عاقبهم قبل أن تصلهم الحُجَّة ودلالات الرسالة لكان ذلك ظلمًا، وهو تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾، فهو نفي للظلم كله، كثيره وقليله، ولذلك قال سبحانه: «**يا عبادي، إنِّي حرَّمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلْتُه بينكم محرَّمًا، فلا تظالَموا**»[3].

---

(1) أخرجه البخاري (3207، 3887) من حديث أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

(2) أخرجه البخاري (7517)، ومسلم (162) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(3) أخرجه مسلم (2577) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

والبيان هنا ظاهر في السياق في قوله: ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ٢٨﴾، وآيات القرآن تنضح بهذا المعنى المهم الذي يقتضي مراعاة قيام الحُجَّة، وبلوغها على وجه يزيل المعذرة، وقد لا يحيط بهذا إلا الله، كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾ [القصص:59]، وكما في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [سورة الإسراء:15]، وكما في قوله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا﴾ [الأنعام:130].

* ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠﴾:

القول هنا على سبيل التوبيخ والإهانة لأصحابها المستحقِّين لها، وتقول هي بلسان الحال أو بلسان المقال، والله تعالى على كل شيء قدير: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾[1].

والله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الفرقان:12– 13]، وقال: ﴿أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ﴾ [الملك:6-8].

فلا مانع أن يجعل تعالى لها يومئذ الإدراك والكلام، فكل الكائنات مسخَّرة بأمره، مذلَّلة لحكمه، ولا غرابة أن تسمع وتفهم، وترد وتقول، فهذا شأن مَن لا يعجزه شيءٌ، ومَن جعل الإدراك في البشر، وهو خلقهم أصلًا من تراب جامد لازب.

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 245)، و«زاد المسير» (4/ 163)، و«تفسير القرطبي» (17/ 18)، و«تفسير النسفي» (3/ 367)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 303)، و«التحرير والتنوير» (26/ 317).

وسؤال النار سؤال يتضمَّن التقرير، **فيكون المعنى**: امتلأت ولا مزيد، **أو هو بمعنى**: طلب المزيد[1]، **وهو أقرب**، كما دلَّت على ذلك السنة المطهَّرة؛ أن يُلقى فيها، وهي تقول: هل من مزيد[2]، والله أعلم.

* ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾:

في مقابل المشهد الُمخيف من العذاب، وصورة الملائكة وهي تأخذ الكافر العَنِيد، وتُلقيه في سواء الجحيم، يصوِّر تعالى الجنة وقد أُزْلِفت.

والإِزْلاف: التقريب للطائعين والمؤمنين[3]، فلا يحتاجون أن يسيروا إليها مسافات طويلة، والجنة مكانها معروف، ولكن الله تعالى يزلفها بحكمته دون أن يتجشَّموا عناء المشي، وهذا من أمور الآخرة التي على المؤمن أن يسلِّم بها ولو لم يتصوَّرها عقله، ونحن نرى في فعل البشر اليوم من التسهيلات التي لم يخطر ببال أحد من السابقين، فما ظنك برب العالمين الذي لا يعجزه شيء؟

* ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢﴾:

أي: هذا هو الوعد ترونه أمامكم[4].

والله تعالى قد يؤخِّر «**وعيده**»، أو يعفو ويغفر لَمن يشاء، أما «**الوعد**» فهو ماضٍ نافذ.

قال عامر بن الطُّفيل[1]:

---

(1) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 168)، و«تفسير السمعاني» (5/ 244)، و«تفسير البغوي» (4/ 275)، و«تفسير القرطبي» (17/ 18)، و«فتح القدير» (5/ 92).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (4848، 4849)، و«صحيح مسلم» (2848).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (26/ 318).

(4) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 275)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 104)، و«تفسير البغوي» (4/ 275)، و«المحرر الوجيز» (5/ 166)، و«زاد المسير» (4/ 163)، و«تفسير القرطبي» (17/ 20).

لا يُرهِبُ ابنَ العَمِّ منِّيَ صَوْلَةٌ *** ولا أَخْتَنِي[2] مِن صَوْلَةِ المُتَهَدِّدِ
وإنِّيَ إن أَوْعَدْتُهُ أو وَعَدْتُهُ *** لمُخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ مَوعِدي

فالله لا يخلف الميعاد: ﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ [الأحقاف:16]، أما الوعيد على بعض الموحِّدين، كأصحاب الكبائر فقد ينفذه تعالى، وقد يعفو ويصفح، وهذا لا يدخل في ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾، فإن هذا من «**القول**» من قوله سبحانه: ﴿طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ﴾ [النساء:48]، وقد يغفر للمؤمن المفرِّط وينجو من العذاب؛ إما برحمة أرحم الراحمين، أو بشفاعة المرسلين، أو بشفاعة الملائكة، أو بشفاعة إخوانهم، أو ببلايا ومصائب سلفت، أو بسكرات الموت، أو بأهوال يوم القيامة، أو بالكفارات، أو بما يشاء الله عز وجل[3].

والأَوَّاب هو: الرَّجَّاع إلى الله كلما أخطأ[4]، أما **الحَفِيْظ** فهو: الذي يحفظ إيمانه من الذنوب، ويحفظ عهد الله وميثاقه[5].

---

(1) ينظر: «ديوان عامر بن الطُّفيل» (ص58)، و«لسان العرب» (1/ 63)، و«تاج العروس» (1/ 207) «خ ت أ».

وينظر أيضًا: «عيون الأخبار» (2/ 158)، و«المجالسة» للدينوري (1896م)، و«ربيع الأبرار» (2/ 52).

(2) اختنأَ منه: استَتَر خَوْفًا.

(3) ينظر: «مجموع الفتاوى» (4/ 432)، (10/ 655).

(4) ينظر: «تفسير الرازي» (28/ 145)، و«تفسير القرطبي» (17/ 20)، و«فتح القدير» (5/ 92).
وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص378)، و«جمهرة اللغة» (2/ 1029)، و«مجمل اللغة» (ص106)، و«لسان العرب» (1/ 217)، و«تاج العروس» (2/ 35) «أ و ب».

(5) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 337)، و«تفسير الماوردي» (5/ 353)، و«الوجيز» للواحدي (ص1024)، و«تفسير السمعاني» (5/ 245)، و«تفسير البغوي» (4/ 276)، و«الكشاف» (4/ 389)، و«تفسير الرازي» (28/ 145)، و«التحرير والتنوير» (26/ 319).

* ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾:

﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿ فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ ﴾ [الملك: 12]، وهو يشمل خشية الله في الخلوة حين لا يكون بمَرْأَى من الناس، وهو أدل على التقوى والإخلاص، ويشمل خشية الله مع أنه تعالى غيب لم يره، ولكنه آمن به من الخبر الصادق على ألسنة رسله عليهم السلام[1].

التفصيل في إثبات الغيب يزيد الإيمان، فإن الإيمان يزيد وينقص، ومن زيادة الإيمان: الإيمان بالتفصيل، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [التوبة: 124].

الإيمان الْمُفَصَّل أقوى وأعظم تأثيرًا في النفس، وأبعد عن أن ينساه العبد، وأبعد عن الشبهات، يزيد يقينًا بوجوده؛ لأنه يدرك أنه صار عالمًا مشهودًا لغيره، وإن كان لا يزال عالمًا غيبيًّا، فالقياس هنا مع الفارق.

﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾: **الإِنَابَة** هي: التوبة والإقبال على الله[2]، كما في قصة داود عليه السلام: ﴿ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ﴾ [ص:24]، والقرآن الكريم كثيرًا ما يذكر «**الأَوْبَة**»، و«**الإِنَابَة**»؛ مما يشير إلى أن من طبيعة الإنسان أن يتفلَّت قلبه، ويقع منه زلل في سمعه، أو بصره، أو لسانه، أو في فرجه، وكما قال النبيُّ صلى الله

---

(1) ينظر: «تفسير البغوي» (4/ 276)، و«الكشاف» (4/ 390)، و«تفسير القرطبي» (17/ 21)، و«تفسير الخازن» (4/ 190)، و«فتح القدير» (5/ 92)، وما سيأتي في «سورة الملك».

(2) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص827)، و«التحرير والتنوير» (23/ 240).

عليه وسلم: «**استقيمُوا ولن تُحْصُوا**»[1]. وفي الحديث الآخر: «**سَدِّدُوا وقارِبُوا، واغْدُوا ورُوحُوا، وشيءٌ من الدُّلْجَة، والقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغوا**»[2].

وهي توجيهات نبوية بضرورة الاعتدال، وأن على المرء أن يعرف نفسه وتكوينه وطبيعته، فربكم أعلم بكم، كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ﴾ [النجم:32].

* ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾:

وفي السياق تناسق عجيب! ثمان فقرات في غاية التناسق:

بدأت بقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾، فهذه هي الكرامة الأولى؛ حيث أُدنيت لهم الجنة.

ثم ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾، فهذا النعيم هو الوعد الحق الذي وعدكم تعالى به في الدنيا.

ثم بيَّن لهم ثالثًا أن هذا من فضل الله، وببركة أعمالهم، وفي ذلك إشادة بهم وتكريم ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢﴾.

ثم قال لهم: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾: ويا لفرحتهم بهذا الفوز والتكريم.

---

(1) أخرجه الطيالسي (1089)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (3/ 154)، وأبو عبيد في «الطهور» (19)، وأحمد (22378، 22436)، وابن ماجه (277)، وابن حبان (1037)، والحاكم (1/ 130)، والبيهقي (1/ 132، 670) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

وقال العقيلي في «الضعفاء» (4/ 168): «يُروى بإسناد ثابت عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم». وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (2/ 232- 233)، و«إرواء الغليل» (412)، و«السلسلة الصحيحة» (115).

(2) أخرجه البخاري (6463)، ومسلم (2816) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم قال لهم خامسًا: ﴿بِسَلَٰمٍ﴾، فدخولهم هو نهاية الآلام والمعاناة إلى السَّلام المُطلق، فالله يسلِّم عليهم، والملائكة تسلِّم عليهم، وأصحاب الجنة يسلِّم بعضهم على بعض.

ثم قال لهم سادسًا: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤﴾، فخلودهم أَبَدْي سَرْمدي، ليس ثمة خوف من الموت، كما كان الأمر في الدنيا، والجنة وأهلها خالدون بإجماع المسلمين، بلا تحول ولا زوال[1].

ثم قال لهم سابعًا: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ من الرزق، وكل ما يخطر على البال، أو يمر في الخيال.

ولهم الكرامة الإلهية بالنظر إلى وجه الله الكريم، وسماع حديثه، وما في الجنة من ألوان النَّعيم الذي لا تحيط به عقول أهل الدنيا، فهذه ثامنة الفقرات المتتابعة المتصاعدة في الفضل والنعيم، عبَّر عنها بقوله: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٌ ٣٥﴾، والفضل الإلهي: «**ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر**»[2].

والمَزِيد هنا يشبه ما في «سورة يونس»: ﴿ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم﴾ [يونس:26][3].

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة الحديد»: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، و«سورة النبأ»: ﴿مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا بِٱلطَّيِّبِ﴾.

(2) كما في «صحيح البخاري» (3244)، و«صحيح مسلم» (2824، 4779) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**قال اللهُ: أَعْدَدْتُ لعبادي الصالِحِينَ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر**».

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 365)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 338)، و«تفسير القرطبي» (17/ 21)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 304)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 407)، وما سيأتي في «سورة القيامة»: ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا﴾.

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا ﴾:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى ﴾ ممن سلف وذُكر، ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ﴾ أي: أقوى من قومك العرب أهل مكة وما حولها بأجسامهم، ﴿ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا ﴾: إما أن هذه الأمم التي أهلكها سبحانه كانوا إذا نزل بهم العذاب ذهبوا يبحثون عن مهرب أو ملجأ من عذاب الله، فلا يجدون[1]، فالله تعالى يقول لقريش الذي عُرف عنهم رحلة الشتاء والصيف وكثرة التنقل: ﴿ وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا ﴾؟ هل من مهرب من عذاب الله عز وجل؟ وهو كقوله سبحانه: ﴿ زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ﴾ [الأنبياء:12][2].

* ﴿ وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾:

هذا الوصف البَلِيغ الذي يعجز البشر عن الإتيان بمثله ذكرى ﴿ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ ﴾، وفيه تحريض على التَّذَكُّر، وإحياء القلوب، وتعريض بذلك النوع من البشر الذي لا يعتبر بما حوله من آيات ونُذُر، ولا بما حكاه الله في كتابه من عبر ومآلٍ للغابرين، فكأنه حين لم يعتبر، ولم يتأَثَّر صار بلا قلب، و**القلب** ولو كان ضعيفًا أو مريضًا، فإنه قد يحيا ويعتبر بالآيات والنُّذُر، وقد تكون سببًا في هدايته ورجوعه إلى الله؛ لكن إذا كان بلا قلب فأي حيلة فيه، والعبرة ليست بوجود هذه المضغة، وإنما بتوظيفها في الاعتبار والإنابة.

---

(1) ينظر: «تفسير البغوي» (4/ 276)، و«تفسير الرازي» (28/ 150)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 304)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 408- 409).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (16/ 234)، (21/ 461)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 366)، و«تفسير الماوردي» (3/ 439)، (5/ 355)، و«تفسير ابن كثير» (5/ 335)، (7/ 409)، و«فتح القدير» (5/ 95).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ﴾: صوَّر «**السَّمْع**» بأنه شيء يُلقى؛ بحيث لا يصرفه شيء عن «**الاستماع**»، ﴿كَانَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: حاضر[1].

وهذا دليل على عظم تأثير «**الصورة**» مع «**السمع**»؛ حيث ذكر «**القلب**» المعبِّر عن الوعي واليقظة، ثم ثنَّى بذكر حاسَّة «**السمع**» مع «**الشهادة**»؛ وهي المشاهدة والرؤية، والناس اليوم يقولون: حدَّثني وسوف أنسى، أرني وقد أتذكر، أشركني وسوف أحفظ، فإذا كان ثمة شراكة بين الصوت والصورة، بين الأذن والعين، فإن الإنسان لا ينسى!

فمتى سمع بأذنه، ورأى بعينه، أو تخيَّل ما لا يمكن رؤيته؛ كان ذلك من الذِّكْرى الحسنة له، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: «**الإحسانُ: أن تعبدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراكَ**»[2].

* ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ﴾ (٢):

عود على ما ذكره أول السورة من الدعوة للاعتبار بالسماوات والأرض؛ لتأكيد المعنى، ولنفي الشبهة التي قالها اليهود، وربما تسلَّلت إلى بعض الوثنيين من العرب؛ وهي أن الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استراح يوم السبت[3]،

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 106)، و«الوجيز» للواحدي (ص1025)، و«إيجاز البيان» (2/ 761)، و«تفسير القرطبي» (17/ 23)، و«فتح القدير» (5/ 95).

(2) أخرجه البخاري (50، 4777)، ومسلم (9) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم (8) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (2965)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 339)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 106)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 170)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 409).

فقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ أي: ما أصابه تعالى عجز أو تعب بسبب الخلق[1]؛ لأن فعله ليس معالجة، كما يحدث من البشر الذين يعملون بأيديهم ويتعبون ويَجْهَدُون، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس:82].

واللُّغُوب هو: أقل درجات التَّعَب[2]، ونفي القليل يتضمَّن نفي ما فوقه.

* ﴿أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾:

﴿أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ﴾ عن الله، أو عن البعث، أو عنك بوصفك: ﴿سَاحِرٌ﴾، ﴿أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾، ﴿﴾، ﴿كَذَّابٌ﴾[3]، وقد أعطاه الصبر والثَّبَات والاستمرار على الطريق؛ وهي التسبيح، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾ [الحجر:97- 99].

وقد علم تعالى أن الرسول صلى الله عليه وسلم يضيق صدره بما يقولون؛ من وصفه بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، أو أنه يكتتب أَساطير الأولين، أو يريد المجد أو المُلك أو المال أو العلو في الأرض، فهذا أمر مؤلم ومؤذٍ لنفس طاهرة زكيَّة كريمة، لا تَحْمِل للناس إلا الخير والجميل، وأشد ألمًا منه حرمانهم أنفسهم من الخير والإيمان والتصديق، وإصرارهم على التكذيب، وتأثيرهم على البُسطاء والدَّهْمَاء من الناس؛ بالدِّعايات المزيَّفة، والأقاويل المزخرفة التي يروِّجونها ويردِّدونها حتى

---

(1) ينظر: «الوجيز» للواحدي (ص1025)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 144)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 409)، و«تفسير الجلالين» (ص691)، و«التحرير والتنوير» (26/ 325).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 356)، و«تفسير السمعاني» (5/ 247)، و«الكشاف» (4/ 392)، و«المحرر الوجيز» (5/ 168)، و«زاد المسير» (4/ 165)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 409).

وينظر أيضًا: «مقاييس اللغة» (5/ 256)، و«لسان العرب» (1/ 742) «ل غ ب».

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 367)، و«الكشاف» (4/ 392)، و«التفسير المظهري» (9/ 75)، وما تقدم عند قوله تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥﴾.

يتناقلها العامة، ويتظاهرون بتصديقها، كما يحدث في الحملات الإعلامية الموجهة المُغْرضة التي تستهدف شخصًا أو جماعة.

﴿أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ﴾: فربك يعلم ما يقولون ويطَّلع عليه، ويوصيك بأن تصبر عليه، وإذا تصبَّرت فإن الله سيزيدك صبرًا ويثبِّتك، فلا يقع لقلبك ضعف أو تأثر أو حزن يصرفك عن تبليغ رسالات الله تعالى.

والصَّبْر ضروري للنجاح في الحياة كلها، وبخاصة مَن يخالط الناس ويدعوهم، ويحاول تغيير سلوكهم وواقعهم، وكما قال صلى الله عليه وسلم: «**مَن يتصبَّر يُصَبِّره اللهُ، ومَن يستغن يغنه اللهُ**»(1).

وقد أمر اللهُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالصبر في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ﴾ [المزمل: 10]، وقال: ﴿إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن﴾ [المعارج: 5- 7]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ [الكهف: 28]، وقال: ﴿فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ﴾ [النحل: 127]، وقال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: 60]، وقال: ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: 65]، وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ﴾ [طه: 132].

والداعية الذي لا صبر له لا يمكن أن يستمر على دعوته، ولا شيء يُقَوِّي صبر المؤمن مثل أن يستمد العون من ربِّه؛ لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ﴿بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ [يونس: 99]، وقال سبحانه: ﴿وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ﴾ [الغاشية: 22]، فوظيفة

---

(1) أخرجه البخاري (6470)، ومسلم (1053) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

الرسول تتلخَّص في النَّذارة والتذكير والتبليغ، أما اهتداء الناس أو عدمه فهذا شأن ربِّ العالمين: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾ [الرعد: 31]، والمؤمن لشدَّة غيرته وفرط حماسه وإشفاقه يصيبه همٌّ شديد، ويحزن لما يجد حين يدعوهم إلى النَّجَاة، ويدعونه إلى النَّار، ويواجهونه بالكيد والحرب والتكذيب، فالله تعالى يسلِّيه ويعزِّيه، ويأمره بأن لا يحزن عليهم، ولا يضيق صدره بهم، ولا يبتئس بما يفعلون ويمكرون، وأن لا تذهب نفسه حسرات عليهم.

وهذا سرٌّ من أسرار المداومة على الطريق؛ فإن مَن غلبه اليأس والحزن والكآبة من فعل الناس، وتأثَّر بالصدمات التي تواجهه سَرْعان ما يستحسر ويضعف، ثم يتراجع ثم يتوقَّف وينكفئ، وينعزل وهو يرى أن لا فائدة في الإصلاح، ولا أمل في التغيير.

﴿حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي﴾: **والتسبيح** يمنح المؤمن طاقة هائلة، وكثيرًا ما يُوْصِي صلى الله عليه وسلم بالتسبيح[1].

والتسبيح هو: تنزيه الله تعالى عما لا يليق به[2]، وهي عبادة تنعكس على العابد نفسه، فكلَما نزَّهت الله وسبَّحْته كان ذلك تنزيهًا لنفسك من أدران الذنوب والعيوب،

---

(1) كما في «صحيح البخاري» (3705)، و«صحيح مسلم» (2727) من حديث علي رضي الله عنه، أن فاطمةَ رضي الله عنها اشتكت ما تَلْقَى من الرَّحَى في يدها، فسألت النبيَّ صلى الله عليه وسلم خادمًا، فأوصاهما بالتكبير والتسبيح والتحميد، وقال: «**هو خير لكما من خادم**».

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة الحديد»: ﴿لَكُمْ قِيَمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥ وَٱبْتَلُواْ﴾، و«سورة الحشر»: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا﴾.

والنقائص والمعاصي، فترتقي إلى القدسية أو تقترب منها؛ ولعل المقصود هنا: الصلاة[1]، بما فيها من قراءة الفاتحة التي فيها ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

فيكون المعنى: صلِّ لربك؛ لأن الصلاة يجتمع فيها القرآن والإحرام بالصلاة والذكر والتسبيح في الركوع والسجود والحمد في القيام، وما ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا﴾: صلاة الفجر، ﴿تُقْسِطُوا۟ فِى﴾: صلاة الظهر والعصر[2]؛ حيث يجمعهما وقت واحد؛ وهو ما بعد الزوال، ولذلك يجوز للمسافر والمريض والمحتاج جمع الصلاتين[3].

* ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ﴾: فهذه صلاة المغرب والعشاء[4]، فالآية جمعت أوقات الصلوات الخمس، مثل قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾ [الروم:17- 18]، ويدخل في الليل: التهجد والقيام الذي كان فرضًا على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مشروع لأمته[5].

﴿لَكُم مِّنَ﴾: الوتر، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[6].

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 392)، و«تفسير الرازي» (28/ 152)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 304)، و«التحرير والتنوير» (26/ 326).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 339)، و«الوجيز» للواحدي (ص1025)، و«تفسير البغوي» (4/ 277)، و«زاد المسير» (4/ 165)، و«تفسير القرطبي» (17/ 24)، و«التحرير والتنوير» (26/ 327).

(3) ينظر: «فقه العبادة» (2/ 421، 447).

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 116)، و«تفسير الطبري» (21/ 607)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 303)، و«زاد المسير» (4/ 165)، و«التحرير والتنوير» (26/ 327).

(5) ينظر ما سيأتي في «سورة المزمل»: ﴿ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ...﴾ [المزمل:20].

(6) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 171)، و«تفسير القرطبي» (17/ 26)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 542)، و«التحرير والتنوير» (26/ 328).

والفرق بين «**أدبار السُّجود**» المذكورة هنا، وبين «**إدبار النُّجوم**» المذكورة في «سورة الطُّور»: أن «**إدبار النُّجوم**» يعني: مغيبها، فيكون المقصود: صلاة الفجر[1]؛ لأنها في آخر الليل، أما «**أدبار السُّجود**» فهو: جمع دُبُر، **ودُبُر الصلاة**: آخرها قبل التسليم، ويشمل ما بعد التسليم[2]، فالأدعية التي تُقال دُبُر الصلاة منها ما هو قبل السلام، ومنها ما هو بعده مباشرة.

وهي **دعوةٌ** إلى **النَّوَافِل** التي تصلَّى عقب **الفريضة**[3]، وكذلك صلاة الوتر التي أقلها واحدة، وأدنى الكمال فيها ثلاث[4]، والسنة أن يجعلها إحدى عشرة أو ثلاث عشرة ركعة، فإذا طال الوقت مَدَّ، وإذا قصر اقتصر وصلَّى العدد، فجَمَعَ الأمر: الصلوات الفريضة، والنوافل التي تكمِّلها وتجبر نقصها.

* ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾:

﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ فالأمر لن يطول، وإذا كنت تسمع منهم ما يؤذيك سماعًا عابرًا من غير قصد، فعليك أن تصيخ بأذنيك، وتلقى بسمعك، وتتحرَّى تلك اللحظة الموعودة الآتية بلا ارتياب؛ لحظة النَّفْخ في الصُّوْر.

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 608)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 357)، و«تفسير القرطبي» (17/ 80)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 441)، وما سيأتي في «سورة الطور».

(2) ينظر: «الصلاة» لابن القيم (ص153)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (2/ 229).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (1180)، و«صحيح مسلم» (728، 729).

(4) ينظر: «المغني» (2/ 111)، و«المجموع» (4/ 11- 12)، و«فقه العبادة» (2/ 301، 305).

﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا﴾: قريب منكم، والمنادي هو المَلَك الموكَّل، وهي النفخة الثانية التي ترتدُّ بها الأرواح إلى أجسادها؛ لأن هذا هو المقصود الأكبر؛ أن يُبعثوا ويُحاسبوا ويُحاكموا ويفصل بينهم[1].

وقد يرد الوعيد عليهم بالصيحة الأولى؛ التي هي نفخة الموت والهلاك والدَّمار، ولكل منهما مناسبته.

فالمناسب للتعزية والتسلية ذكر **النفخة الثانية؛** نفخة البعث والخروج، والمناسب للاغترار بالقوة والبأس وللتجبر والتكبر ذكر **النفخة الأولى** للهدم والدَّمار.

* ﴿فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا﴾:

ويوم الخروج أصبح علمًا على يوم القيامة، أي: خروج الناس من قبورهم[2].

* ﴿تَعُولُواْ ٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾:

فذكر الخلق الأول، ثم الموت، ثم البعث، وأنه شأن الله تعالى وحده.

والإنسان كان عدمًا، ثم أحياه الله، ثم يميته، ثم يبعثه ليوم القيامة.

* ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾:

﴿طِبۡنَ﴾: فعل مضارع، أصله: «تتشقق»، ومن الإعجاز هنا الجمع بين «**التشقق**» الذي هو فعل تدريجي بخلاف «**الانشقاق**» فهو دفعة واحدة، وبين «**السُّرْعَة**»: ﴿شَيۡءٖ مِّنۡهُ﴾، فهو تدرج سريع، يشبه ما يحدث من تشقق الأرض في الدنيا

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 116)، و«تفسير القرطبي» (17/ 27)، و«فتح القدير» (5/ 96)، وما تقدم في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠﴾، وما سيأتي في «سورة الحاقة»: ﴿رَقِيبٗا ١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا﴾.

(2) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7065)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 305)، و«فتح القدير» (5/ 96)، و«التحرير والتنوير» (26/ 331).

عن النبات، وتفتحها لخروج الزرع عقب المطر، فالناس ينبتون كما تنبت الحبة حين تتحوَّل إلى ورقة ثم شجرة.

﴿ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴾: فمهما كثروا وعبروا القرون، وتآكلت أجسادهم، فالأمر هيِّن، وهو واقع لا محالة[1].

* ﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾:

﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي ﴾ لك وما يضيق به صدرك، وما أمرناك بالصبر عليه،

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا ﴾: لا تجبرهم على الإسلام؛ فلا إكراه في الدِّين[2]، وإنما الأمر دعوة: ﴿ وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ ﴾ [الغاشية:21- 22]، وأنت عبدٌ متواضع لربِّك، لست بمتكبِّر أو متعاظم، وهما معنيان متقاربان، وكان صلى الله عليه وسلم يدعو الناس بالحسنى، ويكره التَّجَبُّر، ولا ينتقم، ولا يغضب لنفسه[3].

والتَّجَبُّر مما يُعاب به، حتى ولو لحاكم أو وجيه، ولذلك قال قتادة رحمه الله: «إن الله كره لنبيِّكم صلى الله عليه وسلم الجَبْرِيَّة»[4]. أي: أن يكون جَبَّارًا، وقال: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ ﴾، فكان صلى الله عليه وسلم يخصف نعله، ويرقِّع ثوبه، ويكون

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 476)، و«زاد المسير» (4/ 166)، و«تفسير الرازي» (28/ 157)، و«تفسير القرطبي» (17/ 27)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 412)، و«فتح القدير» (5/ 96).

(2) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 281)، و«المحرر الوجيز» (5/ 170)، و«تفسير القرطبي» (17/ 28)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 544)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 412).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (3560)، و«صحيح مسلم» (2327).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 477)، و«الدر المنثور» (13/ 661).

في مهنة أهله، ويعود المريض، ويتبع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك، فكونوا كما أمركم نبيكم صلى الله عليه وسلم.

﴿فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا﴾ آخرها ياء المتكلم، أي: مَن يخاف وعيدي[1]، ولكن يوقف عليها بالسكت.

وهكذا تنتهي السورة العظيمة التي جاءت في مساق واحد، وكانت موعظة بليغة مُزَلزِلة مُجَلْجِلة، ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يقرؤها في صلاة الفجر[2]، وفي صلاة العيد[3]، وعلى المنبر يوم الجمعة[4]؛ لما فيها من أصول الدِّين العِظَام، ومن العبر والعِظَات[5].

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 117)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7067)، و«تفسير الخازن» (4/ 191)، و«فتح القدير» (5/ 96).

(2) كما جاء في «صحيح مسلم» (458) من حديث جابر بن سَمُرة رضي الله عنه.

(3) كما جاء في «صحيح مسلم» (891) من حديث أبي واقد اللَّيْثِي رضي الله عنه، وينظر ما سيأتي في أول «سورة القمر».

(4) كما جاء في «صحيح مسلم» (872) من حديث عَمْرَة بنت عبد الرحمن، عن أخت لعَمْرَة رضي الله عنها.

(5) ينظر: «سبل السلام» (1/ 404)، و«مرعاة المفاتيح» (4/ 498).

سورة الذاريات

*** تسمية السورة:**

اسمها: «**سورة** ﴿۝٥﴾»، كما في «صحيح البخاري»، وبعض التفاسير[1].

ومن أسمائها: «**سورة الذَّاريات**»، بدون قَسَم، كما في «جامع الترمذي»، وكتب التفسير، وأكثر المصاحف؛ لأن هذا اللفظ لم يرد إلا فيها[2].

*** عدد آياتها:** ستون آية بغير خلاف[3].

*** وهي مكية** بإجماع المفسرين[4].

* ﴿۝٥ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟﴾:

بدأ سبحانه السورة بالقَسَم بأربعة أشياء، يمكن أن نفهمها على أنها تدرُّجٌ وترقٍّ من الأدنى إلى الأعلى[5]:

* ﴿۝٥ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: والمقصود بـ«**الذاريات**»: الرِّياح بأنواعها[1].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص617)، و«صحيح البخاري» (6/ 139)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 282)، و«تفسير القرطبي» (17/ 29).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 125)، و«جامع الترمذي» (42، 244)، و«تفسير الطبري» (21/ 479)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 51)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 423).

(3) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص232)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (2/ 591)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص309).

(4) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 250)، و«المحرر الوجيز» (5/ 171)، و«زاد المسير» (4/ 167)، و«تفسير القرطبي» (17/ 29)، و«فتح القدير» (5/ 98)، و«روح المعاني» (14/ 3).

(5) ينظر: «تفسير ابن كثير» (7/ 414).

وقد ورد في القرآن الكريم الإشارة إلى أن الرِّياح ذاريات، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ٦﴾ [الكهف: 45]، فأقسم بها وهي تذرو الأشياء ذَرْوًا[2].

* ثم ترقَّى إلى ما هو أعلى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ﴾: وهي: السَّحاب تحمل المطر ﴿مَّرِيٓـًٔا ٤ وَلَا﴾ [فاطر: 9][3]، وكأنها حيَّة تحمل على ظهرها وِقْرًا- أي: ثقلًا- من الخير لطالبيه، كما قال سبحانه: ﴿رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [الرعد: 12][4].

وقيل: «الذاريات» و«الحاملات» هي النِّساء الوالدات؛ لأن الذُّرِّيَّات تخرج من أرحامها، وهي تحمل أجنتها[5].

وهذا القول فيه ضعف، لكن وصف الرِّياح بـ«الذاريات»، ووصف السَّحاب بـ«الحاملات» يضفي عليها شيئًا من الحياة والمشاركة في عوالم الإنس والجان.

* ثم انتقل إلى ﴿ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم﴾: وعلى هذا تكون «الجاريات» هي النجوم في كثرتها وتنوعها وضخامتها وتعدّدها وحركتها.

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص617)، و«تفسير الطبري» (21/ 481)، و«الكشاف» (4/ 394)، و«تفسير القرطبي» (17/ 30)، و«فتح القدير» (5/ 98).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (15/ 272)، و«تفسير الماوردي» (3/ 309).

(3) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 434)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 284)، و«المحرر الوجيز» (5/ 171)، والمصادر السابقة.

(4) وقيل: الحاملات هي: الرِّياح يحملن وِقْرًا بالسَّحاب. قال الماوردي: «فتكون الريح الأولى مقدمة السحاب؛ لأن أمام كل سحابة ريحًا، والريح الثانية حاملة السحاب؛ لأن السحاب لا تستقل ولا تسير إلا بريح، وتكون الريح الثانية تابعة للريح الأولى من غير توسط». ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 482)، و«تفسير الماوردي» (5/ 361)، و«تفسير البغوي» (4/ 280)، و«الكشاف» (4/ 394)، و«المحرر الوجيز» (5/ 171)، و«زاد المسير» (4/ 167)، و«تفسير القرطبي» (17/ 29)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 413).

(5) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 360)، و«تفسير السمعاني» (5/ 250)، و«تفسير القرطبي» (17/ 30)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 146)، و«التفسير المظهري» (9/ 79)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (13/ 189).

والأكثر أنها: السفن، تجري بالرِّيح، ميسَّرة في الماء جريًا سهلًا إلى حيث سُيِّرت[1].

وقد ورد وصف النجوم بـ«الجاريات»، كما في قوله: ﴿فَأَنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ﴾ [التكوير: 15- 16][2].

والغريب التعبير بقوله: ﴿ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم﴾ مثلما قال: ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ﴾؛ لأن جريان النجوم سهل يسير، فهي مسخَّرة تتحرك بإرادة الله وقدرته، وقد يراها الإنسان أو لا يراها، والعرب يعرفون شيئًا من هذا العلم مما توارثوه، والعلم الحديث صنع ثورة هائلة في عالم الفضاء وكشوفه واستخداماته ومجاهله.

* ثم ترقَّى إلى ﴿مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ﴾: وعلى هذا فهي: الملائكة[3].

وقد ورد وصف قريب من هذا للملائكة، كما في «سورة النازعات»: ﴿نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا﴾[4].

و«الملائكة المُقَسِّمات» تختلف عن بقية الأشياء التي أقسم تعالى بها.

فالثلاث الأُوَل جمادات، والملائكة أحياء، وفيها اختلاف آخر، وهو أن الملائكة عالم غيبي لا يُرى، في حين أن «الذاريات» و«الحاملات» و«الجاريات» محسوسات.

وفي هذا سرٌّ لطيف، وهو الترقِّي من المعلوم إلى المجهول، فتدرُّج السياق بهم يذكر السحاب ثم الرِّياح ثم النجوم؛ ليقول لهم: إن هذه الحركة ليست اعتباطية،

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 482)، و«تفسير الماوردي» (5/ 361)، و«زاد المسير» (4/ 167)، و«تفسير القرطبي» (17/ 31)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 414)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة التكوير».

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 482)، و«تفسير الماوردي» (5/ 361)، و«زاد المسير» (4/ 167)، و«تفسير القرطبي» (17/ 29)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 413).

(4) ينظر ما سيأتي في «سورة النازعات».

وإنما هي حركة منظَّمة يقوم عليها ملائكة مختصون؛ فمنهم الموكَّل بالنبات، ومنهم الموكَّل بالمطر، ومنهم الموكَّل بالوحي، ومنهم الموكَّل بالأرواح ومنهم الموكَّل بالقتال، ومنهم الموكَّل بأمور الجنة أو النار... وهم عدد كبير لا يحصيه إلا الله، وفي هذا القَسَم تدرُّج، وتقديم الأَيْمان بقالب سهل؛ يبدأ بما هو مشهود، ثم ينتقل للمجهول؛ ليعلم أن ثمة عالمًا آخر لا يُرى بالعين، هو عالم الملائكة.

الاحتمال الثاني في تفسير القَسَم: أن يكون شيئًا واحدًا، ولكن على حالات عدة، فهو قَسَمٌ بالرِّياح، أقسم بها مرة باعتبارها «ذارياتٍ» تذرو الهَشِيم، ومرة باعتبارها «حاملاتٍ» للسَّحاب، ومرة باعتبارها «جارياتٍ» بأمر الله، ومرة باعتبارها «مُقسِّماتٍ» جعلها تعالى سببًا في قسمة الأرزاق على الناس والبقاع[1].

أو يكون المقصود السَّحاب، أقسم به مرة باعتباره ذاريًا متفرِّقًا في السماء ثم يتجمَّع، ومرة باعتباره حاملًا للمطر، ومرة باعتباره يجري جريانًا يسيرًا سهلًا، كما قال الأَعْشَى[2]:

كأنَّ مِشيَتَها من بَيتِ جارَتِها *** مَرُّ السَّحابَةِ لا رَيثٌ وَلا عَجَلُ

ومرة باعتبارها مُقسِّمات للمطر، كما قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: 9- 11].

وفي الآيات احتمال ثالث: أن يكون القَسَم صالحًا لكل ما يحتمله اللفظ؛ ولذلك ذكر تعالى الصفة ولم يذكر الموصوف، فلم يقل: «والرياح الذاريات»، ولا قال:

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 372)، و«تفسير السمعاني» (5/ 250)، و«تفسير الرازي» (28/ 161)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 548)، و«حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي» (8/ 94)، و«فتح القدير» (5/ 98).

(2) ينظر: «ديوان الأعشى» (ص55).

«السحاب الذاريات»، وإنما قال: ﴿ ۝٥ ﴾، وهذا أجمل وأوسع، فحينما يقسم تعالى بـ«الذاريات» فهو يشمل السحاب والرِّياح وغيرها، و«الحاملات» تصدق على السحاب وعلى الرياح وعلى السفن، وكذلك «الجاريات»، و«المُقَسِّمات» تصدق على الملائكة والرياح والسحاب وغيرها.

وبعضهم لم يراعِ التدرُّج والترتيب، فقالوا: «الذاريات» هي: الرياح، و«الحاملات» هي: السحاب، و«الجاريات» هي: السفن، والمُقَسِّمات هي: الملائكة[1].

وللرِّياح تأثير كبير في حياة الإنسان والنبات، وسُمِّيت: لواقح، كما في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟﴾ [الحجر: 22]، **واللَّواقح** تحمل الخير والمطر[2]، وتُرسَل عذابًا يُهْلَك به المكذِّبون، وكل النِّعَم التي أعطاها الله للإنسان يمكن أن تستحيل نقمةً أو عذابًا إذا لم تُشكر.

* ﴿إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن﴾:

أصل ﴿إِلَيْهِمْ﴾: «إن» و«ما»، أي: إن الذي توعدون لواقع، بخلاف ﴿□﴾ التي هي كلمة حصر، كقوله تعالى: ﴿□□□□□□□﴾ [الزمر: 10].

(1) ينظر: «تفسير ابن وهب» (2/ 66)، و«تفسير الطبري» (21/ 482)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 51)، و«الكشاف» (4/ 394)، و«المحرر الوجيز» (5/ 172)، و«تفسير الرازي» (28/ 161)، و«تفسير القرطبي» (17/ 29)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 548)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 413)، و«الدر المنثور» (13/ 633– 665)، و«فتح القدير» (5/ 98).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (14/ 43)، و«تفسير الرازي» (19/ 135)، و«تفسير القرطبي» (10/ 16)، و«البحر المحيط في التفسير» (6/ 474)، و«التحرير والتنوير» (14/ 38).

والمعنى: إن الشيء الذي توعدونه سوف يقع. وكأنه أقام الوعد مقام الإنسان الذي يَصْدُق، **والمقصود**: أن الوعد صِدْقٌ، كما قال سبحانه: ﴿وَثُلُثَ وَرُبُعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا﴾ [الأحقاف: 16][1].

ويحتمل أن يكون من الوعد، فهو الوعد الطيب؛ لأن الوعد غالبًا يُطلق على الخير[2].

لا يُرهِبُ ابنَ العَمِّ منِّيَ صَولَةٌ *** ولا أَخْتَتِي[3] مِن صَولَةِ المُتَهَدِّدِ

وإنِّيَ إن أَوْعَدْتُهُ أو وَعَدْتُهُ *** لَمُخْلِفُ إيعادي ومُنْجِزُ مَوعِدي[4]

أو يكون المقصود: الوعيد، ويعبِّر به عن التهديد بالشيء المكروه؛ ولذا جاء الوعد بالجنة والوعيد بالنار، والوعد بالرضا والوعيد بالسخط، والوعد بالمغفرة والوعيد بالأخذ، فالآية تحتمل أنها للوعد الحسن إذا حملنا «توعد» على: تعطى وعدًا، ويحتمل أن تكون وعيدًا فيكون معنى ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: تتوعَّدون به.

والأقرب شمولها للمعنيين؛ لأن السورة كانت خطابًا لمشركي مكة، وخطابًا للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه، ففيها الوعد وفيها الوعيد؛ ولذلك جاء في السورة الحديث عن الجنة والحديث عن النار.

﴿تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن﴾: ﴿إِسْرَافًا﴾: الجزاء، وقولهم: يدينه، أي: يجازيه[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 484)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 374)، و«تفسير الماوردي» (5/ 362)، و«المحرر الوجيز» (5/ 172)، و«تفسير الرازي» (28/ 162)، و«تفسير القرطبي» (17/ 30)، و«فتح القدير» (5/ 99)، و«التحرير والتنوير» (26/ 339).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 143)، و«معاني القرآن» للزجاج (4/ 443)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 248)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 76)، والمصادر السابقة.

(3) اختتأَ منه: استَتَر خَوْفًا.

(4) تقدم تخريجه في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾.

والمعنى: أن المجازاة والفصل بين الناس وإيصال الحقوق لأصحابها ومعاقبة المكذِّبين ومجازاة الطائعين، كل ذلك واقع لا مرية فيه(2).

وليس في الآيتين تكرار، **والأقرب** أن الآية الأولى تتعلَّق بوعد الدنيا ووعيدها، والثانية تتعلَّق بوعد الآخرة ووعيدها(3)، فكل ما وعد الله تعالى به المؤمنين فهو وعد صادق: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: 55]، ووعدهم تعالى بعز هذا الدين ونصره، وأن يبلغ ما بلغَ الليلُ والنهارُ(4)، والوعد بالحياة الطيبة لمَن آمن وعمل صالحًا، وهناك وعيد الكافرين بالأخذ والعقاب إن لم يؤمنوا، فذلك كله سوف يقع في الدنيا، وكذلك الدين الذي هو الجزاء الأخروي، فهو واقع أيضًا.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 485)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 374)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7072)، وما سيأتي في «سورة الانفطار»: ﴿تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾.

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 341)، و«تفسير الماوردي» (5/ 362)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 173)، و«تفسير السمعاني» (5/ 251)، و«تفسير الرازي» (28/ 162)، و«تفسير القرطبي» (17/ 30)، و«التحرير والتنوير» (26/ 342).

(3) ينظر: «تفسير ابن جزي» (2/ 306)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 549)، و«روح البيان» (9/ 149)، و«التحرير والتنوير» (26/ 339)، والمصادر السابقة.

(4) كما عند أحمد (16957)، والحاكم (4/ 430)، وغيرهما، من حديث تميم الدَّاري رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**ليبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ الليلُ والنهارُ، ولا يتركُ اللهُ بيتَ مَدَر ولا وَبَر إلا أدخلَهُ الله هذا الدينَ، بعزِّ عزيز أو بذُلِّ ذليل، عزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكفرَ**». وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2، 3)، وما سيأتي في «سورة القلم»: ﴿طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾.

العادة أن يأتي ذكر السماوات بالجمع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾ [الملك: 3]، وهنا أقسم بـ«السماء»، وكأن المقصود جنس السماوات، أو السماء الأولى التي تلينا مما يراه الخلق، أو المقصود: كل ما علا وارتفع[1].

وفي تفسير ﴿ٱتَّقُواْ﴾ أكثر من خمسة أقوال:

1- منها قول ابن عباس رضي الله عنهما: إن المقصود بـ﴿ٱتَّقُواْ﴾: الحُسن والجمال[2].

2- الزينة في السماء، وهو قريب منه[3].

3- الطرائق، كما هو شأن ماء البِركة إذا قُذف فيها بحجارة تصبح طرائق، وكذلك الرِّمال في الصحراء إذا ضربتها الرياح أصبحت طبقاتٍ بعضها إلى جوار بعض، فهذه يسمونها حُبُكًا[4].

4- الشدة والقوة[1]، ومنها يقال: الحَبْكة، وحَبَكَ الكتابَ، وحَبَكَ القولَ، إذا كان محكمًا مضبوطًا، وحتى المؤامرة يقول الناس: قد حَبَكَ فلانٌ مؤامرةً، إذا أتقنها ولم يدع فيها ثغرة[2]، فيكون المقصود إذًا: الإتقان والضبط والقوة.

---

(1) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص427) «س م ا»، وما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾، وما سيأتي في «سورة النازعات»: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ﴾، و«سورة الشمس»: ﴿كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ﴾.

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 342)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 429)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 414)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (13/ 191)، والمصادر الآتية.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 487)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 110)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7073)، و«تفسير الماوردي» (5/ 362)، و«تفسير البغوي» (4/ 281)، و«المحرر الوجيز» (5/ 172)، و«تفسير القرطبي» (17/ 31)، و«فتح القدير» (5/ 99).

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 127)، و«تفسير الطبري» (21/ 485)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 283)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 430)، والمصادر السابقة.

والقوة في الجمال، كما أن الجمال في القوة، فهو هنا قريب من قوله سبحانه: ﴿رَقِيبًا ۝١ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ﴾ [الملك: 3][3].

* ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾:

خطاب لكفار قريش الذين قالوا عنه صلى الله عليه وسلم: إنه ساحر وشاعر وكاهن، وعلى اختلاف ما قالوه فهو قول واحد في مآله يجتمع على الكفر، وهو مختلف، وهذا سر التعجيب منهم والقَسَم عليهم، فأقسم تعجيبًا من حالهم، فهم في غاية التناقض، وقولهم مضطربٌ فاسد؛ ولهذا امتن الله بكون القرآن كلامًا منضبطًا يُصدِّق بعضُه بعضًا: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [الزمر: 23]، وقال: ﴿أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: 82].

والأَفْك هو: الصَّرْف، يقال: إنسان مأفوك، أي: مصروف، **والصحيح أن المقصود**: يُصرف عن الإيمان مَن لم يشأ الله تعالى له الهداية[4].

ويحتمل أن يكون المعنى: يُصرف عن الحقِّ بسبب هذا القول الذي تقولونه[5]، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ [هود: 53]، أي: بسبب قولك، أو

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 489)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 375)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 110)، و«المحرر الوجيز» (5/ 172)، و«تفسير القرطبي» (17/ 31)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «لسان العرب» (10/ 407)، و«تاج العروس» (27/ 104- 105) «ح ب ك».

(3) ينظر ما سيأتي في «سورة الملك».

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 490)، و«تفسير الماوردي» (5/ 363)، و«الكشاف» (4/ 397)، و«المحرر الوجيز» (2/ 222)، و«تفسير القرطبي» (17/ 33)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 415)، و«فتح القدير» (5/ 100)، و«التحرير والتنوير» (26/ 342).

(5) ينظر: «تفسير الماتريدي» (3/ 568)، و«تفسير النسفي» (3/ 372)، و«روح البيان» (9/ 150)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (13/ 192)، والمصادر السابقة.

من أجل قولك[1]، فهكذا هنا، يُؤفك بسبب هذا القول المختلف؛ لأن كفار مكة كانوا يتصدون لِمَن يدخل مكة، وقد تقاسموا أطرافها فيقولون: خرج عندنا رجل صابئ غيَّر ديننا وسبَّ آلهتنا وشتم أجدادنا وفرَّق جماعتنا، وإنه مريض، ونحن نطلبُ له الطب.

ويأتي آخر فيقول: إنه ساحر، له زَمْزَمة[2] يفرِّق بين المرء وزوجه.

وآخر يقول: إنه شاعر، له رَجَزٌ وله قَصِيد.

ورابع يقول: إنه كاهن، عنده كلام الكُهَّان وأقاويلهم.

فلا يزال الناس يسمعون هذا الكلام حتى وصل الحال ببعضهم إلى أن يضع القطن في أذنه حتى لا يتسرَّب إليه شيء من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيُصرَفون عن الإيمان بهذا التشويه الذي مارسه كفار مكة[3].

* ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾:

والقتل لا يُقصد به معناه الذي هو الذَّبْح، وإنما هو في جاري لغة العرب: اللَّعن[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (12/ 445)، و«تفسير السمعاني» (2/ 435)، و«روح المعاني» (6/ 279).

(2) أي: كلام خفي لا يُفهم.

(3) ينظر ما سيأتي في «سورة القلم»: ﴿ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ﴾، و«سورة المدثر»: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾، و«سورة النبأ»: ﴿نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا لَكُمْ﴾، و«سورة التكوير»: ﴿طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ﴾.

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 492)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 246)، و«المحرر الوجيز» (5/ 173)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 415)، وما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُ﴾.
وينظر أيضًا: «تهذيب اللغة» (7/ 60)، و«لسان العرب» (7/ 21) «ق ت ل».

وهذا إذا كان دعاء عليهم، فالدعاء من الله تعالى واجب واقع[1]، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82]، وإنما لعنهم؛ لأنهم خَرَّاصون، **والخَرْص** معروف المعنى، وهو: أن يخوض المرء في شيء لم يتثبت منه[2].

والله تعالى يربِّينا في هذه الآية الكريمة على التحرِّي والتثبُّت؛ لأنه سبحانه لعن الذين يتخرَّصون زُورًا وكذبًا، ويتكلمون بغير علم، ولا حجة ولا هُدى ولا كتاب منير.

وهل كل خَرْص مذموم؟

الخَرْص جاء في الشريعة في أشياء مادية، مثل: خَرْص النخل، وهو: أن يُقدَّر ما تحمله النَّخيل من التمر، دون أن يُوزن أو يُكال، بناءً على الخبرة، فهذا مشروع للحاجة؛ لأنه في حال لا يمكن فيه إلا الخَرْص[3].

أما المذموم فهو كلام الإنسان في أمور لا يملك فيها خبرة، كالخَرْص في قضايا الاعتقاد، ومسائل الدار الآخرة والغيبيات التي هي موقوفة على الوحي، كالجنة والنار والإلوهية والبعث والحساب، هذه قضايا أصول لا ينبغي للإنسان أن يقول فيها بناءً على مجرد الخَرْص ولا التَّخْمين، بل ولا مجرد النظر العقلي إذا لم يكن عنده خبر من الوحي.

---

(1) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص655) «ق ت ل».

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 363)، و«تفسير الرازي» (28/ 164)، و«تفسير القرطبي» (17/ 33)، و«التحرير والتنوير» (26/ 343)، والمصادر السابقة.

وينظر أيضًا: «لسان العرب» (7/ 21)، و«تاج العروس» (17/ 545) «خ ر ص».

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 364)، و«تفسير القرطبي» (17/ 34)، و«فتح القدير» (5/ 100)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (13/ 192).

وينظر أيضًا: «العين» (4/ 183)، و«جمهرة اللغة» (1/ 585)، و«لسان العرب» (7/ 21) «خ ر ص».

❊ ولذا وصف الخرَّاصين بالغفلة في الآية بعدها: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾:

الغَمْرة: ما يغمر الإنسان، فيغطِّيه ويغلب عليه[1]، فهم غافلون عن الإيمان، وهذا ما يسمى بكفر الإعراض.

والله تعالى يذكر من المشركين مَن كفروا وجحدوا عن علم، كما في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن﴾ [النمل: 14]، ويذكر عن طائفة أخرى حالًا آخر، فيقول: ﴿إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ۝٦﴾ [الأنبياء: 24].

فثَمَّة مَن يكون كفره بسبب الجهل، وكم من كافر كان يجهل الإسلام وحقائقه، فلما بلغته الحجة أسلم، كما ذكر تعالى عن الجنِّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف: 29][2].

❊ ولعل القَسَم في أول السورة هو لمعالجة هذا الإعراض؛ حيث فِئام من الناس مشغولون بالكَدْح في طلب المعيشة، ولا وقت لديهم لأن ينظروا ويبحثوا فهم غافلون، ويأتي القَسَم ليصدم عقولهم، فهم ساهون معرضون إذا حُدِّثوا عن الآخرة حوَّلوا الجِدَّ إلى هزل، وطفقوا ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾:

يتساءلون: متى هو؟ سؤال الساخر الهازل، لا سؤال المسترشد!

والسؤال عن الوقت يدل على قلة الاهتمام؛ فليست القضية: متى يوم الدِّين، بل: ماذا أعددتَ ليوم الدِّين الذي هو آتٍ لا محالة؛ ولأنه سؤال استهزاء ولا مبالاة لم يجبهم على السؤال.

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (17/ 34)، و«البحر المحيط في التفسير» (7/ 545)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (8/ 350)، و«فتح القدير» (2/ 160).

وينظر أيضًا: «المحكم والمحيط الأعظم» (5/ 520)، و«لسان العرب» (5/ 29) «غ م ر».

(2) وينظر ما سيأتي في «سورة الجن».

وقد جاء الجواب في غير هذه السورة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: 187]، ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ [النازعات: 42- 45]، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ﴾ [طه: 15]. **هذا جواب.**

وثمة جواب ثانٍ، وهو أن يقال: إن الساعة بالنسبة لكم هي اللحظة التي تغادرون فيها الدنيا: «مَن مات، فقد قامت قيامته»[1].

*** ﴿عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾:**

لما كان السؤال سؤال سُخرية، أُجيب بالوعيد والتهديد، ولم يقل تعالى هنا: «يوم هم في النار يُفتنونَ». فكأنهم كانوا مقبلين على النار ولَمَّا يدخلوها بعد، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: 27]، فهذا نوع من العذاب، أنهم يُعرضون

---

(1) رُوي من قول المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. أخرجه الدولابي في «الكنى والأسماء» (3/ 930)، والطبري في «تفسيره» (23/ 468- 469)، والثعلبي في «تفسيره» (10/ 82).

ومن قول زياد بن عبد الله النُّميري. أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (6/ 268).

ورُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (1/ 436)، و«المقاصد الحسنة» (ص670)، و«السلسلة الضعيفة» (1166، 5462).

ومعناه في «صحيح البخاري» (6167، 6511)، و«صحيح مسلم» (2952، 2953) من حديث أنس وعائشة رضي الله عنهما: كان رجالٌ من الأعراب جُفاةً يأتونَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فيسألونه: متى الساعةُ؟ فكان ينظرُ إلى أصغرهم، فيقولُ: «**إن يعشْ هذا، لا يدركْهُ الهَرَمُ حتى تقومَ عليكم ساعَتُكم**». يعني موتهم.

على النار و﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي: يُحرقون، وهو من قولهم: فتنت الذهب، أي: أحرقته لتختبره، وأصل الفتنة: الاختبار[1].

ويمكن أن يكون مجرد رؤية العذاب وانتظاره هو فتنة بالنسبة لهم، وهذا يناسب الفتنة التي كانوا يفتنون بها المسلمين، كما وقع لبلال وعمار وصُهيب وسُمَيَّة رضي الله عنهم[2].

* ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟﴾:

وقد كانوا يقولون: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: 16]، ويطلبون العذاب، ويقولون: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: 32]، فها أنتم ترون عيانًا ما كنتم تطلبونه عاجلًا[3]!

* ﴿أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 495- 497)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 316)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7077)، و«تفسير الماوردي» (5/ 364)، و«التفسير البسيط» للواحدي (4/ 174)، و«المحرر الوجيز» (5/ 173)، و«زاد المسير» (4/ 168)، و«تفسير القرطبي» (17/ 34)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 415)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 65)، وما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾.

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟﴾.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 499)، و«تفسير الماوردي» (5/ 364)، و«الكشاف» (4/ 397)، و«المحرر الوجيز» (5/ 174)، و«زاد المسير» (4/ 168)، و«تفسير الرازي» (28/ 164)، و«تفسير القرطبي» (17/ 35)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 551)، و«فتح القدير» (5/ 100).

أهل الإيمان متفاوتون في التقوى، فمَن اتَّقى الكفر فله نصيب منها، والذي يتجنب صغائر الذنوب واللَّمم والمتشابهات التي لا يعلمهن كثيرٌ من الناس رغبةً في أن يكتبه الله تعالى في المتقين، هو في الذِّروة العليا منها.

* ﴿حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا﴾:

وعطاء الله متجدِّد لا ينتهي أبدًا، كلما نالوا منه تجدَّد لهم.

ومن معاني ﴿حُوبٗا﴾: راضين بما أعطاهم ربُّهم[1]، واللهُ تعالى يقول لهم: «**يا أهلَ الجنة. فيقولون: لبيكَ ربَّنا وسعديْكَ، والخيرُ في يديك. فيقولُ: هل رضيتم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضَى يا ربِّ، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقك! فيقولُ: أَلَا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولونَ: يا ربِّ، وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخطُ عليكم بعده أبدًا**»[2]. قال الله تعالى: ﴿وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا﴾ [التوبة: 72].

﴿أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ﴾: أي: في الدنيا، **على القول الراجح**[3]، فوصفهم بالإحسان، **وهو نوعان**: إحسان في عبادتهم لربهم، وإحسان إلى الخلق[4].

* وبدأ بالإحسان الأول، فقال: ﴿طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 379)، و«الكشاف» (4/ 398)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 147)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 185)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 138)، و«روح البيان» (9/ 153)، و«تفسير القاسمي» (9/ 37).

(2) أخرجه البخاري (6549، 7518)، ومسلم (2829) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 379)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7078)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 436)، و«تفسير السمعاني» (5/ 253)، و«تفسير القرطبي» (17/ 35)، و«تفسير النسفي» (3/ 373)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 416)، و«فتح القدير» (5/ 100).

(4) ينظر: «تفسير المراغي» (26/ 178- 179)، و«تفسير السعدي» (ص809)، و«التحرير والتنوير» (26/ 348)، والمصادر السابقة.

يحتمل أنهم لا ينامون من الليل إلا ﴿لَكُمْ﴾، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم كان ينام إلى نصف الليل أو قريبًا من ذلك، ثم يقوم يصلِّي ويُوتر، ثم يضَّطجع حتى يأتيه المؤذِّن[1]، وأخبر أن أحبَّ الصلاة إلى الله صلاةُ داودَ عليه السلام، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه[2]، وهذا أكمل الأوصاف، ولم يقم النبيُّ صلى الله عليه وسلم ليلةً كاملة حتى الصباح[3]، ولا كان أصحابه رضي الله عنهم يفعلون ذلك، وإنما هذا وُجد فيمَن بعدهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: ﴿طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: «لم يكن يمضي عليهم ليلةٌ إلا يأخذونَ منها، ولو شيئًا»[4].

وهذا من أحسن الأقوال: أنهم لا ينامون ليلةً كاملةً دون أن يكون لهم فيها حظ من القيام، فيقوم الواحد منهم ما شاء الله تعالى له أن يقوم، ثلث الليل، أو ربعه، أو خمسه، أو سدسه، أو عشره، أو يصلِّي وتره؛ ولذلك قيل: إنهم كانوا يصلُّون ما بين المغرب والعشاء[5].

---

(1) كما في «صحيح البخاري» (183، 859، 992)، و«صحيح مسلم» (256) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(2) أخرجه البخاري (1131)، ومسلم (1159)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(3) كما قالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قامَ ليلةً حتى الصباح». أخرجه مسلم (746).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 502)، و«المحرر الوجيز» (5/ 174)، و«تفسير القرطبي» (17/ 37)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 417)، و«فتح القدير» (5/ 103).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 501)، و«تفسير الماوردي» (5/ 365)، و«تفسير البغوي» (4/ 282)، والمصادر السابقة.

وحريٌّ بمَن صلَّى العشاء في جماعة، ومَن صلَّى الفجر في جماعة أن يكون له نصيب من هذه الآية، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَن صلَّى العشاءَ في جماعة، فكأنما قامَ نصفَ الليل، ومَن صلَّى الصبحَ في جماعة، فكأنما صلَّى الليلَ كلَّه**»(1).

وحريٌّ بمَن حافظ على صلاة الوتر- ولو ثلاث ركعات أو خمس أو سبع أو ما تيسر- أن تصدق عليه هذه الآية.

وقال بعض المفسرين: إن ﴿مَّثْنَىٰ﴾ هنا نافية، يعني: قليلًا من الليل لا يهجعون، أي: قليلًا من الليل يقضونه في الطاعة.

وهذا ضعيف، وقد ردَّه ابن القيم رحمه الله من نحو عشرة أوجه(2)، فهو منكر في السياق والتركيب اللُّغوي، كما أنه بعيد من حيث المعنى؛ لأنهم لا يُمدحون بمجرد أنهم يتركون قليلًا من الليل يسهرونه ولا ينامونه، وإنما أثنى عليهم بالمجاهدة والمكابدة والصبر الطويل.

والأقرب أنهم كانوا يقومون من الليل ما تيسَّر، ومن المعلوم أن الليل يبدأ وقته من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، والناس عادةً لا ينامون إلا بعد صلاة العشاء بيسير، وربما بعضهم يسامر أهله ثم ينام ثم يقوم لما تيسَّر له من قيام الليل ثم ينام، فيكون ما نامه من الليل أقل مما كان فيه مستيقظًا.

ونوم الليل مما امتن الله تعالى به على العباد فقال: ﴿١ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النبأ: 9]، والعادات التي طرأت على كثير من الأُسر والشباب من السهر على القنوات الفضائية والإنترنت وغيرها هي عادات دخيلة؛ وإلا فإن النبيَّ صلى الله عليه وسلم

(1) أخرجه مسلم (656) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(2) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص291- 294).

كان يكره النوم قبل صلاة العشاء والحديث بعدها[1]، وكان السهر يُكره إلا لمسافر أو مصلٍ أو ذاكر أو من يسامر امرأته أو ما أشبه ذلك من المعاني والمقاصد الصحيحة، وهذا هو الذي يوافق الفطرة وسنة الحياة، ويساعد على الاستيقاظ المبكِّر والمبادرة، وصحَّ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**اللهمَّ بارك لأمتي في بُكورها**»[2].

وهذا الانسياق للفطرة والسنة الطبيعية في بلاد الغرب أظهر منه في بلاد الإسلام والعروبة، فبمجرد ما تغيب الشمس يضعف دبيب الحياة في بلادهم، وتهدأ الطرق وتخلو من السابلة وتغلق الدَّكاكين، ويأوي الناس إلى بيوتهم ومهاجعهم، ثم يستيقظون في الصباح الباكر، في حين أن العواصم الإسلامية لا تهدأ ولا تنام! فهذه من العادات التي ينبغي أن تُعالج وتُصحَّح.

* ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا﴾:

السَّحَر هو: آخر الليل[3]، وهو وقت التنزُّل الإلهي، حين يقول ربُّنا: هل من سائل؟ هل من داعٍ؟ هل من مستغفر؟[4].

فالمتقون يصادفون السَّحَر وهم مستغرقون في الاستغفار بعدما قضوا جزءًا من الليل يصلون، ومع ذلك لا يُلفيهم السَّحَر إلا مستغفرين، كما قال تعالى:

---

(1) أخرجه البخاري (547)، ومسلم (647)، من حديث أبي بَرْزَةَ الأَسْلمي رضي الله عنه.

(2) سيأتي تخريجه في «سورة الضحى»: ﴿أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ﴾.

(3) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7083)، و«تفسير الماوردي» (5/ 366)، و«المحرر الوجيز» (1/ 411)، و«تفسير النسفي» (3/ 373)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 299).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص401)، و«تاج العروس» (11/ 512) «س ح ر»، وما سيأتي في «سورة نوح»: ﴿غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ﴾.

(4) كما في «صحيح البخاري» (1145)، و«صحيح مسلم» (758) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وينظر ما سيأتي في «سورة الفجر»: ﴿يَا أَيُّهَا﴾.

﴿وَنِسَآءٌۚ وَٱتَّقُواْ﴾ [آل عمران: 17]؛ ولهذا شرع تعالى الاستغفار في أدبار العبادات، وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول حين ينصرفُ من صلاته: «**أستغفرُ اللهَ، أستغفرُ اللهَ، أستغفرُ اللهَ**»، كما في حديث ثوبان رضي الله عنه[1]؛ لأن صاحب القلب الحي أدرى بالمهمات والواجبات التي عليه، وأكثر إدراكًا للفضل عليه بالعبادة والعمل، فيستغفر من التقصير الذي يلحقه في أثنائها، أو في تحقيق الشكر عليها؛ ولذا أوصى صلى الله عليه وسلم معاذًا رضي الله عنه أن يقول دُبُرَ كل صلاة: «**اللهمَّ أَعِنِّي على ذكرك وشكرك وحُسن عبادتك**»[2].

وربما كانوا يستغفرون عن ذلك القليل من الليل الذي هجعوه!

إن قيام الليل للصلاة والقرآن والمرواحة بين الأقدام يمنح القلب استحضارًا لعظمة الرب وقربه، ويهيِّئ الجو للمناجاة الصافية، ويجمع الروح على معنى الوحدانية، ويصفِّي النفس من الشواغل والازدحام والضَّجِيج.

وكأن المتهجِّد يقترب من العوالم الإيمانية ويكتشفها شيئًا فشيئًا، ويشعر أنه يقرأ القرآن لأول مرة، ولو كان حفظه في صباه.

وهذا زادٌ لقطع مشوار الحياة بصبر ورضا وإيمان، مهما اعتراه من البلاء والهم والعناء والصِّعاب، ويعطي لكل شيء جمال ما فيه من معنى ومبنى؛ فهي صادرة من الله الذي تخاطبه وتناجيه وتطلب قربه.

---

(1) أخرجه مسلم (591).

(2) أخرجه أحمد (22119، 22126)، وعبد بن حميد (120)، والبخاري في «الأدب المفرد» (690)، وأبو داود (1522)، والنسائي (3/ 53)، وابن خزيمة (751)، وابن حبان (2020)، والحاكم (1/ 273) من حديث معاذ رضي الله عنه.

وهو زادٌ للآخرة وزُلْفى إلى الله ورِفعة في درجات الجنة، والمحجوب عن ربه في الدنيا محجوب عنه في الآخرة: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء: 79].

* ﴿ تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾:

فهم ليسوا دراويش، كما يظن الجاهلون، وحينما وصفهم تعالى بالقيام والصلاة لم يكن معنى ذلك أنهم لا يطلبون الرزق، كلا، فهم أصحاب تجارات ومضاربات، وإذا دخل أحدُهم المسجدَ قال: «**اللهمَّ اغفرْ لي ذنوبي، وافتحْ لي أبوابَ رحمتك**»(1)، وأقبل على ربه يتعبَّد ويستغفر، فإذا خرج من المسجد منصرفًا من صلاته قال: «**اللهمَّ أغفرْ لي ذنوبي، وافتحْ لي أبوابَ فضلك**»(2)؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ ﴾ [الجمعة: 10]. وكانوا ﴿ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ ﴾ [النور: 37].

وهذا الحق المذكور كان قبل أن تُفرض الزكاة؛ لأن السورة مكية، وفرض الزكاة كان بالمدينة(3).

---

(1) أخرجه أحمد (26416، 26417، 26419)، والترمذي (314)، وابن ماجه (771) من حديث فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وينظر: «نتائج الأفكار» (1/ 270- 281).

وفي «صحيح مسلم» (713) من حديث أبي حُميد أو أبي أُسيد رضي الله عنه نحوه.

(2) جزء من الحديث السابق.

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 175)، و«تفسير القرطبي» (17/ 38)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 308)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 552)، و«تفسير ابن كثير» (5/ 462)، و«فتح القدير» (5/ 101)، و«كتاب الزكاة من شرح بلوغ المرام» (ص17- 21)، وما سيأتي في «سورة المعارج»: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ ﴾، وأول «سورة الأعلى».

وهو إما أن يكون حقًّا فرضه الله من غير تحديد، أو يكون شيئًا هم فرضوه شكرًا لله تعالى[1]، فيُطعمون الناس؛ كما قال: ﴿وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [الإنسان: 8]، وهو حبٌّ لا يُنسيهم حق السائل والمحروم، وهذا من الاعتدال في شخصية المسلم وتحقيق التوازن فيما بين رغبات الدنيا ونعيم الآخرة وما بين حق الله وحق العباد.

والسائل: الذي يتعرَّض بالسؤال[2]، وأصل السؤال مذموم: «**مَن سألَ وله ما يُغْنيه جاءتْ يومَ القيامة خُمُوشٌ، أو خُدُوشٌ، أو كُدُوحٌ في وجهه**»[3]. ومن المتعيَّن على الجهات المعنية في العالم الإسلامي أن تمنع التسوُّل في المساجد والتجمعات العامة؛ لأنه أصبح بابًا في الاحتيال والخداع وإشغال الناس عن ذكر الله وعن الصلاة، ومن المتعيَّن إيصال الحقوق إلى المستحقِّين دون أن يحوجهم الحال إلى أن يتعرَّضوا لذُلِّ السؤال، وإراقة ماء الوجه.

وفي المَحروم ثمانية أقوال[4]، لعلها من قبيل تفسير الشيء بمثاله، وأكثرها صحيح، وهو يصدق على الفقير؛ لأنه محروم من المال، ويصدق على المتعفِّف الذي لا يسأل الناس؛ لأنه جاء هنا في مقابل السائل.

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (28/ 170)، و«تفسير الخازن» (4/ 194)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 418)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 285)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 112)، و«تفسير البغوي» (4/ 284)، و«تفسير الرازي» (28/ 170)، و«تفسير القرطبي» (17/ 38)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 418)، و«فتح القدير» (5/ 101)، والمصادر الآتية.

(3) أخرجه الطيالسي (252)، وأحمد (3675)، وأبو داود (1626)، والترمذي (650)، والنسائي (5/ 97)، والحاكم (1/ 407) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (499).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 512)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 380)، و«تفسير الماوردي» (5/ 366)، و«تفسير القرطبي» (17/ 38).

* ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾:

بعد ذكر الآخرة ومصير الكاذبين ومصير المؤمنين جاءت هذه الآية انتقالًا إلى جولة في كتاب الكون المفتوح، ودعوة إلى التأمل في البرِّ والبحر والنبات، وخصَّها لقربها من المخاطبين؛ فهم يمشون عليها، ويبنون، ويتصرَّفون، ولهم فيها مآكل ومشارب وسُبل وطرائق[1].

* ﴿٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾:

أي: في أبدانكم وما رُكِّب فيها من بديع الخلق[2]، والاستفهام استنكاري[3] وهو تعجيب من حال الذين يغفلون عن أقرب الآيات إليهم المكتنزة بها أبدانهم، في السماوات أو في الأرض، وفي أنفسهم.

* ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ﴾:

قد يكون المقصود بـ«الرزق»: المطر[4]، وهو الذي أقسم الله تعالى به- على رأي بعض المفسرين- بـ«الذاريات والجاريات والحاملات»[5]، ومن معانيها السَّحاب،

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 518)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 381)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 441)، و«الكشاف» (4/ 399)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 367)، و«المحرر الوجيز» (5/ 175)، و«تفسير الرازي» (28/ 172)، و«تفسير القرطبي» (17/ 40)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 419)، و«فتح القدير» (5/ 102).

(3) ينظر: «تفسير النسفي» (3/ 374)، و«روح البيان» (9/ 158)، و«تفسير المنار» (11/ 396)، و«التحرير والتنوير» (26/ 353)، والمصادر السابقة والآتية.

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 520)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 230)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 113)، و«تفسير الماوردي» (5/ 367)، و«تفسير الرازي» (28/ 172)، والمصادر السابقة.

(5) ينظر ما تقدم في أول السورة.

والسماء: كل ما علا وارتفع[1]، فالسَّحاب فيه الرزق للعباد، كما قال سبحانه: ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [ق: 11].

أو يكون المقصود: رزق العباد المكتوب في اللَّوح المحفوظ الذي فيه كل شيء مما كُتب للإنسان من عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد[2].

والسماء هي: السماوات التي فيها الملائكة المكلَّفون بأرزاق العباد، ولهذا عطف عليه: ﴿عَن شَيۡءٖ﴾، وهو يشمل ما في الكتاب المحفوظ، ويشمل الآخرة: الجنة والنار، ووعد النصر للمؤمنين والبوار للكافرين[3].

* ﴿نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي﴾:

يُقسم تعالى برب هذه السماء التي فيها ﴿لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ﴾، وهذه الأرض التي فيها ﴿أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ على أن الوحي حقٌّ[4]، فبعدما أقسم بـ«الذاريات» وبـ«السماء ذات الحُبك»، انتقل إلى القَسَم بربها سبحانه: ﴿مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي﴾

---

(1) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص427) «س م ا»، وما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦﴾، وما سيأتي في «سورة النازعات»: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ﴾، و«سورة الشمس»: ﴿كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ﴾.

(2) ينظر: «تفسير التستري» (ص154)، و«تفسير الماتريدي» (10/ 255)، و«تفسير الماوردي» (5/ 367)، و«المحرر الوجيز» (5/ 176)، و«تفسير المراغي» (26/ 180).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 521)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 343)، و«تفسير الماوردي» (5/ 368)، و«تفسير البغوي» (4/ 284)، و«المحرر الوجيز» (5/ 176)، و«تفسير القرطبي» (17/ 41).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 522)، و«تفسير الماوردي» (5/ 368)، و«تفسير السمعاني» (5/ 255)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 420)، والمصادر السابقة والآتية.

أي: هذا الذي أخبرناكم به من أمر القيامة والبعث والحساب والجزاء، حقٌّ لا شك فيه، مثلما أن الواحد منكم ينطق ويتكلَّم[1]، والنطق بالنسبة لكم أمر متحقِّق:

فهُنَّ ووادي الرَّسِّ كاليَدِ للفَمِ[2]

يعني أن الأمر أقرب من يدك إلى فمك.

* ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾:

هنا سياق جديد في شأن قصة من أشهر قصص إبراهيم الخليل عليه السلام، والسؤال تبجيل وتفخيم للأمر[3]؛ لأنها عبرة وعظة، وهو أسلوب مألوف في القرآن، كقوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النازعات: 15]، وقوله: ﴿لَكُمْ قِيَمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ [البروج: 17]، وقوله: ﴿تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ﴾ [ص: 21]، **ومقصده:** حشد الاهتمام وتوجيه النظر إلى القصة.

وقوله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ بمعنى: قد أتاك، فهو سؤال للتقرير، وفيه تذكير بالقصة، وقد سمَّاه الله تعالى حديثًا، إشارة إلى أنه خبر حقيقي[4].

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (3/ 127)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 382)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 444)، و«تفسير البغوي» (4/ 284)، و«تفسير الرازي» (28/ 172)، و«تفسير القرطبي» (17/ 41)، والمصادر السابقة.

(2) تقدم تخريجه في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ منسوبًا إلى زُهير بن أبي سُلْمَى.

(3) ينظر: «تفسير البيضاوي» (5/ 148)، و«تفسير النسفي» (3/ 375)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 308)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 554)، و«روح البيان» (9/ 160).

(4) ينظر ما سيأتي في «سورة النازعات»، و«سورة البروج»، و«سورة الغاشية»: ﴿ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾.

و﴿قِيَمًا﴾: تشمل المفرد والجمع، تقول: عندي ضيف، ولو كان في ضيافتك قبيلة بأكملها[1].

و﴿قِيَمًا وَٱرۡزُقُوهُمۡ﴾ جمع من الملائكة، ووصفهم بـ﴿فِيهَا﴾ أي: من الله سبحانه وتعالى[2]، كقوله: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ [الأنبياء: 26-27].

ويحتمل أن يكون إبراهيم عليه السلام أكرمهم[3]؛ لأنهم ضيوفه لا على أنهم ملائكة؛ ولذلك أضافهم أفضل ما تكون الضيافة، كما سوف يتضح من السياق.

* ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾:

﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا﴾ يفيد أن دخولهم كان مفاجئًا، وكأنه لم يذكر استئذانًا، وقد يكون بيت إبراهيم عليه السلام مفتوحًا للأضياف لا يحتاج الناس فيه إلى استئذان؛ لكونه كريمًا مِضْيافًا[4]، ﴿مَّعۡرُوفٗا ٥﴾ أي: نسلِّم عليك سلامًا[5]، فهو مفعول مطلق، فردَّ

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 383)، و«تفسير الرازي» (28/ 174)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 148)، و«تفسير النسفي» (3/ 375)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 554).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 344)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 117)، و«تفسير الماوردي» (5/ 369)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 177)، و«تفسير البغوي» (4/ 285)، و«زاد المسير» (4/ 170)، و«تفسير القرطبي» (17/ 44)، و«فتح القدير» (5/ 104).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 924)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 54)، و«تفسير السمعاني» (5/ 256)، و«تفسير الرازي» (28/ 174)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 117)، و«تفسير البغوي» (4/ 285)، و«تفسير القرطبي» (17/ 45)، والمصادر السابقة والآتية.

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 924)، و«معاني القرآن» للزجاج (3/ 180)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 286)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7091)، و«الكشاف» (4/ 401)، و«المحرر الوجيز» (3/ 365)، و«تفسير الرازي» (28/ 175)، و«فتح القدير» (5/ 105).

عليهم سلامهم بأطيب منه، فقال: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم ﴿سَلَٰمٌ﴾، والجملة الاسمية التي قالها إبراهيم عليه السلام أقوى وأثبت من جملتهم التي هي فعلية، والفعل ليس لها ثبات[1]، وهذه بداية الكرامة من إبراهيم عليه السلام.

﴿إِذَا بَلَغُواْ﴾: وهذه الكلمة لم يقلها إبراهيم عليه السلام لهم مباشرة، وإنما قالها خُفية عنهم[2]، بمعنى أنه استنكر حالهم؛ فقد كانوا على هيئة شباب في نضارة وجمال.

قيل: هم ثلاثة ملائكة: جبريل وإسرافيل وميكائيل[3].

وقيل: كانوا عشرة، أو اثني عشر، أو ثلاثة عشر[4]، وفي التوراة ذكر هذا المعنى.

وفي بعض الآثار أنهم كانوا ثلاثة في سن الشباب وفي غاية الجمال، ولم يكن يعرفهم، وهذا جزء من الإنكار أنه لم يرهم من قبل، ربما سحنات وجوههم غير مألوفة[5]، كذلك سلامهم كان شيئًا يستغرب، فالناس ما كانوا يحسنون السلام، فهم فهم لما قالوا له: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ۝٥﴾ كان هذا مما استنكره واستغربه، فضلًا عن أنهم ربما دخلوا دون أن يستأذنوه.

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (28/ 175)، و«روح البيان» (9/ 161)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (13/ 200).

(2) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 178)، و«تفسير البغوي» (4/ 285)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 555).

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (28/ 174)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (5/ 3427)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 177)، و«المحرر الوجيز» (5/ 177)، و«تفسير القرطبي» (17/ 44)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 148)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 420)، و«فتح القدير» (5/ 104).

(4) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 344)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 116)، و«تفسير النسفي» (3/ 375)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (7/ 178).

(5) ينظر: «تفسير الماتريدي» (6/ 560)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 344)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 117)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (6/ 3911)، و«تفسير الماوردي» (5/ 370)، و«المحرر الوجيز» (5/ 177)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 309)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 420).

والأظهر أن إمامًا مثل إبراهيم الخليل عليه السلام السيد العظيم الذي اتَّخذه الله تعالى خليلًا لديه من قوة الحَدَس والبصيرة والعرفان ما يغوص فيه على دقائق المعاني والأسرار، حتى ولو لم يوجد في ظاهر الحال ما يدل عليها؛ فلذلك أحسَّ أن الأمر ليس طبيعيًّا، وهذا فيه حكمة عملية: أن الإنسان إذا استغرب شيئًا عليه أن يتعامل معه بشكل طبيعي ويبحث بعد ذلك حتى تتضح له الأمور، ولا يستعجل باتخاذ موقفٍ ما، ولا يفجأ الناس بما يستغربون، وينتظر حتى تتكشَّف الأمور بعد ذلك، ومن كمال الضيافة التي عُرف بها أَلَّا يواجههم بوصفهم بالنكارة، وقد يكون قالها في نفسه، أو يكون قالها لأهل بيته لما ذهب إليهم ليصنعوا طعامًا.

* ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾:

﴿فَإِنْ﴾ أي: ذهب، **والرَّوْغ** يتميز بكونه ذهاب مع شيء من الخُفية[1].

﴿رُشْدًا فَادْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾: وهذا دليل على حفاوته وجميل كرمه، وفي آية أخرى جاء التعبير بقوله: ﴿۝٥ وَٱبْتَلُواْ﴾ [هود: 69]، أي: مشوي[2]، وهذا أسرع من طبخه، والعرب إذا كانوا في سرعة فإنهم يقومون بشيِّ اللحم، ولذلك يقول امرؤ القَيْس:

وظَلَّ طُهاةُ اللَّحمِ ما بَينَ مُنضِجٍ *** صَفيفَ شِواءٍ أو قَديرٍ مُعَجَّلِ[3]

* ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 525)، و«الكشاف» (4/ 401)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 148)، و«تفسير النسفي» (3/ 376)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 421)، و«فتح القدير» (5/ 105).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 526)، و«تفسير السمرقندي» (2/ 161)، و«تفسير الثعلبي» (5/ 178)، و«المحرر الوجيز» (3/ 188)، و«زاد المسير» (2/ 385)، و«تفسير القرطبي» (9/ 63)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 421)، و«فتح القدير» (2/ 581).

(3) ينظر: «ديوان امرئ القيس» (ص62).

﴿وَلَا﴾ وهذا من تمام الضيافة إذ أحضر الطعام وقرَّبه إليهم حتى لا يُحوجهم إلى القيام[1]، وإن كان هذا من العادات، والعادات بابها واسع، وظروف الناس تختلف، واليوم جرت عادة الناس على إدخال الضيوف إلى الطعام؛ لكون الولائم كبيرة، ولكن ما جرى من خليل الرحمن هنا هو من تحقيق كمال الضيافة في زمنه مع اليُسر والعفوية وعدم التكلُّف، كما في الحديث: «نُهينا عن التكلُّف للضيف»[2].

﴿تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافًا وَبِدَارًا﴾: وهذا من حسن الضيافة، لم يقل: «كلوا» على سبيل الأمر، وإنما على سبيل العرض المؤدَّب[3]؛ لأن ﴿إِسۡرَافًا﴾ حرف استفتاح وعرض[4]، وفيها الدعوة اللَّطيفة لهم.

* ﴿يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾:

﴿يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ﴾: وذلك حين لم يأكلوا؛ وجاء في الآية الأخرى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ [هود: 70]، وهذا يؤكِّد ما ذكرته آنفًا أنه لم يواجههم بقوله: ﴿إِذَا بَلَغُواْ﴾، وإنما قاله في نفسه، فهو لما ﴿إِذَا بَلَغُواْ

---

(1) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (9/ 556)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 188)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (18/ 463).

(2) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (1404)، وأحمد (23733)، وابن أبي الدنيا في «الجوع» (266)، والطبراني في «الكبير» (6085)، وفي «الأوسط» (5935)، والحاكم (4/ 123)، والبيهقي في «الآداب» (73)، وفي «شعب الإيمان» (9153) من حديث سلمان رضي الله عنه. وينظر: «إرواء الغليل» (1957)، و«السلسلة الصحيحة» (2440)، و«أنيس الساري في تخريج أحاديث فتح الباري» (8/ 5584- 5587).

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (28/ 177)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 148)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 309)، و«تفسير الخازن» (4/ 195)، و«تفسير ابن كثير» (4/ 333)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 188)، و«روح البيان» (9/ 162).

(4) ينظر: «مشارق الأنوار على صحاح الآثار» (1/ 33)، و«المحكم والمحيط الأعظم» (10/ 445)، و«لسان العرب» (15/ 434)، و«تاج العروس» (40/ 377).

﴿ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾، وحُقَّ له أن يوجَّس منهم خِيفة، والضيف إذا لم يأكل فإنه يُخشى منه الغدر، وقد يكون يضمر سوءًا.

وإيجاس الخِيفة لا يعني أنه خاف من أشخاصهم، لكن خاف مما وراءهم وسبب مجيئهم.

وعادةً فإن الأشياء الغامضة تبعث على الخوف، ولذا قالوا له: ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾؛ فقد ظهر لهم في قَسَمات وجهه ما يدل على توجَّسه[1]، فقالوا له تطمينًا وتبشيرًا: ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

وسَرعان ما انقلب الخوف بُشرى بغلام، وهو إسحاق[2]، وأمه سارة زوج إبراهيم عليهم السلام.

ويدل لذلك ما جاء في الآية الأخرى حيث نص الله تعالى على اسم هذا الغلام، فقال: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [هود: 71]، أي: من ولد إسحاق: يعقوب.

وقد حدث من سارة موقف إنساني عظيم فإنها لما كبرت ولم يُولد لها، وعرفت أنها عَقِيم، تحاملت على نفسها وأهدته هاجر من أجل أن تأتيه بغلام، فأذن الله أن يكون إسماعيل ولدًا لهاجر، وأن يكون إسحاق ولدًا لسارة.

ولم يقل: «بغلام جميل، ولا طويل»، وإنما: ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾، وهذا دليل على أن الصفات المعنوية هي التي يجب أن يُحرص عليها ويُمدح بها، وفي الآية الأخرى قال: ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾ [الصافات: 101]، فالآية الأولى- آية الذاريات- في شأن

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 527)، و«تفسير القرطبي» (17/ 46).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 371)، و«تفسير السمعاني» (5/ 257)، و«تفسير القرطبي» (17/ 46)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 148)، و«تفسير النسفي» (3/ 376)، و«فتح القدير» (5/ 105).

إسحاق، وآية الصافات في شأن إسماعيل، فإسحاق ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾، وإسماعيل ﴿أَن﴾[1].

* ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾:

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: في صياح وصوت[2]، وقد تكون هذه «الصَّرَّة» هي قولها: ﴿النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [هود: 72].

وذكر هنا أنها صكَّت وجهها، أي: ضربته[3]، وهذه عادة عند النساء، وليست دليلًا على ضعف عقل المرأة، كما يظنه بعضهم، ولا ينبغي أن يقال هذا الكلام في هذا السياق فيكفي من نضج عقلها التضحية التي بذلتها لخليل الرحمن إبراهيم والصبر معه، وهي حركة عفوية تلقائية تعبِّر عن شدة التصديق وشدة الاستغراب!

﴿عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ﴾: فهما سببان لعدم الإنجاب: العُقم، فهي لم تنجب وهي فتاة شابة، فكيف وهي في مرحلة الإياس، وكذلك زوجها شيخ كبير، كما قالت: ﴿النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ [هود: 72]، حتى في بيت النبوة يتكلم أهله بعفوية ويعبِّرون عن مشاعرهم دون تكلُّف.

* ﴿حَسِيبًا ﴿٦﴾ □□□□□□□□﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 527)، و«معاني القرآن» للزجاج (4/ 311)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 147)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (9/ 6132)، و«تفسير الماوردي» (5/ 60)، و«المحرر الوجيز» (4/ 480)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 119)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 27).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (2/ 462)، و«تفسير السمعاني» (5/ 257)، و«تفسير القرطبي» (17/ 46)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 295)، و«اللباب في علوم الكتاب» (5/ 485).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 130)، و«تفسير الطبري» (15/ 395)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 345)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7094)، و«تفسير الماوردي» (5/ 371)، و«المحرر الوجيز» (5/ 178)، و«تفسير القرطبي» (17/ 47)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 421).

هذا قول الملائكة، أخبروها أنه ليس دعاءً ولا تمنِّيًا، وإنما هو خبرٌ من الله سبحانه[1].

وفي قولهم: ﴿ ﴾ إشارة إلى لُطفه سبحانه وتعالى وعطفه على عباده ورحمته بهم.

وخَلِيق بمَن يكون عنده معاناة من العُقم أو الفقر أو المرض أو الهم والغم والحزن والنَّكَد أن يستشعر مثل هذا الموقف، وكيف خرق الله تعالى النواميس والسنن والعادات، ورزقهم الغلام العليم.

والتعبير بالرَّبِّ مع الضمير يُشعرك باللُّطف، فهو ﴿ ﴾ القريب المجيب الرَّحيم الذي يجيب دعوة الدَّاعي إذا دعاه.

﴿ ﴾: فهو ﴿ ﴾ في خلق هذا الغلام، وفي تأخيره، وهو ﴿ ﴾ الذي منح هذا الغلام من علمه، فجاء غلامًا عَلِيمًا، وهو ﴿ ﴾ بالأشياء والأسباب؛ ولذلك لا يعجزه شيء ولا تخفى عليه خافية[2].

ولأنه قول الله العزيز الحكيم فقد أصبح هذا الشيخ المسن وهذه العجوز العَقِيم آباء لأجناس ممتدة من البشرية، فإبراهيم هو أب البشر الثاني، والعرب من ذرية ابنه إسماعيل، واليهود من ذرية إسرائيل وهو: إسحاق.

فإذا بارك الله فلا حدَّ لبركته، ورحمته تجري حيث يرى الناس وحيث لا يرون!

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 532)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 55)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7095)، و«زاد المسير» (4/ 171)، و«فتح القدير» (5/ 106).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 386)، و«تفسير القرطبي» (17/ 47)، و«تفسير النسفي» (3/ 376)، والمصادر السابقة.

❋ وهنا ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾، ولكنه بحَدَسه أحسَّ أن إتيانهم لم يكن من أجل هذه البُشرى فحسب، بل البُشرى أمرٌ عارض، ولذا ﴿ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن﴾:

وعادةً «الخَطْبُ» لا يقال إلا في الشيء الجليل، وهو لما علم أنهم ملائكة أدرك أن الأمر الذي جاؤوا من أجله عظيم[1].

❋ ﴿نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾:

وهم قوم لوط[2]، وصفوهم بأنهم ﴿وَبَثَّ﴾؛ لأنهم كانوا يشركون بالله، ويفعلون الفاحشة الشاذة؛ كانوا يأتون ﴿تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ [الشعراء: 165]، لم يسبقهم بهذا أحدٌ من الناس، ويأتونه في ناديهم، ويتعاطونه جهارًا نهارًا، ويصرُّون عليه، ولم يطيعوا نبيَّهم عليه السلام، **فهم مجرمون من ثلاثة أوجه**:

1- أعظمها الشرك بالله وتكذيب الأنبياء.

2- إتيان الفاحشة.

3- العدوان والبغي؛ حيث دلَّ السياق على أنهم كانوا يتعرَّضون لمَن لا يوافقهم، ويعتدون عليه، ويكرهونه على فعل الفاحشة، وقد همُّوا بأضياف نبيِّهم دون حياء، ظانِّين أنهم من البشر.

❋ ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾:

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (3/ 366)، و«تفسير الرازي» (28/ 178)، و«البحر المحيط في التفسير» (7/ 375)، و«تفسير الثعالبي» (3/ 403)، و«فتح القدير» (3/ 162)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (7/ 180)، و«التحرير والتنوير» (16/ 295).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 131)، و«تفسير الطبري» (21/ 532)، و«تفسير السمعاني» (3/ 144)، و«تفسير البغوي» (4/ 285)، و«الكشاف» (4/ 402)، و«تفسير القرطبي» (17/ 48)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 422).

وهذه الحجارة من أنواع الحجارة الطينية البُركانية التي رفعها الله تعالى إلى السماء ثم أنزلها عليهم.

* وقد وصفوها بأنها ﴿ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾:

والمعنى: مُعلَّمة[1]، ليست مثل الحجارة العادية، بل هي حجارة من نوع خاص، **والسَّوم** هو: العلامة، مثل الوَسْم[2].

أو يكون المعنى: مكتوبًا عليها اسم صاحبها[3].

ويحتمل أن معناها: مرسلَة من عند ربك[4]، فهو أمر مرتَّب ومقصود من عند الله تعالى ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾.

والمقصود هنا بالإسراف: أن أمرهم تطوَّر إلى تعاطيها والإعلان بها، والإصرار عليها، والمفاخرة والمباهاة، كما يقع لِمَن يُصاب بإدمان الجريمة حين يتحدَّث عن قوته وبطولته، ويسعى لإيقاع غيره، ويحتقر مَن لا يوافقه!

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ① وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ﴾:

أي: أخرجنا مَن كان في القرية، وهي: سَدُوم، وهي في الشام قريبة من البحر الميت[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 532)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 345)، و«تفسير البغوي» (4/ 285)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 393).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 402)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 149)، و«تفسير النسفي» (3/ 377)، و«تفسير المراغي» (27/ 3)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 285)، و«الوجيز» للواحدي (ص1030)، و«تفسير السمعاني» (5/ 258)، و«مفاتيح الغيب» (28/ 180)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 422).

(4) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 285)، و«تفسير الرازي» (28/ 180)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (2/ 453).

والذين خرجوا فعلًا هم آل لُوط، إلا امرأته فلم تكن مؤمنة، ولكنها في الظاهر كانت معدودة من المسلمين، والله أعلم كانت تتظاهر بطاعة لوط، وصفها الله في «سورة التحريم» بالخيانة ﴿أَدْنَىٰ﴾ [التحريم: 10]، فهي ظاهرًا كانت من المسلمين، لكن في باطنها كانت مع قومها؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾، والمنافق معدود ظاهرًا من المسلمين، ولكنه ليس من المؤمنين، ولذا وُصف البيت بالإسلام، ولكنه حدَّد الذين أُخرجوا ونَجَوْا بأنهم المؤمنون فحسب[2].

* ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ﴾:

أي: جعلنا للعقوبة التي حلَّت بهم آثارًا تدل عليهم، وفي ذلك تحذير من فعلهم[3].

* ﴿حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾:

المعنى: ﴿حُوبًا كَبِيرًا﴾ آية، كما في قرية قوم لوط آية، **والسلطان** هو: الحجة البينة، ومنها: الآيات التسع التي بعثه الله تعالى بها[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 532)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7096)، و«المحرر الوجيز» (5/ 179)، و«تفسير الرازي» (28/ 181).

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة التحريم».

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 533)، و«تفسير البغوي» (4/ 286)، و«المحرر الوجيز» (5/ 179)، و«تفسير الرازي» (28/ 181)، و«تفسير القرطبي» (17/ 49)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 422)، و«فتح القدير» (5/ 107).

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 131)، و«تفسير الطبري» (21/ 534)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 346)، و«تفسير السمعاني» (5/ 259)، و«الكشاف» (4/ 403)، و«زاد المسير» (4/ 171)، و«تفسير القرطبي» (17/ 49)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 422)، و«فتح القدير» (5/ 107)، وما سيأتي في «سورة القمر»: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١﴾.

* ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾:

﴿فَٱنكِحُواْ مَا﴾ أي: بقوته من أَتْباع وجيش[1].

﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾: وعادةً يكون «النبذ» للشيء الزَّهيد، كنبذ النواة أو نبذ الحَصَاة، و﴿خِفۡتُمۡ﴾ هو: البحر[2]، و﴿تَعۡدِلُواْ﴾ صفة لفرعون، يعني: ملوم، آتٍ بما يُلامُ عليه[3].

* ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا﴾:

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ﴾ هي: الرِّيح التي لا تأتي بخير، فإن الله تعالى يرسل الرِّياح لواقح، كما في قوله: ﴿فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ﴾ [الحجر: 22]، لكن هذه الرِّيح عَقِيم، وهذا استعمال قرآني رائع مؤثِّر، والعرب يفهمون هذا جيدًا؛ لأنهم كانوا بحاجة إلى الرِّياح، وهي علامة على المطر، وكانوا يفرحون بها، وينتظرون ما بعدها، ولذا وصفها بـ﴿أَدۡنَىٰٓ﴾! وعبَّر عنها بالمفرد؛ ليدل على أنها واحدة لا تختلف صفتها، بخلاف الرِّياح الملقِّحة[4].

* ﴿تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ﴾:

---

(1) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7098)، و«تفسير الماوردي» (5/ 372)، و«تفسير السمعاني» (5/ 260)، و«تفسير الرازي» (28/ 182)، و«تفسير القرطبي» (17/ 49)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 558).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 534)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 56)، و«المحرر الوجيز» (5/ 179)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 394).

(3) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 179)، و«تفسير البغوي» (4/ 286)، و«الكشاف» (4/ 403)، و«تفسير الإيجي» (4/ 195)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 537)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 179)، و«الكشاف» (4/ 403)، و«المحرر الوجيز» (2/ 412)، و«تفسير ابن كثير» (4/ 530)، و«فتح القدير» (5/ 108).

والمقصود: الأشياء التي يتأتَّى فيها الدَّمار، وإلا فإنها لم تهلك الأرض ولا السماء ولا الجبال[1].

والرَّميم هو: التراب، **وقيل**: الزرع اليابس البالي الذي وطئته الأقدام وداسته الحيوانات، فلم يبق منه ما يعتد به، **وقيل**: الرَّماد، والمعنى المشترك بينهما أن الرَّميم هو الشيء المنتهي الحَقِير الذي لا شأن له[2].

* ﴿عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا﴾:

يحتمل أن يكون المقصود: التمتع بطيبات الحياة الدنيا إلى الأجل المسمى الذي هو الموت، وعليه فهو عام لهم ولغيرهم[3].

ويحتمل أنه الأيام الثلاثة التي أُمهلوها بعد عقرهم للناقة، كما في قوله تعالى: ﴿أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾ [هود: 65][4].

* ﴿تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 541)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 389)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 118)، و«تفسير البغوي» (4/ 286)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 539)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 57)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (3/ 2127)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 179)، و«الكشاف» (4/ 403)، و«تفسير القرطبي» (17/ 50)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 286)، و«فتح القدير» (5/ 108).

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 180)، و«تفسير القرطبي» (17/ 51)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 310)، و«تفسير الخازن» (4/ 196)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 423)، و«فتح القدير» (5/ 108).

(4) ينظر: «تفسير الرازي» (28/ 185)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 150)، و«تفسير النسفي» (3/ 378)، والمصادر السابقة.

وهذا يُرجِّح أن المقصود بقوله: ﴿أَمْوَالِكُمُ﴾ يعني: كلوا من طيبات ما رزقكم الله، واشكروا له وأطيعوه؛ ولهذا قال: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ فكانوا ينظرون العذاب وهو يحل بهم، ولا يستطيعون له صَرْفًا ولا دفعًا ولا نصرًا[1].

* ﴿فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥ وَٱبْتَلُواْ﴾:

أي: ما استطاعوا أن يقوموا على أقدامهم؛ لأن العذاب أرعبهم، فأسقطهم وأهلكهم[2].

أو المعنى: فلم يستطيعوا مقاومة ما نزل بهم، وهو الصاعقة[3]، ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥﴾ أي: ما استطاعوا أن يطلبوا النصر، فلا هم انتصروا بأنفسهم، وما قدروا أن يطلبوا النصر من غيرهم[4].

* ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ﴾:

وقوم نوح كانوا قبل هؤلاء جميعًا، ولكن أخَّرهم في السياق؛ لأن الأمم المذكورة أقرب إلى العرب، وأخبارها لديهم متداولة، وهم يمرون بآثارهم، كما في ديار عاد وثمود وقوم لُوط[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 390)، و«تفسير البغوي» (4/ 287)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 304)، و«تفسير القاسمي» (9/ 43)، و«التحرير والتنوير» (27/ 14).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 542)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 289)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 118)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7102)، و«تفسير الرازي» (28/ 185)، و«تفسير القرطبي» (17/ 52)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 424).

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 390)، و«الكشاف» (4/ 404)، و«إيجاز البيان عن معاني القرآن» (2/ 767)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7103)، و«تفسير البغوي» (4/ 287)، والمصادر السابقة.

* ﴿إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا﴾:

وبعد الجولة التاريخية في أخبار المكذِّبين وآيات الأنبياء، ينتقل إلى آيات الله تعالى في الكون.

والأيد هنا: القوة[2]، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [ص: 17]، أي: ذا القوة[3]، وليس المقصود: الأيدي جمع يد، كما يظن البعض.

﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ﴾: **قيل: المعنى**: أن السماء واسعة جدًّا، وتتسع بازدياد. وهذا ليس بعيدًا من الناحية العلمية[4].

والاحتمال الثاني أن المعنى: وإنا لقادرون على ذلك، أي: في وُسعنا أن نفعل ذلك وأعظم منه[5].

وهذا المعنى أجود؛ فنحن موسعون قادرون على بنائها وبناء ما هو أقوى منها.

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 119)، و«تفسير النسفي» (3/ 397)، و«تفسير ابن عرفة» (4/ 71)، و«فتح القدير» (5/ 109)، وما سيأتي في «سورة الحاقة»: ﴿ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾، و«سورة الشمس»: ﴿تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ ٱلنِّكَاحَ﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 545)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 57)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 390)، و«تفسير الماوردي» (5/ 373)، و«الكشاف» (4/ 404)، و«تفسير القرطبي» (17/ 52)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 57).

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص573)، و«تفسير الطبري» (20/ 40)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 84)، و«تفسير الماوردي» (5/ 83).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 545)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 57)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7104)، و«تفسير الماوردي» (5/ 373)، و«تفسير الرازي» (28/ 188)، و«تفسير القرطبي» (17/ 52)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 424).

(5) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 132)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 390)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 347)، و«تفسير البغوي» (4/ 287)، و«الكشاف» (4/ 404)، و«فتح القدير» (5/ 109).

وهنا نَلْحَظ أن الله تعالى يُعبِّر في القرآن عن السماء بالبناء ﴿فَأَنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ﴾ [النازعات: 27]، فالسماء بناءٌ يراها الناس محيطة بهم كالقُبَّة. كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾ [البقرة: 22]، وقوله: ﴿فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ﴾ [غافر: 64].

* ﴿وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن﴾:

عبَّر عن الأرض بالفِراش؛ لأن فيها سكن الإنسان، فهي مفروشة، ومع أن الأرض كُرَوِيَّة، إلا أن التعبير بالفَرْش يشير إلى طبيعة الأرض في كون الإنسان يستخدمها وينام عليها ويوظِّفها في مصالحه ويبني ويزرع ويمشي ويحفر[1].

﴿يَكۡبَرُواْۚ﴾: جعل الأرض مِهادًا[2]، وهذا دليل على كرامة الإنسان عند الله، فهذا الخلق الذي تراه هو فضل من الله على هذا الإنسان؛ ولذلك جاء في آخر السورة قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾.

* ﴿كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ﴾:

يحتمل أن يكون في كل ما خلق الله زوجين، وهذا يقع في الأشياء الحِسِّيَّة، مثل: البشر والحيوانات والطيور، ويكون في الصفات والأشياء المعنوية، مثل النور والظلام، والفرح والحزن، والرضا والغضب، والعلم والجهل، والشدة واللِّين، وما أشبه ذلك.

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا ...﴾ [ق: 7].

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾.

وحتى الملائكة ففيها: ملائكة الرحمة وملائكة العذاب[1].

والزوجية ليست مقابَلة بين الأضداد، بل هي تبعث على التعاون والتكامل في النباتات والحيوانات والبشر، وليست المرأة عدوًّا للرجل ولا الرجل عدوٌّ للمرأة، وهكذا يجب أن تُفهم أنها تكامل في الوظائف والمهمات، وانسجام ومسير في طريق واحد تقتضيه الفطرة وتُوصِي به الشريعة وتطيب به الحياة، أما حين يفتعل الناس صراعًا بين هذه الأزواج، فإن الحياة تفسد والشر يهيج، ودائرة المشكلات تتَّسع.

* ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْۚ وَكَفَىٰ﴾:

والفرار إلى الله تعالى هو فرارٌ من كل شيء، فِرْ إلى الله من أعدائك؛ لأنه لا حول لك ولا قوة إلا بالله، وفِرْ من أصدقائك، كما قيل: «اللهمَّ اكفني شرَّ أصدقائي»، وفِرْ من شرِّ نفسك.

ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول: «**أعوذُ بك من شرِّ نفسي**»[2]. والاستعاذة هي نوع من الفرار.

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 545)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 57، 58)، و«تفسير الماوردي» (5/ 374)، و«الكشاف» (4/ 404)، و«المحرر الوجيز» (5/ 181)، و«تفسير الرازي» (28/ 188)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 150)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 424).

(2) أخرجه أحمد (16269، 17905)، وابن حبان (901) من حديث عثمان بن أبي العاص وامرأة من قيس رضي الله عنهما.

وأخرجه الطيالسي (9، 2705)، وأحمد (51، 52)، والدارمي (2731)، والبخاري في «الأدب المفرد» (1202)، وأبو داود (5067)، والترمذي (3392)، والنسائي في «الكبرى» (7644، 10563)، وابن حبان (962)، والحاكم (1/ 513)، والضياء (1/ 113– 115) (30– 32) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم علَّم أبا بكر رضي الله عنه أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2753).

ويقول: «**اللهمَّ أعوذُ برضاكَ من سخطكَ، وبمُعافاتكَ من عقوبتكَ، وأعوذُ بك منكَ**»[1].

ويقول سبحانه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة: 118]، فالفرار من الله يكون إليه، والفرار من كل شيء لا يكون إلا إلى الله، وكلُّ أحد إذا خفته تفرُّ منه، إلا الله إذا خفته تفرُّ إليه[2]؛ فهو واسع المغفرة، وأبواب التوبة مفتوحة للناس كلهم دون استثناء، وفي الوقت الذي يرفضون دعوته ويقولون عن رسله وأنبيائه: سحرة أو كهنة، يفتح لهم أبواب رحماته، ويدعوهم إليه، ويصبر عليهم، ويمهلهم، ويمدُّ لهم، ويقيم عليهم الحجج، ويبعث لهم الآيات، ويرزقهم ويعافيهم سبحانه وبحمده.

والمقام هنا يستدعي الخوف بعدما ذكر الله تعالى قصص الأنبياء السابقين وعاقبة أقوامهم المكذِّبين.

* ﴿بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦ □□□□□□□□□□﴾:

والتوحيد هو أصل رسالات الأنبياء، وهو الفيصل بين المؤمنين والمكذِّبين، وهو يقتضي العبودية لله، ونبذ الآلهة والأنداد من دونه، والفرار إلى الله هو من التوحيد يقتضي التوكل عليه والتفويض إليه؛ ولذا أعقبه بالنهي عن الشرك وكرَّر النذارة؛ لأن متعلقهما مختلف، فالأُولى إنذار بالفرار إلى الله والإيمان به، والثانية إنذار من الشرك وعبادة آلهة أخرى، ولأن السورة فيها وعيد وتهديد وذكر لمصائر المكذِّبين غلَّب جانب النذارة على جانب التبشير.

---

(1) أخرجه مسلم (486) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(2) ينظر: «تفسير القشيري» (3/ 469)، و«تفسير البغوي» (4/ 287)، و«المحرر الوجيز» (5/ 181)، و«تفسير الرازي» (28/ 189)، و«تفسير القرطبي» (17/ 53)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 424)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (5/ 480)، و«فتح القدير» (5/ 109).

* ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢﴾:

كما قال فرعون لموسى[1]. وكما قالت قريش عن النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿سَاحِرٌ﴾، وغير ذلك مما وصفوه به[2].

* ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾:

هل أوصى بعضُهم بعضًا بذلك؟ كلا[3]؛ لأنهم لم يشهدوا بعضًا؛ ولهذا أضرب الله تعالى عن هذا وقال: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ﴾، و﴿بَلۡ﴾ للإضراب؛ ونفي السؤال السابق[4]، **كأن المعنى**: لم يتواصوا به، ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ﴾[5]، فالطغيان هو الذي جعلهم يتوافقون على أن يقول كل ملأ عن رسولهم: إنه ساحر، أو مجنون، ففي القرآن الكريم تأكيد لهذا الطغيان، كما في «سورة البقرة»: ﴿رُشۡدًا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا

(1) كما في قوله تعالى المتقدِّم: ﴿حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ﴾، وما سيأتي في «سورة القمر»: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٌ وَٱزۡدُجِرَ ۝٩﴾.

(2) ينظر ما تقدم في «سورة ﴿قٓ﴾»: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 133)، و«تفسير الطبري» (21/ 550)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 58)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 120)، و«زاد المسير» (4/ 173)، و«تفسير القرطبي» (17/ 54)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 425).

(4) ينظر: «تفسير أبي السعود» (8/ 144)، و«روح البيان» (9/ 174)، و«التفسير المظهري» (9/ 90)، و«فتح القدير» (5/ 110)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (13/ 210)، و«تفسير القاسمي» (9/ 45)، و«التحرير والتنوير» (27/ 22)، وما سيأتي في «سورة القيامة»: ﴿تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةً﴾، و«سورة الانشقاق»: ﴿ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ وَلَا﴾، و«سورة البروج»: ﴿رُشۡدًا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ وَءَاتُواْ﴾، و«سورة الأعلى»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ مِّن﴾.

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 551)، و«المحرر الوجيز» (5/ 182)، و«مفاتيح الغيب» (28/ 191)، و«تفسير القرطبي» (17/ 54)، و«التحرير والتنوير» (27/ 22).

تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن﴾ [البقرة: 118]، فسبب تواطئهم على هذا المعنى هو تشابه قلوبهم وما فيها من الكبر والطغيان.

وربما نستفيد من هذه الآية أَلَّا نبالغ فيما يسمَّى بنظرية المؤامرة؛ لأن من الناس مَن يتخيل أن كل ما يقع في الكون مؤامرة، وأن قوى الشرق والغرب تتآمر في خطة محكمة موحَّدة على المسلمين، ولا شك أن قدرًا من ذلك صحيح، ولكن كثير منه أيضًا مما تشابهت فيه القلوب ومما يقع على سبيل الاتفاق من هؤلاء الأقوام، والله تعالى يقول: ﴿بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ [آل عمران: 120].

وتلك القوى المتآمرة لو وجدت في المسلمين قوة وبأسًا وتوحيدًا للموقف ما استطاعت النفاذ إليهم ولا بلغ مكرها مبلغه، فأساس الفشل ليس هو كيد العدو، بل الضعف الداخلي والتهارش والاختلاف، ووجود أطياف وأطراف تسمع لعدوها وتخدمه وتنفذ توجيهاته وتتمثَّل أهدافه.

* ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ٥٤ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾:

هذا ثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم، وكأنه يقول له: قد أدَّيتَ الأمانة، وبلَّغتَ الرسالة، وأقمت الحجَّةَ؛ فلا تُلام وقد أدَّيتَ ما عليك.

وقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ **تحتمل معنيين:**

الأول: أن لا يدخل معهم في جدل لا يُفيد حول دعواهم: إنه ساحر أو شاعر أو مجنون؛ فإن الدخول أحيانًا مع الخصم في مجادلة ومماحكة ربما يُذهب الجهد ويسبِّب ضيق الصدر والهم والحزن، دون أن يأتي بطائل، كما قال: ﴿دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ﴾ [الشورى: 15][1].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 133)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 393)، و«المحرر الوجيز» (5/ 182)، و«تفسير القرطبي» (17/ 54)، والمصادر الآتية.

الثاني: ترك الإلحاح والمبالغة في دعوتهم[1]، كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ١﴾ [الكهف: 6]، وقال: ﴿إِسۡرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ﴾ [النحل: 127]، يعني: ادعهم وادع غيرهم، ولا تحزن عليهم[2].

﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: تنفع الذين آمنوا، فيزدادوا إيمانًا مع إيمانهم[3].

وقد يكون من معاني الآية: أن الذِّكرى تنفع الذين لديهم استعداد للإيمان وللحقِّ[4]، ولكن مشكلتهم الجهل، وتشرّبهم للشبهات، فتحتاج إلى أن تُكْشَف، فإذا سمعوا الموعظة تيقَّظوا وخافوا، فَفَرقٌ بين هؤلاء وبين المعاندين المستكبرين.

* ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾:

لماذا بدأ بالجن، مع أن الإنس منهم الأنبياء والرسل؟

قيل في الجواب عن ذلك: إن العرب كانوا يعبدون الجن ويعظِّمونهم، وإذا نزلوا بوادٍ استعاذوا بسيِّد الجن من سُفهاء قومه، وبعضهم كانوا يعبدون الجن، ويزعمون

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 131)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 348)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7107)، و«لطائف الإشارات» (3/ 469)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (14/ 407)، و«الوجيز» للواحدي (ص624)، و«تفسير السمعاني» (3/ 211)، و«تفسير ابن كثير» (4/ 615).

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (4/ 90)، و«تفسير الماوردي» (5/ 374)، و«لطائف الإشارات» (3/ 469- 470)، و«الكشاف» (4/ 405)، و«تفسير الرازي» (28/ 191)، و«تفسير القرطبي» (17/ 55)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 425)، و«فتح القدير» (5/ 110).

(4) ينظر: «تفسير الخازن» (4/ 197)، و«فتح القدير» (5/ 110)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (2/ 455)، و«تفسير القاسمي» (9/ 46)، والمصادر السابقة.

أن لله تعالى صاحبة من الجن ولدت له الملائكة[1]، فدحض الله تعالى هذه الادِّعاءات، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: ليوحِّدون[2].

ومما تحتمله الآية من المعاني:

أي: ما خلقتُ الجن والإنس إِلَّا لآمرهم بعبادتي وأبلِّغهم على ألسنة رسلي ما يجب عليهم أن يفعلوه[3].

ويدخل في الآية معنى العبادة الاضطرارية؛ لأن الخلق كلهم مضطرون إلى الله، فالسماوات والأرض والشمس والقمر كلها تسبِّح الله تعالى وتعبده عبادة اضطرارية، وهكذا خلايا الإنسان وأعضاؤه تعبد الله تعالى عبادةً اضطرارية، ويبقى الاختيار في عبادة الله أو عدم عبادته في عقل الإنسان وقلبه وإرادته.

ويدخل في الآية العبادة الطارئة، فإن بعض الناس ربما يعبد الله تعالى في حال الشدة، كما حكى الله تعالى عن بعضهم: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ﴾ [العنكبوت: 65]، ﴿ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ [يونس: 22].

* ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾:

---

(1) كما سيأتي تفصيله في «سورة الجن».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 553)، و«تفسير الماتريدي» (1/ 461)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 348)، و«تفسير الرازي» (28/ 192)، و«تفسير القرطبي» (17/ 55).

(3) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 348)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 120)، و«تفسير الماوردي» (5/ 374)، و«تفسير السمعاني» (5/ 264)، و«تفسير الرازي» (28/ 192)، و«المحرر الوجيز» (5/ 182)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 425)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 105)، و«التحرير والتنوير» (27/ 27).

وهذا تفصيل وتوضيح للمعنى، وفيه نوع من المعاتبة للناس: ﴿تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ﴾ [الزمر: 7]، فالله تعالى هو الذي خلق السماوات وجعلها بناءً، وخلق الأرض وفرشها لكم، وجعلها مِهادًا، فأيُّ حاجة له إليكم أن ترزقوه أو أن تطعموه؟!

ولهذا كان من أسمائه سبحانه: «الغني»: ﴿أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ﴾ [محمد: 38][1].

وهذه المعاني ينبغي أن يستشعرها العبد؛ فإن عبادة القلب من أعظم العبادات، وهي تُورِث تعظيم الله وحبِّه وشكره، والشعور بالفقر الفطري الضروري المصاحب للإنسان في كل حال، مهما ظن أنه قد استغنى وغفل، وفي أول موقف من مفاجأة مرض أو نازلة أو خوف يظهر الافتقار وتنكشف الأستار.

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾:

فهو الذي يرزقهم، ولا يريد منهم من رزق[2]، وهو ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾، فلا يحتاج منهم إلى مساعدة ولا إلى خدمة، فهو القوي ﴿ٱلْمَتِينُ﴾[3].

و﴿ٱلْمَتِينُ﴾ من أسمائه الحسنى، ويعني: القوة والقدرة والثبات[1]، فليست قدرته وقوته عارضة، وإنما هي دائمة باقية، وغناه ذاتي، ليس عطاءً من أحد، أما

---

(1) ينظر: «تفسير الخازن» (4/ 196)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (13/ 212)، و«تفسير السعدي» (ص813)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص287).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 396)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 348)، و«لطائف الإشارات» (3/ 470)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 181)، و«تفسير البغوي» (4/ 288)، و«المحرر الوجيز» (5/ 183)، و«تفسير القرطبي» (17/ 56)، و«فتح القدير» (5/ 111).

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (28/ 195)، و«روح البيان» (9/ 181)، و«التحرير والتنوير» (27/ 29)، والمصادر السابقة.

الأغنياء من البشر فغناهم مؤقت طارئ مكتسَب، ولذلك هم فقراء بالفطرة محتاجون إليه، فسبحان ذي الجلال والجمال والكمال والكبرياء والعظمة والمجد، والدنيا والآخرة، والليل والنهار، والبر والبحر، والجن والإنس، ينبغي أن يستشعر قلبك معنى الحب لهذا الإله العظيم والامتنان للفضل والشعور بالقرب، حتى وأنت تخطئ، فهو يقول: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ﴾، حتى للمشركين، فلا يحول بينك وبينه شيء، حتى إذا خفت منه فِرَّ إليه.

* ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ۝٥٩﴾:

أي: ظلموا أنفسهم بالشرك[2]، و﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ۝١٣﴾ [لقمان: 13].

والذَّنوب: أصله الدَّلْو الذي يُستقى به الماء من البئر[3]، فهو يتوعَّدهم بقدر من العذاب، وكفى به عذابًا.

﴿مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾: سمَّاهم: ﴿أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾؛ لأنهم أشركوا مثلهم، كقوم لوط وقوم موسى وثمود وعاد الذين مرَّ ذكرهم في السورة؛ ولذلك يهدِّدهم بأنهم في فترة الإمهال والإمكان[1].

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 348)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 121)، و«إيجاز البيان عن معاني القرآن» (2/ 767)، و«باهر البرهان فى معاني مشكلات القرآن» (3/ 1375)، و«تفسير القرطبي» (17/ 56)، و«تفسير الخازن» (4/ 197)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص221).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 553)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7111)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 182)، و«تفسير السمعاني» (5/ 265)، و«التحرير والتنوير» (27/ 30).

(3) ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (1/ 388)، و«تفسير الطبري» (22/ 447)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 59)، و«الزاهر في معاني كلمات الناس» (2/ 394)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 398)، و«تهذيب اللغة» (14/ 315) «ذ ن ب»، و«تفسير السمرقندي» (3/ 349)، و«غريب الحديث» للخطابي (2/ 520).

* ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

ختم السورة بالوعيد المناسب لبدئها؛ حيث أقسم أنهم ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ﴾ في كفرهم وعنادهم، وختم بأن لهم ما داموا مصرِّين على كفرهم لونًا من العذاب مثل عذاب من قبلهم من المكذِّبين.

وقد عجَّل لهم وعيد الدنيا، وتوعَّدهم بيوم وراءه هو يوم القيامة.

ومن النكت في السورة أنها بُدئت بوعيد، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا﴾، وخُتمت بوعيد في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾[2]، وقد نزلت قبل معركة بدر، فكان هناك وعيد يعلمه الله وهم لا يعلمونه، ففي معركة بدر انتصر المسلمون وقُتل عُتاة المشركين الذين نزلت هذه السورة وغيرها تعاتبهم وتوبِّخهم وتهدِّدهم وتصفهم بالطغيان، فجُرُّوا وسُحبوا إلى القَلِيب، وأُلقوا فيه، فوقف الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا القَلِيب.

ونلحظ هنا مناسبة قوله تعالى: ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ مع نهاية هؤلاء، حيث وقف عليهم وقال: «**يا فلانَ بنَ فلانٍ يا فلانَ بنَ فلانٍ، هل وجدتم ما وعدَ ربُّكم حقًّا، فإنِّي وجدتُ ما وعدني اللهُ حقًّا**». فقال عمرُ: تكلِّمُ أجسادًا لا أرواحَ فيها؟ فقال: «**ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم**»[3].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 134)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 349)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 291)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7111)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 182)، و«تفسير السمعاني» (5/ 265)، و«زاد المسير» (4/ 174)، و«التحرير والتنوير» (27/ 30).

(2) ينظر: «ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل» (2/ 448).

(3) أخرجه البخاري (3976)، ومسلم (2873) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فالوعد صادق وتحقَّق لهم ذَنوب ودَلو وبئر كبئر بدر الذي كُفتوا فيه ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾، الأمر قريب، وبكاهم شدَّاد بن الأسود، وقال[1]:

وماذا بالقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ *** مِنَ الشِّيزَى تُزَيَّنُ بِالسَّنامِ

وماذا بِلقَلِيبِ قَلِيبِ بَدْرٍ *** مِنَ القَيْناتِ والشَّرْبِ الكِرامِ

تُحَيِّينا السَّلامَةَ أُمُّ بَكْرٍ *** وهل لي بَعْدَ قَوْمِي مِنْ سَلامِ

يُحَدِّثُنا الرَّسُولُ بأن سَنَحْيا *** وكيفَ حَياةُ أَصْداءٍ وهامِ

فجاءهم الوعد الذي كانوا يستعجلون.

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (2/ 29)، و«صحيح البخاري» (5/ 65)، و«الروض الأنف» (5/ 249)، و«البداية والنهاية» (5/ 294).

وبكاهم عبد الله بن الزِّبَعْرَى بنحو ذلك. ينظر: «شعر عبدالله بن الزبعرى» (ص46- 47)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (2/ 15- 16)، و«أنساب الأشراف» للبَلَاذُري (1/ 308).

سورة الطور

* تسمية السورة:

لها اسم واحد، وهو: «**سورة الطُّور**»، أو: «**سورة** ﴿وَٱلطُّورِ﴾»[1].

وقد ورد في حديث أُمِّ سلمة رضي الله عنها أنها قالت: شكوتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أشتكي، فقال: «**طُوفي من وراء الناس وأنت راكبةٌ**». قالت: فطفتُ ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم حينئذ يصلِّي إلى جنب البيت، وهو يقرأ: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢﴾[2].

وفي حديث جُبير بن مُطْعِم رضي الله عنه لما جاء إلى المدينة وهو مشرك في فداء المشركين بعد معركة بدر، ودخل المسجدَ، قال: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقرأُ في المغرب بالطُّور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢﴾ كاد قلبي أن يطير. وأسلم رضي الله عنه[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 560)، و«الكشاف» (4/ 408)، و«المحرر الوجيز» (5/ 185)، و«تفسير الرازي» (28/ 198)، و«تفسير القرطبي» (17/ 58)، و«التحرير والتنوير» (27/ 35).

(2) أخرجه البخاري (464، 1619)، ومسلم (1276).

(3) أخرجه البخاري (3050، 4854)، ومسلم (463).

* **عدد آياتها:** تسع وأربعون آية، أو ثمان وأربعون، أو سبع وأربعون؛ ثلاث أقوال لعلماء الحجاز والكوفة والبصرة[1].

* **وهي مكية** باتفاق المفسِّرين[2].

* ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾:

يستفتح تعالى السورة بقَسَم، كما في «سورة الذاريات»، ولكنه في «سورة الذاريات» جاء بصيغة الجمع: ﴿۝٥ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟﴾. فأقسم بالذاريات، والجاريات، والحاملات، والمُقَسِّمات، أما هنا فجاء بصيغة المفرد.

ولعل من الأسرار أن المقسَم عليه في السورة شيء واحد، فإنه قال في نهاية القَسَم: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾، في حين أنه أقسم في «سورة الذاريات» على أمرين، وهما: مسألة البعث، ومسألة العذاب الدنيوي، وأقل الجمع اثنان[3].

ويحتمل أن يكون أفرد القَسَم؛ لأنه أقسَم بأعيان وليس بأشياء عامة، كالرِّياح مثلًا، فإذا أقسَم بالرِّياح، فالقَسَم يعم ريح الصَّبَا والدَّبُور والجَنوب، وريح التلقيح

(1) وقد اختلفوا في قوله: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾، وقوله: ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣﴾. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص233)، و«الكشاف» (4/ 408)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص309)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 545)، و«مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (3/ 27)، و«التحرير والتنوير» (27/ 36).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 185)، و«زاد المسير» (4/ 175)، و«تفسير الرازي» (28/ 198)، و«تفسير القرطبي» (17/ 58)، و«فتح القدير» (5/ 113).

(3) ينظر: «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (2/ 222)، و«المزهر» للسيوطي (1/ 39)، و«البُلغة إلى أصول اللغة» لصديق حسن خان (ص80)، و«النحو الوافي» (1/ 149).

وريح العذاب، لكن إذا أَقْسَم بالطُّور، فلا يحتمل إلا شيئًا واحدًا، وهو جبل الطُّور الذي أقسم به في «سورة التين»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾، فهو طُور سِينين، أو طُور سَيْناء، وهو الجبل الذي كلَّم ربُّنا عز وجل عليه موسى عليه السلام[1].

* ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٖ ٢﴾:

قال بعضهم: هو التوراة، والألواح التي أُنزلت على موسى عليه السلام[2]: ﴿نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 154]؛ لأن التوراة مرتبطة بجبل الطُّور، فهي الكتاب الذي أنزله تعالى على موسى عليه السلام قبل أن يمسها التحريف، فإذا ثبت أن القَسَم هنا بالتوراة، فهو دليل على أن التوراة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصل التحريف إلى لفظها، وإنما كانوا يحرِّفون معانيها، أما لفظها فكان ثَمَّ قدر من المحافظة عليه.

ولذلك لما حدثت نازلة زِنى المحصن عندهم، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**ما تجدونَ في التَّوراة على مَن زَنَى؟**». قالوا: نسوِّدُ وجوهَهُما، ونُحمِّلُهُما، ونُخالفُ بين وجوهِهِما، ويُطافُ بهما. قال: «**فَأْتُوا بالتَّوراة إن كنتم صادقينَ**». فجاؤوا بها، فقرؤوها حتى إذا مرُّوا بآية الرَّجْم وَضَعَ الفتى الذي يقرأُ يدَه على آية الرَّجْم، وقرأَ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبدُ الله بنُ سلَام- وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم-: مُرْهُ فليرفعْ يدَه. فرفَعَها، فإذا تحتها آيةُ الرَّجْم، فأَمَرَ بهما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فرُجِما[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 123)، و«تفسير القرطبي» (17/ 58)، و«فتح القدير» (5/ 113)، و«التحرير والتنوير» (18/ 34).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (4/ 376)، و«زاد المسير» (4/ 175)، و«تفسير القرطبي» (17/ 59)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 566)، والمصادر السابقة والآتية.

(3) أخرجه البخاري (7543)، ومسلم (1699) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ولا يمنع أن تكون بعض نسخ التوراة حرِّفت ونسخ أخرى بقيت محفوظة، فيكون القَسَم بالكتاب الذي أنزله سبحانه وليس بما عملته أيدي الناس.

ويحتمل أن يشمل جنس الكتاب، فيشمل الكتب السماوية[1]: صحف إبراهيم وموسى، والقرآن الكريم، والله تعالى أقسم بالكتاب المبين، والقرآن المجيد، والقرآن الحكيم.

وهي إشارة إلى أهمية الكتاب المسطور وما فيه من العلم والهُدى والرحمة والحكمة والبيان والقدر والحجة؛ ولذا كان نزول القرآن أعظم حجة على الخلق؛ وتكفَّل الله بحفظه، مع أنه نزل في أمة أُمِّيَّة لم يكن لديها ضبط للكتابة، وسَمَّى الله القرآن: كتابًا؛ لأنه سيظل مكتوبًا منذ نزل إلى يوم القيامة، وسماه قرآنًا لأنه سيُحفظ في الصدور أيضًا.

ويتبع ذلك أهمية اقتناء الكتب النافعة، وأن يختار الإنسان الكتاب اختياره للصديق أو الزوج؛ لأن الكتاب رفيق تطول ملازمته ومصاحبته، وسواء كان كتابًا ورقيًّا أو مرقومًا على أقراص، فهو كتاب من حروف وكلمات وسطور يقرؤه الناس، وللكتاب الورقي أهمية باقية لا تغني عنها البرامج الأخرى، كما هو موضَّح في «سورة العلق»[2].

* ﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝٣﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 400)، و«تفسير السمعاني» (5/ 266)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 442)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 427)، و«فتح القدير» (5/ 113)، و«تفسير القاسمي» (9/ 49)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة العلق»: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾.

الرَّق- بفتح الراء- هو: الجلد الذي كان يُكتب فيه[1].

وعادة ما كانوا يكتبون في الجلود الناعمة؛ لأن الكتابة فيها أحفظ وأضبط، والجلود لا تتلف مع الوقت، وكثير من الكتابات القديمة المحفوظة كانت على جلود، وبعض نسخ القرآن العتيقة منذ القرن الأول مكتوبة على جلد غزال، وهي محفوظة في المتاحف.

والمَنْشُور: المفتوح[2]، وفيه معنى جميل، والكتب إنما يكون نشرها وفتحها بمثابة استنطاقها، فالكتب السماوية المنزَّلة من عند الله فيها الحق واليقين والعلم والإعجاز.

ومن هنا لا يوجد في كتابنا المعجز، ولا في سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم شيء نستحي منه أو نداريه أو نكتمه أو نخشى أن يطَّلع الناسُ عليه، فهو منشور مكشوف.

وفيه إلماح إلى أن الدين ليس أسرارًا ولا طلاسم غامضة، وإنما يقتبس الناس منه بحسب أفهامهم وصفاء قلوبهم وسلامتهم من الهوى المسبق[3].

وإلماح ثانٍ إلى أن القول في المسائل الدينية لا يحسن أن يهجم عليه المرء دون بصيرة وعلم، فهي مسائل نقلية تُؤخذ من الكتب المنشورة من رب العالمين، والقول فيها بغير علم افتيات على الله سبحانه.

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 408)، و«تفسير القرطبي» (17/ 59)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 311)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 114)، و«فتح القدير» (5/ 113)، و«التحرير والتنوير» (27/ 37).

وينظر أيضًا: «العين» (5/ 24)، و«جمهرة اللغة» (1/ 125)، و«تهذيب اللغة» (8/ 230)، و«الصحاح» (4/ 1483).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 350)، و«تفسير النسفي» (3/ 382)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 566)، و«روح البيان» (9/ 185)، و«البحر المديد» (5/ 485)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير القاسمي» (9/ 49).

وإلماح ثالث إلى رفض الاتجاهات الباطنية التي تتواصى بحفظ وكتم أسرار المذهب عن العامة، وتلبس النص الإلهي معاني غريبة عنه ظاهرة التكلف، بيِّنة البطلان.

* ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾:

وهو في السماء السابعة، يسمَّى: الضُّراح، بضم الضاد[1]، كما جاء عن علي رضي الله عنه[2].

والبيت المَعْمور جاء ذكره في «صحيح البخاري» عند الإسراء حينما قال: «**فرُفِعَ لي البيتُ المَعْمورُ، فسألتُ جبريلَ، فقال: هذا البيتُ المَعْمورُ، يصلِّي فيه كلَّ يوم سبعونَ ألف مَلَك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخرَ ما عليهم**»[3].

وهو بمثابة الكعبة في الأرض.

ويُحتمل أن يُراد بالبيت المعمور: الكعبة[4]، فهي بيت معمور، والمقصود بعمارته ألَّا يخلو من طائف أو راكع أو ساجد: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝١٢٥﴾ [البقرة: 125]، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: 18]،

---

(1) ويُروى: الضَّرِيح. من المضارحة، وهي: المقابلة والمضارعة. ينظر: «الصحاح» (1/ 386)، و«النهاية» (3/ 81)، و«لسان العرب» (2/ 527) «ض ر ح».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 563)، و«تفسير الماوردي» (5/ 378)، و«المحرر الوجيز» (5/ 186)، و«تفسير الرازي» (4/ 46)، و«تفسير القرطبي» (17/ 60)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 428)، و«التحرير والتنوير» (27/ 39)، و«السلسلة الصحيحة» (477).

(3) أخرجه البخاري (3207، 3887)، ومسلم (164) من حديث مالك بن صَعْصَعَة رضي الله عنه.

(4) ينظر: «الكشاف» (4/ 408)، و«زاد المسير» (4/ 176)، و«فتح القدير» (5/ 114)، و«تفسير القاسمي» (9/ 49)، و«التحرير والتنوير» (27/ 38)، والمصادر السابقة.

وعمارته تكون بالتردد عليه وزيارته، وتكون ببنائه، وتوسيعه ونظافته وتطهيره، ولعل الآية تشمل كل بيت معمور لله، كالضُّراح، والكعبة ونحوها.

* ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ٥﴾:

الأقرب أن المقصود: السماء[1]، كما قال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗا﴾ [الأنبياء: 32]، فسماها سقفًا محفوظًا، وسقفًا مرفوعًا.

ورفعتها بحمايتها من الشياطين، وقداسة الوحي الذي ينزل منها، ورفعتها بأن فيها كل ما يتعلق بالعباد من الأرزاق والآجال وسائر المقادير: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ﴾ [الذاريات: 22].

ويلحظ أن القَسَم في هذه السورة ليس قَسَمًا بأشياء فيها منافع للعباد في الحياة الدنيا، كما هو الشأن في «سورة الذاريات»، بل هو قَسَمٌ بأشياء تتعلَّق بمصالح العباد في الدار الآخرة، فيتحصَّل من هذا وذاك أن مصلحة العباد تكون بحفظ دنياهم وحفظ دينهم، حتى الكعبة نفسها قال فيها سبحانه: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: 97]، يعني: قيامًا لمصالحهم الدينية ومصالحهم الدنيوية، ففيها من مصالح الدنيا الشيء العظيم[2].

* ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ٦﴾:

﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ أي: الموقد بالنار، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ [التكوير: 6]، وتقول: سجرت التنور، أي: أوقدته.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 566)، و«تفسير الماوردي» (5/ 378)، و«الكشاف» (4/ 408)، و«زاد المسير» (4/ 176)، و«تفسير الرازي» (28/ 198)، و«تفسير القرطبي» (17/ 61)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 429)، و«التحرير والتنوير» (27/ 39).

(2) ينظر: «تفسير المراغي» (27/ 16).

وهذا مروي عن جماعة من السلف، منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه[1]، ويحمل هذا على أن البحار تُوقد يوم القيامة فتكون نارًا.

ومن معاني ﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾: المتلئ الممتد المُرسَل[2]، بخلاف البُحيرات والأودية، فإنه ربما يزيد الماء فيها، وربما ينقص، وربما يجف، أما البحار فالماء فيها موجود أبدًا، فهذا من معاني ﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾.

وفي ذلك امتنان على الناس بهذه البحار، والقَسَم نفسه دعوة إلى التأمل والتدبر والاعتبار.

وبالنظر إلى ما سبق من كون المقسَم به هنا متعلِّقًا بأمور أخروية **يترجح أن** ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ هو: الموقد بالنار يوم القيامة، كما قال: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ [التكوير: 6]، ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ [الانفطار: 3].

* **وجواب القَسَم**: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ٨﴾:

إنها كلمة مزلزلة مخيفة، وبداية الآيات وعيد بالعذاب، وقَسَم على أنه واقع، أي: سيقع لا محالة[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 567، 569)، و«تفسير السمعاني» (5/ 268)، و«تفسير البغوي» (4/ 290)، و«الكشاف» (4/ 408)، و«المحرر الوجيز» (5/ 186)، و«تفسير الرازي» (28/ 198)، و«تفسير القرطبي» (17/ 61)، و«فتح القدير» (5/ 114).

(2) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 244)، و«تفسير الطبري» (22/ 459)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 402)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 351)، و«تفسير الماوردي» (5/ 379)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (10/ 196)، و«تفسير الخازن» (4/ 199)، و«تفسير الجلالين» (ص697)، و«تفسير الإيجي» (4/ 200)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 146)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (5/ 486)، و«فتح القدير» (5/ 114)، و«فتح البيان» (13/ 220).

والكلمة لها وَقْع كبير على النفوس، أكثر مما لو قال: «لحادث»، وفيها تهديد شديد للمكذِّبين، وتضمَّنت رحمة الله ولطفه بالنبي صلى الله عليه وسلم ومَن معه من المؤمنين، نستشعر ذلك في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾، فلم يقل: ﴿عَذَابَ ٱللَّهِ﴾، فهو ربهم الرحيم:

﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ﴾ [الملك: 29- 28].

﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾: لا يستطيع أحدٌ أن يمنعه، ولا أن يرفعه بعد وقوعه أو يقاومه(1).

❊ **أما متى ذلك؟** فلم يمهلهم أن يسألوا هذا السؤال كما هي عادتهم، بل باغتهم بالجواب فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾﴾:

والمَوْر: الحركة والاضطراب؛ إشارة إلى ما يقع في السماء من زوال النجوم وتكوُّر الشمس وانخساف القمر وتشقُّق السماء لنزول الملائكة(2).

❊ ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾:

فالجبال الرَّواسي الكبيرة التي أقسم الله بواحد منها في أول السورة وهو «الطُّور» أصبحت تسير بعد أن صارت كثيبًا مهيلًا، أصبحت مثل السَّراب، تمر مرَّ السحاب(1).

---

(1) ينظر: «تفسير النسفي» (3/ 383)، و«البحر المديد» (5/ 486)، و«تفسير السعدي» (ص814).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 573)، و«تفسير البغوي» (4/ 290)، و«تفسير القرطبي» (17/ 63)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 430)، و«فتح القدير» (5/ 114)، و«التحرير والتنوير» (27/ 41).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص423)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص783).

* ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾:

والويل: وعيد وتهديد[2]، يحمل على أخذ خبر الآخرة ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ ﴾، ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ ﴾ بجدٍّ واهتمام، وألَّا تكون محلًّا للسخرية والاستبعاد والتشكيك.

وكثير من الجدل الذي يثار حولها ناتج عن عدم المبالاة، وعن الانخراط في المجريات اليومية والعادات المتبعة، وعدم الرغبة في الإيمان الذي قد يقمع النفس عن بعض ملذاتها، كما قال: ﴿تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن﴾ [القيامة: 5- 6].

* ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾:

فالحديث هنا عن المكذِّبين، وليس عن العصاة من المؤمنين أصحاب الكبائر؛ فليس المقام مقامهم، كما نصَّت الآية الكريمة[3].

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾: فهؤلاء المكذِّبون يخوضون فيما لا يعلمون، ويلعبون ولا يتورَّعون عن تحويل القضايا الجديَّة إلى الهزل والسخرية؛ ولذا عبَّر أنهم في خوض، يقتحمون القضايا الكبرى دون تأمل ولا مسؤولية، وهم يلعبون في وقت الجد؛ ولذلك ذكر العلماء أن حكاية النكت والطرائف المتعلِّقة بالله تعالى أو بالقرآن أو

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 351)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7119)، و«تفسير السمعاني» (5/ 269)، و«تفسير القرطبي» (17/ 63)، و«تفسير النسفي» (3/ 383)، و«روح البيان» (9/ 189)، و«فتح القدير» (5/ 115).

(2) وأما ما قيل: إن ﴿ﮎ﴾: واد في جهنم، فهذا لا يصح فيه شيء، كما سيأتي في أول «سورة المطففين»، وأول «سورة الهمزة».

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 574)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 351)، و«تفسير الرازي» (28/ 203)، و«التفسير المظهري» (9/ 94)، و«فتح القدير» (5/ 115)، و«تفسير القاسمي» (9/ 50).

بالرسول صلى الله عليه وسلم أو بالقيم الدينية لا يجوز بحال أن يتعاطاه الناس مسموعًا أو مكتوبًا.

* ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣﴾:

والدَّعُّ هو: الدفع بقوة[1]؛ لأنهم إذا رأوا النار أحسُّوا بلهيبها، وخافوا منها وكرهوها، فهم يتقهقرون إلى الوراء ويتمنَّعون، شأن أيِّ مجرم يُساق إلى ما لا يريد، فتدفعهم الملائكة في أقفائهم وتدُعُّهم دعًّا إلى هذا المصير.

* ومع هذا الدَّعِّ والموقف الصعب يُقال لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾:

والخطاب دعوة للمشركين إلى أن يؤمنوا، حتى لو كان وعيدًا، إلا أنه دعوة إلى الإيمان؛ حيث جاءهم في الدنيا، وعُوجلوا به، وأُخبروا عنه قبل أن يقع.

فالنار التي كانت خبرًا مستقبلًا يتوعَّد به الكافرون ها أنتم ترونها الآن بعيونكم وتحسُّون حرَّها ولهيبها!

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن﴾:

كانوا يقولون: إنه صلى الله عليه وسلم ساحر. فيأتيهم الجواب في هذه الآية: هل هذا سحر وأنتم ترونه بأعينكم؟ ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم﴾، وهذا تعريض بما كانوا يقولونه في الدنيا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وبيان أن المشكلة في غفلتهم وإغلاق قلوبهم وصدودهم عن الحقِّ، حتى كأنهم لا يبصرون الآيات من حولهم في الدنيا.

* ﴿نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 575)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 62)، و«تفسير الماوردي» (5/ 380)، و«الكشاف» (4/ 409)، و«زاد المسير» (4/ 495)، و«تفسير القرطبي» (17/ 64)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 431)، و«التحرير والتنوير» (27/ 43).

وقوله: ﴿نَفْسٍ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ [مريم: 70]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الليل: 15- 16]، كأن «الصَّلْي» هنا من شأن الأَشْقى الذي كذَّب وتولَّى، أما المؤمن فربما تصيبه النار بقدرٍ دون أن يصلاها صَلْيًا كاملًا، ودون أن يُدَعَّ إليها دَعًّا؛ لأن المسألة مسألة تطهير له، أما هؤلاء فهي دارهم وقرارهم: ﴿وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا﴾ أي: لا ينفع الصبر أو الجزع[1]، كما قالوا هم: ﴿كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا﴾ [إبراهيم: 21].

﴿كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: وتأمل كيف أنه لم يقل: «إنما تُجزون بما كنتم تعملون»؛ إشارة إلى كمال العدل الإلهي؛ فقد جعل الجزاء هو ذات الفعل الذي فعلوه[2]، والجزاء لم يزد عليهم شيئًا: ﴿تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ﴾ [الكهف: 49].

* ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

مثلما قال: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحجر: 45]، والوعد يشمل أصحاب المقامات العالية في التقوى من السابقين والأبرار، كما يشمل عموم المؤمنين الذين اتقوا الكفر والشرك بالإيمان بالله، ولو قارفوا بعض الإثم.

* ﴿كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا﴾:

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 62)، و«تفسير البغوي» (4/ 291)، و«الكشاف» (4/ 409)، و«تفسير الرازي» (28/ 205)، و«تفسير القرطبي» (17/ 64)، وما سيأتي في «سورة الإنفطار»: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾، و«سورة المطففين»: ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، و«سورة الليل».

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 63)، و«روح البيان» (9/ 190)، و«فتح القدير» (5/ 115)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (13/ 222).

أي: فرحين مستبشرين مسرورين، وهذه قراءة الجمهور، وقرأها بعض السَّبْعة: ﴿فَكِهِينَ﴾، بغير مدٍّ[1]، والمعنى واحد[2]، فهم مسرورون بعطاء الله في الجنة من ألوان الملذَّات، التي منها الملذَّات المعنوية، وأعظمها النظر إلى وجه الله الكريم، والسماع لكلامه سبحانه والسرور برضوانه: «**أُحِلُّ عليكم رِضْواني، فلا أَسخطُ عليكم بعده أبدًا**»[3]. ومثل ما أُعطوا من ألوان ملذات المعرفة في الجنة والمتعة بها، وأيضًا الملذَّات الحسيَّة من المطاعم والمشارب والمآكل والملابس والسرر وغير ذلك مما ذكر تعالى في كتابه[4].

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾: كرر لفظة: ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ﴾ مرتين، وفيه إشارة إلى أن المقام ليس مقام جزاء فحسب، بل جزاء وفضل من الله، وهو المنعم المتفضِّل[5]، فهو الذي وقاهم من النار، وهذا وحده فضل عظيم، ولو لم يكن لهم إلا السلامة من العذاب لكفى، ولكنه جاد عليهم بهذا العطاء الذي هو بغير حدٍّ ولا عدٍّ، يُصَبُّ عليهم صَبًّا، ولا يحتاج إلى جهد ولا معاناة.

* ﴿تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾:

---

(1) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص676)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 354- 355، 377)، و«معجم القراءات» (9/ 151).

(2) ينظر: «الحجة للقراء السبعة» (6/ 388- 389)، وما سيأتي في «سورة المطففين»: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾.

(3) أخرجه البخاري (6549، 7518)، ومسلم (2829) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(4) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 188)، و«زاد المسير» (4/ 177)، و«فتح القدير» (5/ 115)، و«التحرير والتنوير» (27/ 46).

(5) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 404)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (5/ 296)، و«التحرير والتنوير» (27/ 46).

فكل شيء متاح لكم مع الهناءة؛ لأنه لا شيء يخيفهم، لا الموت ولا المرض ولا الانقطاع ولا الزوال، فقد أمنوا ذلك كله، وكل الغوائل والمفاجآت التي اعتادوا أن يتوقعوها في الدنيا، بل ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ﴾ [فصلت: 8]، يعني: غير منقطع[1].

﴿بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ﴾: قال هنا: ﴿وَلَا﴾، وفيه ثناء عليهم، فلم يكن هذا نعيمًا لا سبب له، بل هو بسبب أعمالهم التي استحقوا بها رحمة الله سبحانه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأعراف: 56]، بخلاف الكافرين، حيث قال: ﴿كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى﴾، فبين قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ بالنسبة لأهل الجنة، وقوله مخاطبًا أهل النار: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى﴾، بين الخطابين فرق عظيم؛ فالجزاء للكافرين من غير زيادة ولا نقص، أما المؤمنون فليس الجزاء مقابل عملهم، فإنما الحسنة بسبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، «**قال اللهُ: أَعْدَدْتُ لعبادي الصالحِينَ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر**»[2]. أعمالهم كانت سببًا لتأهليهم للفوز بالرضوان والرحمة، ولكن لا مقابلة بين عملهم وبين مصيرهم العظيم الذي هو منة من الله وفضل.

وهذا القول تقوله الملائكة لهم ترحيبًا بمقدمهم وتهنئة لهم، وهو نوع من النعيم العظيم، وقد كان الناس في الدنيا يفرحون بحسن الاستقبال كما يفرحون بكرم الضيافة، حيث قال قائلهم[3]:

أُضاحِكُ ضَيفي قبلَ إنزالِ رَحْلِهِ *** ويُخْصِبُ عندي والمَحَلُّ جَدِيبُ

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 169)، و«تفسير البغوي» (4/ 125)، و«الكشاف» (4/ 187)، و«المحرر الوجيز» (5/ 5)، و«تفسير القرطبي» (19/ 282)، و«التحرير والتنوير» (30/ 235).

(2) أخرجه البخاري (3244)، ومسلم (2824، 4779)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) ينظر: «عيون الأخبار» (3/ 262) منسوبًا إلى يعقوب الخُريمي، وهو في «ديوانه» (ص12). ونُسب إلى حاتم الطائي، كما في «العقد الفريد» (1/ 197، 199)، و«الروض الأنف» (2/ 65).

وما الخِصْبُ للأضيافِ أن يَكثُرَ القِرَى[1] *** ولكنَّما وجهُ الكريمِ خَصيبُ

* ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾:

يمكن أن تكون السُّرر مصفوفة لكل واحد منهم، ويمكن أن يكونوا على سُرر مصفوفة متكئين عليها[2]، كما قال في موضع آخر: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة: 16]، ففيه سرور الاجتماع والترائي والأنس.

﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾: **التزويج** معناه: القَرْن، أي: قرنَّاهم بحُور عين[3] وجعلنا الحور العين معهم أزواجًا اثنين اثنين، هذا هو المعنى، وإلا فإنه لو كان المقصود الزواج الذي هو العقد لعبَّر عن ذلك بدون الباء، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: 37]، لم يقل: زوجناك بها.

و**حُور** جمع: حَوْراء، وهي شديدة البياض مع شدة الجمال والصفاء في الألوان، و**عين** جمع: عَيْناء، وهي واسعة حدقة العين مع صفاء العين وجمالها[4].

* هنا يأتي سؤال: أين الأولاد الذين هم من أعظم النعم؟

يأتي الجواب في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾:

---

(1) **الخِصب**: كثرة الكرم، **والقِرى**: ما يقدَّم للضيف.

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 352)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 127)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 186)، و«زاد المسير» (4/ 177)، و«تفسير المراغي» (27/ 24).

(3) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 208)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 133)، و«زاد المسير» (4/ 94)، و«تفسير الرازي» (27/ 665)، و«تفسير القرطبي» (17/ 65)، و«فتح القدير» (4/ 663)، و«التحرير والتنوير» (25/ 318).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 65، 578)، (22/ 302)، و«معاني القرآن» للزجاج (1/ 418)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 213)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 125)، و«روح المعاني» (13/ 133).

قرأها الجمهور بإفراد الذرية: ﴿طَابَ﴾، والقراءة الأخرى- وهي سَبْعية- بالجمع: ﴿ذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾[1].

ومعنى ﴿تُقْسِطُواْ﴾ أي: أن الذرية سارت مسيرتهم، فهي ذرية اتبعت الآباء بالإيمان بالتربية الصالحة وتلقين الإيمان والقيم ولو في أحلك الظروف[2].

والإيمان محله القلب، فلا يقسر الإنسان عليه وإنما يلقن الإيمان؛ بالدعاء وحسن التعامل والقدوة الصالحة وحسن الخلق، والنفقة الحلال، وصدق النية والدعاء الصالح، فهي اتَّبعتهم على الإيمان وليس مجرد الإسلام الظاهر، وهي أيضًا تابعتهم في سلوكهم الظاهر وهديهم بإيمان وصدق واقتناع.

ويحتمل أن يكون المقصود: الذرية الكبار الذين بلغوا وتعلَّموا واتَّبعوا وآمنوا.

ويحتمل أن يكون المقصود: الصغار؛ فإن الصغير يتبع خير والديه في الدين[3].

ويؤيِّد هذا التأويل: القراءة الأخرى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ ذُرِّيَّتُهُم ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾[4]؛ فالآية تشمل الذرية الكبار، وتشمل الصغار الذين ماتوا دون البلوغ وهم في الجنة بفضل الله[5]؛ ولذلك لم يقل: بالإيمان، إنما قال: ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾؛ إشارة إلى أن المقصود هنا حتى لو

---

(1) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص262، 612)، و«معاني القراءات» للأزهري (3/ 33)، و«حجة القراءات» (ص681)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص203)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص181)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 377)، و«معجم القراءات» (9/ 155).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 381)، و«الكشاف» (4/ 411)، و«زاد المسير» (4/ 193)، و«تفسير القرطبي» (17/ 67)، و«فتح القدير» (5/ 117).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 580)، و«زاد المسير» (4/ 177)، و«فتح القدير» (5/ 117).

(4) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص612)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص333)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 324)، و«حجة القراءات» (ص681)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 377)، و«معجم القراءات» (9/ 154- 155).

(5) ينظر ما سيأتي في «سورة التكوير»: ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا﴾.

كان ثَمَّ شيء من التقصير، أو كانوا أطفالًا لم يبلغوا ولم يفهموا الأشياء على حقائقها، وأن يستقلُّوا بمعرفتها، لكن عندهم الأصل الذي تربوا وتعلموا عليه من الإيمان، فالجزاء هو: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ﴾، ومن كمال متعتهم وعيشهم أن يُلحق بهم أولادهم، كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن اللهَ يرفعُ ذريةَ المؤمن معه في درجته في الجنة، وإن كانوا دونه في العمل»[1]، وجاء عن جمع من السلف ما يقتضي ثبوت صحة هذا المعنى[2]، فالله سبحانه وتعالى يُلحق الأدنى بالأعلى، من دون أن ينقص من أجورهم شيئًا، فإن كان الابن في منزلة أعلى أَلْحَق والديه به في الجنة، وإن كان الأب في منزلة أعلى أَلْحَق أولاده وذريته وزوجه به، فيجمع الله تعالى الأسرة كاملة، وهذه بركة الاقتران بالطيبين والتأسِّي بهم، و﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

﴿لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي: لم ننقصهم شيئًا من أعمالهم[3]، وفي القرآن الكريم موضع آخر ذكر الله فيه هذا الفعل في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [الحجرات: 14]، أي: لا ينقصكم من أعمالكم[4]، فهنا المعنى:

---

(1) أخرجه البزار (2260- كشف)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (1075)، والطبراني في «المعجم الكبير» (12248)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (4/ 302) مرفوعًا.

وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (3009)، والحاكم (2/ 468)، والبيهقي (10/ 453) موقوفًا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2490).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 581، 582)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 128)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 187)، و«تفسير البغوي» (4/ 291)، و«زاد المسير» (4/ 177)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 433).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 584)، و«تفسير الماوردي» (5/ 382)، و«تفسير القرطبي» (17/ 67)، و«فتح القدير» (5/ 80، 118)، و«التحرير والتنوير» (26/ 266)، والمصادر الآتية.

(4) ينظر ما تقدم في «سورة الحجرات».

لم ينقص الله تعالى الآباء من عملهم شيئًا، وإنما رفع الأبناء إلى منزلتهم، فضلًا منه وكرمًا.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ﴾: وهذه قاعدة عامة، فكل شخص رَهِين بكسبه، كقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [المدثر: 38- 39]؛ ولهذا قال بعضهم هنا: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ أي: من غير المؤمنين.

وقال آخرون: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ من المؤمنين وغيرهم.

وهذا أولى؛ لأنه حملٌ للمعنى على عمومه، مرتهن بما كسب من خير أو شر[1]، وفضل الله تعالى وراء ذلك وفوقه، ولا يمانعه ولا يعارضه.

* ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾:

هذا على سبيل المثال لا الحصر، ومن عادة الملوك والمرفَّهين في الدنيا إذا اجتمعوا بأولادهم وأسرهم أن يجتمعوا على موائد الطعام، فكذلك في الجنة، ولكن بنعيم أوفى وأكرم، فالأسرة مجتمعة على خير وعلى سُرُر متقابلين، والمدد يأتيهم بكرةً وعشيًّا: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم: 62].

* ﴿أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن﴾:

أي: يأخذ بعضهم من بعض يتعاطون الكؤوس[2]، والكأس يُطلق عادة على الخمر[3].

---

(1) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (20/ 491)، و«تفسير الرازي» (28/ 210)، و«التفسير المظهري» (9/ 97)، والمصادر السابقة، وما سيأتي في «سورة المدثر».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 587)، و«تفسير الماوردي» (5/ 382)، و«تفسير البغوي» (4/ 293)، و«تفسير الرازي» (28/ 211)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 434)، و«فتح القدير» (5/ 118).

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 406)، و«تفسير القرطبي» (17/ 68)، و«التحرير والتنوير» (27/ 53)، والمصادر السابقة.

فهم يتعاطونها بعضهم من بعض على سبيل المرح والمتعة وكمال النعيم، كما يحدث ذلك في الدنيا لَمن كمل سروره، لكن الكأس في الجنة ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ ليس فيها سُكْر[1]؛ لأن المرء إذا سَكِر هَذَى وأصبح يلغو بالكلام الذي لا يليق، وليس فيها تأثيم، وهو: الإثم الذي يلحق الشارب[2]؛ لأنها ليست محرمة عليهم، وليس فيها ما يدعو إلى الإثم، فنفى عن الخمر كل عيوب الدنيا، وهي السُّكْر أو الغَوْل، حيث قال: ﴿يَكْبَرُوا۟ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن﴾ [الصافات: 47].

والعيب الثاني: اللَّغو الناتج عن تراجع العقل وسَطْوة الخمر.

والثالث: هو التأثيم، والإثم الناتج عن ارتكاب الكبيرة الموبقة في الدنيا؛ ولذا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَن شرب الخمرَ في الدنيا، ثم لم يَتُبْ منها، حُرِمها في الآخرة**»[3].

❊ ﴿لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾:

أي: بالخدمة، وهؤلاء الغلمان خلقهم الله تعالى لمهمة الخدمة في الجنة وليسوا عَبِيدًا لهم[4].

وهم في هذا المقام وبهذه الصفة ﴿نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا﴾، وإذا كان هذا هو جمال الخدم، فما بالك بالمخدومين؟!

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (8/ 144)، و«تفسير السمعاني» (5/ 275)، و«تفسير الرازي» (28/ 211)، و«تفسير القرطبي» (15/ 79)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 133).

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (28/ 211)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 434)، و«التحرير والتنوير» (27/ 54).

(3) أخرجه البخاري (5575)، ومسلم (2003) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(4) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 383)، و«تفسير الرازي» (28/ 211)، و«تفسير القرطبي» (17/ 69)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 133)، و«التحرير والتنوير» (27/ 54).

وقال سبحانه: ﴿لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥﴾ [الإنسان: 19]، وتأمل عناية القرآن بتوصيف الخدم الذين يطوفون على أهل الجنة بالشراب والسقي والطعام والمتعة، فكيف بحال أهل الجنة أنفسهم؟!

* ﴿۝٤ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى﴾:

طاب الحديث وطاب الكلام وطاب المقام، فبدؤوا يتساءلون هم وأولادهم وأهلوهم الذين اجتمعوا في الدنيا على خير ومصلحة دنيوية أو دينية، ليس فيها معصية لله تعالى، فجمعهم في الدار الآخرة على أحسن حال.

وهذا دليل على أنهم يتذكرون كل ما كان في الدنيا، كما يذكر الكافرون، لكن المؤمنين يتذكرون تَنَعُّمًا والكفار يتذكرون حسرةً وأسفًا.

ولأهل الجنة من كمال العقول والأفهام واتساع المعارف وقدرات التذكر والاستحضار والاستمتاع ما لا يخطر على بال، وهو ضمن قوله سبحانه: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: 17]. وقوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل: «**أعددتُ لعباديَ الصالحينَ ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر**»[1]. وليس النعيم مقصورًا على المطاعم والمشارب ونحوها، بل نعيم الرؤية والسماع لقول الله والرضوان والمعرفة أعظم من ذلك وأوسع.

* ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟﴾:

---

(1) تقدم قريبًا.

أي: في الدنيا خائفين من عذاب الله[1]، كما قال: ﴿تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ﴾ [المعارج: 27- 28]، وهو الخوف الذي يحمل على ترك المعصية وفعل الطاعة، وليس الخوف المسرف الذي يتحول إلى وسوسة، ولا الخوف من الموت الذي يتحول إلى مرض يُقعد الإنسان حتى عن عمل الدنيا، كما قيل في وصفهم[2]:

وإن جَنَّ المساءُ فلا تراهم *** من الإشفاق إِلَّا ساجدينا

ويحتمل أن يكون المعنى أنهم كانوا خائفين على أولادهم وعلى ذراريهم أَلَّا يصلوا إلى ما وصلوا إليه.

* ﴿لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ﴾:

و﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ هي: الرِّيح الحارة التي تَسْفِي الترابَ[3] الحار، واستعاره هنا لمعنى النار[4].

* ﴿إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾:

وفي قراءة بفتح الهمزة: ﴿نَدْعُوهُ أَنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾[1]، يعني: لأنه ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾[2].

---

(1) ينظر: «تفسير التستري» (ص155)، و«تفسير الطبري» (21/ 590)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 130)، و«الوجيز» للواحدي (ص1035)، و«تفسير القرطبي» (17/ 70)، و«فتح القدير» (5/ 118).

(2) ينظر: «ديوان هاشم الرفاعي» (ص384).

(3) أي: حملته أو ذرته.

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 495)، و«الكشاف» (4/ 412)، و«تفسير القرطبي» (17/ 70)، و«تفسير القاسمي» (9/ 52).

وهذه إشادة بمنزلة الدعاء، وأنه من أعظم الأعمال، قال تعالى: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [غافر: 60]، و«مَن لا يسألِ اللهَ يغضبْ عليه»[3]؛ لما في الدعاء من انكسار النفس، والتواضع لله سبحانه، والاعتراف بالضعف والعبودية والعجز للنفس، والاعتراف بالكمال والقدرة لله، فاجعل لسانك رطبًا بدعاء الله سبحانه، ولا تعتمد على نفسك في شيء قط، واحذر أن يكلك الله إلى نفسك فتهلك؛ ولذا قال صلى الله عليه وسلم: «**دعواتُ المكروب: اللهمَّ رحمتَك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طَرْفَةَ عين، وأَصْلِحْ لي شأني كلَّه، لا إله إِلَّا أنت**»[4].

و﴿إِلَيْهِمْ﴾: صاحب البر والجود والكرم والعطاء.

ومن معاني ﴿إِلَيْهِمْ﴾: الصادق، تقول: «فلان بارٌّ، برَّ في يمينه»، أي: صدق ولم يكذب، وكلاهما داخل هذا الاسم الشريف الذي هو من أسماء الله الحسنى، فرحمهم ووقاهم ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، وأوصلهم إلى ما يريدون[5].

---

(1) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص613)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص203)، و«معاني القراءات» للأزهري (3/ 34).

(2) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص334)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 227)، و«حجة القراءات» (ص683- 684).

(3) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه أحمد (9701)، والبخاري في «الأدب المفرد» (658)، والبزار (9425)، والترمذي (3373)، والحاكم (1/ 491)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (1065). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2654).

(4) أخرجه الطيالسي (910)، وأحمد (20430)، والبخاري في «الأدب المفرد» (701)، وأبو داود (5090)، والنسائي في «السنن الكبرى» (10412)، وابن حبان (970) من حديث أبي بَكْرة رضي الله عنه، وله شواهد. ينظر: «السلسلة الصحيحة» (227).

(5) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 130)، و«تفسير الماوردي» (5/ 383)، و«المحكم والمحيط الأعظم» (10/ 241)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص114)، و«تفسير القرطبي» (17/ 70)، و«لسان العرب» (4/ 52) «ب ر ر».

* ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ﴾:

كما يدَّعي هؤلاء الذين اجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا، وقال بعضهم: كاهن؛ لأنه يخبر بعلم الغيب وما سيكون.

وقال بعضهم: مجنون؛ لأنه يدَّعي أمورًا لم تقع، فأمره الله أن يُذَكِّر ولا ينزعج أو يقلق مما قالوا، فلست بسبب ما أنعم الله تعالى عليك من العقل واصطفاء الله لك بالوحي ﴿يَكۡبَرُواْۚ وَمَن﴾ كما يزعمون[1].

ثم جاءت محاجة الكفار بهذه الصيغة ﴿غَنِيّٗا﴾ خمسة عشر مرة في هذه السورة بطريقة لا مثيل لها في القرآن الكريم.

* ﴿غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾:

هذا مما ادَّعوه لما قالوا: كاهن، أو مجنون، فنفى تعالى ذلك ولم يتوقَّف عنده؛ لأنه واضح البطلان، فهم يعرفون أنه ليس بشاعر، والشعر صنعتهم وبضاعتهم.

وهم كانوا يُلَبِّسون على الجهلة والعوام بأنه رجل يتعاطى الشعر، ومثله مثل الشعراء السابقين الذين هلكوا ولم يحدثوا تأثيرًا في الحياة، وكأنهم بهذا يعزون أنفسهم أيضًا بأن مآل هذه الرسالة إلى زوال وخفوت وهلاك صاحبها، فيكفي معها ومعه مجرد التربُّص، ولذا قال سبحانه: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ [التوبة: 52].

و﴿فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ﴾ **يحتمل أن يكون المقصود به:** الموت[1]، كما قال أبو ذُؤيب الهذلي[2]، وقد مات بنوه السبعة بالطاعون في عام واحد:

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة القلم»: ﴿ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ﴾، و﴿أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن﴾، و«سورة الحاقة»: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ﴾.

أَمِنَ المَنونِ ورَيْبِها تَتَوَجَّعُ *** والدَّهرُ ليسَ بِمُعْتِبٍ مَن يَجزَعُ

ويحتمل أن يكون: حوادث الدهر، وتحوله من حال إلى حال، بالموت أو غيره[3].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كل ﴿فَقِيرًا﴾ في القرآن: شكٌّ، إلا مكانًا واحدًا في الطُّور: ﴿فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ﴾، يعني: حوادث الأمور»[4].

وكما قال الشاعر[5]:

تربَّص بها ريبَ المنون لعلَّها *** تُطلَّقُ يومًا أو يموتُ حليلُها

أي: يتربَّص تغيُّرًا يسمح بالوصول إليها، **فيكون المعنى:** تربَّصوا بمحمد، فربما يموت، أو يعجز، أو يضعف، أو ينتصر عليه غيره، أو يُكْفَى بغيرنا.

والأقرب الأول، وأنهم رأوا انتظار موته، وظنوا أنه بموته سيموت شأنه، وتنتهي رسالته ودينه.

ولعل المقصود بـ«رَيْب المنون» في البيت هو: موت حليلها، لا غير[6].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 147)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 246)، و«تفسير الطبري» (21/ 592- 593)، و«تفسير الماوردي» (5/ 384)، و«زاد المسير» (4/ 179)، و«تفسير الرازي» (28/ 212)، و«تفسير القرطبي» (17/ 72)، و«التحرير والتنوير» (27/ 62).

(2) ينظر: «المفضليات» (ص421)، و«جمهرة أشعار العرب» (ص534)، و«كتاب الألفاظ» لابن السكيت (ص330)، و«عيار الشعر» (ص84).

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص624)، و«تفسير الطبري» (21/ 592)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 408)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 502)، و«روح المعاني» (14/ 36)، والمصادر السابقة.

(4) أخرجه ابن الأنباري في «الوقف والابتداء» (117). وينظر: «تفسير القرطبي» (17/ 72)، و«البحر المحيط في التفسير» (8/ 428)، و«الإتقان» (2/ 162)، و«التحرير والتنوير» (27/ 61).

(5) ينظر: «معجم الشعراء» (ص319)، و«الجليس الصالح» (ص123)، و«مصارع العشاق» (2/ 159)، و«محاضرات الأدباء» (2/ 230)، والمصادر السابقة.

(6) وبهذا ذكره الطبري (21/ 594) ضمن الأقوال التي يعنى بها الموت، وذكره غيره ضمن القول الآخر.

* ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ﴾:

إما أن يكون المقصود أصل التربُّص، **فيكون المعنى**: أنا أتربص بكم مثلما أنتم تتربَّصون بي[1].

وهذا يتطابق مع قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [التوبة: 52].

أو أن المقصود هو أن الشأن إذا كان شأن الموت الذي تتربصونه بي، فأنا أتربص الموت مثلكم؛ لأن الموت حقٌّ عليَّ وعليكم، ولست بجزع من الموت ولا أبالي أن ألقى الله تعالى، وإنما الشأن بكم أنتم[2]!

وهذا ينطبق على اليهود حين كانوا يأتون النبيَّ صلى الله عليه وسلم ويقولون: «السَّامُ عليك يا أبا القاسم». يتظاهرون بأنهم يُلقون السلام، وهم يدعون عليه بالموت، **والسَّام** هو: الموت[3]، ولما غضبت عائشة رضي الله عنها وسبَّتهم، نهاها صلى الله عليه وسلم، وقال: «**مَهْ يا عائشةُ، فإن اللهَ لا يحبُّ الفحشَ والتَّفَحُّشَ**»[4]. وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**وعليكم**». يعني نحن وإياكم نشترك في الموت، فهو أمر مشترك بيننا وبينكم.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 594)، و«تفسير الماتريدي» (4/ 331)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 300)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 131)، و«زاد المسير» (4/ 179).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 413)، و«تفسير القرطبي» (17/ 72)، و«تفسير الرازي» (28/ 212)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 155)، و«فتح القدير» (5/ 119)، و«التحرير والتنوير» (27/ 62).

(3) ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (1/ 357)، و«الاستذكار» (8/ 468).

(4) ينظر: «صحيح البخاري» (2935، 6256)، و«صحيح مسلم» (2165، 2166)، و«تفسير الطبري» (22/ 470- 471)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص411).

وفي هذه الآية إعجاز لأنه قال لهم: ﴿فَإِذَا﴾، فكان أولهم موتًا أبو جهل والزعماء الذين قُتلوا ببدر وسُحبوا إلى القَلِيب، وعاش النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعدهم، وانتشرت دعوته، وعمَّت رسالته، واتَّسعت أمته، حتى جاوزوا اليوم مليارًا ونصف مليار، كلهم يشهدون أنه رسولُ الله!

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ﴾:

سؤال استفهام على سبيل الإنكار والتعجب منهم، **والأحلام** جمع: حِلْم، وهو العقل[1]، **والمعنى**: هل عقولهم تأمرهم بهذا الإنكار والصدود والإعراض عن الحق[2]؟

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾: وهم أدرى بطبيعة الحال أن هذا لا يصدر من حِلْم وعقل، وإنما يصدر من طغيان؛ أن يصفوا رجلًا مثل النبي صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر أو ساحر أو كاهن[3].

* ﴿مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾:

وقد قالوا: إن النبيَّ صلى الله عليه وسلم تقوَّل هذا: والله تعالى يقول: ﴿أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِى ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ﴾ [الحاقة: 44- 46]، فإن أحدًا يدَّعي على الله سبحانه وتعالى ويعلن بأن هذا من عند الله، وأن الله أمره ونهاه، ثم

(1) ينظر: «المحكم والمحيط الأعظم» (3/ 364)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص253)، و«لسان العرب» (12/ 146)، و«تاج العروس» (31/ 527) «ح ل م».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 595)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 354)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7130)، و«زاد المسير» (4/ 179)، و«تفسير القرطبي» (17/ 73)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 43)، و«التفسير القرآني للقرآن» (14/ 573)، و«التحرير والتنوير» (27/ 63).

(3) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 277)، و«تفسير الرازي» (28/ 213)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 138)، و«التحرير والتنوير» (27/ 64).

يمكِّن اللهُ تعالى له في الأرض وينصره ويعزّه ويظهر كلمته ويبقى على العصور والقرون والأجيال متبوعًا محبوبًا مؤيَّدًا منصورًا؛ هذا لا يتأتَّى! فالله تعالى يقمع أولئك الذين يتقوَّلون عليه.

ثم إن في دعواهم هذه أنه صلى الله عليه وسلم تقوَّل القرآن من تلقاء نفسه تناقضًا؛ فكيف تزعمون أنه تقوَّل هذا القول المحكَم البليغ العظيم، الذي يُعْجِزُ العقلاء ويُبْهِرُ العظماء ويقع به التحدِّي لهم ولغيرهم فينقطعون، وتزعمون في الوقت نفسه أنه مجنون؟!

* ولهذا قال بعدها: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾:

وتأمَّل أنه قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى﴾، ولم يقل: ﴿ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: 23]، ﴿أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ﴾ [يونس: 38]، أو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [هود: 13]، فتحدَّاهم الله تعالى بأقل قدر، فلم يستطيعوا، وتخيَّل كيف هو حالهم وهم يقولون مثل هذا الكلام، ويسمعون هذا الرد القرآني! فلو لم يكن صلى الله عليه وسلم مرسَلًا من عند الله ويتلو كتاب الله لما تحدَّاهم بهذا؛ لأن أحدًا من البشر لا يستطيع أن يتجرَّأ على مثل هذا التحدِّي إلا وهو يعلم أنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله.

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾:

انتقل بهم إلى المجادلة في شأن الإلوهية، فهل خُلقوا من غير خالق؟

ويحتمل أن يكون المعنى: من غير مقصد وغاية؟[1] ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: 56].

---

(1) ينظر: «زاد المسير» (4/ 180)، و«تفسير الخازن» (4/ 201)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 317)، و«فتح القدير» (5/ 121).

﴿ ﴾: أهم الخالقون لأنفسهم؟ لأن هذا أقرب مذكور في الآية، هل ينكرون أن يكون الله تعالى خلقهم أم هم الخالقون أنفسهم؟

وهذا محال، ولا يمكن أن يخلق الإنسان نفسه؛ لأنه العدم لا يخلق نفسه ولا يخلق شيئًا، فهذا من المستحيلات.

* ولهذا عقَّب بتحدٍّ أكبر، فقال: ﴿ ﴾:

فهذه السماوات والأرض التي يرونها أمامهم بهذه القوة والضخامة تصدمهم وتجبههم في كل وقت، هل هم الذين خلقوها، أو يعرفون أحدًا ادَّعى أنه خلقها؟

كيف وهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلقها، ولهذا قال: ﴿ ﴾؛ لأنهم إذا سُئلوا في الجاهلية: مَن خلق السماوات والأرض؟ قالوا: الله. ولكن الله فضحهم بأنهم وإن كانوا يردِّدون بألسنتهم أن الله تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض، لكن هذا ليس يقينًا في نفوسهم، وإنما ثقافة توارثوها، وكلمات ردَّدوها، دون أن تستقر إيمانًا في قلوبهم.

* ﴿ ﴾:

حينما احتجوا على رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، ورأوا أنه ليس جديرًا بها، واقترحوا أن تكون الرسالة إلى ﴿ ﴾ [الزخرف: 31]، أي: إلى كبير من كُبراء الطائف أو آخر من كبراء مكة[1]، فهل خزائن الله عندهم حتى يقوموا بقسمتها؟ في حين يبلغ تواضع النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول: ﴿ ﴾ [الأنعام: 50].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 592)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 256)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 182)، و«تفسير المنار» (8/ 33).

و﴿كَبِيرًا﴾: تُقرأ بالصاد عند جماعة، وتُقرأ بالسين: ﴿ٱلْمُسَيْطِرُونَ﴾، وكلاهما قراءة سبعية[1]، أي: ألهم السيطرة والملك والغلبة[2]، وكأنهم أرباب متصرِّفون في الأكوان، أو بيدهم الأمور[3].

* ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ﴾:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: يمدونه إلى السماء ويقعدون عليه فيستمعون أو يسترقون السمع[4]، ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم﴾ وليس بادِّعاء مثلما يدَّعي الكهنة أو غيرهم، وإنما بحجة قوية تثبت أنهم فعلًا يستمعون، في حين أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأتيه جبريل بالوحي بكرةً أو عشيًّا، ويتلو على الناس هذا الوحي المعجِز، والحاوي ألوان المعرفة والحق في أخبار الماضي وأحكام الحاضر، ومواعيد المستقبل وأسرار الصنعة والكون، مما لا يستطيعون أن ينكروه، ولا أن يأتوا بمثله.

* ﴿ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ﴾:

وذلك أنهم كانوا يدَّعون أن الملائكة بنات الله[5].

---

(1) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص613)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص204)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 378)، و«معجم القراءات» (9/ 166- 167).

(2) ينظر: «الحجة للقراء السبعة» (6/ 228)، و«حجة القراءات» (ص684).

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 385)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 189)، و«زاد المسير» (4/ 180)، و«تفسير القرطبي» (17/ 75)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 142)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 195).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 598)، و«تفسير الماوردي» (5/ 385)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 314)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 318)، و«التحرير والتنوير» (27/ 72).

(5) كقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟﴾ [النحل: 57]، وقوله: ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ﴾ [الصافات: 149]. ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (3/ 205- 206)،

* ﴿خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾:

وجَّه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم: هل طلبتَ منهم مالًا على دعوتك؟ فلذلك هم مثقلُونَ بهذا الدِّين الذي تطلبه منهم، ولا يستطيعون أن يسمعوا، ولا أن يستجيبوا؟!(1).

* ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣﴾:

هل اطَّلعوا على الغيب، ولو أصبح عندهم لم يعد غيبًا، فقد عرفوه، وهذا نوع من التعجيز، فليس عندهم ﴿أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، وليس ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ أي: ينسخون ما اطلعوا عليه(2).

* ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن﴾:

وهذا هو المقصود أنهم يريدون كيدًا، وكل ما يقولونه ليس على سبيل المناقشة المعرفية، ولا الجدل العلمي، ولا الحجة، ولا على سبيل الشبهة التي تحتاج إلى كشف، كلا! بل على سبيل الكَيْد والتحذير من دعوته ومحاربتها(3).

و«تفسير الماتريدي» (4/ 194، 267)، (9/ 411)، و«زاد المسير» (4/ 180)، و«تفسير الرازي» (28/ 219)، و«تفسير القرطبي» (17/ 76)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 437).

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 599)، و«تفسير البغوي» (4/ 295)، و«زاد المسير» (4/ 180)، و«تفسير الرازي» (28/ 221)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 437)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 144)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (14/ 276).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 356)، و«تفسير السمعاني» (5/ 279)، و«تفسير القرطبي» (17/ 76)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 576)، و«فتح القدير» (5/ 122)، و«التحرير والتنوير» (27/ 76).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 600)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 356)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 132)، و«الكشاف» (4/ 414)، و«زاد المسير» (4/ 181)، و«تفسير القرطبي» (17/ 76)، و«فتح القدير» (5/ 122)، و«التحرير والتنوير» (27/ 77).

﴿ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ﴾: وقد يكون هذا مرتبطًا بقولهم: ﴿ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾، **والمعنى**: أنهم كانوا يضعون خطةً لقتله صلى الله عليه وسلم، وإلا فهل كان عندهم الغيب فاطَّلعوا على أن عمر النبي صلى الله عليه وسلم أقصر من أعمارهم، وأنه يموت قبلهم؟ كلا! بل الذي حدث أن الله مكر بهم مقابل مكرهم، وقال: ﴿طِبۡنَ لَكُمۡ﴾ مصداقًا لقوله: ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ ﴾ [الطارق: 15- 16]، فقد ماتوا هم، وبقي هو حتى استقرت رسالته، وانتصرت دعوته، وآمن بها الناسُ.

* ﴿شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾:

أي: آلهتهم التي يدعونها ويعبدونها، ما منزلتها، وما مكانتها وما تأثيرها؟ هل خَلَقتْ؟ هل رَزَقتْ؟ هل أَعَطتْ؟ هل عَلِمَتْ غيبًا[1].

* ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ﴾:

وهذا لم يحدث، لكنه شيء كانوا يقترحونه: ﴿بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ﴾ [الشعراء: 187]، فالله تعالى يقول: ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ﴾ فلن يؤمنوا ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ﴾ [يونس: 97]، ولو رأوه لقالوا: ﴿وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ﴾، إنه سُحُب تراكمت، واجتمع بعضها على بعض[2].

هذا الحشد من الأسئلة الذي لا نظير له يؤكِّد على حرص القرآن الكريم على رفع الغشاوة عن الناس وكشف حالة الغفلة؛ ليحمل القارئ على مواجهة أسئلة

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 600)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 67)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 438).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 356)، و«المحرر الوجيز» (5/ 193)، و«تفسير القرطبي» (12/ 288)، و«البحر المحيط في التفسير» (9/ 576)، و«تفسير الإيجي» (4/ 206)، و«الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية» (2/ 360)، و«روح البيان» (9/ 204)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (5/ 496).

الكون والحياة بجد، ويحاصر العقول والقلوب من كل ناحية؛ ليكشف غشاوتها ويحرِّكها ويحملها على النظر والتفكُّر، ولعل هذا هو أخطر ما يُبتلى به الناس، أن يمروا على الحقائق معرضين، ويردِّدوا كلامًا حفظوه واعتادوا أن يقولوه، دون أن يعني إيمانًا وقناعة.

حتى القرآن الكريم نفسه كم يقرؤه الناس وهم عن تدبره غافلون، دون أن يدركوا مقاصده ومراميه، فلا تلامس حقائقه شغاف قلوبهم، ولا تحرِّك ضمائرهم، ولا تغيِّر واقعهم.

أو يقرؤونه وهم منهمكون في جانب لغوي إعرابي، أو فقهي بحت، أو بلاغي، ربما بالغوا فيه حتى حجبهم عن حقيقة القرآن وعظمة آياته، وهداياته إلى الله العظيم وأسمائه وصفاته ووحدانيته وعبادته، ﴿عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾ [البقرة: 213].

* ﴿قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ﴾:

ليس معناه ترك الدعوة، بل ترك الجدل العَقِيم معهم، حيث يصبح بلا قيمة، ولا تحزن عليهم، والكفار آنذاك كانوا خلقًا كثيرًا في مكة وغيرها، وكانوا ألوانًا وضُروبًا، فيهم الملأ المستكبرون الذين يحاربون الإسلام ويحاصرون دعوته، وفيهم العوام الذين ينتظرون أن تُحسم المعركة حتى يذهبوا إلى ما تمليه عليهم قناعاتهم، وليس عندهم استعداد أن يضحوا في سبيل تلك القناعات؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ﴾ [الشورى: 16]، وقال: ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾ [النصر: 1،2]، هؤلاء الذين دخلوا في دين الله أفواجًا هل جاءت حجج جديدة لم يسمعوا بها من قبل؟ كلا؛ هي الحجج والآيات نفسها، ولكن الموانع التي كانت في نفوسهم وعقولهم تَحُول بينهم وبين

الاستماع والتفكير واتخاذ القرار زالت بسبب تغيُّر الوضع السياسي والاجتماعي والقبلي، فدخلوا في دين الله أفواجًا؛ ولهذا قال هنا: ﴿فَتَوَلَّ﴾ يعني: اترك الملأ المستكبرين الذين كُتب أن يموتوا على الكفر، كأبي لهب وأبي جهل والملأ من قريش، ذَرْ هؤلاء، ولا تحزن عليهم، ولا تلتفت إليهم، وانشغل بدعوة مَن يستجيب للدعوة[1].

﴿مَعْرُوفًا ۝٥ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا﴾ أي: تصيبهم الصَّعْقة، والصَّعْقة قد تقتل، وقد تجعل الإنسان في غيبوبة ثم يسقط، فيحتمل أن يكون المعنى: الموت، ويحتمل أن يكون المقصود: أهوال يوم القيامة[2]، على اختلاف القراءاتين بضم الياء: ﴿إِذَا﴾، وفتحها: ﴿يَصْعَقُونَ﴾، وكلاهما قراءة سبعية[3].

* ﴿النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا﴾:

أي: لا ينفعهم شيئًا كيدُهم في الدنيا؛ لأنه قد زال، وفي ذلك الموقف لا كيد لهم، ﴿إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ﴾ من قِبَل طرف آخر، ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ﴾[4].

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (16/ 121)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (5/ 117)، و«فتح القدير» (5/ 123)، و«تفسير المراغي» (27/ 38).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 602)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 412)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 190)، و«زاد المسير» (4/ 181)، و«تفسير القرطبي» (17/ 77)، و«فتح القدير» (5/ 123).

وينظر أيضًا: «الحجة في القراءات السبع» (ص334)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 227- 228)، و«حجة القراءات» (ص684).

(3) ينظر: «السبعة في القراءات» (ص613)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص204)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 379)، و«معجم القراءات» (9/ 169).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 602)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (1/ 139)، و«زاد المسير» (4/ 181)، و«تفسير الرازي» (28/ 227)، و«تفسير الخازن» (4/ 202)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (5/ 497)، و«فتح القدير» (5/ 123)، و«التحرير والتنوير» (27/ 82).

* ﴿تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ﴾:

أي: يصيبهم في الدنيا قبل الآخرة[1]: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣﴾.

وتحمل أولًا: على الدونية الزمنية، أي: أنه في وقت مبكِّر قبل يوم القيامة، فهو في الحياة الدنيا، كما قال سبحانه ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ [السجدة: 21]، وهذا يعني كل ما يصيبهم من عذاب الدنيا أن يكون فيه توجيه لهم إلى التقوى والإيمان والطاعة وإقامة الحجة.

ويحمل على عذاب القبر، كما قال بعض المفسِّرين، فإنه قبل يوم القيامة، وهو عذاب البرزخ[2]، وهو دون ذلك أيضًا من حيث الشدة والقوة؛ لأنه لا يقارَن بعذاب الدار الآخرة، فعذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، كما قال صلى الله عليه وسلم[3].

* ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾:

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 68)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 413)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 357)، و«تفسير الماوردي» (5/ 386)، و«تفسير القرطبي» (17/ 78)، و«فتح القدير» (5/ 123)، و«التحرير والتنوير» (27/ 82).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 603)، و«معاني القرآن» للزجاج (4/ 208)، و«تفسير الماتريدي» (8/ 341)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (3/ 454)، و«الكشاف» (3/ 513)، و«المحرر الوجيز» (4/ 363)، و«تفسير الرازي» (25/ 148)، و«تفسير القرطبي» (14/ 107)، و«التحرير والتنوير» (21/ 233).

(3) كما في «صحيح مسلم» (1493) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وهذا تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم، وتقوية لقلبه، يأمره ربُّه أن يصبر لحكم الله تعالى[1]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [ص: 17]، اصبر على الشريعة، اصبر على تأخر الفتح والفرج والنصر والتمكين.

﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فإن الله تعالى لا يغفل عن هؤلاء الظالمين، ولا يترك أولياءه ورسله وأنبياءه، فهو يراهم ويسمعهم ويجيبهم، ولكنه قد جعل لكل شيء أجلًا[2]، ﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بمرآنا[3]، كما قال سبحانه: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: 14]، وكما قال عن موسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩﴾ [طه: 39]، وقال لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: 46].

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ﴾، وفي «صحيح البخاري»: «**كلمتان خفيفتان على اللِّسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحانَ الله وبحمده، سبحانَ الله العظيم**»[4].

وللتسبيح سرٌّ في تقوية القلب، وتعزيز النفس، والصبر على صعوبات الحياة، وتحقيق النجاح، وتحصيل السعادة والرضا والقرب؛ ولذلك فإن إدمان التسبيح ترياق، وبخاصةً للذين يواجهون مواقف صعبة، أو أعمالًا شاقة، كما أرشد النبيُّ صلى

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 605)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 413)، و«الكشاف» (4/ 415)، و«تفسير القرطبي» (17/ 78)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 156)، و«التحرير والتنوير» (27/ 83).

(2) ينظر: «تفسير التستري» (ص155)، و«روح البيان» (9/ 206)، و«التحرير والتنوير» (27/ 84).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 605)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 133)، و«تفسير السمعاني» (5/ 281)، و«تفسير الرازي» (28/ 229)، و«تفسير القرطبي» (17/ 78)، و«التحرير والتنوير» (27/ 84).

(4) أخرجه البخاري (6406)، ومسلم (2694) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الله عليه وسلم عليًّا وفاطمة رضي الله عنهما إلى: «سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر» عند النوم، وقال: «**هو خيرٌ لكما من خادم**»[1].

والمعنى: حين تقوم من النوم، فالتسبيح مشروع أول ما يصحو الإنسان، فيسبِّح ربَّه ويحمده؛ ولذلك شُرع مثل: «**الحمدُ لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النُّشُورُ**»[2].

وفي «صحيح البخاري»: «**مَن تَعارَّ من الليل**[3]**، فقال: لا إله إلا اللهُ، وحده لا شريكَ له، له المُلكُ، وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيء قديرٌ، الحمدُ لله، وسبحانَ الله، ولا إله إلا اللهُ، واللهُ أكبَرُ، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بالله. ثم قال: اللهمَّ اغفرْ لي**- أو: **دعا- استُجيبَ، فإن توضَّأ وصلَّى قُبلتْ صلاتُه**»[4].

هذا وعد عظيم أن يستحق المغفرة إذا ما انقلب من جنب إلى جنب وقال هذا الدعاء: «**اللهمَّ اغفرْ لي**». وهذه من الغنيمة الباردة.

وحمل بعضهم قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا﴾ على القيام من القيلولة[5]؛ لأنهم كانوا يقيلون قبل صلاة الظهر، فإذا صحا سبَّح ربه.

وقيل: حين تقوم من مجلسك[1]، وهذا ما يسمى: كفارة المجلس، وفي الحديث: «**مَن جلسَ في مجلس، فكثُرَ فيه لَغَطُهُ فقال قبلَ أن يقومَ من مجلسه ذلك: سبحانَكَ**

---

(1) أخرجه البخاري (3113، 3705)، ومسلم (2727) من حديث علي رضي الله عنه.

(2) أخرجه البخاري (6312) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

وأخرجه مسلم (2711) من حديث البراء رضي الله عنه.

(3) أي: استيقظ.

(4) أخرجه البخاري (1154) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 606)، و«تفسير الماوردي» (5/ 387)، و«المحرر الوجيز» (5/ 194)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 315)، والمصادر الآتية.

اللهمَّ وبحمدكَ، أشهدُ أن لا إله إِلَّا أنتَ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليك. إِلَّا غُفِرَ له ما كان في مجلسه ذلك»[2].

وهذا الحديث ورد من طرق كثيرة، حتى جمع فيه ابن كثير رحمه الله جزءًا خاصًّا في جمع طرقه، وإن كان كثير من طرقه معلولة، لكن في مجموعها لها أصل، فتختم بهذا التسبيح ﴿أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ﴾.

فيتحصَّل مما سبق: التسبيح قبل النوم، حتى ينام على تسبيح، وعند الاستيقاظ؛ ليكون التسبيح أول ما يباشره عقله وقلبه ولسانه عند صحوه، وأثناء تقلبه في المنام من جنب إلى جنب، وأثناء تقلبه في الحياة وأعمالها.

* ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ٦﴾:

والمقصود: صلاة المغرب وصلاة العشاء[3]، فهما من الليل، والصلاة تسبيح؛ ولهذا تسمى صلاة الضُّحى: سُبحة الضُّحى؛ لأن المصلِّي في الركوع يقول: «سبحان ربي العظيم»، وفي السجود: «سبحان ربي الأعلى».

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص624)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 414)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 133)، و«تفسير الماوردي» (5/ 387)، و«الوجيز» للواحدي (ص1037)، و«زاد المسير» (4/ 182)، و«تفسير القرطبي» (17/ 78)، و«فتح القدير» (5/ 123).

(2) أخرجه أحمد (10415)، والترمذي (3433)، والنسائي في «السنن الكبرى» (10157)، وابن حبان (594)، والحاكم (1/ 536)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (619) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وينظر: «التاريخ الكبير» (4/ 104)، و«الضعفاء» للعقيلي (2/ 155)، و«علل ابن أبي حاتم» (2078)، و«علل الدارقطني» (8/ 201)، و«النكت على كتاب ابن الصلاح» لابن حجر (2/ 716-745).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 468، 607)، و«تفسير الماوردي» (5/ 357)، و«تفسير القشيري» (3/ 479)، و«زاد المسير» (4/ 165)، و«تفسير الخازن» (4/ 202)، و«التحرير والتنوير» (26/ 328)، والمصادر الآتية.

أما ﴿حَسِيبًا ۝٦﴾ فهو: وقت الفجر[1]، إذا النجوم أدبرت، وبدأت تغيب عند الإسفار.

وقال بعضهم: ﴿حَسِيبًا ۝٦﴾: راتبة الفجر[2]، فقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها**»[3]. و «لم يكن النبيُّ صلى الله عليه وسلم على شيء من النوافل أشدَّ منه تعاهدًا على ركعتي الفجر»[4]. ورُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**لا تَدَعُوا ركعتي الفجر، وإن طردتكم الخيلُ**»[5]. وكان صلى الله عليه وسلم لا يتركها في حضر ولا في سفر، يقرأ فيهما بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى﴾[6].

فخير ما يتزوَّد به الداعية: القرب من الله، واصطحاب ذكره وتسبيحه، وألَّا يشغله عنه شاغل من ازدحام الناس أو كثرة الأعمال؛ فللقلب حقٌّ لا ينبغي نسيانه،

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 415)، و«تفسير القرطبي» (17/ 80)، و«تفسير النسفي» (3/ 388)، و«تفسير القاسمي» (9/ 56)، و«تفسير السعدي» (ص818)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (21/ 609)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 425)، و«تفسير الماوردي» (5/ 388)، و«التفسير البسيط» للواحدي (20/ 514)، والمصادر السابقة.

(3) أخرجه مسلم (725) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(4) أخرجه البخاري (1169)، ومسلم (724) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(5) أخرجه أحمد (9253، 9258)، وأبو داود (1258) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورجَّح الدارقطني وقفه. ينظر: «علل الدارقطني» (9/ 68)، و«بيان الوهم والإيهام» (3/ 386- 387)، و«نصب الراية» (2/ 160)، و«ضعيف أبي داود» (233)، و«إرواء الغليل» (438).

(6) كما في «صحيح مسلم» (726) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكان يقرأ فيهما بغيرهما أيضًا. ينظر: «السلسلة الصحيحة» (646)، و«أصل صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم» للألباني (2/ 448- 456)، و«اليوم النبوي» (ص16).

ولا ديمومة للمؤمن على نشاطه وجِدِّه وعمله، إلا بالله والقرب منه وكثرة ذكره وتسبيحه آناء الليل وأطراف النهار.

❍ ❍ ❍

سورة النجم

*** تسمية السورة:**

تُسمَّى: «**سورة النَّجْم**»، أو: «سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾»، أو: «**سورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾**»، وهي من السور ذات الاسم الواحد[1].

وقد ورد أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قرأها في مكة، فسجدَ، وسجدَ معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنسُ[2].

وورد أنه سجدَ بها وسجدَ مَن معه، غير أن شيخًا أخذ كَفًّا من تراب، فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا.

قال ابنُ مسعود رضي الله عنه راوي الحديث: «فرأيتُه بعد ذلك قُتل كافرًا، وهو أُمَيَّة بن خلف»[3].

*** عدد آياتها:** اثنتان وستون آية، أو واحد وستون آية، على اختلاف بين علماء العدِّ[4].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص625)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 248)، و«تفسير الطبري» (22/ 5)، و«تفسير الماوردي» (5/ 389)، و«تفسير البغوي» (4/ 300)، و«تفسير القرطبي» (17/ 81)، و«روح المعاني» (14/ 44)، و«التحرير والتنوير» (27/ 87).

(2) أخرجه البخاري (1071، 4862) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(3) أخرجه البخاري (1067، 4863)، ومسلم (576).

(4) وقد اختلفوا في ثلاث آيات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ ٢٨﴾، ﴿١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ﴾ [النجم: 29]، ﴿بِٱلطَّيِّبِۖ ٢٩﴾. وينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص234)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص309)،

* **وهي مكية** عند جماهير المفسرين، وهو الراجح[1].

وقد رُوي عن الحسن أنها مدنية[2]، وهو قول ضعيف جدًّا.

وقال بعضهم: إن فيها آية مدنية؛ وهي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ﴾ [النجم: 32][3].

وهذا أيضًا فيه نظر؛ فالسورة مكية كلها، ولعلها نزلت جملة واحدة، والله أعلم.

* ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾:

يُقسم ربنا سبحانه وتعالى بـ«النَّجْم»، ويحتمل أن يكون المقصود: أي نجم من النجوم، كما في قوله: ﴿غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن﴾ [الواقعة: 75]، وقوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [التكوير: 15- 16][4].

وقد يكون المقصود نجم خاص، قد يكون «الثُّرَيَّا»[5]؛ فهو نجم معروف عند العرب، وكثير من مواقيتهم في الرَّعْي والزرع وغيرها، مرتبطة بـ«نَوْء الثُّرَيَّا»؛ ولذلك

و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 546)، و«تفسير القرطبي» (17/ 81)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 443).

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 389)، و«زاد المسير» (4/ 183)، و«تفسير القرطبي» (17/ 81)، و«فتح القدير» (5/ 125)، و«روح المعاني» (14/ 44)، و«التحرير والتنوير» (27/ 87).

(2) ينظر: «دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (4/ 1573)، والمصادر السابقة والآتية.

(3) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 283)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 152).

(4) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 389)، و«تفسير السمعاني» (5/ 283)، و«تفسير البغوي» (4/ 300)، و«زاد المسير» (4/ 183)، و«تفسير القرطبي» (17/ 82)، و«التحرير والتنوير» (27/ 89)، وما سيأتي في «سورة الواقعة»، و«سورة التكوير».

(5) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص625)، و«تفسير الطبري» (22/ 5)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 442)، والمصادر السابقة.

كانوا يقولون: «طَلَعَ النَّجْمُ عِشاءً، فابْتَغَى الرَّاعِي كِساءً»[1]؛ كناية عن مجيء البرد، فالرَّاعي يريد الدِّفء. ويقولون: «طَلَعَ النَّجْمُ غُدَيَّةً- أي: الفجر- فابْتَغَى الرَّاعِي شُكَيَّةً»[2]. والشُكَيَّة: وعاء من جلد يوضع فيه اللَّبَن أو الماء[3]، معناه: أنه جاء وقت الحرِّ، فيحتاج الراعي إلى الشراب.

أو القسم بـ«نَجْم الشِّعْرَى»[4]، وهو مذكور في السورة ذاتها، وهو نَجْم تقدِّسه بعض العرب، وورد أن خُزاعة كانوا يعبدونه[5].

وهو لم يُقسم بـ«النَّجْمِ» مطلقًا، وإنما أقسم به في حالة خاصة؛ وهي ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أي: سقط[6].

ويحتمل المعنى: غاب[7]، كقوله: ﴿كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ﴾ [الأنعام: 76].

---

(1) ينظر: «نثر الدر» (6/ 29)، و«المحرر الوجيز» (5/ 196)، و«التحرير والتنوير» (27/ 89).

(2) ينظر: «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» (ص131)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تهذيب اللغة» (10/ 165)، و«لسان العرب» (14/ 441) «ش ك ا».

(4) ينظر: «البحر المحيط في التفسير» (10/ 9)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 153)، و«روح المعاني» (14/ 45)، و«فتح البيان» (13/ 243)، و«التحرير والتنوير» (27/ 89).

(5) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 166)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 366)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 157)، و«تفسير القرطبي» (17/ 119)، و«التحرير والتنوير» (27/ 151).

(6) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص625)، و«تفسير الطبري» (22/ 5)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 192)، و«تفسير القرطبي» (17/ 83)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (10/ 82)، و«التحرير والتنوير» (27/ 89)، والمصادر الآتية.

(7) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 416)، و«تفسير الماوردي» (5/ 390)، و«تفسير السمعاني» (5/ 283)، و«زاد المسير» (4/ 183)، والمصادر السابقة.

والقَسَم بهذا الحال هو أول تفنيد لعبادة النُّجُوم؛ لأن «النَّجْم» يغيب ويختفي، فكيف تعبدونه؟!

وإذا قلنا: إن معنى ﴿هَوَىٰ﴾: سقط، فالمقصود: الشِّهاب الذي يراه الناس وهو ينقضُّ ساقطًا[1]، كما قال تعالى: ﴿فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الملك: 5]، وقال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: 10].

* ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾:

الخطاب للمشركين[2]، والواضح أن الخطاب جاء مباشرًا وقويًّا وسريعًا؛ ولذلك جاء القَسَم مختصرًا في آية واحدة وبشيء واحد، هو «النَّجْم إذا هَوَى».

وسمَّى نبيَّه صلى الله عليه وسلم: «صاحبًا لهم»، كما قال: ﴿طِبْنَ لَكُمْ عَن﴾ [التكوير: 22]، ﴿فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [سبأ: 46][3].

وفي هذا إشعار لهم وتذكير بأنه منهم، وُلد وعاش بينهم، ويعرفون نسبه وميلاده، وعقله وخُلقه، وليس غريبًا عليهم في ولادته، ولا نشأته، ولا تفصيل حياته وسلوكه، فكيف يتأتَّى لهم أن يتنكَّروا لرسالته، وينسبوا إليه ما هو منه بريء، وهم أخلق الناس بقبول دعوته؟! وهو عزهم ومجدهم، وهو صاحبهم[4]!

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 389)، و«زاد المسير» (4/ 183)، و«تفسير القرطبي» (17/ 82)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 442)، و«التحرير والتنوير» (27/ 89).

(2) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 305)، و«الكشاف» (4/ 418)، و«تفسير النسفي» (3/ 389)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 316)، و«فتح القدير» (5/ 126).

(3) ينظر: «روح البيان» (9/ 210)، و«تفسير القاسمي» (9/ 58)، و«تفسير المراغي» (20/ 60)، و«التحرير والتنوير» (30/ 157)، وما سيأتي في «سورة التكوير».

(4) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص246)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 154)، و«التحرير والتنوير» (27/ 92).

وكما قيل: «كل شخص لست تعرفه، ككتاب لست قارئه»، فالشخص الذي تجهله قد لا تحسن فهمه، وقد يتكلَّم بكلام وتظن أنه يقصد معنى آخر، فإذا عرفتَ الشخص فقد كشفتَ الكتاب، وعرفتَ السِّر، وفهمتَ المغزى، وهم عرفوا صدق النبي صلى الله عليه وسلم وسلامة قصده، وعزوفه عن الرئاسة والجاه والدنيا والملذَّات، وبعده عن التطلُّع والاستشراف، وتفرده عنهم بالتعبد في غار حراء، ومجانبة الأصنام والخمر والفواحش واللَّهو، ولم يعيبوه قبل النبوة بشيءٍ ألبتة.

وفي هذه الآية نفى لشيئين: الضَّلال والغِواية؛ فالضَّلال هو: عدم الهداية؛ كوصفهم إياه بالجنون، فهذا نوع من الضَّلال[1]، وبعض الناس يتَّبعون ضلالات نفسية تتلبَّسهم، وتخرج بهم عن جادة العقل والرَّزانة، كادِّعاء أحدهم أنه المسيح ابن مريم أو أنه المهدي أو يدَّعي النبوة، وحينما تجالسه تجده بلا علم، ولا معرفة، ولا فقه، ولا بصيرة، ولا عقل، ولا اتزان نفسي، وإنما هو مبتلى بآفة نفسية سبَّبت له هذه الضلالة، والضَّال هنا يظن أنه صادق، ويصدِّق نفسه؛ بسبب تلبس حالة مرضية لعقله.

فيُقسم تعالى على نفي هذا الاضطراب أو الجنون الذي ادَّعوه، ونسبوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم[2].

أما **الغِواية** فمعناها: تعمُّد الكذب عن قصد، وسبق إصرار[1]، بدعوى يريد من ورائها دنيا أو جاهًا أو ما أشبه ذلك، وقد يدخل في الغواية: الشِّعْر، وقد كانوا يقولون: إنه شاعر، والله تعالى قال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: 224][2].

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (28/ 234)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 157)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 199)، و«مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد» (2/ 463)، و«التحرير والتنوير» (27/ 92).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾.

❁ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣﴾:

وتأمَّل التناسب والتجانس بين قوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾، و﴿ٱلۡهَوَىٰٓ﴾: ما تهواه النفس، وتميل إليه[3]، فهذا النبي المصطفى المختار صلى الله عليه وسلم متجرِّد عن ﴿ٱلۡهَوَىٰٓ﴾، ولا يتكلَّم من قِبل نفسه ورغبته، **وأول ما يدخل في هذا**: القرآن الكريم؛ لأنه الوحي الذي ﴿يُوحَىٰ﴾؛ ولا يمنع مع إرادة القرآن أن يكون ذلك تزكية لمنطقه صلى الله عليه وسلم عامةً؛ ولذلك كان يمزحُ، ولا يقولُ إِلَّا حقًّا[4]، وكان يقول المحكمات الجوامع من الأقوال، حتى إن من العلماء مَن جمعوا الأحاديث التي جرت مجرى المثل والحكمة في وجازتها واختصارها وحكمتها[5]، فقد أُوتي صلى الله عليه وسلم جوامع الكَلِم بخواتمه[6]، ودان له بذلك البعيد والقريب.

---

(1) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 196)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 316)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 443)، و«تفسير ابن رجب» (1/ 221)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (2/ 437).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 417)، و«تفسير الرازي» (28/ 235)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 199)، و«تفسير المراغي» (27/ 46)، و«التحرير والتنوير» (27/ 92- 93).

(3) ينظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص134)، و«المصباح المنير» (2/ 643)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص849) «هـ و ي»، و«التحرير والتنوير» (27/ 93).

(4) كما في «مسند أحمد» (8481، 8723)، و«الأدب المفرد» (265)، و«جامع الترمذي» (1990)، و«سنن البيهقي» (10/ 420)، و«الآداب» للبيهقي (325) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أنهم قالوا: يا رسولَ الله، إنك تُداعبُنا! قال: «**إني لا أقولُ إِلَّا حقًّا**». وينظر: «السلسلة الصحيحة» (1726).

(5) وقد ذكر الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (1/ 56) العلماء الذين جمعوا جوامع كَلِمه صلى الله عليه وسلم في مؤلَّفات خاصة.

(6) ينظر: «صحيح البخاري» (2977، 7013)، و«صحيح مسلم» (523، 2001).

والمعنى: إيجاز اللفظ، مع تناوله المعاني الكثيرة جدًّا، ويختم على المعاني الكثيرة التي تضمَّنا اللفظ اليسير، فلا يخرج منها شيء عن طالبه ومستنبطه؛ لعذوبة لفظه وجزالته. ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (13/ 170)، و«هدي الساري» (ص99).

فإذا صان تعالى منطقه صلى الله عليه وسلم ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾، فقد صان سلوكه واعتقاداته وأحواله ومشاعره أيضًا ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[1]، وصنعه على عينه، واصطفاه في أفعاله وأقواله؛ ولذلك لما كان فتح مكة أمَّن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الناسَ، إلا أربعةَ نفر وامرأتين، منهم عبدُ الله بن سعد بن أبي السَّرْح، وقد اختبأ عند عثمان رضي الله عنه، فلما دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الناسَ إلى البيعة، جاء به حتى أوقفه على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسولَ الله، بايعْ عبدَ الله. فرفع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رأسَه فنظر إليه ثلاثًا، كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه، فقال: «**أما كان فيكم رجلٌ رَشِيدٌ يقومُ إلى هذا حيثُ رآني كففتُ يدي عن بيعته فيقتله؟**». فقالوا: وما يدرينا يا رسولَ الله ما في نفسك، هلَّا أَومأتَ إلينا بعينك! فقال: «**إنه لا ينبغي لنبيٍّ أن تكونَ له خائنةُ الأَعْيُن**»[2].

فلم يقبل صلى الله عليه وسلم على عدو مهدر الدم- لأنه انتهك الحرمات- أن يغمز لأصحابه بطرف عينه، أن عاجلوه بالقتل، فتعامله في غاية الوضوح والتجرد والصفاء.

* ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾:

ومرد الضمير للقرآن اتفاقًا[3].

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 93).

(2) أخرجه أبو داود (2683، 4359)، والنسائي (7/ 105)، وأبو يعلى (757)، والطبري في «تفسيره» (11/ 288)، والحاكم (3/ 45)، والبيهقي (7/ 63)، (8/ 356)، والضياء (3/ 248- 250) (1054، 1055) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وينظر: «البدر المنير» (7/ 449- 450)، و«التلخيص الحبير» (3/ 274)، و«السلسلة الصحيحة» (1723).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 8)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 358)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 193)، و«المحرر الوجيز» (5/ 196)، و«تفسير الرازي» (28/ 236).

و**الوَحْي** هو: الصوت الخفي[1]، والله تعالى بعث جبريل عليه السلام بهذا الوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم[2].

* ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾:

أي: علَّمه جبريلُ عليه السلام القرآنَ[3]، فالضمير يعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أو يعود إلى القرآن الكريم، أي: أن جبريل عليه السلام علَّم النبيَّ صلى الله عليه وسلم، أو جبريل علَّم القرآنَ للنبي صلى الله عليه وسلم[4].

وجبريلُ عليه السلام هو الذي كان ينزل بالوحي على الأنبياء السابقين، فهذه وظيفته وحده اختصَّه اللهُ بها مع الرسل جميعًا.

* ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾:

هذا وصف لجبريل عليه السلام؛ بأن بنيته شديدة قوية[5]، وقد ورد أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم رآه مرتين على صورته التي خُلق عليها، وقد سَدَّ الأفق، له ستمئة جناح، سادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ ما بين السماء والأرض[6].

---

(1) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص859)، و«مختار الصحاح» (ص334) «و ح ى».

(2) ينظر: «تفسير البغوي» (4/ 301)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 157)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 316)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 322)، و«تفسير القاسمي» (9/ 59)، و«التحرير والتنوير» (27/ 94)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 8- 9)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 358)، و«تفسير القرطبي» (17/ 85)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 444)، و«التحرير والتنوير» (27/ 95).

(4) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 196)، و«تفسير الرازي» (28/ 237)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 316)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (10/ 84).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 11)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 70)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 358)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 193)، و«التحرير والتنوير» (27/ 95).

(6) ينظر: «صحيح البخاري» (3235، 4855، 4856)، و«صحيح مسلم» (174، 177).

و﴿مِرَّةٍ﴾ تعني: القوة[1]، لكنها تعني نوعًا من القوة المعنوية؛ قوة العقل والفهم والحكمة، وما أعطاه تعالى وميَّزه عن سائر الملائكة[2].

ومعنى ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾: اعتدل وتهيَّأ واستعد لهذه المهمة الجليلة العظيمة[3].

* ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧﴾:

أي: جبريل عليه السلام، حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم بالأُفق الأعلى، **وقيل**: النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام[4].

والأُفُق هو: ملتقى الأرض والسماء في نظر الرَّائي[5]، فالنبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل في الأُفُق، **والأُفُق الأعلى** هو: أعلى الأُفُق[6].

* ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩﴾:

أي: نزل قليلًا قليلًا، حتى كان من النبي صلى الله عليه وسلم ﴿قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾[1]، وهذا تعبير معروف، تعني أنه قريب.

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص625)، و«تفسير مقاتل» (4/ 159)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص427)، و«تفسير القرطبي» (17/ 86)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 444)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 392)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (2/ 1152)، و«فتح القدير» (5/ 127)، و«تفسير القاسمي» (9/ 59)، و«التحرير والتنوير» (27/ 95).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 12)، و«تفسير الماوردي» (5/ 392)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 161)، و«التحرير والتنوير» (27/ 96)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 11)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 418)، و«تفسير الماوردي» (5/ 392)، و«زاد المسير» (4/ 184)، و«تفسير القرطبي» (17/ 88)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 444).

(5) ينظر: «المحكم والمحيط الأعظم» (6/ 478)، و«المصباح المنير» (1/ 16) «أ ف ق».

(6) ينظر: «تفسير القرطبي» (17/ 88)، و«فتح القدير» (5/ 127)، وينظر أيضًا: «إعراب القرآن» للنحاس (4/ 179)، و«مشكل إعراب القرآن» لمكي بن أبي طالب (2/ 692).

و**القَوْس** معروف، وهو الذي تُرمى به السهام[2].

وقد يكون هو: الذِّراع، أي: كان قدر ذراع أو ذراعين من النبي صلى الله عليه وسلم،

﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾[3].

وقوله: ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ ليس للشك، فالله يعلم الأشياء بحقائقها ودقائقها، **فالمعنى**: كان أقل من ذلك وأقرب.

ويحتمل أن له حالتين، كان في إحداهما ﴿ قَابَ قَوۡسَيۡنِ﴾، وفي الأخرى ﴿أَدۡنَىٰ﴾ من ذلك[4].

وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعد ما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة، فأوحى اللهُ إليه صدر «سورة ﴿ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾»، ثم فَتَرَ الوحي فَتْرةً، حتى تبدَّى له جبريلُ ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم في أجياد في صورته التي خلقه الله عليها، له ستمئة جناح، قد سدَّ عِظَمُ خلقه الأُفق[5]، فاقترب منه وأوحى إليه عن الله عز وجل ما

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 13)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 359)، و«تفسير الماوردي» (5/ 393)، و«تفسير الرازي» (28/ 239)، و«تفسير القرطبي» (17/ 88)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 446)، و«التحرير والتنوير» (27/ 96).

(2) ينظر: «مقاييس اللغة» (5/ 40)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص687) «ق و س».

(3) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 359)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 306)، و«تفسير البغوي» (4/ 303)، و«تفسير القرطبي» (17/ 91)، و«فتح القدير» (5/ 127)، و«التحرير والتنوير» (27/ 97).

(4) ينظر: «تفسير ابن كثير» (7/ 446)، والمصادر السابقة.

(5) تقدم عند قوله: ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦﴾.

أمره به، فعرف عند ذلك عظمة المَلَك الذي جاءه بالرسالة، وجلالة قدره، وعُلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه[1].

وهكذا بدأ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يعتاد على نزول جبريل عليه السلام، وعلى مجيئه، وكان يأتي أحيانًا بصورة رجل، مثل: دِحْيَة بن خَلِيفة الكَلْبي رضي الله عنه؛ لجمال صورته[2].

وهنا تلحظ أنه تعالى يخاطب بهذا التفصيل المشركين، ويصف لهم كيف ينزل جبريل عليه السلام بالوحي، وكيف يلتقي بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ من أجل أن يتدرَّبوا على مثل هذه المعاني التي قد تبدو غريبة على بيئة أُمِّيَّة مثل بيئتهم، ولا عهد لهم بها، كما حكى الله حالهم في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنۡ﴾ [القصص: 46]، ولم يكن لهم علم بالكتب والأنبياء والرسل، والملائكة والوحي، وطريقة نزوله، وأنواعه؛ فلذلك فصَّل تعالى لهم ذلك هنا.

* ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠﴾:

سماه: ﴿عَبۡدِهِۦ﴾، والعبودية تتكرَّر في سياقات الوحي، كقوله سبحانه: ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ﴾ [البقرة: 23]، وقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1]، وقوله: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ﴾ [الفرقان: 1][3]، فهي اصطفاء وتكريم، وعلامة التواضع له سبحانه؛ ولذلك منع اللهُ رحمته وفضله الذين يستكبرون، والله

---

(1) باختصار من «تفسير ابن كثير» (7/ 445)، وينظر: «أخبار مكة» للفاكهي (3/ 386)، و«فتح الباري» (1/ 23)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (3634)، و«صحيح مسلم» (2451).

(3) ينظر ما سيأتي في «سورة الجن»: ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، و«سورة العلق»: ﴿۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ﴾.

يحب المتواضعين المتنزِّهين عن العُجب والغرور، «**قال اللهُ عز وجل: الكِبْرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، فمَن نازعني واحدًا منهما قذفتُهُ في النار**»(1).

والمقصود بقوله: ﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾: التعظيم والتفخيم لهذا الوحي، أي: أوحى شيئًا عظيمًا كريمًا، يكشف الناس من أسراره ومعانيه بقدر عبوديتهم وتواضعهم لربهم جل وتعالى(2).

* ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾:

أي: فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، لم يكن قد كذب فيما رأى، بل رأى صدقًا وحقًّا(3).

* ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢﴾:

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ يا معشر قريش وتجادلونه(4)، ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾، وهو يرى بعينه، ويرى بقلبه وفؤاده، أفأنتم أيها الجاهلون تجادلونه في محسوسه الذي رآه بعيني رأسه، ورآه بقلبه، على أنه تعالى حجبه عنكم بجهالتكم وكثافة حسكم!

* ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤﴾:

---

(1) سيأتي تخريجه في «سورة الحشر»: ﴿مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا﴾.

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 420)، و«المحرر الوجيز» (5/ 198)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 317)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 323)، و«التحرير والتنوير» (27/ 98).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 21)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 306)، و«المحرر الوجيز» (5/ 198)، و«تفسير الرازي» (28/ 241)، و«تفسير القرطبي» (17/ 92).

(4) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 197)، و«تفسير الرازي» (28/ 242)، والمصادر الآتية.

أي: رأى النبيُّ صلى الله عليه وسلم جبريلَ عليه السلام مرةً ثانيةً يومَ الإسراء والمعراج[1]، ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾، وهي سِدرة خلقها الله سبحانه وتعالى في ذلك المكان المقدَّس[2].

وهذه معانٍ عظيمة، لا يستطيع الإنسان أن يدرك كُنْهَها، ولا أن يحيط بتفصيلاتها، ولو ذهب العقل يتأمَّل أو يفكِّر ما خرج من ذلك بطائل؛ فإنه لم يكشف له من هذا الغيب إلا أن ثمة شجرة تُسمَّى: ﴿سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾، فوق السماء السابعة، ذهب إليها النبيُّ صلى الله عليه وسلم في الإسراء والمعراج، حيث سمع عندها صوت صَرِيف الأقلام، والملائكة يكتبون أفعال العباد، وأقدار العباد[3].

وهذا النص وأمثاله يفتح عقل المؤمن ليتَّسع ويمتد، ويدرك أن الخلق والكون أعظم مما تراه العين أو يدركه الحس، فثَمَّ سماوات وعرش وكرسي وما شاء الله بعد مما لم تره عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر.

* ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥﴾:

وهذا من الأدلة على أن الجنة في السماء عند الله سبحانه وتعالى، وسماها: ﴿جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾؛ لأنه يصير إليها المؤمنون[4].

* ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 360)، و«تفسير السمعاني» (5/ 289)، و«تفسير البغوي» (4/ 305)، و«تفسير القرطبي» (17/ 94)، و«التحرير والتنوير» (27/ 100).

(2) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7152)، و«زاد المسير» (4/ 187)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 317)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 156).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (349)، و«صحيح مسلم» (163).

(4) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 422)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 308)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 158)، و«روح البيان» (9/ 226)، و«التحرير والتنوير» (21/ 231).

كأن الرؤية التي حصلت للنبي صلى الله عليه وسلم هناك لجبريل عليه السلام كانت في الوقت الذي غشي السِّدرة فيه شيء عظيم، وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء: «**وغشيها ألوانٌ، لا أدري ما هي**»[1].

وقيل: إنها الملائكة[2]، وهي في هذه السِّدْرَة كأنها الطيور على أغصان الأشجار تُسبِّح الله سبحانه وتعالى، وتفعل ما أُمرت به، فغشي السِّدرةَ تلك الأشياء التي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا أدري ما هي**».

* ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾:

مع ذلك كله، وما فيه من المفاجأة والهول والعجب لم يزغ بصر النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يقع عنده اضطراب في الرؤية؛ بل كان وافر البصيرة والحكمة، والاستعداد والتهيُّؤ لهذا الموقف بما آتاه الله من القوة والثبات[3].

﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ البَصَر بأن يتجاوز أو يتعدَّى، فما حكاه هو ما رآه صلى الله عليه وسلم، من غير خطأ سببه الزيغ، ولا زيادة سببها الطغيان[4].

* ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨﴾:

---

(1) أخرجه البخاري (349، 3342)، ومسلم (163) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 423)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 360)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 143)، و«تفسير الماوردي» (5/ 396)، و«زاد المسير» (4/ 187)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 318)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 454).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 43)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 360)، و«تفسير البغوي» (4/ 307)، و«تفسير القرطبي» (17/ 97- 98)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 454).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للفراء (3/ 97)، و«إعراب القرآن» للنحاس (4/ 183).

(4) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 72)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 308)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 144)، و«تفسير الماوردي» (5/ 396)، و«تفسير السمعاني» (5/ 293)، و«التحرير والتنوير» (27/ 101)، والمصادر السابقة.

إما أن يكون رأى الآية الكبرى، أو رأى آيات كُبَر، وهذا أقرب[1]، فيكون قد رأى شيئًا من آيات ربه الكبرى في هذه السماء، مما أخبر عنه النبيُّ صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء الطويل.

ومع ذلك فقد كان المشركون يستغلون ما حدَّثهم به النبيُّ صلى الله عليه وسلم مما رآه في الإسراء والمعراج؛ للطعن في صدقه واتهام عقله، وهكذا هم يرون أن كل ما لا تطيقه عقولهم ولا تصدِّقه يعدُّونه أساطير وصاحبه مجنونًا أو به مسٌّ، أما المصدِّق برسالة النبي صلى الله عليه وسلم فهو يفوِّض الأمر كله لله في خبره وأمره، فإن أخبره الوحي بما لا يحيط به عقله ولا حسُّه صدَّقه وآمن به، وجعل عقله حيث يليق به.

وهذا أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه يأتيه مشركو مكة يقولون له: هذا صاحبُك يزعمُ أنه قد أُسرِيَ به إلى بيت المقدس، ثم رجع من ليلته! فقال أبو بكر رضي الله عنه: «أَوَ قال ذلك؟». قالوا: نعم. فقال: «فإنِّي أشهدُ إن كان قال ذلك لقد صدقَ». فقالوا: أتصدِّقه بأنه جاء الشامَ في ليلة واحدة، ورجعَ قبل أن يُصبحَ؟ قال: «نعم؛ إني أصدِّقه بأبعدَ من ذلك، أصدِّقه بخبر السماء بكرةً وعشيًّا». ومن يومئذٍ سُمي: الصِّدِّيق[2].

فهكذا المؤمن لا يجعل عقله محصورًا في عالم الماديات الضيِّق المحدود، والبشر يدركون أنهم مسلَّطون على المادة يكتشفونها ويتعرَّفون على قوانينها ويوظِّفونها شيئًا بعد شيء، وربما كانوا ينكرون بالأمس شيئًا أصبحوا يؤمنون به الآن، فالعقل المؤمن

---

(1) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 198)، و«تفسير البغوي» (4/ 307)، و«المحرر الوجيز» (5/ 200)، و«زاد المسير» (4/ 187)، و«تفسير القرطبي» (17/ 98- 99).

(2) ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (9719)، و«تفسير عبد الرزاق» (2/ 302)، و«تفسير الطبري» (14/ 421- 422)، و«المعجم الكبير» للطبراني (24/ 432) (1059)، و«الشريعة» للآجري (1030، 1259)، و«المستدرك» (3/ 65، 81)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (2/ 359- 361)، و«تاريخ دمشق» (30/ 55)، و«تفسير ابن كثير» (5/ 14)، و«البداية والنهاية» (4/ 281)، و«السلسلة الصحيحة» (306)، و«مع المصطفى صلى الله عليه وسلم» (ص47).

ليس عقلًا أُسطوريًّا أو خُرافيًّا يَتَشَرَّبُ الخرافة دون آية أو حجة، وهو أيضًا ليس عقلًا ماديًّا صِرْفًا لا يؤمن بالغيب، ويحصر نفسه في حدود المادة.

* ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾:

وقد كانوا يعبدون هذه الأصنام، وكانوا يعدُّونها إناثًا، كما هو الظاهر من أسمائها[1].

أما ﴿ٱللَّٰتَ﴾: فصخرة مربعة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف، له أستار وسَدَنة، وحوله فناء معظَّم عند أهل الطائف، وهم ثَقِيف ومَن تابعها، يفتخرون بها على مَن عداهم من أحياء العرب بعد قريش.

وقيل: موضع صخرة كانت لرجل يَلِتُّ للحَجِيج في الجاهلية السَّويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾: كانت شجرة، أو صنم فيه صورة شجرة، عليها بناء وأستار بنَخْلة، وهي بين مكة والطائف، كانت قريش يعظِّمونها.

﴿وَمَنَوٰةَ﴾: صخرة كانت بالمُشَلَّل عند قُديد، بين مكة والمدينة، وكانت خُزاعة والأَوْس والخَزْرج في جاهليتها يعظِّمونها، ويُهِلُّون منها للحج إلى الكعبة.

وكل هذه الأصنام معروفة عند العرب، وقد حكى تفصيلها ابن الكلبي في كتاب «الأصنام»[1].

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 72)، و«الكشاف» (4/ 423)، و«زاد المسير» (4/ 188)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 318).

فكانوا يعتقدون مثل هذه الصيغة الوثنية للعبودية، ويتعاطونها فيما بينهم، فالله سبحانه وتعالى ينقلهم عن هذا المستوى المنحط من العبودية للأحجار والجمادات التي هي أقل من مستوى الإنسان، ويرفع آفاقهم وعقولهم إلى عبادة الإله الواحد الأحد الصمد، وإلى الإيمان بالغيب والملائكة والوحي.

وما عبد مشركو الجاهلية أصنامهم إلا لتقرِّبهم إلى الله، وبعضهم يزعمون أنها بناته، ولذا أنكر عليهم وقال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾؟ وكأنهم جعلوها تماثيل للملائكة يعبدونها لتقرِّبهم إلى الله، وكأن هذا سر كونها تقرِّبهم إلى الله؛ لأنها في السماء قريبة إلى الله، ومع زعم بنوَّتها يصبح الأمر أشد قُربًا، وكأنهم لفرط سذاجتهم وجهلهم قاسوا على الكينونة العائلية عندهم، وظنوا عبادتها لا تضير المعبود الأكبر، وقاسوها على طاعة أولاد المَلِك أو شيخ القبيلة!

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ٢٢﴾ أي: ظالمة[2]، فإذا تجرَّأتم وجعلتم لله ولدًا، وهذا باطل قادح في الربوبية، فلِمَ جعلتم له البنات في الوقت الذي يتوارى أحدُكم من القوم حين يُبَشَّر بأنثى؟

وهذا كالنص على أنهم كلهم أو بعضهم يعبدون تماثيل يزعمونها للملائكة ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾، **فالمعنى**: أن هذه الأصنام ليس لها من الألوهية سوى ما صنعتموه وابتدعتموه[1].

---

(1) ينظر: «الأصنام» لابن الكلبي، و«تفسير البغوي» (4/ 308- 309)، و«المحرر الوجيز» (5/ 200- 201)، و«تفسير القرطبي» (17/ 99)، و«معجم البلدان» (4/ 116)، (5/ 4)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 455- 456)، و«التحرير والتنوير» (27/ 104)، و«معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية» (ص206، 271، 302).

(2) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 256)، و«تفسير الماوردي» (5/ 399)، و«تفسير القرطبي» (17/ 103)، و«التفسير المظهري» (9/ 117)، و«التحرير والتنوير» (27/ 106).

ولئن كان هذا قد وقع في الجاهلية حيث الحياة البدوية البدائية البسيطة، فقد وقع في عصرنا هذا طغيان الماديات ونفوذ العلم المادي بشرك قريب من ذلك أو مثله.

وكأن الدِّين في منطقة معزولة داخل العقل لم يصل إليها النور، ولم تستفد من التفوق في العلوم التجريبية؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾، فهم يتَّبعون الظُّنون والتخرُّص في أصول الدِّين والاعتقاد التي لا يُقبل فيها الظنُّ ولا بد من اليقين، واللهُ تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: 12]، ويقول النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**إيَّاكُم والظَّنَّ؛ فإن الظَّنَّ أكذبُ الحديث**»[2]. فهؤلاء يتبعون الظَّنَّ في أعظم القضايا وأقدسها؛ وهي قضية الألوهية والعبودية، وهو ظن موروث، ليس قائمًا على شبهة أو احتمال.

﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ﴾ أي: ويتَّبعون ما تهواه نفوسُهم وتميل إليه، ومجرد ميل النفس لا يعني شيئًا[3]؛ فالنفس تميل إلى السهل، وإلى المألوف، وإلى ما يعزِّز جانبها وجانب القبيلة أو البلد أو الجنس أو العائلة.

والنفس إذ اعتادت شيئًا وتربَّت عليه أذعنت له وأحبَّته، ولذا أحبَّ بنو إسرائيل العجلَ، وكان الفراعنة يعبدونه، فلما مروا على لَخْم وجُذام[4]، وكانوا يتراقصون

---

(1) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7161)، و«تفسير البغوي» (4/ 310)، و«فتح القدير» (5/ 131)، و«تفسير القاسمي» (9/ 75).

(2) أخرجه البخاري (6066)، ومسلم (2563) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 55)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 362)، و«تفسير القرطبي» (17/ 103)، و«فتح القدير» (5/ 132)، و«روح المعاني» (14/ 58).

(4) **لَخم**: بطن عظيم، ينتسب إلى لَخْم بن عدي، **وجُذام**: بطن من كهلان، من القحطانية، وكانوا يعبدون المشتري ويحجون إلى صنم في مشارف الشام، يقال له: الأقيصر، ويحلقون رؤوسهم. ينظر: «الإنباه

حول صنم بقرة منحوتة حنّوا إلى مألوفهم و﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: 138]. ولما ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه صنع لهم السامري العجل فعبدوه، ولما أمرهم ربُّهم بذبح البقرة تردَّدوا وأكثروا الأسئلة، قال: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [البقرة: 71].

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾: فإعراضهم عن الهُدَى بميل النفس والهوى والظنِّ هو غاية الخطأ، نعم الظَّنُّ يمكن أن يُعمل به في مجاله، إذا لم يكن ثَمَّةَ ما يعارضه؛ ويُؤخذ بغلبة الظَّنِّ في الأحكام الفقهية إذا لم يُوجد ما هو أقوى منه[1]، ولكن أن يجعلوا الظَّنَّ المجرَّد العارض في قضية قطعية يعارضون به وحيًا قطعي الثبوت قطعي الدلالة، فهذه غاية الضلال؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾!

* ﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ٢٤ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ٢٥﴾:

الاستفهام إنكاري، قُصد به إبطال نوال الإنسان ما يتمنَّاه، وأن يجعل ما يتمنَّاه باعثًا عن أعماله ومعتقداته، بل عليه أن يتطلَّب الحقَّ من دلائله وعلاماته، وإن خالف ما يتمنَّاه، وهذا متصل بقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣﴾.

وقد شمل قوله: ﴿مَا تَمَنَّىٰ﴾ كلَّ هوًى دعاهم إلى الإعراض عن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، فشمل تمنِّيهم شفاعة الأصنام، وهو الأهم من أحوال الأصنام عندهم، وذلك ما يُؤذن به قوله بعد هذا: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ

على قبائل الرواة» (ص98)، و«نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» (ص205- 206)، (ص411)، و«معجم قبائل العرب القديمة والحديثة» (1/ 174)، (3/ 1011- 1012).

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 109)، و«تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام» (1/ 148)، و«القواعد والضوابط الفقهية المتضمنة للتيسير» (2/ 635).

شَيْـًٔا ...﴾. وتمنِّيهم أن يكون الرسول مَلَكًا، وغير ذلك، نحو قولهم: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى﴾ [الزخرف: 31]، وقولهم: ﴿زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [يونس: 15].

وهذا تأديب وترويض للنفوس على تحمُّل ما يخالف أهواءها إذا كان الحق مخالفًا للهوى، وليحمل نفسه عليه حتى تتخلَّق به.

وفُرِّع على الإنكار أن يكون للإنسان ما تمنَّاه، وأن الله مالك الآخرة والأولى، أي: فهو يتصرف في أحوال أهلهما بحسب إرادته، لا بحسب تمنِّي الإنسان، وهذا إبطال لمعتقدات المشركين التي منها يقينهم بشفاعة أصنامهم(1).

* ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ﴾:

بعدما ذكر الآلهة التي يعبدونها بزعمهم أنها تشفع لهم، ذكَّرهم بحدود قدرة الملائكة، وأن علو مكانهم لا تعني عبادتهم، فهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: 26- 28]، ولو بذلوا شفاعتهم لم تغن شيئًا، ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾، فهم لا يتقدَّمون بالشفاعة بين يدي الله سبحانه، إلا إذا أذن لهم، ولا يأذن إلا لَمن يرضى الله تعالى أن تدركه الشفاعة(2).

(1) باختصار من «التحرير والتنوير» (27/ 111)، وينظر: «تفسير الطبري» (22/ 56)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 426)، و«تفسير الماوردي» (5/ 399)، و«الكشاف» (4/ 424)، و«تفسير الرازي» (28/ 252)، و«تفسير القرطبي» (17/ 104)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 458).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 56)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 427)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7162)، و«الكشاف» (4/ 424)، و«تفسير النسفي» (3/ 393).

فإذا كان هذا شأن الملائكة في السماء، فما بالكم تعبدون آلهة في الأرض من الحجارة مما لا يضُرُّ ولا ينفع، فضلًا عن أن يشفع؟! وما أنزل الله تعالى بهذه الآلهة المدَّعاة من سلطان، ولا أذن لكم بعبادتها؛ وحتى لو كانت هذه المعبودات تماثيل للملائكة في أصل بنائها، أو كانت كذلك في اعتقاد عابديها، فهذا لا يغيِّر من الحقيقة شيئًا؛ فالملائكة ليسوا إناثًا، بل ﴿عِبَادٌ﴾، وهم بهذه المنزلة من الذل والطاعة فكيف عبدتموهم؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: سجَّل عليهم أنهم لا يؤمنون بالبعث، وهذا حال غالبهم أو كلهم، وما يخطر ببال أحدهم من احتمال أو خيال لا يُسَمَّى إيمانًا؛ فالإيمان هو اليقين الصادق باعتقاد خروج الناس من قبورهم إلى ربهم يوم الدِّين[1].

* ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ﴾:

فلم يبنوا هذا الزعم الكاذب بأنوثة الملائكة ولا ببنوتها لله على علم، بل هو أمر أخذوه من الفلاسفة، وتوارثوه فيما بينهم، أو من بعض الأمم السابقة قبلهم، وهم بذلك يتَّبعون الظَّنَّ، ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾، ولم يذكر هنا ما تهوى الأنفس؛ لأن هوى النفوس في هذه المسألة غير ظاهر[2].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 57)، و«تفسير القرطبي» (17/ 104- 105)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 459)، و«فتح القدير» (5/ 134)، و«التحرير والتنوير» (27/ 115).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 58)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 459)، و ما تقدم في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: 23].

* ثم وجَّه الخطاب إلى نبيِّه صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿رَقِيبًا ۝١ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا﴾:

أي: أعرض عن هؤلاء المصرِّين على كفرهم، وقوله: ﴿رَقِيبًا﴾ هو مثل قوله: ﴿ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: 91]، ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ﴾ [فاطر: 8]، ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن﴾ [النحل: 127]، ﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [الزخرف: 89]، ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: 54][1].

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾؛ لأنهم لما كانوا موصوفين بأنهم ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى﴾ فقُصارى همهم وإرادتهم لا يتعدَّى هذه العاجلة، وهذا حرمان أي حرمان، أن يقطع المرء نفسه عن ذلك الامتداد العظيم الفسيح اللائق بالإنسان، ويقصر إيمانه وحلمه وطموحه على مدى العمر المحدود الذي يقضيه على الأرض، وهو قد لا يتجاوز عشرات السنين! كيف يحرم العاقل نفسه من حلم الخلود وجوار الرب العظيم في جنات النعيم؟! ﴿رَقِيبًا ۝١ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾.

* ﴿تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا﴾:

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 74)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 428)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 51)، و«تفسير البغوي» (4/ 310)، و«تفسير الرازي» (28/ 260)، و«روح المعاني» (14/ 60)، و«التحرير والتنوير» (27/ 117).

فعلمهم ضعيف محدود، فالآخرة ليس لها اعتبار عندهم، وقد جعلوا جهدهم وعقلهم للعاجلة، أما الآخرة فهم لا يؤمنون بها، فإن هم بُعثوا فظنهم أن هذه الآلهة سوف تشفع لهم[1].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ﴾: وهذا تقرير لعلم الله الذي لا يخطئ ولا يجهل، فحين يقول: إنهم ضالون، فهم ضالون، وحين يبيِّن الهُدى لهم ويأمرهم به، فهو الحق بلا ريب.

وفي الآية تهديد ووعيد بأن يأخذ الله العليم أولئك الضالين، فهو بهم محيط وإليه المصير.

* ﴿طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾:

وهذا في شأن الفصل بين هؤلاء المكذِّبين وأولئك المؤمنين، وهو تفريع على الآية السابقة التي بيَّنت علم الله بالضالين والمهتدين.

وفيها بيان أنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين، وإنما يُؤخذون بأعمالهم، ويجزي الله المؤمنين بالحسنى؛ لأنهم أحسنوا تقبُّل وحي الله، وأحسنوا طاعة رسله، وأحسنوا إلى عباده بالبر والخير والعطاء والبذل، فـ«الجزاء من جنس العمل»، وحتى إذا أدركتهم الشفاعة، فقد أدركتهم بأعمالهم التي جعلتهم أهلًا بأن يرضى الله تعالى عنهم، ويأذن لَمن يشفع فيهم.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 58)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 428)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 363)، و«المحرر الوجيز» (5/ 203)، و«تفسير القرطبي» (17/ 105)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 319)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 19 - 20).

* ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ۝٣ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ﴾:

بعد ما وصفهم بالإحسان، الذي يعني: فعل الحسنات، في مقابل الذين أساؤوا بفعل السيئات، وصفهم ثانيًا بالتجنب والترك للكبائر والفواحش.

والترك بحدِّ ذاته لا يعتبر إحسانًا، إنما الإحسان الأصلي بالفعل، ولكن الاجتناب من آثار الإحسان، ثم فيه تعمد الترك ومجاهدة النفس مع الرغبة الفطرية في الميل لبعض ذلك.

وفيه أيضًا النية الحسنة ومراقبة الباري جل وتعالى والخوف منه، فبذلك يصبح الترك فعلًا، وتتمحَّض النفس للخير والطاعة وتتوحَّد وجهتها.

و﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ تعني: الذنوب العظيمة[1]، كالسبع الموبقات الواردة في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**اجْتَنِبُوا السبعَ الُموبقات**». قيل: يا رسولَ الله، وما هُنَّ؟ قال: «**الشركُ بالله، والسِّحْرُ، وقتلُ النفس التي حرَّمَ اللهُ إِلَّا بالحقِّ، وأكلُ مال اليتيم، وأكلُ الرِّبا، والتَّوَلِّي يومَ الزَّحف، وقذفُ الُمحصنات الغافلات المؤمنات**»[2].

وقد سُئل ابنُ عباس رضي الله عنهما عن الكبائر: أسبع هي؟ فقال: «هي إلى السبعينَ أقربُ»[3].

---

(1) ينظر: «تفسير البيضاوي» (5/ 160)، و«تفسير الخازن» (4/ 210)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 460)، و«تفسير السعدي» (ص821)، و«التحرير والتنوير» (27/ 121).

(2) أخرجه البخاري (2766، 6857)، ومسلم (89).

(3) أخرجه معمر في «جامعه» (19702)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (1/ 447)، والطبري في «تفسيره» (6/ 651)، وابن المنذر في «تفسيره» (1669)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (3/ 934)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (290).

وهي: الذنوب العظيمة التي تُوبق صاحبها، وقال تعالى مصداقًا لهذه الآية: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: 31].

ومن العلماء مَن ضبط حدَّ الكبائر بما له حدٌّ في الدنيا، كالسَّرقة، والزِّنا، وقتل النفس، والقذف[1].

ويندرج فيها: ما تُوُعِّد عليه بلعن أو وعيد في الآخرة[2]، كقوله تعالى في شأن الكذب على الله: ﴿تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [آل عمران: 61]، وكذلك الرِّشْوة: «**لعنَ اللهُ الرَّاشي والمُرْتَشي**»[3]. وأشياء ورد عليها اللَّعن في القرآن الكريم، أو في سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا تعلَّق بهذا الذنب عقوبة منصوصة في الآخرة أو في الدنيا دلَّ على أنه من كبائر الذنوب.

---

(1) ينظر: «قوت القلوب» (2/ 249)، و«المحرر الوجيز» (5/ 204)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (2/ 85)، و«الكبائر» للذهبي (ص8)، و«فتح الباري» (10/ 410)، و«تفسير السعدي» (ص176).

(2) ينظر: «تفسير القرطبي» (5/ 159)، و«فتح القدير» (1/ 528)، و«التحرير والتنوير» (5/ 26)، والمصادر السابقة.

(3) أخرجه الطيالسي (2390)، وأحمد (6532، 6984)، وأبو داود (٣٥٨٠)، والترمذي (١٣٣٧)، وابن ماجه (٢٣١٣)، وابن الجارود (586)، وابن حبان (٥٠٧٧)، والطبراني في «الدعاء» (2093)، والحاكم (٤/ ١٠٢ - ١٠٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وأخرجه أحمد (9023)، والترمذي (1336)، وابن الجارود (585)، وابن حبان (5076)، والطبراني في «الدعاء» (2095)، والحاكم (4/ 103) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أحد أوجه الخلاف على أبي سلمة بن عبد الرحمن، وأحسنها حديث ابن عمرو رضي الله عنهما، وله شواهد. ينظر: «البدر المنير» (9/ 573)، و«إرواء الغليل» (2620)، و«السلسلة الضعيفة» (1235، 6869).

وقد يقع للمرء تردد في بعض الذنوب بين كونها كبيرة أو ليست بكبيرة، وحينئذ عليه أن يتذكر مقولة بعض السلف: «لا تنظرْ إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى مَن عَصَيْتَ»[1].

بل ليتذكَّر قوله صلى الله عليه وسلم: «**إيَّاكُم ومُحَقَّرات الذنوب؛ فإنما مَثَلُ مُحَقَّرات الذنوب، كقوم نزلوا في بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهم، وإن مُحَقَّرات الذنوب متى يُؤْخَذْ بها صاحبُها تُهْلِكْهُ**»[2].

وكان بعض السلف يقول: «لا صغيرةَ مع الإصرار، ولا كبيرةَ مع الاستغفار»[3].

وهذا لا يصح حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم[4]، ولكن له معنى جيد.

والمعنى: أن الذنب الصغير إذا أدمن العبدُ عليه وأكثر منه، فإنه يُوجِد في القلب وحشة، وجُرأة على المعاصي، كالشاب الذي يتساهل بإطلاق النظر، ومحادثة النساء،

---

(1) كما قال بلال بن سعد رحمه الله. ينظر: «الزهد» لابن المبارك (71)، و«الزهد» لأحمد (ص311-312)، و«المعرفة والتاريخ» (2/ 406)، و«السنن الكبرى» للنسائي (11854)، و«حلية الأولياء» (5/ 223)، و«شعب الإيمان» (282، 759، 6885).

وبنحوه عن أُويس القَرْني رحمه الله. ينظر: «تاريخ دمشق» (9/ 448)، و«صفة الصفوة» (2/ 31).

ورُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «العلل المتناهية» (2/ 287- 288).

(2) أخرجه أحمد (22808)، والرُّوياني (1065)، والطبراني في «الأوسط» (7323)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (6881)، والبغوي (4203) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (389).

(3) ينظر: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للَّالَكائي (6/ 1110)، و«شعب الإيمان» (6882)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (2/ 1304).

(4) وقد روي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «التوبة» لابن أبي الدنيا (173)، و«الترغيب في فضائل الأعمال» لابن شاهين (187)، و«مسند الشهاب القضاعي» (853)، و«معجم ابن عساكر» (149)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (1/ 227)، و«السلسلة الضعيفة» (4810).

ويقضي في ذلك الساعات الطوال، فلا يزال الأمر به حتى يُجرِّئه ويُغْرِيه ويغرس في قلبه حب الزنا، وكل شيء يمهِّد لما هو أشد منه، ما لم يكن المسلم يقظًا.

وكذلك في قوله: «لا كبيرة مع الاستغفار» ليس على إطلاقه؛ فقد جاء في أحاديث صحيحة كثيرة عن بعض الفضائل التي تكفِّر الذنوب؛ كحديث: «**مَن حجَّ لله، فلم يَرْفُثْ، ولم يَفْسُقْ، رجعَ كيوم ولدتْهُ أُمُّه**»[1]. وقوله صلى الله عليه وسلم: «**الصلاةُ المكتوبةُ إلى الصلاة التي بعدها، كفارةٌ لما بينهما**- قال- **والجمعةُ إلى الجمعة، والشهرُ إلى الشهر**- يعني: رمضانَ إلى رمضانَ- **كفارةٌ لما بينهما**»[2]. إلى غير ذلك من الأحاديث.

وفي بعض الأحاديث ورد اشتراط «اجتناب الكبائر» لاستحقاق الوعد، كما في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه السابق[3].

ومال بعض أهل العلم إلى أن العمل الصالح يُكفِّر بعض الكبائر، إذا توفَّرت الأسباب؛ كأن يكون عند العبد انكسار تام لله، وأن يأتي بالعمل على أكمل وجه في أسبابه ومقدِّماته وأحواله، ولا يخالطه شيء من الإعجاب أو الغرور أو الغفلة، فربما يكون هذا سببًا في توبة العبد إلى ربه، وإقلاعه عن الذنب، وتخفيف الذنب أو التكفير، وفضل الله تبارك وتعالى واسع.

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن عبد البر وابن تيمية وابن رجب وغيرهم[4].

---

(1) أخرجه البخاري (1521)، ومسلم (1350) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) أخرجه أحمد (7129)، والحاكم (1/ 119)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (3348) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) ينظر: «صحيح مسلم» (233)، ولفظه: «**الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعة، ورمضانُ إلى رمضانَ، مكفِّراتٌ ما بينهنَّ، إذا اجْتَنَبَ الكبائرَ**».

(4) ينظر: «التمهيد» (7/ 18)، و«مجموع الفتاوى» (7/ 489)، و«الفروع وتصحيح الفروع» (10/ 233- 234)، و«جامع العلوم والحكم» (1/ 425)، و«الفتاوى الفقهية الكبرى» (2/ 99)، و«الفواكه الدواني» (375).

وأما ﴿وَءَاتُواْ﴾ فيشمل شيئين:

الأول: الذنوب الصغار المنصوص على تحريمها، ولذلك مثَّل له بعض العلماء بالقبلة والغمزة والضَّمَّة والنظرة، فهي داخلة في دائرة المحرَّم، ولكنها ليست من قَبِيل «الفواحش»، بل من قَبِيل المقدِّمات والممهِّدات التي قد تفضي إلى ما هو أشد منها[1].

وقد ورد في «الصحيحين» قصة الرجل الذي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر أنه أصابَ من امرأة قبلةً، فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فذكرَ ذلك له، فنزلت: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: 114]، فقال رجلٌ من القوم: يا نبيَّ الله، هذا له خاصةً؟ قال: «**بل للناس كافَّةً**»[2].

فعلى مَن ابتلي بهذه الذنوب أَلَّا ييأس من رحمة الله؛ فاليأس خطره أعظم، وقد حذَّر سبحانه من اليأس من رحمة الله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: 87]، و﴿تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [الحجر: 56]، وأن يجعل قلبه معلَّقًا بالله؛ يرجو رحمته، ولا يغتر بعمله، ولا ييأس من رحمته، وأن يكثر الدعاء، والعمل الصالح؛ كالمبادرة إلى الصلاة، وصحبة الأخيار، والاستغفار، وبر الوالدين، والصدقة، والإحسان إلى الزوجة والأولاد والجيران، فالميزان له كِفَّتان، وإن أنت ابتُليتَ بشيء من هذه القاذورات فاجتهد في التوبة، وأكثر من الطاعة؛ عسى أن ترجح كِفَّتها على كِفَّة الذنوب، وعسى أن تكون سببًا في توبة الله ومغفرته لك، ولهذا

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 63)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 74)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 364)، و«تفسير القرطبي» (17/ 106)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 460)، و«فتح القدير» (5/ 136)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (526، 4687، 6823)، و«صحيح مسلم» (2763) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

قال صلى الله عليه وسلم لحَكِيم بن حِزام رضي الله عنه: «**أسلمتَ على ما أَسْلَفتَ من خير**»[1]. ﴿ **وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ** ﴾ [محمد: 17]، فالله تعالى يصطفي للتوبة الذين يعلم رغبتهم في الخير، ونفرتهم من الشر، وحبهم للخلاص.

الثاني: المرور العابر[2]، ومنه تقول: أَلَمَّ بالمكان، أي: مرَّ عليه مرورًا سريعًا[3]، وقال القائل[4]:

إنْ تَغْفِرِ اللَّهمَّ تَغْفِرْ جَمَّا *** وأيُّ عَبَدٍ لكَ لا أَلَمَّا

فالمقصود هنا بـ﴿ وَءَاتُواْ ﴾: إلمام سريع لم يتحوَّل عنده إلى عادة أو إدمان، بل كانت زلَّة قاهرة وسقطة عابرة أفاق بعدها وندم وتاب وأناب، وهذا شأن ذنوب المقرَّبين والسابقين، حتى ربما حمل أحدهم الذنب على الاستزادة من الصالحات وقهر النفس على الطاعات والقربات، وربما وقع المؤمن في الذنب؛ لكنه لا يقيم عليه، وإنما يُسرع النهوض والخلاص، ويستنجد بالله، ويتحرَّر من أسبابه.

---

(1) أخرجه البخاري (1436)، ومسلم (123) من حديث حَكِيم بن حِزام رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 63)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 364)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 202)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 460)، و«فتح القدير» (5/ 138).

(3) ينظر: «تهذيب اللغة» (15/ 250)، و«لسان العرب» (12/ 549) «ل م م»، و«التحرير والتنوير» (27/ 122).

(4) ينظر: «ديوان أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت» (ص58).

ونُسب إلى أبي خِراش الهُذَلي. ينظر: «الحماسة البصرية» (2/ 431)، و«خزانة الأدب» (7/ 190)، و«شرح أشعار الهذليين» (3/ 1346)، و«لسان العرب» (12/ 104) «ج م م».

ورُوي مرفوعًا. أخرجه الترمذي (3284)، والبزار (4959، 4960)، وأبو يعلى (190)، والخرائطي في «اعتلال القلوب» (126)، والحاكم (1/ 54)، (2/ 469)، والبيهقي (10/ 312)، وفي «شعب الإيمان» (6654)، والضياء (11/ 195) (182) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ﴾: وما أحسن التعرف إليه سبحانه بأسمائه الحُسنى التي معظمها يدور على الرَّحْمة، فمن أسمائه: الرَّحْمن، الرَّحِيم، الغفور، التَّوَّاب.. وليس من أسمائه: الباطش، ولا المُعَذِّب، ولا شديد العقاب، فهذا على القول الراجح ليس من الأسماء الحسنى[1]، وإنما أسماء الله الحسنى هي التي فيها الرَّحْمَة، والبِرُّ، واللُّطف بالعباد؛ ترغيبًا وتحبيبًا لهم أَلَّا تغلبهم نفوسهم الأَمَّارة بالسوء، أو شياطينهم على الإصرار على الذنب، أو اليأس من التوب.

﴿لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾: فهو أعلم بكم قبل أن تكونوا[2]، وهو أعلم بكم يوم أن كنتم ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾، أو مواليد صغارًا، لا يوجد هوى في نفوسكم، ولا ميل ولا شهوة، ولكنها كانت كامنة لم تفعَّل بعد، لأنكم خلقتم من الأرض، ففيكم ثقلة الطين وداعي الهوى ومركب الشهوة والميل والغريزة، ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ﴾: فلا تقولوا عن أنفسكم ما يزكِّيها من الادِّعاء، وإنما عليكم التواضع لله سبحانه، وهذا خطاب للفرد أَلَّا يندفع في ادِّعاء لا يتناسب مع حقيقته، أو يتظاهر بما ليس فيه؛ فيجمع بين المعصية الباطنة والكذب الظاهر؛ فإنه ربما أورث الذنب تواضعًا وازدراءً بالنفس، وحمى صاحبه من الكِبْر أو الاغترار أو التعاظم، ما دام يعرف أن الذنب ذنب، وأنه عاصٍ مستحق للعقاب، إلا أن يتجاوز الله عنه.

---

(1) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص15– 18)، وما سيأتي في «سورة الحشر»: ﴿مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 70)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 202)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 462)، و«تفسير السعدي» (ص821).

كما يدخل في هذا النهي أن تزكِّي قبيلة نفسها، أو عِرْق، أو شعب بمثل هذه الدعاوى العريضة، كما كان اليهود والنصارى يقولون: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: 18]، ﴿إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ [البقرة: 111]، فتتحوَّل بذلك الديانة عصبيات قومية وعِرْقية وقَبَلِيَّة، وهو سبحانه ﴿فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ﴾[1].

* ﴿قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ﴾:

نزلت هذه الآيات في شأن رجل معيَّن، قيل: الوليد بن المغيرة[2]، همَّ أن يُسلم، وقدَّم شيئًا من الخير، وكاد أن ينقاد للهُدى، ثم نكس على عقبه[3]، فالله يُوَبِّخه وأمثاله، على أنه أعرض بعد ما اقترب، ولم يغتنم الفرصة التي سنحت له[4]. ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ﴾ من الخير، أو من التوجه والاستعداد[5]. ﴿إِذَا﴾ أي: توقَّف[6]، و**الكُدْيَة** هي: الصخرة،

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 364)، و«تفسير البغوي» (4/ 312)، و«تفسير القرطبي» (17/ 110)، و«فتح القدير» (5/ 136)، و«التحرير والتنوير» (27/ 125).

(2) وقيل: نزلت في العاص بن وائل السَّهْمي، وقيل: في النَّضْر بن الحارث، وقيل: في أبي جهل.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 71)، و«تفسير الماوردي» (5/ 402)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص399)، و«تفسير الرازي» (29/ 272)، و«تفسير القرطبي» (17/ 111)، و«فتح القدير» (5/ 137)، و«التحرير والتنوير» (27/ 127).

(4) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 203)، و«المحرر الوجيز» (5/ 205)، و«التحرير والتنوير» (27/ 128).

(5) ينظر: «تفسير البغوي» (4/ 313)، و«زاد المسير» (4/ 191)، و«تفسير القرطبي» (17/ 111)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 23)، و«التفسير المظهري» (9/ 124)، و«التحرير والتنوير» (27/ 128).

(6) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 254)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص429)، و«الوجيز» للواحدي (ص1042)، و«تفسير القرطبي» (17/ 111)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 319)، و«روح المعاني» (14/ 64).

كأنه تحوَّل إلى صخرة، لا تَبِضُّ بقطرة من الماء، أو واجه صخرة من ظلمة نفسه ومجاملتها لَمن حولها وعزوفها عن الانتقال استمرارًا للحال![1].

* ﴿ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ﴾:

وكأنه ممن قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [فصلت: 50]، وعزف عن الإيمان اغترارًا بهذا الظن الموهوم المبني على غير أساس من علم أو تقوى[2].

* ﴿إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا﴾:

وهذا التعقيب يرجِّح أنه كان ممن يزعم أن له في الآخرة مردًّا حسنًا وعقبى صالحة!

و﴿كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ كانت عشر ورقات، في كل صفحة نحو أربع آيات من جنس آيات القرآن الكريم، فهي نحو أربعين آية[3]، وإنما ذكر موسى عليه السلام؛ لأن صُحُفه أشهر[4]، والتوراة معروفة، وفيها كثير من البيان والهُدى، وموسى من الرسل الذين لهم أمة قائمة، وصحفهم تشمل التوراة التي أثنى عليها الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾ [المائدة: 44]، وتشمل الألواح التي فيها الوصايا العشر وغيرها.

---

(1) ينظر: «الصحاح» (6/ 2471) «ك د ى»، و«تفسير البغوي» (4/ 313)، و«تفسير القرطبي» (17/ 112)، و«التحرير والتنوير» (27/ 128).

(2) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص429)، و«المحرر الوجيز» (5/ 205)، و«زاد المسير» (4/ 191)، و«تفسير القرطبي» (17/ 112)، و«فتح القدير» (5/ 137).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 130).

(4) ينظر: «تفسير أبي السعود» (8/ 163)، و«روح المعاني» (14/ 65)، و«التحرير والتنوير» (27/ 130)، و«التفسير المنير» (27/ 125).

وإنما بدأ بموسى ثم ثنَّى بإبراهيم لأجل هذا، والله أعلم، أو لأنه يريد أن يثني على إبراهيم بالمزيد، فذكر موسى إجمالًا ثم انتقل إلى الخليل ليبني على ذكره أخبارًا وثناءً بقوله: ﴿يَكۡبُرُواْۚ وَمَن﴾.

﴿يَكۡبُرُواْۚ وَمَن﴾: أي: أنجز ووفَّى بوعده[1]، **ومن ذلك**: ذبحه لابنه: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [الصافات: 102].

أما ماذا في «صحف إبراهيم وموسى» في هذا السياق؛ فهو: ﴿غَنِيًّا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ﴾، فلا يُؤخذ أحد بذنب غيره، وهذا الذي أعطى قليلًا وأَكْدَى، وظنَّ أن ثمةَ أحدًا سوف يفديه أو ينفعه، قد رَكَنَ إلى وَهْم لا أصل له في الشرائع كلها، فالله تعالى يخبره بأن هذا لا ينفعه، وهذا معنى قرآني عظيم، فيه غاية العدل، فلا يُؤخذ أحد بجَريرة غيره، ولا يُعيَّر القوم أو القبيلة بخطأ أحدهم.

وهذه معاني لا تختص بالملأ من قريش، بل هي قواعد أخلاقية دنيوية وأخروية، أَلَّا يُؤاخذ أحدٌ بجَرِيرة أحد، ولو كان أقرب قريب؛ حتى الزوجة لا تُؤخذ بذنب زوجها، ولا الزوج بذنب زوجته، ولا الابن بأبيه، ولا الأب بابنه، ولا الجار بجاره، ولا ينبغي أن نصدر الأحكام العامة على الناس؛ بناءً على سلوك فردي، فنقول: أئمة المساجد فاسدون، أو: المدرِّسون مهملون، أو: الدُّعاة منافقون، أو: الأطباء غشاشون، أو: التجار طمَّاعون.. فهذا التعميم لا ينبغي؛ لأنه لا ﴿فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ﴾.

* ﴿فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾:

فمسؤولية الإنسان تقتصر على فعله، وهذا من «صحف إبراهيم وموسى»[1]، وهو مقرَّرٌ في شريعتنا من حيث الجملة، وإن كان الله تعالى جعل في معنى «سعي

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 75)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 313)، و«تفسير البغوي» (4/ 313)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 163).

الإنسان» سعي ولده، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**إن أطيبَ ما أَكَلَ الرجلُ من كسبه، وإن ولدَهُ من كسبه**»[2]. و«**إذا ماتَ الإنسانُ انقطعَ عنه عملُهُ إِلَّا من ثلاث: إِلَّا من صدقة جارية، أو علم يُنتفعُ به، أو ولد صالح يدعُو له**»[3]. والحج عن المتوفَّى، والصوم عنه، والصدقة عنه.. كل ذلك ثابت في السنة[4]، وبعض الأعمال الصالحة يصل ثوابها إن شاء الله، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات، وهذا كله لا يتنافى مع الآية الكريمة، ولا حاجة إلى أن نقول: هذا شرع مَن قبلنا، وهو منسوخ؛ لأن الله تعالى ساقه لنا في سياق الاعتبار به[5].

* ﴿فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾:

سوف يراه الله تعالى والمؤمنون والناس، ويُعرض يوم القيامة[6].

* ﴿حَسِيبًا ٦﴾:

إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، والجزاء الأوفى تقتضي استيعاب الجزاء على الصالح وتمامه مع الفضل، والجزاء على الشيء مع العدل، وربما التسامح والعفو[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 78)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 203)، و«تفسير البغوي» (4/ 314)، و«تفسير القرطبي» (17/ 114)، و«التحرير والتنوير» (27/ 132).

(2) أخرجه الطيالسي (1685)، وأحمد (24032)، وأبو داود (3528)، والترمذي (1358)، وابن ماجه (2137)، والنسائي (7/ 240)، وابن حبان (4260)، والحاكم (2/ 46) من حديث عائشة رضي الله عنها. وينظر: «البدر المنير» (8/ 308)، و«التلخيص الحبير» (4/ 16)، و«إرواء الغليل» (2162).

(3) أخرجه مسلم (1631) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) ينظر: «صحيح البخاري» (1388، 1852، 1953)، و«صحيح مسلم» (1004، 1148).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 80)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7172)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 69)، و«زاد المسير» (4/ 193)، و«تفسير القرطبي» (17/ 115).

(6) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 80)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7172)، و«تفسير الرازي» (29/ 277)، و«تفسير القرطبي» (17/ 115)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 465).

* ﴿□□□□□﴾:

أصح معاني الآية: أن الناس صائرون إلى الله عز وجل، فهي من الآيات الدالة على البعث[2].

وقيل: معناها: أن كل تفكير رشيد عاقل يوصل الإنسان إلى الإيمان بالله عز وجل وعبوديته[3].

* ﴿□□□□□﴾:

أي: خلق غريزة الضحك والبُكاء[4]، وهذه من خصائص الإنسان، ينفرد بها دون عامة الحيوان، إلا ما ندر[5].

وقولنا: الحمامة تنوح على كذا، فهو على سبيل المجاز، والله خلق لبكاء الإنسان أسبابه، ولضحكه أسبابه، وفي ذلك صناعة السعادة؛ ولهذا قدَّم «الضحك» على «البكاء»، وهذه مِنَّةٌ على الناس؛ أن الحياة فيها كثير من الجماليات، وأسباب السعادة

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 434)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7172)، و«روح البيان» (9/ 253)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 81)، و«تفسير السمعاني» (5/ 301)، و«تفسير البغوي» (4/ 315)، و«تفسير القرطبي» (17/ 115)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 466)، والمصادر الآتية.

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 278)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 320)، و«تفسير الخازن» (4/ 214)، و«التحرير والتنوير» (27/ 141)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 313)، و«تفسير الماوردي» (5/ 404)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (2/ 1158)، و«الكشاف» (4/ 428)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 466)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 164)، و«التحرير والتنوير» (27/ 143).

(5) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 404)، و«تفسير القرطبي» (17/ 117).

والسرور، والرضا وقرة العين، وحتى البكاء فيه معنى التنفيس والإحساس بمشاعر الآخرين، وربما بكى المرء بسبب طغيان السرور، كما قيل(1):

طفحَ السرورُ عليَّ حتى إنه *** من عظم ما قد سرَّني أبكاني

ومن جمالية الحياة أن نتعامل مع تغيرات الحياة بقدر من الرضا والإيجابية، والسعادة والتفاؤل، والأمل والإشراق، هذا معنى يجب أن نتدرَّب عليه، ومما يدرِّبنا عليه ذكر الله سبحانه وتعالى والتطهر والتوبة من الذنوب والمعاصي، دون أن يغلبنا معها يأس أو قنوط من رحمة الله، أو أمن من مكره سبحانه.

* ﴿□□□□□﴾:

فالموت والحياة له سبحانه، وذلك وفق حكمة عليا يعلمها الله وقد يجهلها الناس، والموت عبور قنطرة إلى عالم آخر، فليس فناءً محضًا ولا عدمًا ولا انقراضًا ﴿فِي ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟مَا﴾ [المؤمنون: 80](2).

* ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾:

فهذا من حكمته سبحانه، وهي عامة في الإنسان والحيوان والطير، **والأقرب أن المقصود هنا**: الإنسان؛ لأنه قال بعدها: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾، وهذا ما لا يكون للطيور، وبعض الحيوانات، فهذه **النُّطْفَة** من الماء الذي يُراق ويُمنى هو يتصل ببويضة المرأة، فيكون من ذلك خلق الإنسان(3).

---

(1) ينظر: «ديوان صفي الدين الحِلِّي» (ص99).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 81)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 435)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 72)، و«المحرر الوجيز» (5/ 207)، و«تفسير الرازي» (29/ 280)، و«تفسير القرطبي» (17/ 117).

(3) وقيل: المقصود: آدم وحواء، وقيل: الذكر والأنثى من أولاد آدم، وقيل: الذكر والأنثى من كل حيوان. ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 82)، و«تفسير السمعاني» (5/ 302)، و«تفسير البغوي» (4/ 317)،

والمقصود: امتنانه سبحانه على الناس بخلق الزوجية، والاستمتاع بها، وعلاقة الحبِّ والمودة والشراكة التي هي شراكة في بناء البيت، والعمل، والاقتصاد، والمشورة والرأي، والفكر والثقافة، والحياة والوفاء.

وكثير من البيوت إنما تعاني ما تعاني بسبب الأنانية وتجاهل معاناة الطرف الآخر في هذه الشراكة، مما يوجب علينا أن نعيد النظر في طبيعة العلاقة القائمة بين الزوجين.

❁ ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾:

فالله الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يعيدهم للنشأة الأخرى يوم القيامة[1]، والذي قَدَرَ على أن يخلق الإنسان من عدم قادر أن يعيد خلقه يومَ القيامة، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27].

وهذه جملة مناسبة لما قبلها؛ حيث جاءت تعقيبًا على الخلق الأول لتذكِّر بالخلق الآخر يوم القيامة[2].

❁ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿أَغْنَىٰ﴾: أعطى الناس الغِنَى والمال[3]، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أعطاهم القُنْيَة التي يقتنونها، فـ«أَقْنى» متمِّمة لـ«أَغْنَى»، وليست مقابلها، كما في قوله: ﴿□□﴾ و﴿□□﴾، فأعطاهم

و«المحرر الوجيز» (5/ 207)، و«زاد المسير» (4/ 194)، و«تفسير القرطبي» (17/ 117)، و«فتح القدير» (5/ 140)، و«التحرير والتنوير» (27/ 145).

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 82)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 366)، و«تفسير القرطبي» (17/ 118)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 467)، و«تفسير القاسمي» (9/ 83).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 147).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 82)، و«تفسير الماوردي» (5/ 405)، و«الوجيز» للواحدي (ص1043)، و«تفسير القرطبي» (17/ 118- 119)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 467).

الغنى، وأعطاهم الأشياء التي يقتنونها[1]، أو أعطاهم الرضا بهذا الغنى، على التفسير الآخر[2].

* ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾:

هذا كلام مستأنف جديد، فالواو للاستئناف؛ لأن عبادة الشِّعْرَى لم تكن موجودة في عهد إبراهيم وموسى، وإنما وُجدت في العرب بعد ذلك، وهذا عطف في نهاية السورة إلى بدايتها، حيث أقسم بـ«النَّجْم إذا هَوَى»؛ لينكر على عابديها، فعاد ليذكِّر بالمعنى الأول[3].

* ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾:

و«عاد» واحدة، ولكن سماها: ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ لأنها قديمة، ولأنها القبيلة العربية المشهورة، ولأنها ذات عظمة وقوة[4]، كما حكى تعالى عنهم: ﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾ [فصلت: 15]، وهم متقدِّمون؛ كانوا بعد قوم نوح.

* ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾:

---

(1) ينظر: «العين» (5/ 218)، و«الصحاح» (6/ 2467- 2468)، و«مختار الصحاح» (ص261)، و«لسان العرب» (15/ 202) «ق ن ا»، و«تاج العروس» (39/ 357) «ق ن ي».

(2) ينظر: «التفسير البسيط» للواحدي (21/ 74)، و«زاد المسير» (4/ 194)، و«فتح القدير» (5/ 140)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 283)، و«تفسير القرطبي» (17/ 119)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 162)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 321)، و«التفسير المظهري» (9/ 132)، و«روح المعاني» (14/ 69)، و«التحرير والتنوير» (27/ 150).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 88)، و«المحرر الوجيز» (5/ 208)، و«تفسير الرازي» (29/ 283)، و«تفسير القرطبي» (17/ 120)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 26)، و«روح المعاني» (14/ 69).

﴿ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ أي: أكثر ظلمًا، وأكثر طغيانًا[1].

* ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ ﴾:

تلحظ هنا تسارع السياق، وكأنك أمام مشاهد سريعة متلاحقة في آية واحدة، تختصر السورة قصة كاملة مفصَّلة في موضع آخر.

﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ ﴾: قوم لُوط عليه السلام، وقراهم تسمَّى: «المُؤْتَفِكات»، أي: المنقلبات[2]؛ لأنهم غيَّروا الفطرة، فعُوقبوا بقلب قراهم وتدميرها، ثم رماهم الله تعالى بـ﴿وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [هود: 82].

﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ أي: من تلك الحجارة[3]، وهي قُرى سَدُوم[4]، ويمر الحديث عن بعض أخبارها وتفصيلها في مواضع مختلفة من التفسير.

* ثم يأتي السؤال العظيم المزلزِل: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥ ﴾:

---

(1) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (4/ 189)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 367)، و«تفسير السمعاني» (5/ 303)، و«المحرر الوجيز» (5/ 209)، و«تفسير الرازي» (29/ 283- 284)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 467).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 167)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 437)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 367)، و«تفسير البغوي» (4/ 318)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 467)، و«فتح القدير» (5/ 141)، وما سيأتي في «سورة الحاقة»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن﴾.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 90)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 437)، و«تفسير البغوي» (4/ 318)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 467)، و«فتح القدير» (5/ 141)، و«التحرير والتنوير» (27/ 155).

(4) سدوم: قرية من قرى قوم لوط عليه السلام، حيث كانت أكبر القرى، وهي بين الحجاز والشام، كانت أحسن بلاد الله وأكثرها مياهًا وأشجارًا وحبوبًا وثمارًا، والآن عبرة للناظرين؛ بعد أن أهلكها الله عز وجل؛ حيث كان أهلها يعملون الخبائث، كما ذكر ذلك في كتابه. ينظر: «آثار البلاد وأخبار العباد» (ص202)، و«الروض المعطار في خبر الأقطار» (ص308).

وقد يكون هذا خطابًا للنبي صلى الله عليه وسلم، **فيكون المعنى**: أيُّ آلاء ربك أعظم عندك؟ فكلها آلاء حسنة عظيمة، وهم يريدون أن تتمارَى فيها، فبأيِّ هذه الآلاء تتمارَى أو تشك؟[1]، هذا ما لا مجال فيه.

أو يكون خطابًا للناس كلهم، ولكل مَن يصلح له الخطاب: أن هذه الآلاء العظيمة التي تراها؛ بأيِّها تكذِّب أو تشك أو تجادل؟[2].

* ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾:

أي: هذا القرآن من جنس ﴿ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم ﴿ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [آل عمران: 144][3].

* ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾:

أي: حقَّت الحاقة، ووقعت الواقعة، **وأزف**: اقترب[4]، و﴿ٱلْـَٔازِفَةُ﴾: الساعة، فهي بمعنى السورة التالية لها: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾[5].

* ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾:

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 429)، و«تفسير الرازي» (29/ 285)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 162)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 468)، و«فتح القدير» (5/ 141)، و«التحرير والتنوير» (27/ 156).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 92)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 367)، و«تفسير الماوردي» (5/ 406)، و«زاد المسير» (4/ 194)، و«تفسير القرطبي» (17/ 221)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 406)، و«الكشاف» (4/ 429)، و«المحرر الوجيز» (5/ 209)، و«تفسير القرطبي» (17/ 121)، و«روح المعاني» (14/ 70)، و«التحرير والتنوير» (27/ 157).

(4) ينظر: «مقاييس اللغة» (1/ 94)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص75)، و«لسان العرب» (9/ 4) «أ ز ف».

(5) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص629)، و«تفسير مقاتل» (4/ 168)، و«تفسير الطبري» (22/ 95)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 78)، و«تفسير القرطبي» (17/ 122)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 166)، و«فتح القدير» (5/ 142).

لا يكشفها أحد إلا الله عز وجل[1].

* ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾:

﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ يا معشر قريش المكذِّبين؟[2]، ﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾: غافلون لاهون مشغولون بالطَّرب واللَّعب والضحك، بينما الأمر جدٌّ، وفيه كرب وأهوال[3].

* وهنا بلغ التأثير نهايته، وجاء الختم الرَّبَّاني العظيم: ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾:

وهذا موضع سجود عند طائفة من أهل العلم، خلافًا للإمام مالك[4].

وقد قرأ النبيُّ صلى الله عليه وسلم هذه السورة مرةً، ولم يسجد[5]، وقرأها في مكة مكة وسجد، وسجد معه المسلمون والمشركون والجنُّ والإنسُ[6].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 168)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 205)، و«زاد المسير» (4/ 194)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 468)، و«التحرير والتنوير» (27/ 159).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 96)، والمصادر السابقة والآتية.

(3) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 256)، و«تفسير الطبري» (22/ 96)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 157)، و«تفسير البغوي» (4/ 319)، و«تفسير القرطبي» (17/ 123)، و«تفسير القاسمي» (9/ 84).

(4) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 305)، و«تفسير القرطبي» (17/ 124)، و«التحرير والتنوير» (27/ 162).

وينظر أيضًا: «الهداية في شرح البداية» (1/ 78)، و«الاختيار لتعليل المختار» (1/ 75)، و«التاج والإكليل» (2/ 361)، و«المجموع» (4/ 59- 60)، و«مغني المحتاج» (1/ 441- 442)، و«المغني» (1/ 441).

(5) كما في صحيح البخاري (1072)، و«صحيح مسلم» (577) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(6) أخرجه البخاري (1071، 4862) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وتقدم أول السورة.

والعجيب أن يسجد المشركون، وقد أخذتهم روعة السورة ووهلتها وقوَّتها وسرعتها وتأثيرها وحصارها لهم بالسؤالات المتتابعة التي تهزُّهم من أعماقهم، وتكشف الغفلة عنهم، فأفاقوا قليلًا على وقعها وصداها وسجدوا دون تأمُّل، ثم عادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والعناد.

❍ ❍ ❍

سورة القمر

*** تسمية السورة:**

تُسمَّى: «**سورة القمر**»؛ لذكره في صدرها، وهو الاسم الغالب في المصاحف، وكتب التفسير، والحديث[1].

ومن أسمائها: «**سورة** ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾»، وتختصر إلى: «**سورة** ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾»، و«**سورة** ﴿ٱقْتَرَبَتِ﴾»[2].

وقد جاء هذا في حديث أبي واقد اللَّيْثي رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يقرأُ بـ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ①﴾، و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ①﴾ في الفطر والأضحى[3].

*** عدد آياتها:** خمس وخمسون آية باتفاق علماء العدِّ[4].

*** وهي مكية** عند الجمهور[1].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 169)، و«جامع الترمذي» (5/ 397)، و«السنن الكبرى» للنسائي (10/ 280)، و«تفسير الطبري» (22/ 103)، و«تفسير البغوي» (4/ 320)، و«تفسير القرطبي» (17/ 125)، و«روح المعاني» (14/ 73)، و«التحرير والتنوير» (27/ 165).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص633)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 257)، و«صحيح البخاري» (6/ 142)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 315)، و«فتح القدير» (5/ 144).

(3) أخرجه مسلم (891)، وتقدم في «سورة ﴿قٓ﴾».

(4) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص236)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (4/ 1581)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص310)، و«التحرير والتنوير» (27/ 165).

وذكر بعضهم أن فيها آية مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾[2]، وأنها كانت في مناسبة غزوة بدر.

والصحيح أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم استشهد بهذه الآية في غزوة بدر، وإلا فالسورة كلها مكية، نزلت قبل الهجرة بخمس سنوات، وقد صحَّ عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لقد أُنْزِلَ على محمد صلى الله عليه وسلم بمكةَ، وإني لجاريةٌ ألعبُ: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾»[3].

وحادثة انشقاق القمر كانت عند المحقِّقين من أهل العلم قبل الهجرة بنحو خمس سنوات[4].

* ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾:

اقتراب الساعة: دُنوُّها، فهو اقتراب زمني[5]، وقد جاء هذا مسجَّلًا في القرآن في مواضع، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن﴾ [الأنبياء: 1]، وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: 63]، وقول النبي صلى الله

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 408)، و«المحرر الوجيز» (5/ 211)، و«تفسير القرطبي» (17/ 125)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 336)، و«فتح القدير» (5/ 144)، و«روح المعاني» (14/ 73)، و«التحرير والتنوير» (27/ 165).

(2) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 306)، و«زاد المسير» (4/ 196)، و«الإتقان» (1/ 65)، والمصادر السابقة.

(3) أخرجه البخاري (4876).

(4) ينظر: «فتح الباري» (6/ 632)، و«المواهب اللدنية» (2/ 254)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (13/ 287)، و«التحرير والتنوير» (27/ 166).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 103)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 369)، و«تفسير الماوردي» (5/ 408)، و«تفسير السمعاني» (5/ 306)، و«زاد المسير» (4/ 197)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 470).

عليه وسلم: «**بُعثتُ أنا والساعةُ كهاتين**». وقرن بين السبَّابة والوسطى[1]. وفي لفظ: «**إن كادتْ لتسبِقُني**»[2].

وثَمَّ قربٌ عام من حيث إن كل وقت يمضي يقرِّب الساعة، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء والمرسلين؛ وكانت بعثته من علامات الساعة الدالة على قربها، وقد أَلَّف السُّيوطيُّ رسالة سماها: «الكشف في مجاوزة هذه الأمة الألف»، وساق فيها أحاديث وروايات تدل على أن هذه الأمة قد تتجاوز ألف سنة، وهذا صار تاريخًا ماثلًا، والسُّيوطي حين كتب كان قريبًا تاريخيًّا من الألف، حيث توفي سنة (911هـ) رحمه الله.

إن موضوع «نهاية العالم»، وتحديد ميقات ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ من الموضوعات التي تشغل بال كثيرين، وقد ينسجون حولها الأساطير والروايات، وكل شعوب العالم تتحدَّث عن موقعة «**هرمجدون**»، وهي المعركة بين الحقِّ والباطل، وهذا معتقد عند النصارى واليهود، والمسلمون يؤمنون أن للساعة أشراطًا وعلامات، ولكن هذا لا ينبغي أن يكون أداة لترويج القصص الخيالية ونسج الحكايات الوهمية، ولا أن يكون سببًا في عزوف الناس عن مصالحهم وتحقيق مقاصدهم؛ فإن النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن قامت الساعةُ، وبيد أحدكم فَسِيلةٌ**[3]**، فإن استطاعَ أن لا يقومَ حتى يغرسَها فليفعلْ**»[4]. فالشرع يؤكِّد أهمية العمل والانغماس فيه والدأب، حتى ولو قامت

---

(1) أخرجه البخاري (6504)، ومسلم (2951) من حديث أنس رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري (4936، 5301)، ومسلم (2950) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما.
وأخرجه البخاري (6505) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه مسلم (867) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(2) أخرجه أحمد (22947) من حديث بُريدة بن الحُصيب رضي الله عنه.

(3) أي: نخلة صغيرة.

(4) أخرجه الطيالسي (2181)، وأحمد (12981)، والبخاري في «الأدب المفرد» (479)، والضياء (7/ 262- 264) (2711- 2715) من حديث أنس رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (9).

الساعة، وحفز الناس على العمل الصالح ومصالح الحياة الدنيا التي لا يقوم معاشهم إلا بها[1].

أما انشقاق القمر: فقد ورد عن الحسن البصري وعطاء أن المراد بالانشقاق في الآية: انشقاق القمر يوم القيامة، ونسبه بعض المفسرين إلى الجمهور[2].

والأقرب أن هذا قول لبعض الأئمة، وأما الجمهور فذهبوا إلى أن المقصود حادثة وقعت في مكة قبل الهجرة، حيث طلب المشركون- كعادتهم- من النبي صلى الله عليه وسلم آيةً، فأراهم اللهُ تعالى انشقاق القمر، وأخبرهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن القمر سوف ينشق، ونظر الناسُ إليه فيما يشبه الخسوف، فرأوه فِلْقتين[3]، وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم للصحابة: «**اشهدوا**». كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وهو في الصحيح[4].

وجاء هذا المعنى عن جمع من الصحابة، كابن عباس، وابن مسعود، وحُذيفة بن اليمان، وابن عمر، وأنس، وغيرهم رضي الله عنهم[5].

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة القيامة»: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن﴾.

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 369)، و«تفسير الماوردي» (5/ 409)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 207)، و«زاد المسير» (4/ 197)، و«تفسير القرطبي» (17/ 126)، و«فتح القدير» (5/ 145)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (13/ 283)، و«التحرير والتنوير» (27/ 168).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 103)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 207)، و«دَرْج الدُّرر في تفسير الآي والسور» (4/ 1581- 1582)، و«المحرر الوجيز» (5/ 211)، و«تفسير القرطبي» (17/ 125- 126)، و«روح المعاني» (14/ 74)، و«التحرير والتنوير» (27/ 167).

(4) أخرجه البخاري (3869)، ومسلم (2800).

(5) ينظر: «مسند الطيالسي» (2003)، و«مصنف عبد الرزاق» (5285)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (34798)، و«مسند أحمد» (13918، 16749)، و«صحيح البخاري» (3870، 4868)، و«صحيح مسلم» (2802،2803)، و«جامع الترمذي» (3289)، و«مشكل الآثار» للطحاوي (696)، و«صحيح ابن حبان» (6497)، و«المستدرك» (4/ 609).

وادَّعى بعضهم أن الخبر متواتر، والصحيح أنه مشهور وليس بمتواتر[1].

وقد تردَّد البعض في صحة الرواية؛ بأن الانشقاق لو كان وقع فعلًا لذكره الفلكيون والمؤرِّخون من غير المسلمين والعرب، ويبعد أن يقع هذا ثم لا يستفيض خبره في أرجاء الأرض.

فيقال جوابًا لذلك: إن القمر في تلك الساعة قد يكون لآخرين مختفيًا غائبًا، أو يكون حدوث ذلك لبلد آخرَ في آخرِ الليل والناس نيام، أو تكون لحظة الانشقاق قصيرة، كما يحتمل أن يقدِّر الله الانشقاق بطريقة لا يتأثر بها جِرْم القمر، ﴿وَنِسَآءٗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي﴾.

لقد اختار الله سبحانه أن يكون محمدًا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن يمهل الناس ولو كذَّبوا، حيث موعدهم يوم القيامة، كما قال: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ﴾ [الكهف: 58]، أما الأمم السابقة فكانت تُؤخذ عادة بما يُسمَّى: عذاب الاستئصال، فإذا لم يؤمنوا نزلت عليهم العقوبة، واستأصل الله تعالى شأفتهم وأبادهم وانتهوا، أما هذه الأمة فإن الله تعالى يمدُّ لهم بحيث لا يهلكهم بسَنَة بعامة[2] حتى يأتي أمر الله.

* ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢﴾:

---

(1) ينظر: «الشفا» (1/ 255)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 472)، و«المواهب اللدنية» (2/ 254)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (5/ 522)، و«روح البيان» (9/ 263)، و«روح المعاني» (14/ 74)، و«نظم المتناثر» (ص211)، و«التحرير والتنوير» (27/ 167- 168).

(2) وقد دعا النبيُّ صلى الله عليه وسلم ربَّه عز وجل أن لا يهلك أمته بسَنَة عامة، فاستجاب الله له ذلك. ينظر: «صحيح مسلم» (2889).

فإذا رأى هؤلاء المشركون آيةً من آيات الله تعالى، فإنهم يُعرضون عن تدبرها، ويكتفون بنسبتها إلى السِّحْر، كما قالوا عن القرآن ذاته- وهو أعظم الآيات-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [المدثر: 24].

ومعنى ﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾: دائم[1]، فكأنهم يقولون إن هذا الرجل يأتينا بألوان وأنماط من السِّحْر متغيِّرة، فالسِّحْر مستمر وإن تغيرت مظاهره.

* ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ٣﴾:

فهم يكذِّبون بالرسل، ويكذِّبون بالآيات، ويتَّبعون أهواءهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ [النجم: 23].

وأما قوله: ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾: فهو يجري مجرى الحكمة، فلكل أَمْرٍ قرار ونهاية ينتهي إليها، فالحقُّ نهايته البقاء والتمكين، والباطل نهايته الزوال والبَوَار، كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد: 17]، وكما قال: ﴿إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [الأنعام: 67]، فكل نبأ من الأنباء أو خبر من الأخبار له مستقر ونهاية يتَّضح بعدها[2]، فالآية تقرِّر السُّنَّة الإلهية في الصراع بين الحق والباطل، وهذا تنبيه للناس أَلَّا يغترُّوا بالظواهر، ولا يستعجلوا: ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ [الأنبياء: 37]؛ فإن من طبيعة البشر الاستعجال، وهم بحكم جِبِلَّتهم يرون باطلًا ينتشر، فيدعون الله تعالى أن يزيله، ويرون حقًّا يُضَّطهد، فيدعون الله تعالى أن ينصره، وهم متعبِّدون بهذا الإحساس وبهذه الروح وبهذا الدعاء، ولكنه سبحانه يريد مع هذا الدعاء الذي تُعبِّدوا

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 85)، و«الكشاف» (4/ 431)، و«تفسير الرازي» (29/ 290)، و«تفسير القرطبي» (17/ 127)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 33).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (9/ 311)، و«تفسير الثعلبي» (4/ 156)، و«تفسير البغوي» (2/ 133)، و«روح البيان» (9/ 268)، و«تفسير القاسمي» (4/ 392).

به، ومع فعل الأسباب المادية الممكنة، أن تتشبَّع نفوسهم بالحكمة الإلهية والاختيار الرباني والتوقيت الحكيم: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ ﴾ [هود: 104].

* ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ٤ ﴾:

الأنباء جمع: نبأ، وغالب ما يُطلق في القرآن الكريم على الخبر العظيم[1]، كقوله: ﴿ غَنِيًّا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ ﴾ [النمل: 22]، وكقوله: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡ ﴾ [التوبة: 94]، فهو خبر له أهمية وتتوافر الدَّواعي على نقله، وهؤلاء الناس جاءهم من الأنباء المذكورة في السورة وغيرها، ومنها إهلاك الأمم السابقة، ما هو كافٍ للزجر أن تزدجر قلوبهم عن الباطل وتتَّعظ وتتعامل بصدق مع الوعيد والوعد والأخبار والنبوة[2].

* ﴿ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ٥ ﴾:

والحكمة هي: البصيرة التي تضع الشيء في موضعه، وهي المعنى العظيم في عبارة موجزة مُحْكَمة[3].

وهي هنا بالغة منتهاها في جودتها وإتقانها وضبطها، **والمقصود**: حكمته سبحانه، فمن أسمائه: الحَكِيم؛ **ولهذه الآية معنيين:**

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 291)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 233)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (4/ 143)، و«التحرير والتنوير» (1/ 412).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 115)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 370)، و«تفسير البغوي» (4/ 322)، و«تفسير القرطبي» (17/ 128)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 475)، و«التحرير والتنوير» (27/ 175).

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (2/ 262)، و«تفسير الثعلبي» (1/ 277)، و«تفسير الرازي» (6/ 517)، و«التحرير والتنوير» (3/ 63).

الأول: حكمته تعالى في تصريف الأمور، وخلق الإنسان بنفسية وعقلية وطبيعة قابلة للهُدى والضلال والخير والشر: ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ [البلد: 10]، وحكمته في إرسال الرسل، وحكمته في منح الناس مشيئة بأن يصدِّقوا أو يكذِّبوا: ﴿أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [الكهف: 29]، وحكمته في إنزال العذاب بالأمم السابقة، وفي إمهال آخرين[1].

ومنها: الحكمة في صنعه، الحكمة في خَلْقه، وكل ما يحدث في الكون له حكمة وإن كان الناس يغفلون عنها لا سيما في المجريات التي يعيشونها أو يشاهدونها، فنحن نسمع من الأنباء ما فيه مزدجر؛ من حوادث وفواجع وزلازل، وبراكين، وفياضانات.. إلخ، ولكن كثير من الناس يكتفون بالامْتِعاض دون الاتِّعاظ.

والناس يغفلون عن الحكمة في حوادث الكون، ولكل شيء ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾.

إن الإيمان بالحكمة يمنح المسلم عصمةً من اليأس والقنوط والكفر؛ لأن من الناس مَن قد يرتد بسبب ما يراه من تسلط الأعداء على الأمة أو تسلط الظالمين وكثرة الفساد وانتشار التخلف في مجتمعات المسلمين، وقد يدفعه هذا إلى الشك في الدين أو كرهه لأهله.

وهذه الحكمة يمكن أن نسميها: الحكمة الكونية، أو: القدرية، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدخان: 3- 4].

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 291)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 475)، و«تفسير القاسمي» (9/ 90).

الثاني: حكمته سبحانه وتعالى فيما يرسله إلى عباده في القرآن؛ ولذلك عقَّب بقوله: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾[1]. ولذا سَمَّى القرآن: حكيمًا؛ لأنه مبني على الحكمة في الأوامر والنواهي والأحكام والأخبار والسياق والترتيب والوصل والفصل.. والشريعة كلها حكمة منزَّهة عن العبث، ويدرك المتأمِّل من أسرار التشريع والبيان بقدر سعة علمه وقوة نظره وطول وقوفه عند الأسرار الربانية المذهلة.

وقوله: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ يحتمل أن تكون «ما» نافية، والتقدير: فلا تغني عنهم النذر، كما قال سبحانه: ﴿ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا﴾ [يونس: 101]، فهؤلاء طبعوا على الكفر والإعراض، فلا تنفعهم النذر[2].

ويجوز أن تكون «ما» هنا استفهامية، وفيها معنى الإنكار، **ويكون المعنى**: أيُّ شيء تغني النذر عن هؤلاء القوم؟ ماذا تغني النذر[3]؟

والنُّذُر جمع: نذير، **ويشمل**: نذير القرآن، ونذير الآيات، ونذير العذاب[4].

* ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ٨﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 116)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 208)، و«تفسير السمعاني» (5/ 308)، و«تفسير القرطبي» (17/ 128)، و«تفسير الخازن» (4/ 218).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 212)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 322)، و«الدر المصون» (10/ 123)، و«فتح القدير» (5/ 146)، و«التحرير والتنوير» (27/ 175)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير ابن كثير» (7/ 475)، والمصادر السابقة والآتية.

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 116)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 89)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 444)، و«التفسير البسيط» للواحدي (23/ 80)، و«الكشاف» (4/ 435).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص432)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص798) «ن ذ ر».

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ هنا وقف، كما قال ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ [النساء: 63]، وقد تقدَّم معنى التولِّي[1].

ومن معانيها: عدم الإلحاح، وإلا فالدعوة واجبة.

ومن معانيها: عدم الدخول في مجادلات لا تقدِّم ولا تؤخِّر، وإنما الواجب دعوتهم إلى ما فيه صلاحهم ونجاتهم.

ومن معانيها: الإعراض عن فئة منهم من أشخاصهم وأعيانهم ممن علم الله أنهم لا يهتدون، وهؤلاء ماتوا على الكفر، من أمثال أبي جهل وأبي لهب.

ومن معانيها: تصبير النبي صلى الله عليه وسلم، فلا يحزن ولا تذهب نفسه عليهم حسرات، فقد بلَّغ البلاغ المبين، وأقام حجة الله على المعاندين، فدعهم وأَنْظِرهم إلى يوم الدين[2].

ثم استأنف حديثًا جديدًا بقوله: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾، وإذا قُدِّر للإنسان أن يسمع هذه الآيات المزلزِلة بصوت مقرئ جيد، ويعيد استماعها، وينصت لها بجوارحه كلها، فإنها سوف تعيد ترتيب نفسيته من جديد، وتهزُّه هزًّا، حيث ذكر تعالى قرابة عشر مفردات متسلسِلة، لا يشعر بها السامع إلا إذا وقف عندها متأمِّلًا:

الأولى: ﴿يَوۡمَ﴾، وفيه أنه أجَّلهم وأمهلهم وأَنْظَرهم إلى ذلك اليوم، وفي كلمة: ﴿يَوۡمَ﴾ تهديد، والتنكير في اللغة من معانيه التخويف والتضخيم[3]، فهذا يوم واحد، ولكن له ما بعده!

---

(1) ينظر ما تقدم في «سورة النجم»: ﴿رَقِيبًا ۝١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 116)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 370)، و«تفسير الرازي» (29/ 292)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 476)، و«فتح القدير» (5/ 146)، و«التحرير والتنوير» (27/ 176).

(3) ينظر: «البرهان في علوم القرآن» (3/ 155)، و«الإتقان» (2/ 347).

الثانية: وَصَفَه بقوله: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾، فها هنا داعٍ يدعو من قِبل الله تعالى، ولعله إسرافيل عليه السلام، فكأنه يدعو الخلق جميعًا إلى شيء واحد[1].

الثالثة: ﴿إِلَىٰ شَيۡءٍ﴾، و﴿شَيۡءٍ﴾ هنا منكَّر، فهو مهول عظيم[2]، فلو اقتصر على قوله ﴿شَيۡءٍ﴾ لكان كافيًا ولو قيل لك: «إنه في ذلك اليوم سوف يدعو الدَّاعي إلى شيء» كان هذا كافيًا ولم يحدِّد ماهيته، بل اقتصر على وصفه بأنه ﴿شَيۡءٍ﴾ يُدعى الناس إليه.

الرابعة: ثم وصفه بأنه ﴿نُّكُرٍ﴾ أي: منكر عظيم هائل يستنكره الناس؛ لأنهم لم يعرفوه ولم يتعوَّدوا عليه ولم ينتظروه؛ ولهذا إذا بُعثوا قالوا: ﴿ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ﴾، ثم يعودون إلى أنفسهم ويقولون أو يسمعون مَن يقول لهم: ﴿إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا﴾ [يس: 52][3].

الخامسة: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي﴾ [القلم: 43]، **والخشوع** هنا تعريض بهم أنهم كانوا معرضين عن الخشوع لله تعالى في الدنيا، ففي

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 370)، و«تفسير السمعاني» (5/ 309)، و«تفسير البغوي» (4/ 322)، و«الكشاف» (4/ 432)، و«زاد المسير» (4/ 198)، و«مفاتيح الغيب» (29/ 292)، و«فتح القدير» (5/ 146).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 444)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 370)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 208)، و«تفسير القرطبي» (17/ 129)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 476)، و«التحرير والتنوير» (27/ 178).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (19/ 457- 458)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (9/ 6051)، و«تفسير البغوي» (4/ 17)، و«المحرر الوجيز» (4/ 458)، و«تفسير القرطبي» (15/ 42)، و«تفسير ابن كثير» (6/ 582).

ذلك اليوم أصبحوا خاشعين بأبصارهم، خشوع مَذَلَّة وانكسار وهوان وشعور بأن الفرصة فاتت عليهم[1].

السادسة: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ جمع: جَدَث، وهو القبر[2]، كقول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه[3]:

حتى يقولوا إذا مَرُّوا على جَدَثي: *** أرشدكَ اللهُ من غازٍ وقد رَشَدا

أن ترى الناس يخرجون من قبورهم سِراعًا بعدما نُفخت فيهم الأرواح وأذن الله تعالى بعودتهم إلى البَسِيطة؛ كما قال: ﴿أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ﴾ [النازعات: 13- 14]، أي: على ظهر الأرض أحياء بعدما كانوا في بطنها أمواتًا[4].

السابعة: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾، **والجراد**: حشرة معروفة، تطير أفواجًا، فتأتي على الحرث الأخضر واليابس.

الثامنة: وصف الجراد بأنه ﴿مُّنتَشِرٌ﴾، وقد يكون معناه من النُّشُور، تشبيهًا بالجراد الصغير الذي تخلَّق صغيرًا، فكأن الإشارة إلى أنهم خرجوا من الأرض ونُشروا إلى الأرض إلى ظاهرها، **والنُّشُور** هو: الحياة أو البعث[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 117)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 317)، و«تفسير السمعاني» (5/ 309)، و«تفسير القرطبي» (17/ 129)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 476).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 117)، و«تفسير السمعاني» (5/ 309)، و«المحرر الوجيز» (5/ 213)، و«تفسير القرطبي» (17/ 130)، و«روح البيان» (9/ 270)، و«فتح القدير» (5/ 147).

وينظر أيضًا: «كتاب فيه لغات القرآن» (ص98)، و«إعراب القرآن» للنحاس (4/ 193)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص188)، و«تاج العروس» (23/ 74) «ج د ث».

(3) ينظر: «ديوان عبد الله بن رواحة» (ص98)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (2/ 374)، و«المعجم الكبير» للطبراني (13، 14/ 377) (15011)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (4/ 359).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (24/ 74)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 543)، و«تفسير الثعلبي» (10/ 126)، و«تفسير السمعاني» (6/ 148)، و«تفسير البغوي» (5/ 207).

أو معنى ﴿مُّنتَشِرٌ﴾ أي: متفرِّق[2]، والجراد هنا يهيم على وجهه، ويضرب بعضه بعضًا، ويطأ بعضه بعضًا، وهذا من طبيعة الجراد.

وفيه إشارة إلى أنهم هائمون على وجوههم، ليس لهم وجهة معيَّنة، ولا يلتفت أحد لأحد.

التاسعة: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾، **والإِهْطاع** فيه معنى الإسراع والرَّكْض على غير بصيرة، وفيه معنى الذُّل والخضوع، **والمُهْطِع** يتَّجه ببصره صوب وجهة واحدة، لا يكاد يلتفت إلى غيرها.

والإِهْطاع لا يكون إلا مع خوف ووَجَل[3]، ومثله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ﴾ [إبراهيم: 43]، ويقال: بعير مُهْطِع، إذا مشى وقد مدَّ عنقه وصوَّب رأسه[4]!

العاشرة: ﴿إِلَى ٱلدَّاعِ﴾، فهم ذاهبون إلى جهة الصوت الذي يدعوهم أو يناديهم، غافلون عما حولهم، ومن عادة الذي يسمع صوت مستغيث أو مستنجد ويسرع إليه أنه يكون رافع الرأس، وقد يظهر مع ذلك ميل في رقبته وهو متجه إلى الصوت، كما تقول

---

(1) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 317)، و«تفسير الرازي» (29/ 293)، و«التحرير والتنوير» (27/ 179)، وما سيأتي في «سورة الملك»: ﴿ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾.

(2) ينظر: «تفسير البغوي» (4/ 322)، و«تفسير القرطبي» (20/ 165)، و«تفسير النسفي» (3/ 401)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 168)، وما سيأتي في «سورة القارعة»: ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ﴾.

(3) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص843)، و«بصائر ذوي التمييز» (5/ 330)، و«تاج العروس» (22/ 398) «هـ ط ع».

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 118)، و«تفسير الماوردي» (5/ 411)، و«تفسير السمعاني» (5/ 310)، و«تفسير القرطبي» (17/ 130)، و«اللباب في علوم الكتاب» (11/ 407)، و«فتح القدير» (5/ 147)، وما سيأتي في «سورة المعارج»: ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ﴾.

العرب: «لا يَلْوِي على شيء». أما هؤلاء فهم مقنعوا رؤوسهم مطأطئوها؛ لأنهم خائفون وجلون مكروبون[1].

الحادية عشرة: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: عسير، كما قال: ﴿إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [المدثر: 9، 10]، وفي قوله: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أن عُسْره، ليس على عامة الناس، بل هو خاصٌّ بالكافرين، أما المؤمنون فيصبهم منه ما يصيبهم، ولكن ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27][2].

* ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ٩﴾:

ينتقل السياق إلى عدد من القصص، ويسوقها مساقًا عجيبًا سريع الوَتِيرة، عظيم التأثير، بما يتضح معه أن المقصود ليس حكاية تفصيل القصص؛ بل هز القلوب الغافلة، وتحريك النفوس المعرضة، وإحداث الاعتبار والحَفْز على التفكر؛ احتجاجًا على الملأ من قريش.

﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾: إنما نسبهم إلى نوح عليه السلام- كما في سائر المواضع في الكتاب العزيز- لأن هذا أسرع في البيان والبلاغ، ولم يكن لهم اسم معين، وإنما هم قومه[3].

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 371)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 97)، و«تفسير البغوي» (4/ 323)، و«تفسير المظهري» (9/ 137).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 119)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 445)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 208)، و«تفسير الرازي» (29/ 293)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 476).

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (25/ 54)، و«اللباب في علوم الكتاب» (15/ 352)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (10/ 190)، و«التحرير والتنوير» (29/ 187).

﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾: وصفه بالعبودية، وجاء بضمير العظمة؛ تمهيدًا لذكر النجاة له وإجابة دعوته، فهو عبده الذي يستغيث به، وتمهيدًا لذكر هلاك المكذِّبين المعاندين، والغالب في القرآن الكريم أن نسبة العبيد إليه سبحانه نسبة تشريف وثناء[1].

﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾: وصفوه بالجنون، واختار الله تعالى هذا المقطع من كلامهم عن نوح عليه السلام؛ لأن المشركين في مكة كانوا يصفون النبيَّ صلى الله عليه وسلم بمثل هذا، فكأنه يقول: إن قيل لك هذا فقد قيل هذا لمَن قبلك من الرسل والأنبياء، فلا تحزن، ولا تجزع، كأنهم تواصوا به، فهي كلمة قديمة يردِّدونها[2].

﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: أنهم زجروه عليه السلام ولم يرعوا منزلته[3]، وما بعث اللهُ بعده نبيًّا إِلَّا وله مكانة في قومه[4]، ومع ذلك لم يرعوا منزلته، وإنما زجروه وهدَّدوه بالقتل وقالوا: ﴿عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [الشعراء: 116].

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 294)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 37)، و«تفسير القاسمي» (9/ 91)، وما تقدم في «سورة النجم»: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾، وما سيأتي في «سورة العلق»: ﴿ ۝٣ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ﴾.

(2) ينظر ما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢﴾، و«سورة الطور»: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ﴾.

(3) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7188)، و«تفسير البغوي» (4/ 323)، و«الكشاف» (4/ 433)، و«تفسير الرازي» (29/ 295)، و«التحرير والتنوير» (27/ 181).

(4) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**فما بعثَ اللهُ بعده نبيًّا إِلَّا في ثَرْوَةٍ من قومه**». أي: في عزَّة ومَنَعة. ينظر: «مسند أحمد» (8987)، و«الأدب المفرد» (605)، و«جامع الترمذي» (3116)، و«تفسير الطبري» (12/ 510)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (6/ 2064) (11076)، و«صحيح ابن حبان» (6207)، و«المستدرك» (2/ 561)، و«السلسلة الصحيحة» (1617).

ورُوي عن مجاهد أن قوله تعالى: ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ أي هذا من تمام قولهم له فيكون تقدير الكلام: هذا مجنون ومع جنونه قد ألَمَّ به شيء يزيده اندفاعًا وعتوًا، وقول الجمهور أقوى[1].

* ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠﴾:

ولِمَ لا يدعو ربه وهو عبده! وقد لبث هذا النبي الكريم عليه السلام في قومه ﴿أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت:14]، والسياق اختصر هذه المُدُد المتطاولة اختصارًا، فما بين تكذيبهم ووصفهم له بالجنون وما بين دعائه ﴿أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾، فهو قد صبر عليهم هذه المدة الطويلة قبل أن يدعو عليهم[2].

ولكن السياق هنا ليس لتفصيل القصة وسرد أحداثها، بل هو للتخويف والتحذير، فناسب فيه طي تفصيلات الأحداث، وإبراز الأهم منها.

وتأمَّل قوله: ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ﴾: غلبوه على الأجيال الناشئة، وحالوا بينه وبينها، ولم يمكِّنوه من الدعوة، وهدَّدوه بالرَّجْم، وإلا فهو لم يدخل معهم في حرب ولا منازلة، ولكن استأثروا بمنابر التوجيه، وسيطروا على أدوات التأثير، ولم يتركوا منقصة إلا وصَمُوهُ وأتباعَه بها، فها هو توصَّل إلى هذه النتيجة، أنه ﴿مَغۡلُوبٞ﴾، ودلَّت النصوص الأخرى على أنه لم يدع عليهم حتى أخبره ربه: ﴿أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن﴾ [هود: 36]!

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 121)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 163)، و«تفسير السمعاني» (5/ 310)، و«تفسير البغوي» (4/ 323)، و«المحرر الوجيز» (5/ 213- 214)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 476)، و«روح المعاني» (14/ 81).

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة نوح».

فأين هذا من داعية عجول متسرِّع، لم ينزل عليه وحي، ولا جاء بآية من السماء، ولعله قصير الباع في العلم والتجربة والتربية، وسرعان ما يهجم على المدعوين بالدعاء عليهم أو وصفهم بالكفر أو الضلال دون بصيرة، أو الإسراع إلى المواجهة بالقوة والعنف ضد أُناس لعلهم لم يعرفوا دعوته ولا أدركوا غايته!

وقوله: ﴿فَٱنتَصِرۡ﴾ أي: لدينك يا رب، وليس لشخصه عليه السلام[1]، ولأن نوحًا عليه السلام كان مخلصًا في دعوته، وبذل الأسباب، فإنه لم يَدْعُ عليهم إلا بعدما استفرغ الوُسع ونوَّع الأساليب.

وفي هذا درس عظيم للدُّعاة أَلَّا يستبطؤوا هداية الناس وييأسوا منهم، وأَلَّا يسارعوا إلى الدعاء عليهم، مع أن الدعاء هو التماس من الله، فمن باب أولى أَلَّا يتسرَّعوا في محاربتهم وقتالهم ومناجزتهم من أول وهلة يرون منهم فيها بغيًا أو ظلمًا.

* ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾:

كأن السماء استحالت أبوابًا، تصب الماء صبًّا كأفواه القرب[2]، وتأمَّل الاستجابة الإلهية العاجلة!

وكأن الأرض استحالت عيونًا تفيض، بل تتفجَّر.

﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ يعني: التقى الماءان: ماء السماء وماء الأرض، ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ أي: قد كُتب[1]، وربما يقول بعض علماء الأفلاك أو غيرهم: إن ذلك قد وافق نوءًا

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 310)، و«تفسير الرازي» (29/ 295)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 476)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 218).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 87)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 209)، و«تفسير البغوي» (4/ 323)، و«تفسير الرازي» (29/ 296)، و«فتح القدير» (5/ 148)، و«التحرير والتنوير» (27/ 182).

معينًا أو وافق ظرفًا خاصًّا، وأن ثمة أسبابًا أحدثت الفيضان من الأرض ونزول المطر من السماء، ومن ثَمَّ حصل الطوفان.

ولكن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ أي: قد كُتب، ونرجع هنا إلى قوله سبحانه وتعالى في أول السورة ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ﴾، حتى الأشياء التي تكون مرتَّبة ولها أسبابها الكونية لا يعني أنها عريَّة عن الحكمة الإلهية، بل هي مقصودة؛ ولهذا قال: ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾، فأين المفر وقد حق عليهم أمر الله تعالى؟

إنك حين تقرأ هذه الآيات تتمثَّل المشهد أمام ناظريك كأنك تراه، طوفانٌ عظيم بأمر خالقه، الذي إن شاء جعله عذابًا، كما في هذه القصة العظيمة، وإن شاء جعله رحمة وحفظًا، كما في قصة موسى عليه السلام التي خاطب الله فيها الماء بحفظ الأمانة، كما يفعل أحن البشر وأحرصهم: ﴿ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه: 39].

* ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣﴾:

أي: حملنا نوحًا ذلك العبد الصابر، ولم يذكر مَن معه؛ لأنه هو الدَّاعي الأعظم وهو المقصود، حملهم تعالى وحمل معهم ما تبقَى به الحياة على الأرض على «سفينة»، وتُسمَّى: «فُلْكًا» أيضًا، فهما مترادفان تقريبًا(2)، ولعله أول مَن صنع الفُلك، والله تعالى ألهمه كيف يصنعها، ولم يذكر هنا السفينة وإنما وصفها بأنها ﴿ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾.

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 106)، و«تفسير الطبري» (22/ 123)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 87)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 164)، و«تفسير البغوي» (4/ 323)، و«المحرر الوجيز» (5/ 214)، و«زاد المسير» (4/ 199)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 476).

(2) ينظر: «مختار الصحاح» (ص243)، و«لسان العرب» (10/ 479) «ف ل ك».

والألواح معروفة، وهي تُصنع من الخشب غالبًا، وجاء ذكرها في قصة موسى عليه السلام[1]، فقيل: كانت ألواحه من خشب، وقيل: كانت من حجارة[2]، والله أعلم.

أما **الدُّسُر** فهي- عند جمهور المفسرين-: المسامير، أو الروابط، من حبال أو عوارض يُشد بها بعض الألواح إلى بعض[3].

* ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤﴾:

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمَرْأى منا، فالله تعالى يراهم ويكلؤهم ويحفظهم.

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: لنوح عليه السلام الذي كفره قومه ولم يؤمنوا به[4].

* ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٥﴾:

أي: السفينة، بقيت ورأتها الأمم، حتى أوائل هذه الأمة، فقد ذكر قتادة وغيره أن السلف رأوا آثار هذه السفينة على جبل في العراق[5]، والله قال: ﴿تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا

---

(1) كما في «سورة الأعراف»: ﴿كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟﴾.

(2) ينظر: «تفسير السمعاني» (2/ 214)، و«تفسير البغوي» (2/ 223)، و«المحرر الوجيز» (2/ 452)، و«تفسير الرازي» (14/ 360)، و«تفسير القرطبي» (7/ 281).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 88)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 371)، و«تفسير الماوردي» (5/ 412)، و«تفسير القرطبي» (17/ 132)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 477)، و«التحرير والتنوير» (27/ 184).

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 179)، و«تفسير السمعاني» (5/ 311)، و«تفسير البغوي» (4/ 323)، و«الكشاف» (4/ 435)، و«تفسير القرطبي» (17/ 133)، و«التحرير والتنوير» (27/ 184).

(5) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 179)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 260)، و«تفسير الطبري» (22/ 128)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 372)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 318)، و«تفسير القرطبي» (17/ 133)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 477)، و«التحرير والتنوير» (27/ 186).

وَبِدَارًا﴾ [هود: 44]، وهو: جبل في العراق، قريبٌ من المَوْصِل، وهناك مدينة لا زالت موجودة اسمها «بَاقِرْدَى» عندها جُبيل صغير يقال إنه الجُودِي، فهي في ذلك المكان، فتركها الله سبحانه وتعالى آية[1].

ويمكن أن يكون المقصود: تركنا هذه القصة آية لَمن يعتبر، فهل من معتبرٍ متعظٍ؟ فهي دعوة للناس أن يعتبروا[2].

﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾: ﴿مُّدَّكِرٖ﴾ أصلها «مُذْتَكِر»، فأدغمت الذال في التاء، ثم قلبتا دالًا مشدَّدة لتقاربهما، وقلبت الذال دالًا لتقاربهما.

وهو ختام تكرر في السورة، وهو نوع من المناشدة، كما يقول مَن يعرض سلعته: هل من مشترٍ؟ وكما يقول الدَّاعي والسائل: هل من مجيب؟ وفيه دلالة على قلة المعتبرين[3].

* ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦﴾:

والسؤال يتكرر مع كل قصة: كيف ترى أيها القارئ أو المستمع العذاب الذي نزل بهؤلاء القوم والطوفان الذي اجتاحهم وأهلكهم[1]؟

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (2/ 283)، و«تفسير الطبري» (12/ 419)، و«تفسير السمرقندي» (2/ 152)، و«تفسير الثعلبي» (5/ 171)، و«تفسير البغوي» (2/ 451)، و«تفسير القرطبي» (9/ 41)، و«التحرير والتنوير» (27/ 186). وينظر أيضًا: «معجم البلدان» (1/ 321).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 131)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 372)، و«الوجيز» للواحدي (ص1047)، و«تفسير السمعاني» (5/ 312)، و«تفسير القرطبي» (17/ 133)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 477)، و«التفسير المظهري» (9/ 138)، و«تفسير القاسمي» (9/ 92).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 129)، و«الكشاف» (4/ 435)، و«تفسير القرطبي» (17/ 133)، و«فتح القدير» (5/ 149).

وينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 107)، و«مجاز القرآن» (2/ 240)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (1/ 432)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 88).

وهنا وحَّد «العذاب»، وجمع «النُّذُر»، فقال: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾، ولعل هذا من الرحمة؛ لأن النُّذُر التي تسبق العذاب كثيرة، والله سبحانه وتعالى لا يعاجل عباده، بل يبعث إليهم نُذُرًا كثيرة وحُجُجًا عظيمة، أما «العذاب» فكان واحدًا، ولكنه الضربة القاضية؛ فلذلك وحَّد «العذاب» وجمع «النُّذُر» قال: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾[2].

والعذاب واضح، وهو الطوفان، لكن ما سرُّ مجيء «النُّذُر» هنا؟

والجواب: أن الذي حدث هو من آثار النُّذُر، فهم قد توعّدوا بها مرارًا وتكرارًا إن لم يؤمنوا، فلم يؤمنوا، فجاءهم العذاب الذي أنذروه.

* ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾:

وهذه لازمة في السياق بعد كل قصة يُذكِّر تعالى بهذا المعنى؛ دعوة إلى الناس أن يعتبروا.

وتيسير القرآن هنا هو: تيسيره للتدبر والاتعاظ في المقام الأول، فتتلقَّاه القلوب والعقول والأسماع[3].

وهي دعوة إلى الإيمان والبحث عنه، فهو يسير قريب ممن أراده وتخلَّى عن موروثه الفاسد ومصالحه العاجلة، وهي دعوة لأن تستجيب له النفوس، وترق القلوب.

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 372)، و«تفسير السعدي» (ص825)، و«التحرير والتنوير» (27/ 187).

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 305)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 258- 259)، و«روح البيان» (9/ 273).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 130)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7190)، و«الكشاف» (4/ 435)، و«تفسير الرازي» (29/ 300)، و«تفسير النسفي» (3/ 402).

ومن التيسير: تسهيل تلاوته وحفظه، حتى يحفظه الطفل الصغير والأُمِّيُّ والأعجمي، وحتى يحفظ عامة المسلمين منه ما تصح به صلاتهم، وتطيب به حياتهم، وتعظم به أجورهم.

ومثله: تسهيل أحكامه، ومقاصده، وما يترتب على معانيه ودلالاته من الأوامر والنواهي وتفصيلات الحياة، فكان ذلك كله مما امتن الله تعالى به على هذه الأمة[1].

* ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾:

وهنا تلحظ أن الله تعالى لم يعطف عطفًا، وإنما ذكرها قصة جديدة مستأنفة، وكأنه لا علاقة لها بالتي قبلها، فكأنك في مشهد قصة جديدة منفصلة، مع ختم كل قصة بخاتمة واحدة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾؛ إشارة إلى أن كل قصة بمفردها لو لم يُذكر غيرها لكانت كافية لِمَن يعتبر، فكيف إذا اجتمعت كلها؟ ﴿ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا﴾ [يونس: 101].

ولأن السياق تهديد ووعيد كانت القصة تبدأ بذكر التكذيب؛ تحضيرًا لذكر الجزاء، وفي هذا تنبيه لقريش ومَن بعدهم أن يتداركوا الأمر قبل أن يصيبهم ما أصابهم.

ولم يقل: «كذبت قوم هود»، بخلاف ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾، والذي يظهر أن السبب هو أن اسم «عاد» معروف مشهور، أشهر من أن يُقال: «قوم هود»، وهم من العرب العاربة، وهم العرب الأولى المعروفون القريبون من ذاكرة المخاطَبين؛ ولذلك كان ذكر اسمهم الأول أدعى إلى الذهن وأبلغ تأثيرًا.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 449)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 372)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل وعجائب التأويل» (2/ 1164)، و«تفسير البغوي» (4/ 324)، و«تفسير القرطبي» (17/ 134)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 478).

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾: وهذا تعجيب من العذاب، مع أنه لم يذكره، ولعل ذلك لأنهم قريبون من أهل مكة، وهم يعرفون قصتهم[1].

* ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾:

والرِّيح نفسها حين تكون مرسلة فسوف تكون مُهلكة، فكيف إذا كانت ﴿صَرْصَرًا﴾ قوية شديدة، حتى إنه يُسمع لها صفيرٌ شديد، فهذا هو «الصَّرْصَر»، وكذلك هي شديدة البرودة، ومنه: «الرِّيح الصِّرُّ»، كما في قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران: 117][2]، ومن هذا قول العربي[3] لغلامه:

أَوْقِدْ فإنَّ الليلَ ليلٌ قرٌّ *** والرِّيحُ يا واقدُ ريحٌ صِرُّ

علَّ يرى نارَك مَن يمرُّ *** إن جَلَبَتْ ضيفًا فأنت حرُّ

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ وليس المعنى أنها في يوم واحد فحسب، كلا؛ فإن الله تعالى ذكر أن عذابهم كان في أيام، فقال: ﴿لَكُمْ عَن شَيْءٍ﴾ [فصلت: 16]، وقال: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [الحاقة: 7]، والجمع بينهما- والله أعلم- أن ذكر اليوم إشارة لبداية العذاب، ولذلك ذكر ﴿مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ مما يدل على أن بداية

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 301)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 253)، و«التحرير والتنوير» (27/ 191).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 180)، و«تفسير الطبري» (22/ 132)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7191)، و«تفسير الماوردي» (5/ 414)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 479)، و«روح البيان» (9/ 274)، و«التحرير والتنوير» (27/ 192).

(3) ينظر: «العقد الفريد» (1/ 242)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» (3/ 208) منسوبًا إلى حاتم الطائي.

الرِّيح كانت في النهار، وذكر اليوم يدل على أن الرِّيح استمرت فلم تتوقف، فكأن الأيام يوم واحد، وعلى وَتِيرة واحدة لم تتغيَّر، ولذا وصفه بأنه ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾[1].

والنحس إنما يكون من فعل الإنسان، وليس من شأن اليوم.

وهذا دليل على أن وصف ﴿يَوْمِ﴾بأنه ﴿نَحْسٍ﴾ لا يعتبر من سبِّ الدَّهْر، كما قد يظن بعضهم، بل هو وصف للحال التي تصيب الناس.

واعتقاد أن هذا اليوم كان «يوم أربعاء» اعتمادًا على حديث: «**آخِرُ أربعاء من الشهر يومُ نحسٍ مستمر**». اعتقاد باطل ولو كان هذا اليوم بعينه يوم نحس لكانت أيام الأسبوع كلها أيام نحس؛ لأن الله تعالى سخَّرها عليهم ثمانية أيام، فيكون كل الأسبوع كذلك! والحديث موضوع[2].

والذي نعتقده هو أن الحياة كلها نحس على المأسور بالجهل والتشاؤم والإحباط واليأس المنقطع عن الله سبحانه، وإلا فليس في الأيام شيء نحس في نفسه، والتَّطَيُّر من عمل الجاهلية.

ولله در القائل[3]:

أَلَا إنما الأيامُ أبناءُ واحدٍ *** وهَذِي الليالي كلُّها أَخواتُ

الأيام كلها كأنها أبناء رجل واحد، والليالي كأنها أخوات، فلا فرق بين ليلة وليلة، **أيام السعد**: تلك الأيام التي أحسن الإنسان توظيفها واستمتع بها، **وأيام**

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة الحاقة».

(2) ينظر: «الموضوعات» لابن الجوزي (2/ 73)، و«السلسلة الضعيفة» (1581).

(3) ينظر: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (15/ 450)، و«زهر الأكم في الأمثال والحكم» (1/ 333) منسوبًا إلى أبي العلاء المَعَرِّي.

النحس: تلك التي أخطأ الإنسان فيها أو عصى أو تشاءم أو انقطع وصله بحبل الله سبحانه أو نظر بسوء ظن إلى الحياة، والله تعالى يقول: «**أنا عند ظَنِّ عَبْدي بِي**»[1].

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾: **والمستمر**: وصفٌ للنَّحْس، أي: دائم، أو: شديدٌ وقويٌّ[2].

* ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾:

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾: فالرِّيح مرسلة إلى الناس، ليست إلى النَّخل أو المباني، فيصبح الرجل الطويل الشديد مطروحًا ساقطًا بلا حراك، كأنما هو عَجُز نخلة خاوٍ!

وأنت حين تسمع كلمة ﴿تَنزِعُ﴾ تعرف أن هؤلاء ليسوا ناسًا عاديين، فإن الله تعالى أعطاهم قوة في أبدانهم وبَسْطة؛ فكأن هذه الرِّيح تنزع شيئًا متأصِّلًا متجذِّرًا في الأرض.

وقد ورد أنهم لما رأوا الرِّيح شرعوا يدفنون أنفسهم في الأرض، فتنزعهم منها نزعًا، ثم ترميهم على ظهرها ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، وفي «سورة الحاقة»: ﴿وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن﴾[3].

وكل ما كان الفارق فيه بين المفرد والجمع هو تاء التأنيث، فإنه يجوز تذكيره وتأنيثه، مثل: «شجر، وشجرة»، فيُذكَّر باعتبار اللفظ، ويؤنَّث باعتبار المعنى[1]، فهنا قال: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، وفي الموضع الآخر قال: ﴿أَن يَكْبَرُواْ﴾.

---

(1) أخرجه البخاري (7405)، ومسلم (2675) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 89)، و«تفسير القشيري» (3/ 497)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 210)، و«تفسير البغوي» (4/ 324)، و«تفسير القرطبي» (17/ 135)، و«تفسير النسفي» (3/ 403)، و«تفسير القاسمي» (9/ 92).

(3) ينظر: «الكشاف» (4/ 436)، و«المحرر الوجيز» (5/ 216)، و«تفسير القرطبي» (17/ 136)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 42)، و«التحرير والتنوير» (27/ 194).

وأعجازُ النخل هي: أواخر النخل ونهايتها، والأليق بوصف العجز هو طرف النخلة من جهة الأرض، وهو يناسب النزع، فكأنما أحدهم نخلة قلعت من أسفلها.

ويجوز أن يكون المعنى: قطع النخل من أعلاه، وانفصال أغصانه وعسبه عنه، وهذا يشعر بأن رؤوسهم فارقت أجسادهم بسبب الضربات الشديدة الموجعة، فتراهم على الأرض صرعى.

* ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾:

يعيد السؤال مرة أخرى بعدما عرفت العذاب، ورأيته أصابهم، وشاهدت هؤلاء الأشدَّاء كيف صاروا كالنَّخل الطوال المُلقى على الأرض[2].

* ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾:

وكان بإمكانهم أن يتجنَّبوا مثل هذا المصير إذا أَصْغَوْا وأصاخوا لداعي الله سبحانه وتعالى.

* ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾:

فصَّل الله في شأن ﴿ثَمُودُ﴾؛ لأنهم يُشبهون قريشًا فيما قالوه من استنكافهم، وقولهم: كيف نتبع شخصًا واحدًا هو منا ومثلنا لا يتميَّز علينا بشيء ﴿إِنَّا إِذًا﴾ إن اتَّبعناه وأطعناه ﴿لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾[3]، **فالضلال** في عقولهم، **والسُّعُر** إما أن يكون

---

(1) ينظر: «شرح المُفَصَّل» لابن يعيش (3/ 382)، و«تفسير القرطبي» (17/ 137)، و«فتح القدير» (5/ 151)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (13/ 298).

(2) ينظر: «الوجيز» للواحدي (ص1047)، و«تفسير البغوي» (4/ 324)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 324)، و«فتح القدير» (5/ 151)، و«التحرير والتنوير» (27/ 194).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 139)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7195)، و«التحرير والتنوير» (27/ 216)، والمصادر الآتية.

الجنون، فإن من معاني المسعور: المجنون، ولذلك يقال: «ناقة مَسْعُورة»، إذا كانت تمشي بسرعة، ومن غير انتظام، أصابها سُعار[1].

ويمكن أن يكون المقصود بالسُّعُر: النار، سواء كان مقصودهم نار الدنيا أو نار الآخرة، فهو شبيه بقول قريش: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: 57][2].

* ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾: استفهام استنكاري منهم، كيف يختص من بيننا بالرسالة[3]؟ ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾: وصفوه بالمبالغة في الكذب، فما قالوا: «كاذب»، بل ﴿كَذَّابٌ﴾ على صيغة المبالغة الدالة على كثرة الكذب، فهو يكرِّر الكذب ويُكثر منه[4]، و﴿أَشِرٌ﴾ فيه الأَشَر والبَطَر والكِبْر، **هذا أصح المعاني**[5]، فادَّعْوا أنه مع الكذب بَطِر متكبِّر متعاظم معجبٌ بذاته؛ ولهذا ادَّعى النبوة، وهو فعل ذلك ليكون سيِّدًا أو زعيمًا علينا.

---

(1) ينظر: «تهذيب اللغة» (2/ 53) «س ع ر»، و«تفسير القرطبي» (17/ 138)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 451)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 373)، و«تفسير الماوردي» (5/ 415)، و«زاد المسير» (4/ 201)، و«تفسير القرطبي» (17/ 138).

(3) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 320)، و«تفسير القرطبي» (17/ 138)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 43)، و«فتح القدير» (5/ 151)، و«التحرير والتنوير» (27/ 197).

(4) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 308)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 479)، والمصادر السابقة.

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 140)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 373)، و«تفسير البغوي» (4/ 325)، و«تفسير الرازي» (29/ 308)، و«التحرير والتنوير» (27/ 198).

هكذا واجهوا نبيَّهم، مع أن الرسل الذين يختارهم الله عز وجل معروفون بالصدق والوضوح في سيرتهم وسلوكهم وأقوالهم وأفعالهم، مجبولون على التواضع والانكسار، ولم يكن أحد منهم يترقَّب الرسالة ولا يستشرف لها، كما قال عن محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ① وَءَاتُواْ﴾ [القصص: 86]، وكما فوجئ موسى عليه السلام بالخطاب الإلهي دون انتظار: ﴿مِّنۡهُ نَفۡسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ④﴾ [الدخان: 32][1]، و﴿أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافًا﴾ [الأنعام: 124]، فالرسل عليهم السلام أناس متميِّزون بمكانتهم في قومهم، وبسعة عقولهم وعلمهم وصدقهم وأخلاقهم، ويتميَّزون بصفاء نفوسهم وقلوبهم، حتى قبل الرسالة، فضلًا عما يكون بعدها.

ولذا قال تعالى تأديبًا وتأنيبًا وتهديدًا: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾[2].

والسياق يتحدَّث عن الغد، ويستعمل حرف السين الدال على المستقبل، وفيه إلماح لما سوف يصيب قريشًا وكل المكذِّبين المجترئين على الرسل، إن لم يرعووا ويندموا ويتداركوا يومهم قبل غدهم، ولأن ردَّهم كان سفهًا لا طائل من ورائه ولا حجة فيه كان مناسبًا أن يقابَل بالتهديد في الآية، ورد الأمر عليهم فيما نسبوه إلى النبي عليه السلام، فهم أولى به، ولكنه ترك الأمر مرسلًا مفتوحًا محتملًا في الظاهر، فلم يقل: «هم الكاذبون»...!

* ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ㉗ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ㉘﴾:

قد طلبوا منه آية، فأخرج الله تعالى لهم من عرض الجبل ناقة، فكانت آية بينة، ولذا قال: ﴿فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ﴾ أي: ستكون سببًا في الاختلاف بينهم ما بين مؤمن وكافر،

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة المزمل»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ﴾، وأول «سورة العلق».

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 308)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 479).

وستكون سببًا في هلاكهم[1]، ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾ أي: ارقبهم وأَنْظِرهم، و«ارتَقِبْ» أبلغ من «ارقب»، ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ أي: اصبر، ولكنه أبلغ، بالغ في الصبر والانتظار ولا تعجل عليهم[2].

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: بينهم وبين الناقة، فكانت تشرب من الماء يومًا، وهم يشربون منه يومًا، وربما كانت خلقًا عظيمًا، فإذا جاءت إلى الماء نفرت مواشيهم فلم تشرب منه، فأمرهم صالح عليه السلام أن يكون الشِّرْب يومًا للناقة ويومًا لهم، فاختلفوا في ذلك وأصبحت بعض قبائلهم يقولون لبعض لا تشربوا في يومنا لأن يومكم هو اليوم الذي تشرب فيه الناقة، اذهبوا واطردوها واشربوا الماء، فوقع بسبب ذلك اختلاف عندهم.

﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ يعني: يشرب هؤلاء الناس اليوم، وتشرب الناقة غدًا، ويحضر هؤلاء لشربهم، وتحضر الناقة لشربها، ولا يجوز لهم أن يشربوا في يوم الناقة[3].

* ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ٢٩﴾:

﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ﴾: ضجروا من هذه القسمة، وأجمعوا أمرهم على عَقْر الناقة، ولكنهم تهيَّبوا أن يباشروا ذلك، فعمدوا إلى صاحب لهم مشهور بالجرأة والطيش والعجلة، ومن طبيعته مباشرة المهمات التي يتردَّد الناس فيها دون مبالاة، وليس

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 141)، و«تفسير الرازي» (29/ 310)، و«روح البيان» (9/ 277)، و«التحرير والتنوير» (27/ 199).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 142)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 321)، و«تفسير البغوي» (4/ 325)، و«تفسير القرطبي» (17/ 140)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 479)، و«روح البيان» (9/ 277)، و«التحرير والتنوير» (27/ 200).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 143)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 452- 453)، و«زاد المسير» (4/ 201)، و«تفسير الرازي» (29/ 310)، و«تفسير القرطبي» (17/ 141)، والمصادر السابقة.

شخصًا عاديًّا، بل هو زعيم في قومه، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**انبعثَ لها رجلٌ عَزِيزٌ عارِمٌ، مَنِيعٌ في رَهْطه، مثلُ أبي زَمْعَةَ**»[1]. واسم هذا الرجل: قُدَار بن سالِف، وفي وصفه بـ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ إشارة إلى أن العمل لم يكن مبادرة فردية، بل عمل جماعي تواطؤوا عليه وإن باشره واحد منهم[2].

﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾: إما أن يكون المعنى: تعاطى السلاح، أو تعاطى الكلام معهم، ووصل إلى هذه النتيجة، أو تعاطى هذه المهمة، فعَقَر الناقة، فرماها بسهم فقتلها[3].

* ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾: أعاد السؤال هنا قبل العذاب، ويلاحظ أنه في هذه القصة ذكره مرتين، قبل العذاب وبعده[4].

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾: فأُهلكوا بالصيحة، وماتوا عن آخرهم؛ فأصبحوا مثل الهَشِيم الذي تذروه الرياح، كبقايا التبن والأشياء اليابسة،

---

(1) أخرجه البخاري (4942)، ومسلم (2855) من حديث عبد الله بن زَمْعة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 453)، و«تفسير القرطبي» (17/ 141)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 479)، و«التحرير والتنوير» (27/ 201).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 143)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 374)، و«تفسير الماوردي» (5/ 416)، و«الكشاف» (4/ 438)، و«تفسير الرازي» (29/ 311)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 167)، و«تفسير النسفي» (3/ 404)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 172).

(4) ينظر: «ملاك التأويل» (2/ 459- 460)، والمصادر السابقة والآتية.

والمحتظر هو الذي يبني حِظارًا، أي: بناءً من القَشِّ، فيبقى من القَشِّ بقية مبثوثة في الأرض بعد استعماله في البناء[1].

أو يكون المقصود: هَشِيم الحِظار الذي تسقطه الريح، ومع الوقت يسقط مثلما يسقط من الجدار بعض الرمل أو الطين، هؤلاء الناس بقوا في الزوايا مثل هَشِيم المحتظر الذي وطئته الأقدام؛ إشارة إلى تفاهتهم وأنه لا يعبأ بهم أحدٌ[2].

* ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾:

لم يذكر فعلتهم، فالمقام يستدعي طيَّها والاختصار والعناية بنوع العذاب الذي نزل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحًا ترميهم بالحصباء، أو: المقصود الحجارة التي أنزلت عليهم[3].

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾: وآل لوط: هم أسرته الذين آمنوا معه، ﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [الحجر: 60]، فقد أصابها ما أصابهم[4].

﴿نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ أي: قبل الفجر؛ لأن العذاب سوف يباغت قومه صباحًا[5].

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 168)، و«تفسير البغوي» (4/ 325)، و«تفسير القرطبي» (17/ 142)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 480)، و«فتح القدير» (5/ 153)، و«التحرير والتنوير» (27/ 203).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 374)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 321)، و«تفسير القاسمي» (9/ 93)، و«التحرير والتنوير» (27/ 203).

(3) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 168)، و«تفسير الماوردي» (5/ 417- 418)، و«تفسير البغوي» (4/ 326)، و«تفسير القرطبي» (17/ 143).

(4) ينظر: «تفسير البغوي» (4/ 326)، و«زاد المسير» (4/ 201)، و«تفسير الخازن» (4/ 221)، و«روح البيان» (9/ 280).

(5) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 418)، و«تفسير الرازي» (29/ 314)، و«تفسير الجلالين» (ص707)، و«التحرير والتنوير» (27/ 204).

* ﴿ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ٣٦ ﴾:

أي: على لوط ومَن معه، فلوط عليه السلام أنذر قومه بطشة الله سبحانه، وهذا مناسب لقوله تعالى تهديدًا لقريش: ﴿ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان: 16]، **والبَطْش** هو: الأخذ القوي الشديد بغضب وانتقام، ولم يقل: «بطشنا»، بل عبَّر بالمفرد: ﴿بَطۡشَتَنَا﴾، فإنها كانت واحدة، لم يستدع الأمر أكثر منها، فهي بالغة المنتهى في قوتها وشدتها وأخذها[1].

﴿فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ مع أن الرسول أنذرهم وذكَّرهم أنها بشطة الله القوي القادر، إلا أنهم جادلوا وشكَّكوا وأنكروا[2].

* ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧ ﴾:

﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾ من الملائكة[3]، **والمراودة تعني**: أن يريد المرء الشيء مرة بعد أخرى على سبيل الإلحاح في الطلب، وغالبًا ما تكون في سياق الفاحشة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن﴾ [يوسف: 23][4].

---

(1) ينظر: «الوجيز» للواحدي (ص1049)، و«تفسير الرازي» (29/ 315)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 221)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 173)، و«روح المعاني» (14/ 90).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 149)، و«تفسير القرطبي» (17/ 144)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 46)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 480)، و«فتح القدير» (5/ 153).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 91)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 375)، و«تفسير الماوردي» (5/ 418)، و«تفسير القرطبي» (17/ 144)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 325)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 480)، و«فتح القدير» (5/ 153).

(4) ينظر: «الكشاف» (2/ 454)، و«تفسير النسفي» (2/ 102)، و«البحر المحيط في التفسير» (6/ 256)، و«تفسير النيسابوري» (4/ 77)، و«روح البيان» (4/ 234)، و«التفسير المظهري» (5/ 152)، و«فتح القدير» (3/ 20)، و«التحرير والتنوير» (27/ 206).

﴿ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾: **الطمس** هنا يحتمل أن يكون الله تعالى أعماهم أو سوَّى أعينهم بوجوههم، وكأن عيونهم مُحيت وطُمست، أو يكون المعنى أن الله تعالى غطَّى عليهم بحيث لم يروا هؤلاء الرسل.

وقد نُقل الوجهان عن ابن عباس رضي الله عنهما، **والأقرب** أن الله تعالى ذهب بأبصارهم، وذهبوا لا يعرفون الباب حتى أخرجهم لوط عليه السلام من بيته[1].

﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ فكانت هذه بداية العذاب، ولذا كرَّر الأمر بعد نزول العذاب العام.

* ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ ﴾:

أي: صبَّح القوم كلهم هذا العذاب، إلا لوط عليه السلام ومَن خرج معه، **والعذاب المستقر** هو: العذاب اللازم اللازب الذي لا يغادرهم ولا يفارقهم، وكأن العذاب الأول بطمس الأعين مقدِّمة وليس هو العذاب الذي أنذرهم إياه رسولهم عليه السلام[2].

* ﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ ﴾:

وعبَّر بالذَّوْق، من باب السخرية والتنكيل بهم[3].

* ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 149)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7201)، و«تفسير البغوي» (4/ 326)، و«المحرر الوجيز» (5/ 219)، و«التحرير والتنوير» (27/ 205).

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 318)، و«فتح القدير» (5/ 154)، و«التحرير والتنوير» (27/ 207)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 216).

هذه القصص هي من تيسير القرآن، ففيها آيات وعبر يستدل الناس بها على الطريق، ومن تيسير الله للذكر أن يكون القرآن بهذه البلاغة والتجانس في المعاني والآيات، أو التقابل والتشاكل؛ ليسهل فهمه وحفظه وتدبره، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: 23].

* ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾:

بدأ قصة فرعون بذكر النُّذُر؛ لأن موسى عليه السلام بُعث إلى فرعون وهامان وقارون بالإنذار والتحذير، ثم أتاهم بالآيات التسع العظيمة، ومنها: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الأعراف: 133]. ومنها: اليد والعصا، والسِّنين ونقص الثمرات، والطاعون، وهو الرِّجْز، والله أعلم[1].

ومَن كذَّب بآية فكأنما كذَّب بجميع الآيات، **فالمقصود** أن كل آية ترد عليهم حقيقة وجَدِيرة بالتصديق، ولكنهم يكذِّبون بها، ثم إنهم قد يتردَّدون أو يخافون أو يعدون موسى بالإيمان والتصديق، فإذا رُفع البأس عنهم نكلوا وعادوا لما كانوا عليه، كما بيَّنت ذلك «سورة الأعراف»، و«سورة الزخرف»: ﴿وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [الزخرف:49].

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ فأخذهم الله أخذ قوي قادر، وأهلكهم هلاكًا عامًّا شديدًا يناسب قوتهم وطغيانهم واغترارهم بالجنود والأعوان.

* ثم عقَّب على ذلك كله بالمقصد من السياق فقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 169)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7203)، و«تفسير السمعاني» (5/ 317)، و«تفسير الخازن» (4/ 221)، و«فتح القدير» (5/ 154)، و«التحرير والتنوير» (16/ 242).

وهو خطاب لكفار قريش: هل كفاركم المعاصرون خير من أولئك الناس الذين أهلكهم سبحانه، فلا يستحقون العقوبة كما استحقها أولئك؟

كلا، ليسوا خيرًا منهم وقد كفروا بأفضل الرُّسل وخاتم الأنبياء، وجحدوا القرآن الذي هو أعظم الآيات وأتم الحجج[1].

﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ هل عندكم من الله تعالى كتاب أو ميثاق يجعلكم بمأمن ألَّا يصيبكم ما أصابهم[2]؟!

* ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ٤٤﴾:

أم يحتجون بأنهم جماعة وقبائل، وأن اجتماعهم سيكون سببًا لنصرتهم[3]؟

* ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾:

وهذا وعيد في المستقبل القريب، وهو إشارة إلى أنه إذا كان إهلاك الأمم السابقة بالاستئصال؛ فإهلاك الناس بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم يكون وفق النواميس والسنن، كما قال سبحانه: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: 14].

والسورة مكية؛ لأن ذلك وعد أُنجز وعده في معركة بدر؛ ولذلك ورد أن عمر رضي الله عنه قال لما نزلت: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ جعلتُ أقولُ: أيُّ جمع

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 183)، و«تفسير الطبري» (22/ 154)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 169)، و«تفسير البغوي» (4/ 326)، و«تفسير القرطبي» (17/ 145)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 481)، و«التحرير والتنوير» (27/ 210).

(2) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 213)، و«تفسير السمعاني» (5/ 317)، و«تفسير الخازن» (4/ 221)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7204)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 481)، و«التحرير والتنوير» (27/ 212)، والمصادر السابقة.

سيُهزم؟ فلم يكن يعرف تأويل هذه الآية حتى رآه بعينه في معركة بدر، ورأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو يتلو هذه الآية ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[1].

* ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾:

الساعة- في لغة القرآن والسنة-: يوم القيامة، وورد هذا الاستعمال في مئات المواضع، سُمِّيت بذلك لتوقيتها وسرعتها، والله أعلم[2].

والمعنى: أنه لم ينته الأمر عند عذاب الدنيا، بل لهم موعد لا يتخلَّفون عنه، ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي: أشد وأعظم[3]، وقوله: ﴿أَدْهَىٰ﴾ من الدَّاهية، إذا دهاه، أي: أصابه أمر عظيم، ﴿وَأَمَرُّ﴾ يعني: أشد مرارة، أو أشد قوة، فعذاب الآخرة أشدُّ وأبقى وأهول وأطول[4].

* ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾:

---

(1) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (3/ 261)، وابن سعد (2/ 22)، والطبري في «تفسيره» (22/ 157)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (3829).

وأصله في «صحيح البخاري» (4875). وينظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (3/ 391)، و«فتح الباري» (8/ 619).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 184)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7204)، و«اللباب» (18/ 278)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (4/ 154)، و«التفسير القرآني للقرآن» (14/ 646).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 92)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 457)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 376)، و«تفسير السمعاني» (5/ 318)، و«تفسير القاسمي» (9/ 95).

(4) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 170)، و«تفسير الماوردي» (5/ 419)، و«تفسير البغوي» (4/ 327)، و«تفسير القرطبي» (17/ 146)، و«تفسير الخازن» (4/ 221)، و«فتح القدير» (5/ 155)، و«التحرير والتنوير» (27/ 214).

﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ في الدنيا، ﴿وَسُعُرٍ﴾ في الآخرة، جمع: سَعِير، وهو: النار[1].

* ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾:

أي تسحبهم الملائكة، وهذا بعض العذاب، وهو إهانة لهم أن يُسحبوا على وجوههم في النار، فليس ثَمَّ عذاب ولا هوان يحيط بهم أشد وأعظم منه، ومع هذا يُبَكَّتون ويُوَبَّخون، ويُقال لهم: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ على سبيل السخرية بهم، و﴿سَقَرَ﴾: اسم من أسماء النار، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [المدثر: 26 - 30][2].

* ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾:

إنهم جاحدون معرضون، قد امتلأت قلوبهم كِبْرًا وعنادًا، وامتلأت حياتهم ظُلْمًا وبغيًا وعدوانًا، وتمحَّضوا للشر، فمهما جاءتهم الآيات والحجج والقصص.. فهي لا تزيدهم إلا طغيانًا، وحين يسمعون هذا الوعيد البليغ، فإنهم يصدون عنه، ويسألون سؤال الساخر المستهزئ: أليس الله بقادرٍ على منعنا من الشرك والكفر؟ ويقولون: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: 148][3]، فردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 451)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 376)، و«تفسير البغوي» (4/ 327)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 168)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 325)، و«تفسير القاسمي» (9/ 96)، و«التحرير والتنوير» (27/ 216).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 184)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 323)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (13/ 334)، و«التحرير والتنوير» (27/ 216).

(3) وفي «صحيح مسلم» (2656) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء مشركو قريش يخاصمون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في القدر، فَنَزَلَتْ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾». وينظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص401).

وهذه من الآيات الدالة على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، وهو من أركان الإيمان: أن تؤمن بالقدر خيره وشره، فهو الركن السادس منها(1)، وقوله سبحانه: ﴿ خَلَقْنَهُ ﴾ الإشارة إلى أن كل الأشياء خلقها الله تعالى، فـ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر: 62]، والخلق من القدر، فإن الله تعالى هو الخالق، وهذه مرتبة من مراتب القدر، وقوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ من معانيه: خلقناه بتقدير لا يزيد ولا ينقص، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ﴾ [الطلاق: 3]، وقال: ﴿ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾ [الفرقان: 2]، والآجال معروفة، وكل شيء له نواميس وسنن وأسباب، وكل شيء مكتوب عند الله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم ﴾ [يس: 12]، فالكتابة هي من مراتب القدر أيضًا(2).

والقدر سرٌّ الله تعالى في الأرض، وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ﴾ جانب الإلهية الذي لا يدركه البشر، ولا بد من التسليم والإيمان بالله الخالق الذي كل شيء بإرادته، ولا يقع شيء إلا بعلمه سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [الأنعام: 107]، والقدر لا ينافي إرادة الإنسان ولا يصادرها، فليس أحد يشعر بأن ثمة قوة غيبية تجبره على شيء هو لا يريده، أنا أريد أن أتكلَّم فأتكلَّم، وأريد أن أحمل القلم فأحمله، وأريد أن أضعه فأضعه، وأريد أن أشرب أو آكل شيئًا يلذ لي، أو أقوم أو أقعد فافعل ذلك كله، وأنا مسؤول عنه، ولو أن أحدًا قهرني على ما لا أريد وأجبرني عليه لكانت التبعة مرفوعة عنِّي، وكان هو المسؤول عن فعلي القَسْري الذي لا اختيار لي فيه البتة.

(1) أركان الإيمان: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرِّه. وينظر ما تقدم في «سورة الحجرات»: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا...﴾ [الحجرات: 14].

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 160)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7206)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 326)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 482)، و«تفسير القاسمي» (9/ 96)، و«التحرير والتنوير» (27/ 217).

فالمكلَّف يشعر بداخله بأن ثمة مشيئة خاصة به تتيح له مساحة واسعة من الاختيارات مما يحب وما يكره، وبناءً على هذا الاختيار البشري يحاسب، فيكافأ أو يعاقب أو يجازى، فأهل الجنة يقال لهم: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾ [الطور: 19]، وأهل النار يقال لهم: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 14]، فلم يعاقبوا على ما لم يذنبوه.

فالقدر ليس حجة تسوِّغ فعل المعصية وركوب الضلال وتنكب الصراط، ولا حجة للفاشلين والجاهلين والمتخلِّفين بالقدر، فهم لم يحاولوا الأمر ولم يعالجوه، ولا تعاطوا أسبابه فأخفقوا.

لماذا يكون الجهل والفقر والمرض «قدرًا»، ولا يكون العلم والسعي والتخطيط «قدرًا» كذلك؟!

إن من أعظم الأخطاء توظيف القضاء والقدر للاحتجاج به على المعايب وعلى الذنوب وعلى الأخطاء، وإنما القضاء والقدر يُحتج به- كما يقول العلماء- في المصائب، لا في المعايب[1].

ومعنى ذلك: أن المرء إذا أُصيب بموت قريب، أو شيء خارج عن إرادته، فله أن يحتج بالقدر: ﴿مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ﴾ [التغابن: 11]، أما أن نجعل القضاء والقدر تكأة نهرب إليه من مواجهة مسؤولياتنا التي كلَّفنا تعالى بها، فهذا تشبُّه بالمشركين، ولو كان العبد مجبورًا جبرية مطلقة على الفعل لم يكن للأمر الشرعي ولا للنهي معنى؛ فالتكليف دليل على أن الإنسان قادر على ذلك، مختار مستطيع أن يفعل أو لا يفعل، فهذه من الأشياء التي ينبغي على الإنسان أن يرعاها بصورة جيدة، وألَّا يجعل مسألة القضاء والقدر سببًا في قعوده عن العمل، أو تأخره، أو كثرة التفكير والجدل حولها، بما لا طائل تحته!

(1) ينظر: «مجموع الفتاوى» (3/ 123)، و«شفاء العليل» (ص18).

* ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾:

فالله تعالى على كل شيء قدير، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82]، وقوله: ﴿وَٰحِدَةٞ﴾ أي: كلمة واحدة، وهي ﴿وَقُولُوا۟﴾[1].

﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ ومن ذلك: الساعة التي ذكرها هنا؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿٤ وَلَا تُؤۡتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [النحل: 77]، يعني: بل هو أقرب من لمح البصر، فلما يقول: ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ أي: مثلما تغمض عينك وتفتحها، أو تلمح بسرعة، فهكذا يقع أمر الله سبحانه، فهو أقرب من ذلك، ولكن هذا لتقريب الأمر إلى عقولنا[2].

* ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٥١﴾:

أي: أهلكنا الذين من قبلكم، أفلا تعتبرون بهلاكهم؟! وسماهم: أشياعًا؛ لأنهم مثلهم في الجهل والضلال والإعراض[3].

* ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢﴾:

أي: مكتوب ﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾، و﴿ٱلزُّبُرِ﴾ جمع: زَبُور، والزَّبْر- بفتح الزاي وسكون الباء-: الكتابة، فكل ما فعلوه مكتوب عنده سبحانه مُحْصَى: ﴿نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾[1].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 163)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 377)، و«تفسير الرازي» (29/ 327)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 486)، و«تفسير السعدي» (ص828).

(2) ينظر: «تفسير يحيى بن سلام» (1/ 78)، و«تفسير السمرقندي» (2/ 284)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (2/ 412)، و«تفسير البغوي» (3/ 89)، و«البحر المحيط في التفسير» (6/ 573).

(3) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 184)، و«تفسير الطبري» (22/ 163)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 173)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 216)، و«تفسير السمعاني» (5/ 320)، و«تفسير البغوي» (4/ 330)، و«تفسير القرطبي» (17/ 149)، و«فتح القدير» (5/ 155).

* ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ ﴾:

أي: مسطور مكتوب، صغيرًا كان أو كبيرًا، من أحوال الأمم والأفراد، والحركة، والنظرة، **إلا اللَّغو** الذي ليس فيه حساب ولا تكذيب، ولا ثواب ولا عقاب(2).

والله تعالى يذكر هذه الأشياء ليس من أجل أن نتجادل، ما معنى مكتوب؟ وأين؟ وما هذا الكتاب؟ وما شكله؟ وما لونه؟ وهل هي كتابة حقيقية مثل الكتابة التي نعقلها نحن أم شيء مختلف؟

هذا غيب عند الله سبحانه، والمقصود أن يكون في قلوبنا يقظة ﴿نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [المؤمنون: 115]، فكل شيء مكتوب، وحين تستحضر هذه الحقيقة الغيبية فإنك تكون على نفسك رقيبًا تحجزها عن التعدِّي باللِّسان أو الجوارح.

إنها قيمة عظيمة للإنسان أن تكون أعماله كلها مكتوبة مَحْصيَّة عليه، وإذا كان الناس يستميتون لأن يُكتب عنهم في التاريخ- ولو سطر أو سطور- فكيف يغفلون عن أنهم مكتوبون بالتفصيل في كتاب حافظ، لا تزوير فيه ولا تردد، و﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ﴾ [الكهف: 49]، ويُنشر بين الخلق ﴿إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [المعارج: 4]، والصالح البار يعرضه ويقول: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا﴾ [الحاقة: 19]،

(1) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 216)، و«تفسير القرطبي» (17/ 149)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 326)، و«تفسير ابن كثير» (6/ 163)، و«التحرير والتنوير» (27/ 224).

وينظر أيضًا: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 92)، و«الزاهر في معاني كلمات الناس» (1/ 74)، و«تهذيب اللغة» (13/ 135)، و«مختار الصحاح» (ص134).

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 420)، و«تفسير السمعاني» (5/ 320)، و«تفسير القاسمي» (9/ 97)، و«التحرير والتنوير» (27/ 224).

والفاجر الشارد يتأوّه ويقول: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم ﴾ [الحاقة: 25 -26].

* ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾:

ختم تعالى بهذا الختام العظيم الرائع، والآية وإن جاءت بـ﴿جَنَّاتٍ﴾ بصيغة الجمع، ﴿وَنَهَرٍ﴾ بصيغة المفرد، إلا أن المقصود الجنس، أي: وأنهار، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [البقرة: 25][1].

فعندهم المآكل والمشارب من الجنَّات والأنهار، وعندهم الأُنس والفرح الذي لا ينقطع في مقعد الصدق، وهذا وعد الصدق، والله تعالى صادق لا يخلف الميعاد، والذين قعدوا هذا المقعد هم الصادقون، ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة: 119]، ﴿ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ [الأحقاف: 16].

فالصدق خُلق نبيل نَفِيس، يريد الله سبحانه وتعالى ممن ينتظرون هذا المقعد أن يتحلَّوا به: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: 119][2].

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 111)، و«مجاز القرآن» (2/ 241)، و«تفسير الطبري» (22/ 166)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 173)، و«الوجيز» للواحدي (ص1051)، و«تفسير السمعاني» (5/ 320)، و«تفسير البغوي» (4/ 330)، و«تفسير القرطبي» (17/ 149).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 167)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 174)، و«تفسير الماوردي» (5/ 421)، و«تفسير القشيري» (3/ 501)، و«تفسير السمعاني» (5/ 321)، و«تفسير البغوي» (4/ 330)، و«المحرر الوجيز» (5/ 222).

سورة الرحمن

* تسمية السورة:

تُسَمَّى: «**سورة** ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾» في المصاحف، وكتب السنة، والتفسير، وجاء هذا مرفوعًا في غير ما حديث[1].

وسمَّاها السُّيوطي، وغيره: «عروس القرآن»[2]، وقد جاء في ذلك حديث عند البيهقي[3]، وعلى القول بصحته فهذا وصف للسورة وبيان لفضلها، وليس اسمًا؛ ولذا لم يذكره المعنيون بأسماء السور[4].

* **عدد آياتها:** ثمان وسبعون آية، أو سبع وسبعون؛ باعتبار أن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ عند بعضهم لا تُعدُّ آية مستقلة، أو ست وسبعون آية؛ باعتبار أنهم مختلفون في عدد من

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 112)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 265)، و«صحيح البخاري» (6/ 144)، و«جامع الترمذي» (5/ 252)، و«السنن الكبرى» للنسائي (10/ 285)، و«تفسير الطبري» (22/ 168)، و«تفسير القرطبي» (17/ 151)، وما تقدم في «سورة الفاتحة».

(2) ينظر: «مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور» (3/ 44)، و«نظم الدرر في تناسب الآي والسور» (19/ 139)، و«الإتقان» (1/ 195).

(3) أخرجه الثعلبي في «تفسيره» (9/ 176)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (2265) من حديث علي رضي الله عنه، وعدَّه الفيروز آبادي من المنكرات التي وردت في فضل السورة. ينظر: «بصائر ذوي التمييز» (1/ 449)، و«فيض القدير» (5/ 286)، و«السلسلة الضعيفة» (1350).

(4) ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 227)، والمصادر السابقة.

الآيات فصلًا ووصلًا، كآية: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ﴾ هل هي آية أم آيتان، ثلاثة أقوال لعلماء العدِّ[1].

* **وهي مكية** على الراجح[2].

وقد قيل في سبب نزولها: أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يعقد مع المشركين صلح الحُدَيْبِيَة قال لعلي رضي الله عنه: **اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم**». فقال سُهيل بن عمرو: أما «الرحمنُ» فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهمَّ، كما كنتَ تكتبُ. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**اكتب: باسمك اللهمَّ**». ونزلت هذه السورة[3].

فعلى هذا تكون مدنية، **ولكن الراجح أن السورة مكية**، ولا يلزم أن يكون لها سبب نزول خاص، لكن العرب كانوا لا يعرفون هذا الاسم في الجاهلية.

وأقرب من ذلك أن يكون نزول السورة جوابًا على استنكارهم لعبادة الله الرحمن، كما في «سورة الفرقان»: ﴿فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [الفرقان: 60]، فجاء الجواب: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾.

---

(1) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص237)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص310)، و«روح البيان» (9/ 288).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 223)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 345)، و«مصاعد النظر» (3/ 44)، و«الإتقان» (1/ 49)، و«روح المعاني» (14/ 96)، و«التحرير والتنوير» (27/ 228).

(3) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 223)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 54)، و«التحرير والتنوير» (27/ 228).

وقصة صلح الحُدَيْبِيَة أخرجها البخاري (2731) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنهما، ومسلم (1784) من حديث أنس رضي الله عنه.

وقد ورد أن ابن مسعود رضي الله عنه قرأ هذه السورة في مكة عند الكعبة، فضربوه وكادوا يقتلونه[1].

وهذا من العجب، فالنفوس المليئة بالظلمة لا تطيق الحديث عن الرحمة ومتعلَّقاتها، وتكاد تسطو بالذين يتلون عليها آيات الله الرحمن الرحيم.

* ومن لطائف الكتاب العزيز أن تكون سورة كاملة تسمى بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وأن يختار الله تعالى هذا الاسم ليجعله افتتاحًا لها، وهو اسم يتضمَّن صفة الرحمة، ولا يُسَمَّى به غير الله عز وجل، بخلاف بقية الأسماء، كالرَّحيم، أو العزيز، أو الحَكِيم، فإنه قد يُوصف بها بعض العباد، أما ﴿ٱللَّهَ﴾ و﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فلا يُسمَّى بهما إلا الله عز وجل ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ [الإسراء: 110][2].

هذا التخصيص فيه كثير من الإيحاءات والمعاني: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: 54]، التعرُّف إلى الله تعالى برحمته، الطمع في رحمته، الشعور برحمته في كل ما حولنا، انتظار رحمته، وهو يقول: «**أنا عندَ ظَنِّ عبدي بي، فليظُنَّ بي ما شاءَ**»[3]. فلنظن بربنا الرَّحمن الرَّحيم أن يسرع إلينا بالخير، وأن يفيض علينا من جُوده

---

(1) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (1/ 314)، و«فضائل الصحابة» لأحمد (1535)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 176)، و«تفسير القرطبي» (17/ 151)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 290)، و«مصاعد النظر» (3/ 48)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (4/ 156).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة الفاتحة».

(3) أخرجه أحمد (16016)، وابن حبان (633)، والحاكم (4/ 240) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري (7405)، ومسلم (2675) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، دون قوله: «**فليَظُنَّ بي ما شاءَ**».

وبركته ورحمته، وأن يعفو عن ذنوبنا، وأن يستر عيوبنا، وأن يصلح أحوالنا، وأن يجمع شملنا، وأن يعلِّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علَّمنا.

إن التعرف إليه سبحانه من بوابة الرحمة، فيه معنى جميل، وهو لا ينافي الخوف؛ ولهذا تضمَّنت السورة الكريمة تلك الآية العظيمة، وهي قوله سبحانه: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا﴾.

* ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١﴾:

ها هنا كلمة وآية واسم ومبتدأ وخبر، يمتلأ بها الفم نطقًا، والعقل تألهًا، والرُّوح إشراقًا، والقلب إخباتًا.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: الرحمة صفته، وفعله، وشأنه، وخلقه، وشرعه.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: الذي وسعت رحمته كل شيء، وسبقت رحمته غضبه، وبرحمته يتراحم العباد والدَّواب والبهائم والطير والوحش والجن والإنس.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: الذي خلق مئة رحمة، أنزل منها رحمةً في الدنيا، تشمل كل مظاهر اللُّطْف والفضل والعطف، وادَّخر منها تسعًا وتسعين ليوم الحساب، ولم يرد هذا الوصف والتعداد لشيء آخر من صفاته، فجدير بقارئ القرآن أن يقف طويلًا عند تخصيص هذه السورة وهذا الاسم؛ ليدرك طرفًا من أهميته ومركزيته في معرفة الله والتقرب إليه والدعوة إلى دينه وفتح الأبواب لخلقه.

استفتاح بديع يمكِّن القارئ من إفراد الآية الأولى بنَفَس خاص، ومد الميم، والوقوف على النون؛ لتكون الكلمة مستغنية بذاتها عن كل إضافة، وليأتي بعدها إسناد المجد والحمد والفضل لصاحب الاسم الشريف العظيم المحمود الممدوح.

* ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾:

وهذا أول ما نعت به نفسه، وهو يربط القرآن بالرحمة، فهو رحمة وشفاء للعقول والقلوب والأبدان، للأفراد والجماعات والأمم، رحمة عامة وخاصة، عاجلة وآجلة، ظاهرة وباطنة، فمَن أقبل عليه ظفر، ومَن أعرض عنه حُرم.

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ بأن أعطى آدمَ عليه السلام وذريته القدرات والعقول والمواهب والمَلَكات اللُّغوية والعقلية على الفهم والتفكير والنطق.

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ بأن أنزل الوحي على رسله وأنبيائه عليهم السلام، وختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأيَّدهم بالكتب، وختمها بكتابه العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾، فهو تأسيس وتفريع، وتأكيد للنبوة عامة، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة، وامتنان وفضل.

يدخل فيه معرفة الحروف والألفاظ والتجويد، ومعرفة المعاني والدلالات والأسرار بما يتفاوت الناس فيه تفاوت ما بين السماء والأرض.

ويدخل فيه تيسيره للذكر والتلاوة والفهم والعمل والدعوة، وهو خبر ووعد بأن يظل القرآن حيًّا في نفوس أهله ممن اختارهم الله، فلا يزال فيهم من يعلِّم القرآن ويتعلَّمه ويدعو إليه ويهتدي به، ويهدي إليه، وينشر رحمته في العالمين.

* ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾:

فهو الخالق سبحانه، وهذه من نعمه وآلائه، وهذا الخلق منطلق من الرحمة، ولذا بدأ بـ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

خَلْق الإنسان رحمة، وهذا يُحسب للتصور الإسلامي؛ ففي كثير من عقائد الشعوب يتصورن الآلهة الأُسطورية الوثنية تطاردهم وتلاحقهم وتحاربهم وتمنعهم من العلم والمعرفة، في حين يقرِّر القرآن اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أولًا ليخبر عنه بأنه

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾، **والبيان** يشمل الفهم والعقل واللغة؛ لأنه لا قيمة للبيان إذا كان مجرد كلمات وحروف بلا معنى[1].

فمن تعليم البيان: أن يُعطي الإنسان العقل الذي يُفكِّر ويبدع المعاني والتعبير عنها، وأن يزوِّده بمَلَكات الإبداع والتخيل والقياس والنظر والتحليل والتساؤل والاكتشاف.

ومن تعليم البيان: وضع اللغات، وإلهام الإنسان اللغة؛ ليعبِّر بها عما يريد[2].

ولذلك يشعر الأصم بنقص كبير بالقياس إلى القادر على الكلام، فالكلام نعمة إبداعية عظيمة، وسبب للتواصل بين الناس، وأداة للتفاهم والتعاون على البر والتقوى والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وبه ينعقد البيع والشراء والنكاح وسائر العقود والمواثيق، حتى الحرب أولها كلام.

وكما أن السورة أُسِّست بذكر اسم ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾، وثنَّت بتعليمه القرآن، فقد أُسِّست مرة أخرى بخَلْق الإنسان، وثنَّت بتعليمه البيان؛ ليكون دليلًا على أن البيان وما يتعلق به من العقل والإنسانية والفهم هو أعظم نعمة وجودية، ولا تتم هذه النعمة إلا بتعلم القرآن وتدبره واتِّباعه.

* ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير التستري» (ص159)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 378)، و«تفسير الماوردي» (5/ 423)، و«اللباب» (18/ 294)، و«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» (7/ 269).

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 177)، و«تفسير البغوي» (4/ 330)، و«تفسير القرطبي» (17/ 152)، و«تفسير الخازن» (4/ 225).

السورة سورة الآلاء والنِّعَم، ولذلك بدأت بتعليم القرآن قبل خلق الإنسان؛ إشارة إلى أن الإنسان خُلق لعبادة الله، وانتقل إلى الحديث عن نِعَم في الكون، وبدأ بهذه الأجرام الضخمة التي يراها الناس ويحسون أثرها.

وقوله: ﴿بِحُسۡبَانٖ﴾ أي: بحساب[1]؛ فإن للشمس في طلوعها وغروبها حسابًا، وللقمر حسابًا يعرفه المختصون، ويعرفه الذين يحتاجون إلى ذلك، فهو بحساب لا يزيد ولا ينقص، ولا يتقدَّم ولا يتأخَّر.

وفي الآية إشارة إلى الكون المضبوط بنواميس دقيقة يدركها الإنسان بعقله وتجربته، والقرآن هو الهادي والحادي والمحفِّز إلى النظر والتفكير والتأمل والكشف.

* ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦﴾:

النجم هي: النجوم المعروفة[2]، ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم:1]، **والشجر** معروف، أخبر عنهما بأنهما ﴿يَسۡجُدَانِ﴾، وهذا فيه معنى السجود لله؛ لأنها تطيع الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44]، فكلها تسجد لله، والكون يسبِّح له، فليكن الإنسان منسجمًا مع هذا الكون في عبوديته وسجوده، ولا يشذ فيعصي ويخالف.

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 112)، و«معاني القرآن» للزجاج (3/ 289)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 378)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 325)، و«تفسير القرطبي» (17/ 153)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 489).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 174)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 379)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7213)، و«تفسير الماوردي» (5/ 424)، و«تفسير القرطبي» (17/ 154)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 489)، و«التحرير والتنوير» (27/ 236).

ويجوز أن يكون المقصود بالنجم هنا: النبات الصغير الملتصق بالأرض، **والشجر** هو: الشجر الذي له ساق[1].

ولك أن تتخيَّل هذا الشجر وذلك النبت والزرع يؤدِّي واجب الشكر والسجود للخالق المُنعم جلَّ وعزَّ، أليس خَلِيقًا بالإنسان الذي أُوتي مشاعر وعقلًا أن يكون كذلك؟!

وفي الآية تناسب مع خلق الإنسان وتعليمه البيان؛ لأن البيان ومتعلِّقاته يدل على العقل والتفكير والاختيار الممنوح للإنسان، والذي بمقتضاه حصل التكليف وترتَّب الإيمان والكفر، فناسب أن يذكر المخلوقات الأخرى الشريكة له في الوجود والخلق، والمنفردة بالتسخير، حيث تطع الله وتمضي وفق ناموسه ساجدة لا تتردَّد.. أفيجدر بالإنسان المميِّز المكلَّف أن يكون أقل مرتبة منها؟!

* ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾:

وهنا تناسب بين رفع السماء والناس يرونها، وبين وضع الميزان.

والميزان يجوز أن يكون هو الآلة التي يزن الناس بها الأشياء[2].

ويجوز أن يكون المقصود بالميزان العدل نفسه[3]، وهو الأولى؛ لأن الميزان ليس سوى آلة العدل.

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 265)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 96)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 463)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 379)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 178)، و«تفسير الماوردي» (5/ 424)، و«تفسير البغوي» (4/ 331)، و«زاد المسير» (4/ 206)، و«تفسير القرطبي» (17/ 154).

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص636)، و«تفسير الطبري» (22/ 177)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 490)، و«التحرير والتنوير» (27/ 238)، والمصادر السابقة.

ولك أن تفكِّر: ما سر المزاوجة بين السماء والميزان؟ لتدرك أن السماء رُفعت بالحقِّ والعدل أيضًا، فبالعدل قامت السماوات والأرض، فالسياق إذًا حديث عن عدالة الله الكونية القدرية، وعن عدالة الإنسان التي ائتُمن عليها وكُلِّف بها.

إن وضع «الميزان» في الأرض مقابل «رفع السماء»، وأن عدالة الأرض دنيوية عابرة يعتريها ظلم الإنسان وجَوْره وأنانيته، ويقابلها الآخرة والميزان القِسْط: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [الأنبياء: 47].

* ﴿ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩﴾:

فأمرهم أن يَعْدِلوا، فلا يزيدوا ولا ينقصوا، فقال: ﴿ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴾ يعني: بالزيادة، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ يعني: بالعدل، ﴿ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ بالنقص؛ ولهذا قال سبحانه ﴿ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ ٣﴾ [المطففين:1- 3]، **أمرهم بالعدل الذي يكون في كل شيء**:

العدل في المشاعر، فلا يبالغ المرء في الحب، فيعميه ذلك عن العيوب والأخطاء، ولا يبالغ في البغض مبالغة تعميه عن الحسنات والفضائل، وإنما «أَحْبِبْ حبيبَك هَوْنًا ما؛ عسى أن يكون بَغِيْضَكَ يومًا ما، وأَبْغِضْ بَغِيْضَكَ هَوْنًا ما؛ عسى أن يكون حَبِيْبَكَ يومًا ما»، كما قال عليٌّ رضي الله عنه، ويُروى مرفوعًا، والموقوف أصح[1].

والعدل في الحكم على العدو؛ ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: 8]، والحكم على الصديق، فلا يحابيه ولا يجامله: ﴿

---

(1) أخرجه موقوفًا: ابن أبي شيبة (35876)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (484)، والبخاري في «الأدب المفرد» (1321)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (6168).

وأخرجه مرفوعًا: الترمذي (1997)، والطبراني في «الأوسط» (3395)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (739). وينظر: «علل الدارقطني» (8/ 110)، و«العلل المتناهية» (2/ 248).

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا﴾ [النساء: 105]، وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: 135].

العدل مع النفس ومع الآخرين، العدل في القول والفعل، العدل في الأخذ والترك، العدل في العطاء والمنع، العدل في الأخلاق والموازين والمواقف، ولذا قيل: إن العدل مطلوب في كل حال، وفي كل وقت، ولكل أحد، فلا يوجد حالة يتخلَّف فيها العدل، حتى الحرب والعداوة والبغضاء..

ومن دلالة الميزان ومعناه: التوازن في إعطاء الأشياء قدرها، فقد ﴿تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ﴾ [الطلاق: 3]، وأكثر ما يواجه الناس عدم القدرة على معرفة «فقه المقادير»، دون مبالغة وإسراف، فثَمَّ مَن يتَّجه للعلم، فيهمل العبادة، أو يتَّجه للعبادة، فيهمل الدنيا، أو يهتم بأولاده وأسرته وزوجته، فيهمل عمله، أو يهتم بعمله على حساب صحته، أو يهتم بالصحة على حساب العمل والإنجاز، أو يهمل جانبًا ما كالسياسة، أو ينغمس فيها دون حساب، أو يختلط بالناس فيكثر، أو يباعدهم فينعزل.

والقدرة على الانضباط والتوازن بين المتقابلات لا تتأَّتى بين يوم وليلة، بل هي محاولة دائمة متراكمة يصل بها المرء إلى مقاربة العدل والوسط الخيار، كما في حديث: **«سدِّدوا، وقاربوا، واغْدُوا ورُوحوا، وشيءٌ من الدُّلْجة، والقصدَ القصدَ تبلغوا»**[1].

وهذا جزء من معاني قوله سبحانه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي نقوله في كل ركعة، وعلى مدى الحياة، فأنت على صراط مستقيم، لكن هناك ما هو أكثر دقة وأكثر استقامة مما أنت فيه، وقد يبدو للإنسان أنه منضبط متوازن، وقد أَعْطَى كلَّ شيء حقَّه،

---

(1) أخرجه البخاري (6463)، ومسلم (2816) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري (6464، 6467)، ومسلم (2818) من حديث عائشة رضي الله عنها نحوه.

فأعطى العلم حقَّه، والعبادة حقَّها، والدنيا حقَّها، والآخرة حقَّها، والوالدين حقَّهما، والزوجة حقَّها، والعمل حقَّه، وقد يكون ذلك صحيحًا، ولكن بعد تجارب يكتشف أن ثمة مستوى من الميزان والانضباط والتوازن أفضل وأحسن مما هو فيه، وهذا يجعل المؤمن مستغرقًا في تطوير ذاته وتحسين أدائه حتى آخر لحظة: ﴿كَبِيرًا ٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا﴾ [الحجر:99].

* ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠﴾:

لا يوجد في القرآن الكريم لفظ: «الأنام» إلا في هذا الموضع، وكثير من علماء اللغة لم يذكروا كلمة «الأنام».

وقد اختلفوا في المقصود بها: فقيل: الأحياء، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما[1].

وأجود منه- وهو مروي عن ابن عباس أيضًا وغيره-: أنهم البشر، وسياق الآية يرجِّحه؛ لأنه في مقام الامتنان والاعتناء بالبشر، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29][2].

وهذا يشبه دعاء إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فقال له ربه سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ [البقرة: 126]، فمتاع الحياة الدنيا لا يختص به المسلم دون غيره، والأرض لله تعالى ﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ للبشر كلهم.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 180)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 178)، و«زاد المسير» (4/ 206)، و«فتح القدير» (5/ 162)، و«التحرير والتنوير» (27/ 241).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 465)، و«تفسير الماوردي» (5/ 425)، و«المحرر الوجيز» (5/ 225)، و«تفسير القرطبي» (17/ 155)، و«التحرير والتنوير» (27/ 241)، والمصادر السابقة.

إنها دعوة إلى التعايش بين البشر، وألَّا يتزاحموا، بل يتراحموا، فالأرض تتَّسع لهم جميعًا، أحياءً وأمواتًا، ولهم فيها معايش ومنافع، وقد سلك الله لهم فيها سُبُلًا وطرائق في الضرب والانتفاع.

* ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١﴾:

وضع تعالى الأرض وأودع فيها ما يكفل للناس غذاءهم ومصالحهم.

والفاكهة مفرد، يعني: الفواكه، وهي: الثمار النباتية التي تُؤكل عادة دون طبخ، كالتفاح والبرتقال، وإنما ذكرها تعالى هنا على سبيل أن ما فوقها مما تقوم به الحياة موجود؛ لأنها تُؤكل تفكُّهًا وتلذُّذًا، فوجود الضروري أولى، وفي الفواكه منافع صحية جمة مما امتن تعالى به علينا، ولذلك ذكر وجوده في الجنة.

﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾: **النخل** من الفاكهة، بل هي سيدة الفواكه، ووصفها بـ﴿ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ إشارة إلى الجانب الجمالي فيها، وهي الأوعية التي يكون فيها الطلع، ومفردها: كِم، بكسر الكاف، والجمع: أكمام[1].

يُروى أن قيصرَ ملكَ الرُّوم كتبَ إلى عمرَ رضي الله عنه: إن رُسُلي أتتني من قِبَلك، فزعمتْ أن قِبَلَكم شجرةً ليست بخَلِيقة لشيء من الخير، يخرجُ مثلُ آذان الحميرِ، ثم تَشَقَّقُ عن مثل اللُّؤْلؤ، ثم يخضرُّ فيكونُ مثلَ الزُّمُرُّد الأخضر، ثم يحمرُّ فيكونُ كالياقوت الأحمر، ثم ينضجُ فيكونُ كأطيب فالُوذَج يُؤكَلُ، ثم تَشَقَّقُ فتيبسُ فتكونُ عصمةً للمقيم، وزادًا للمسافر، فإن تكن رُسلي صدقتني، فلا أرى هذه الشجرةَ إِلَّا من شجر الجنة.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 181)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 178)، و«تفسير البغوي» (4/ 331)، و«تفسير الرازي» (29/ 345)، و«التحرير والتنوير» (27/ 242).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص436)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص726)، و«معترك الأقران في إعجاز القرآن» (2/ 20).

فكتبَ إليه عمرُ رضي الله عنه: «من عَبد الله عُمَرَ أمير المؤمنين إلى قيصرَ ملك الرُّوم: إن رُسلكَ قد صَدَقَتْكَ؛ هذه الشجرةُ عندنا التي أنبتها اللهُ عز وجل على مريمَ عليها السلام حتى نَفَسَتْ بعيسى ابنها، فاتَّقِ اللهَ عز وجل ولا تتَّخذ عيسى إلَهًا من دون الله عز وجل، فـ﴿نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ۝٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ [آل عمران: 60]»[1].

وذكر ﴿ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ هو إشارة أيضًا إلى الجانب المنفعي الجوهري في النخل، حيث هي الثمرة التي تطلع كل سنة مرة، فتكون قوتًا للناس سنتهم كلها.

* ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢﴾:

﴿وَٱلۡحَبُّ﴾: كثير الأصناف، كالرُّز والشَّعير والحِنطة وغيرها مما يُدَّخر ويقوم عليه غذاءُ الناس، عبر العصور وعبر القارات.

و﴿ٱلۡعَصۡفِ﴾: الأعواد التي تُكوِّن أشجار الحبوب، وكذلك الورق الذي يبس، ثم يكون طعامًا للحيوانات أو تبنًا[2]، فهذا ملمح جميل أن يذكِّرنا تعالى بالحَبِّ الذي نأكله والعصف الذي يكون طعامًا لأنعامنا، كقوله: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ﴾ [النازعات: 33، عبس: 32].

والمتاع المادي ليس خاصًّا بالإنسان، بل يشاركه فيه الحيوان، فخَلِيق بالعاقل أن يبحث عما يميِّزه من العقل والعلم، والعبودية لله سبحانه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾.

---

(1) أخرجه ابن المقرئ في «معجمه» (182) عن الشعبي. وينظر: «تفسير ابن كثير» (7/ 490)، و«الدر المنثور» (10/ 61).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 183)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 97)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 465)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 179)، و«تفسير الماوردي» (5/ 426)، و«تفسير القرطبي» (17/ 156)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 490- 491)، و«التحرير والتنوير» (27/ 242)، وما سيأتي في «سورة النازعات»، و«سورة عبس».

﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ معطوف على «الحَب» عند الجمهور، فيكون معناه مستقلًّا، وأنه من ضمن ما امتن الله به على البشر مما خلقه في الأرض.

وفي قراءة سبعية يُقرأ مجرورًا، معطوفًا على ﴿ٱلۡعَصۡفِ﴾: ﴿وَٱلرَّيۡحَانِ﴾[1]، فيكون تقدير الكلام: والحبُّ ذو العَصْف وذو الرَّيْحانِ[2].

والرَّيْحان معروف، وهو الورد ذو الرائحة الطيبة[3]، ولذلك سمي الرَّيْحان، وهو أنواع، منه: الأصفر والأبيض والأحمر، يمتن تعالى على الناس بهذا الشجر الذي لا يُؤكل، ولكن يبعث الرائحة الطيبة الزَّكية، فالجمال والمتعة بالمنظر أو المسمع أو الرائحة الطيبة مقصد إلهي في الكون، ولهذا أمرنا تعالى أن ننظر في الكون ونتملَّى ما بثه فيه من جمال في نجومه وكواكبه وشمسه وقمره وأشجاره وجباله...، فالحسن مقصد إلهي في الخلق وتربية الناس على ملاحظته وإدراكه والاستمتاع به سواء كان مُشْتَمًّا كما في الريحان أو كان مسموعًا أو مرئيًا فإن ذلك من كمال شكر الإنسان لنعمة الله، وهو استجابة لغريزة فطرية تتطلب الإشباع والجور عليها تأهيل لتدمير الإنسان والحياة.

* ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾:

هذه الكلمة العظيمة تكرَّرت في «سورة الرحمن» إحدى وثلاثين مرة بعد كل نعمة لله تعالى.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 188- 189)، و«السبعة في القراءات» (ص619)، و«معاني القراءات» للأزهري (3/ 44)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص206)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 380)، و«التحرير والتنوير» (27/ 242)، و«معجم القراءات» (9/ 252).

(2) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص338)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 245)، و«حجة القراءات» (ص690).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 186)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 179)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 218)، و«تفسير السمعاني» (5/ 324)، و«تفسير البغوي» (4/ 332)، و«تفسير القرطبي» (17/ 157)، و«التحرير والتنوير» (27/ 242).

وقد ورد أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه، فقرأَ عليهم «سورةَ الرحمنِ» من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: «**لقد قرأتُها على الجنِّ ليلةَ الجنِّ، فكانوا أحسنَ مردُودًا منكم، كنتُ كُلَّما أتيتُ على قوله:** ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ **قالوا: لا بشيء من نعمكَ ربَّنا نكذِّبُ فلك الحمدُ**»[1].

والخطاب في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لمثنى، والجمهور على أنه للإنس والجن[2]، وقلَّما يخاطب تعالى الجن مع الإنس، والأكثر في الخطاب أن يأتي الجن تبعًا، وفي هذه السورة كان لهم خطاب خاص مباشر، ولعلَّ الله أراد التذكير بأنهم من سائر عباد الله المأمورين بعبادته وطاعته سبحانه، فكيف تظنون أنهم شركاء لله في ألوهيته، وهم عبيد مخاطبون مربوبون، وليس لهم من الأمر شيء، ولذلك كانوا مشمولين بالخطاب، بأي آلاء الله تعالى ونعمه تكذبون يا معشر الجن والإنس؟

---

(1) أخرجه الترمذي (3291)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (69)، وأبو الشيخ في «العظمة» (5/ 1666)، والحاكم (2/ 473)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (2264، 4103) من حديث جابر رضي الله عنه.

وتكلموا فيه من أجل: زُهير بن محمد المَرْوَزي، قال الترمذي: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم، عن زُهير بن محمد، قال ابن حنبل: كأن زُهير بن محمد الذي وقع بالشام ليس هو الذي يُروى عنه بالعراق، كأنه رجل آخر قلبوا اسمه. يعني: لما يروون عنه من المناكير.

وسمعتُ محمدَ بنَ إسماعيل البخاري يقول: أهل الشام يروون عن زُهير بن محمد مناكير، وأهل العراق يروون عنه أحاديث مقاربة».

وقال العقيلي في «الضعفاء» (2/ 335): «فيه نظر». وقال ابن عدي في «الكامل» (4/ 179): «وهذه الأحاديث لزُهير بن محمد فيها بعض النُّكْرة». وذكره الذهبي في «الميزان» (2/ 85) من منكرات زُهير، وأورده في «تاريخ الإسلام» (1/ 201) وقال: «زُهير ضعيف». وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2150).

(2) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 196)، و«تفسير الطبري» (22/ 189)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 380)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 327)، و«تفسير البغوي» (4/ 332)، و«زاد المسير» (4/ 207)، و«تفسير القرطبي» (17/ 158)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 491).

وقال بعضهم: إن الخطاب للرجال والنساء، أو للمكذِّبين والمؤمنين[1]، والصحيح قول الجمهور: أن الخطاب للجن والإنس.

* ويؤكِّد هذا أنه ذكر خلق الإنسان والجان فقال: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦﴾:

والمقصود بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾: أصل خلق آدم عليه السلام[2].

فإذا قلت: إن الإنسان مخلوق من ﴿صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾، فذلك باعتبار خلق آدم، وتستطيع أن تقول: إنه مخلوق من ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ﴾ [الحجر: 26]، أو مخلوق من طين، أو مخلوق من تراب، وكل هذه صياغات وردت في القرآن الكريم، ولا اختلاف بينها[3]، وهي مراحل تكوينية مر فيها ذلك التمثال المسجَّى على الأرض، حتى استوى لحمًا ودمًا وعظمًا، ونُفخت فيه الروح[4].

والصَّلْصال هو الطين اليابس الذي يكون له صوت وصلصلة[5]، فيُسمَّى: طينًا، ويُسمَّى: صَلْصالًا، ويُسمَّى: ترابًا.

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 243).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 191)، و«تفسير الماوردي» (5/ 428)، و«فتح القدير» (5/ 161)، و«التحرير والتنوير» (27/ 245).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 98)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 467)، و«تفسير السمعاني» (5/ 324)، و«تفسير القرطبي» (17/ 160- 161).

(4) ينظر ما سيأتي في «سورة الإنسان»: ﴿قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ﴾.

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 191)، و«تفسير السمعاني» (5/ 324)، و«الكشاف» (4/ 445)، و«فتح القدير» (5/ 161)، و«التحرير والتنوير» (27/ 245).

وقوله: ﴿كَالْفَخَّارِ﴾: الفخار هو الطين المطبوخ، والذي يُسمَّى: الخزف، فهذا الطين الذي خُلق منه آدم عليه السلام كان يابسًا، وكأنه مطبوخ يشبه الفخَّار، وكأن خلق الإنسان من الطين تأهيل لعمارة الأرض وبنائها، وتربية على التواضع ومباعدة العنصرية، فكلهم بنو الأرض يطؤونها بأقدامهم، فكيف يتعالَى بعضهم على بعض، وهو تدريب على الترقِّي في معارج الكمال كما ترقَّى الإنسان في الخلق الأول؛ من تراب، إلى طين، إلى صَلْصال، إلى حَمأ مسنون، إلى جسد وروح.

والمارج هو: اللَّهب الصافي الذي ينقطع من النار في نهايتها وأعلاها[1]، فهو مخلوق من النار، ومن مارجها على وجه التخصيص، ولذا فهو لا ينتسب إلى جنس هذه الأرض، كما أن من صفة النار الطيش والعجلة.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ﴾:

أي: مشرق الشتاء والصيف ومغرب الشتاء والصيف[2]، وهو رب ﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِى﴾ [المعارج: 40]، فإن للشمس كل يوم مشرقًا ومغربًا يختلف عما قبله باعتبار اختلاف المطالع، ويعرف هذا المتخصِّصون، وفي ذلك إشارة إلى الحسبان الذي للشمس، وإلى تعدد المطالع، وإلى الامتنان على الناس في خلق هذه الأجرام التي من الممكن أن تكون سببًا في العذاب عليهم، فالشمس كتلة من اللَّهب، ويوم القيامة تدنو

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 197)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 468)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7219)، و«تفسير البغوي» (4/ 333)، و«تفسير الرازي» (29/ 349)، و«تفسير القرطبي» (17/ 161)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 492).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص637)، و«تفسير الطبري» (22/ 197)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 99)، و«تفسير البغوي» (4/ 333)، و«فتح القدير» (5/ 161)، و«التحرير والتنوير» (27/ 247).

من الناس حتى يلجمهم العرق إِلْجامًا[1]، ولكن الله تعالى سخرَّها لخلقه بحيث ينتفع الناس والحيوان والنبات بها دون ضير.

* ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾:

أي: أرسل البحرين[2]، **والمقصود**: البحار المتصل بعضها ببعض، وهذا المعنى اختاره بعض المفسرين[3].

والأصوب أن المقصود: البحر المالح والبحر العذب[4]، أي: البحر والنهر، فالله تعالى يرسل الأنهار إلى البحار لتصب فيها، كنهر النيل ودِجْلة والفُرات، ومع ذلك فبينهما برزخ إلهي بسنة التمايز يحول دون امتزاجهما، فلا البحر المالح يتحوَّل إلى عذب، ولا العذب يتحوَّل إلى مالح، وكلٌّ له خصائصه التي لا تمتزج بخصائص الآخر.

ويحتمل أن يشمل المعنى البحار المالحة التي تلتقي مع اختلافها، مثل التقاء المحيطات بالبحار العظيمة، ففي أماكن الالتقاء يوجد حدٌّ يكون به نهاية البحر وبداية

---

(1) كما في «صحيح مسلم» (2864) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**تُدْنَى الشمسُ يومَ القيامة من الخلق، حتى تكونَ منهم كمقدار مِيلٍ**». قال سُليمُ بنُ عامر- راوي الحديث عن المقداد رضي الله عنه- : فوالله ما أدري ما يعني بالمِيل، أمسافة الأرض، أم المِيل الذي تُكْتَحل به العينُ؟- قال: «**فيكونُ الناسُ على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم مَن يكونُ إلى كعبيه، ومنهم مَن يكونُ إلى ركبتيه، ومنهم مَن يكونُ إلى حَقْوَيْهِ، ومنهم مَن يُلْجِمُهُ العرقُ إِلْجامًا**». وأشار رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى فِيهِ، وينظر ما سيأتي في «سورة الحديد»: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم...﴾ [الحديد:12].

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 199)، و«الكشاف» (4/ 445)، و«فتح القدير» (5/ 161)، و«تفسير القاسمي» (9/ 104)، و«التحرير والتنوير» (27/ 248).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 249).

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 197)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 100)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 469)، و«تفسير الرازي» (29/ 350)، و«تفسير القرطبي» (17/ 162)، و«فتح القدير» (5/ 161)، و«التحرير والتنوير» (27/ 248).

المحيط، فلا يبغى أحدهما على الآخر، فهذا من حكمته سبحانه، لا بشيء من آلائك ربنا نكذِّب، فلك الحمد!

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾:

يخرج من البحرين معًا أو من أحدهما، كما في قوله سبحانه: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ [الأنعام: 130]، والرُّسل إنما يأتون من الإنس، فعليه يكون المعنى أن اللُّؤلُؤ والمَرْجان يخرجان من البحر المالح فحسب.

وقيل: إنهما يخرجان من البحر الحلو أيضًا، وقال بعضهم: إن الصَّدَف الذي يكون فيه اللُّؤلُؤ يتكون من المطر وهو من الماء العذب.

والأولى حمل الآية على ظاهرها، ويؤيِّده: قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [فاطر: 12]، فهذا نص على أن الحلية تخرج من كلا البحرين، وفي بعض الأنهار تُوجد اللآلئ، وكذلك الألماس والياقوت يوجدان في الرواسب النهرية، وقد تحدَّث عدد من المختصين عن وجود اللُّؤلُؤ وغيره من المعادن الكريمة في البحار والأنهار، وهذا هو الأقرب للصواب والأكثر تماشيًا مع وضوح النص القرآني المحكم، والله أعلم.

* ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾:

﴿وَلَا﴾ جمع: جارية، وهي السفن ﴿تَتَبَدَّلُواْ﴾[1]، وفي قراءة سبعية: ﴿ٱلۡمُنشِئَاتُ﴾[1]، أي: أنشأت السير في عرض البحر.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 210)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 382)، و«تفسير الرازي» (29/ 353)، و«تفسير القرطبي» (17/ 164)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 172)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 493)، و«التحرير التنوير» (27/ 351).

والأعلام هي: الجبال الشواهق، يشاهدها الناس من بعيد[2].

ويرتسم لخيال القارئ صورة السفن كالشاخصة أمام ناظريه تمخر عُباب البحر، ولكنها تشبه الجبل الرَّاسي الثابت بعظمتها وشموخها!

* ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾: وهذه من الآيات التي تجري على ألسنة الناس كثيرًا، والحق الذي ليس فيه امتراء أن مصير المخلوقات إلى فناء وموت، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، يبقى الله تعالى الحيُّ القيوم الذي لا يموت؛ لأن وجوده قائم بذاته، بخلاف البشر فوجودهم فضل من ربهم الذي خلق الإنسان.

وفي قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا﴾ إشارة إلى أن الإنسان بقدر قُربه من الله وعمله الذي يريد به وجه الله يتحقَّق له النعيم والخلود، فالذي يريد الخلود في الدنيا بحيث تصبح الدقيقة عمرًا طويلًا بالأُنس والسعادة والرِّضا والإنجاز، أو يريد الخلود في الآخرة برضوان الله تعالى والجنة، عليه أن يُكثر من الأعمال التي يريد بها وجه الله تعالى، ولا يحتقر شيئًا من العمل ولو كان صغيرًا؛ فإن النية تُزكِّي الأشياء، وكان معاذ رضي الله

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 210)، و«السبعة في القراءات» (ص619- 620)، و«حجة القراءات» (691- 692)، و«معجم القراءات» (9/ 258).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 211)، و«تفسير السمعاني» (5/ 327)، و«تفسير القرطبي» (17/ 164)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 329)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 493)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 350)، و«التحرير والتنوير» (27/ 252).

عنه يقول: «إني لأحتسبُ في نومتي، كما أحتسبُ في قومتي»[1]. والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: «**في كُلِّ كبد رَطْبَةٍ أجرٌ**»[2].

ومعنى الآية: أن ما سوى الله تعالى فهو عرضة للفناء؛ لأن وجوده ليس قائمًا بذاته، بل بإيجاد الله له، وهو زائل في الدنيا، ولا خلود إِلَّا لِمَن كتب الله لهم الخلود في الدار الآخرة، وليس المعنى إطلاق الفناء التام على كل شيء كما زعمه طائفة من الجاهلين، والذين بَنَوْا عليه القول الفاسد بفناء الجنة والنار[3].

و﴿تُقۡسِطُواْ فِي﴾ أي: ذو العظمة[4]، ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: الذي يُكرم مَن يشاء من عباده[5]، لذلك ناسب أن يُعقِّب بقوله: ﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ [الرحمن: 29]، الفاني يسأل الحي الباقي الذي لا يموت ﴿مَثۡنَىٰ﴾ يا لعظمة الدعاء! حينما يعجز الإنسان عن شيء يلجأ إلى الحي القيوم القدير الذي لا يعجزه شيء، فلا يعتمد على قوته وقدرته بل على قوة الله تعالى الذي لا يغلب ولا يعجز ولا يمل ولا يتبرَّم بكثرة السؤال.

وكان عمر رضي الله عنه يقول: «إني لا أحملُ همَّ الإجابة، ولكن أحملُ همَّ الدعاء، فإذا أُلهمتُ الدعاءَ، فإن الإجابةَ معه»[6].

---

(1) أخرجه البخاري (4344).

(2) أخرجه البخاري (2363)، ومسلم (2244) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(3) ينظر ما سيأتي في «سورة الحديد»: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، و«سورة النبأ»: ﴿مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا بِٱلطَّيِّبِ﴾.

(4) ينظر: «تفسير البغوي» (4/ 334)، و«تفسير الخازن» (4/ 227)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 494)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 351)، و«التفسير المظهري» (9/ 150).

(5) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 328)، و«زاد المسير» (4/ 210)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 329)، و«فتح القدير» (5/ 163).

(6) ينظر: «مجموع الفتاوى» (8/ 193)، و«اقتضاء الصراط المستقيم» (2/ 229)، و«مدارج السالكين» (3/ 103)، و«الفوائد» لابن القيم (ص97).

وحقيقة فناء الخلق وبقاء الرب الجليل الكريم يمكن أن تمر ببعضهم عابرة لا تهز الضمير ولا تغيِّر السلوك كما يقع للأغلب، ويمكن أن تتحوَّل إلى معرفة قلبية راسخة مؤثِّرة مسيطرة، بحيث تحدِّد مسارات الإنسان وأولوياته، وتحكم سلوكه وتصرفه في الدقيق والجليل، ولعلها أهم حقيقة كفيلة بتغيير وجهة الإنسان متى صدَّق بها وآمن ولامست شِغاف قلبه وأعماق وجدانه.

* ﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا﴾:

أما مَن في السماوات: فتشمل الملائكة شمولًا أوليًّا، وقد علَّمنا الله تعالى أن سؤالهم في الغالب يتعلَّق بمَن في الأرض: ﴿ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ﴾ [غافر: 7]، فهم يسألونه تعالى لأهل الأرض، وتشمل غيرهم ممن يعلمهم الله ولا نعلمهم، ليبقى النص واسعًا، ويبقى الذهن متحفِّزًا مفتوحًا على كل ما يدخل في النص الإلهي بلا تكلف.

أما من في الأرض: فكل الناس يسألونه، حتى الكافر: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ..﴾ [العنكبوت: 65]، فيعطيهم تعالى ما شاء مما يطلبون، ويمهلهم، ويُنْظِرهم.

﴿أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا﴾: وهذه آية عظيمة تفتح العقل والنظر على التحولات الفردية والجماعية والأممية، فلا يخلد المرء إلى حال هو يملها ولا ييأس من تغيرات الأحداث فيما يطمع أن يتغيَّر.

وليس المقصود «اليوم» الذي نعرفه، والذي هو من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وإنما المقصود مطلق الزمن، يعني: كل لحظة، وكل ومضة، وكل وقت[1] ﴿فَوَاحِدَةً أَوْ مَا﴾ سبحانه، وهو شأن يُبْدِيه وليس شيئًا يبتديه، بمعنى أنه معلوم عنده، ولكنه يبديه للبشر، فهذا الشأن الذي ذكره الله تعالى هو تحولات الأحوال من الغنى والفقر والقوة، والضعف والصحة والمرض، والوَحدة والكثرة، والحياة والموت، والرفعة والضعة، والعلم والجهل، والسفر والإقامة، والإيمان والكفر، وغير ذلك مما يحدث في هذا الكون من التنوع والتغيُّر والتجدُّد المستمر بإذن ربي سبحانه، وفيه تحفيز للإنسان أن يسأله سبحانه، وألَّا يكون أسيرًا لحالة يعاني منها من هم أو غم أو مرضٍ أو فقر أو سجن أو حرمان.. فهو يُذكِّرك بأن الله تعالى يُسأل وكل الناس يسألونه، فلا تيأس، ولا يكون سؤالك سؤال العاجز.

* تأتي بعد ذلك آية مُزَلْزِلة مُجَلْجِلة مُخيفة منطوية على وعيد لا نظير له ولا عهد لقارئ الكتاب العظيم بمثله: ﴿تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ﴾:

هذا ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ الخالق المُعلِّم المُلهم الذي خلق السماء والأرض والمشرقين والمغربين، يتوعَّد الثقلين، وهما الجن والإنس، المخاطبان بسياق الآيات، وهو تعالى لا يلهيه شأن عن شأن: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:82]، ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [الروم: 27]، ولكن هذا لفظ جارٍ على مقتضى لغة العرب،

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 447)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 172)، و«تفسير النسفي» (3/ 413)، و«تفسير القاسمي» (9/ 106).

والعربي يفهم من هذا المعنى التهديد، وكأن المقصود أن الدنيا قد انقضت، وأسدل على حوادثها الستار، ونحن الآن في الآخرة حيث الجزاء والحساب[1].

والآية دليل على أن الجن محاسبون مجزيون كالإنس.

* ﴿عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا﴾:

الخطاب للثقلين، وكأنهم الآن في عَرَصات القيامة قد جمعهم تعالى وبعثهم لحسابهم، يخاطبهم متحدِّيًا: إن استطعتم أن تجاوزوا نواحي السماوات والأرض فافعلوا[2]، وهذا على سبيل التعجيز.

والأقطار جمع: قُطْر، وهو الناحية العظيمة[3]، ولهذا قال: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ أي: لا يمكن أن تنفذوا إلا بقوة، وهذا متعذِّر، فالله تعالى قد فرغ لكم، والموقِف موقِف حساب.

* والسياق يدل على أنها تُقال يوم القيامة، ولهذا قال سبحانه: ﴿مَّعْرُوفًا ۝٥ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾:

فلو همَّ أحد منكم أن يهرب لأرسل الله تعالى عليه شُواظًا من نار ونحاسًا.

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 199)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 99)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 222)، و«تفسير البغوي» (4/ 336)، و«تفسير القرطبي» (17/ 158)، و«التحرير والتنوير» (27/ 257).

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 186)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7226)، و«تفسير البغوي» (4/ 336)، و«الكشاف» (4/ 448)، و«التحرير والتنوير» (27/ 259).

(3) ينظر: «تهذيب اللغة» (9/ 6) «ق ط ر»، و«لسان العرب» (5/ 106) «ق ط ر»، و«التحرير والتنوير» (27/ 259).

ويمكن أن يكون المعنى: أنه تعالى يعاجل الكافرين يوم القيامة قبل أن يدخلوا النار بذلك حتى من دون أن يحاولوا الهرب، فيُرسل عليهم شُواظًا من نار، **والشُّواظ** هو: اللَّهب الخالص، أما **النُّحاس** فهو: الدُّخان، وهو يُسمَّى: نُحاسًا في اللغة، كما قال النابغة[1]:

يُضِيءُ كضَوْءِ سراج السَّلِيطِ *** لم يجعلِ اللهُ فيه نُحاسًا

فيرسل الله تعالى عليكم شواظًا من نار ودخانًا، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [المرسلات: 30- 31]. فكأنه يرسل عليهم نارًا فيهربون منها إلى ظل الدُّخان، فيجدونه هو الآخر عذابًا لا ظل فيه ولا غَنَاء[2].

ويجوز أن يكون المقصود بالنُّحاس: المعدن المُذاب[3]، يُعذَّب به الكافرون في العَرَصات قبل أن يصيروا إلى نار جهنم.

* ﴿أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا﴾:

هذه السماء التي رفعها، وامتن بها عليكم، وجعلها مصدر خير وبركة وجمال يتغيَّر حالها حتى تبدو ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾، **وأقرب ما يكون المعنى**: أن السماء تصبح مثل الوردة التي نعلم شكلها وهيئتها وطبقاتها وألوانها[4].

---

(1) ينظر: «ديوان النابغة الجعدي» (ص100).

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة المرسلات».

(3) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 384)، و«تفسير البغوي» (4/ 337)، و«زاد المسير» (4/ 211)، و«تفسير الخازن» (4/ 229)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 497)، و«التحرير والتنوير» (27/ 260).

(4) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 436)، و«تفسير السمعاني» (5/ 331)، و«زاد المسير» (4/ 212)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 330)، و«التحرير والتنوير» (27/ 261).

وهو إشارة إلى بقاء قدر من الجمال فيها، ولكن مع وهن وضعف وتشقق، قال مجاهد: «كألوان الدِّهان». وقال عطاء: «كلون دُهْن الورد في الصُّفرة».

والوردة معناها: حمراء، كما قال زُهير يصف فرسه[1]:

وصاحبي وردة نَهْد مَرَاكلها[2] *** جرداء لا فَحَجٌ فيها ولا صَكَكُ[3]

فالوردة هي حمراء اللون.

* ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾:

الموقف الآن لا سؤال فيه، ويوم القيامة يوم عظيم طويل: ﴿النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [المعارج: 4]، يجري فيه أحداث متخالفة؛ فمرة هم يُسألون: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: 24]، ومرة لا يُسألون: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: 78].

ويحتمل أن يكون المعنى: لا يُسألون سؤال استبصار، سؤال الذي يريد أن يعرف[4]، فالملائكة قد دَوَّنت عليهم، وأوثقتهم، ولذلك ينكرون ويكذِّبون ويجحدون، فـ﴿تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: 24]، فالسؤال ليس سؤال تثبيت للمعلومة، وإنما هو سؤال إقرار، وإقامة الحجة عليهم من أنفسهم.

---

(1) ينظر: «ديوان زُهير بن أبي سُلْمى» (ص79).

(2) المراكل جمع: مَرْكل، وهو موضع رِجل الفارس.

(3) أي: متباعد ما بين اليدين والرجلين.

(4) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 332)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (2/ 1172)، و«تفسير البغوي» (4/ 338)، و«تفسير الرازي» (29/ 366- 367)، و«تفسير القرطبي» (17/ 174)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 499)، و«التحرير والتنوير» (27/ 262).

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾:

فلا يحتاج إلى سؤال، بل الملائكة تعرف المجرمين بسيماهم وعلامتهم، فتأخذهم بنواصيهم وأقدامهم.

والنواصي: مقدِّمات الرؤوس[1]، فالملائكة يأخذون الكافر بالناصية من أعلى رأسه ومن أسفل قدميه ويصبح مُحْدَوْدَب الظهر في قبضة الملائكة، فليس له مخلص أبدًا، فكيف لمثل هذا أن ينفذ من أقطار السماوات والأرض؟ كيف سيتحدى الله سبحانه؟

* ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ﴾:

أشار إليها كأنها جسم مرئي مشهود يراه الناس ويسمعونه ويحسونه، ومثل هذا يتكرر كثيرًا في القرآن، سواء فيما يتعلق بوعد الآخرة أو بقصص الأنبياء أو غيرهما، وفيه تنشيط للخيال وتنمية لمَلَكة التصور والتصوير، وبهذه المَلَكة يتحوَّل العلم النظري إلى ما يشبه رأي العين، ويحدث التأثير في القلب، وتتحوَّل المعرفة إلى يقين وإيمان.

* ﴿ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾:

والطواف هو: التردد والدوران[2]، فهم يتردَّدون بين جهنم ﴿فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ﴾ [التوبة: 35]، وإذا ضاقوا منها طلبوا الماء كما يفعل

(1) ينظر: «لسان العرب» (15/ 327)، و«المصباح المنير» (2/ 609) «ن ص ى»، و«التحرير والتنوير» (27/ 263).

(2) ينظر: «مقاييس اللغة» (3/ 432) «ط و ف»، و«الكليات» للكَفَوي (ص448)، و«التحرير والتنوير» (27/ 263).

العطشان، فيُذهب بهم إلى ماء حميم شديد الحرارة[1]، و﴿وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ أي: بالغٌ في الحرارة مبلغًا عظيمًا[2]، كما قال تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: 15]، فهذا هو الماء الذي يُغاثون به، ﴿أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم﴾ [الكهف: 29]، فما موقفك أنت أيها المؤمن بيوم القيامة من هذا الوعيد؟ هذا دعوة للناس إلى تجديد إيمانهم.

وجاء بجملة معترضة من حيث المعنى تشير إلى تكذيب المجرمين بها، فهم يكذِّبون بحقيقة مرئية مشهودة ﴿وَبَثَّ﴾ هي أمامكم ترونها وتقاسون حرَّها، أو تطوفون بينها وبين نوع آخر من العذاب، وهذا التكذيب هو الذي جعلهم مجرمين، حيث لم يقيموا وزنًا لموعد لقائه ولا لوعده ووعيده.

* و﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ سبحانه لا يهلك عليه إلا هالك، ولا يدخل أحدٌ النارَ إلا وقد أعذر من نفسه، ولهذا قال: ﴿(١) وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا﴾، كما قال: ﴿ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن﴾ [النازعات:40، 41]، ولأن السورة «سورة الرحمن»، فقد ساق الوعيد بآية واحدة، بينما فصَّل الوعد في بقية السورة في أزيد من ثلاثين آية.

والمقصود بالجنتين مفسَّر في قوله صلى الله عليه وسلم: «**جنَّتان من فضة، آنِيَتُهما وما فيهما، وجنَّتان من ذهبٍ، آنِيَتُهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم إلَّا رداءُ الكِبْر على وجهه في جنَّةِ عَدْن**»[3]. فالجنان أربع، هؤلاء جنتان، ومن دونهما

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 201)، و«تفسير الطبري» (22/ 232)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7232)، و«زاد المسير» (4/ 213)، و«تفسير القرطبي» (17/ 175)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 500)، و«التحرير والتنوير» (27/ 263– 264).

(2) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 269)، والمصادر السابقة.

(3) أخرجه البخاري (4878)، ومسلم (180) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

جنتان؛ الجنتان الأوليان من ذهب أنياتهما وما فيهما، والجنتان الأخريان من فضة آنيتهما وما فيهما، هذه للسابقين وتلك لأصحاب اليمين.

* ﴿تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا﴾:

والأفنان هي: الغصون المخضرَّة[1]، فشجر الجنة كثير الأغصان، كثير الورق، كثير الثمر.

* ﴿كَبِيرًا ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ﴾:

والعيون هنا تجري بقوة، فيكون للواحد منهم بيت وقصر وجنة عن يمينه، وجنة عن شماله، وعين في تلك الجنة، وعين في تلك الجنة، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر**»[2]. و«**إن أهلَ الجنة لَيَتَراءونَ أهلَ الغُرَف من فوقهم كما تَتَراءونَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ الغابرَ من الأُفُق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضُل ما بينهم**». قالوا: يا رسولَ الله، تلكَ منازلُ الأنبياء، لا يبلُغُها غيرُهم؟ قال: «**بلى والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقُوا المرسلينَ**»[3].

* ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنْ خِفْتُمْ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 241)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 102)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 189)، و«تفسير الماوردي» (5/ 438)، و«تفسير السمعاني» (5/ 334)، و«تفسير البغوي» (4/ 340)، و«المحرر الوجيز» (5/ 233)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 502).

(2) أخرجه البخاري (3244)، ومسلم (2824) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) أخرجه البخاري (3256)، ومسلم (2831) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فكل الفواكه موجودة، والفاكهة الواحدة فيها زوجان، **والمعنى**: تنوع الفاكهة ذاتها، ويمكن أن تكون فاكهة يابسة وفاكهة رطبة، أو كبيرة وصغيرة، أو مختلفة في لونها، أو في طعمها، أو في جميع ذلك[1].

* ﴿أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾:

والاتِّكاء علامة التنعم والراحة والاسترخاء والمُلْك، **والإستبرق**- بالهمزة المقطوعة- هو أفخر أنواع الحرير[2]، فإذا كان هذا هو حال البطائن، فكيف بظواهرها؟ والإستبرق عادةً ما يُغزل بخيوط الذهب[3].

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾: ثمرها قريب منهم يتناولونه حيث شاؤوا[4].

* ﴿نِحْلَةًۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤ وَلَا تُؤْتُواْ﴾:

أي: في الجنتين، أو في الفُرش[5]، ﴿فَإِن﴾، وهذا يشمل الحُور، ويشمل نساء الدنيا المؤمنات الوفيات الصابرات على حفظ العهود[1].

---

(1) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 226)، و«تفسير البغوي» (4/ 341)، و«زاد المسير» (4/ 213)، و«تفسير القرطبي» (17/ 179)، و«التحرير والتنوير» (27/ 266).

(2) ينظر: «تهذيب اللغة» (8/ 307)، و«الصحاح» (4/ 1496)، و«لسان العرب» (10/ 156)، و«تاج العروس» (25/ 69).

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 268).

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 203)، و«تفسير الطبري» (22/ 244)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 387)، و«تفسير البغوي» (4/ 341)، و«تفسير القرطبي» (17/ 180)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 504)، و«التحرير والتنوير» (27/ 269).

(5) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7237)، و«المحرر الوجيز» (5/ 233)، و«زاد المسير» (4/ 214)، و«تفسير الرازي» (29/ 374)، و«تفسير القرطبي» (17/ 180)، و«فتح القدير» (5/ 170).

والمعنى: أنها قصرت طرفها في الدنيا، فهي لا ترى جمالًا غير زوجها، وهو كل عالمها، وفيه دلالة ظاهرة على عفتها، وأنها قصرت طرفها بإرادتها مع قدرتها على ألَّا تفعل ذلك.

ومن المعنى: أن المرأة تُمدح بالكَسَل في عينيها وانكسار العين، وهذا ضرب من الجمال، وهو يشمل الحُور التي خلقهن الله تعالى لمتعة أهل الجنة، ويشمل نساء الدنيا اللاتي أنشأهن الله تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ ﴾ [الواقعة: 35- 38].

والعرب يمدحون المرأة بطرفها الناعس، وهو يوحي بالخضوع والسماح والمطاوعة.

﴿طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾: **الطمث** هو: الدم[2]، ويُطلق على دم الحيض، ويُطلق على دم البكارة.

والمعنى: لم يعاشرهن قبلهم إنس، بالنسبة لنساء الإنس، ولا جن، بالنسبة لنساء الجنِّ[3].

وليس في الآية دليل على أن الإنس ينكحون الجن أو العكس، فهذه أشياء غريبة على لغة القرآن، بعيدة عن دلالاته التي فيها تحريك للقلوب ومخاطبة الأرواح، فمثل هذه المباحث ينبغي أَلَّا تُقحم في التفسير، وأَلَّا يتكلَّف لها الاستدلال، حتى لكأنما نزل

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 336)، و«تفسير البغوي» (4/ 341)، و«زاد المسير» (4/ 214)، و«تفسير الخازن» (4/ 231).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 246)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 191)، و«تفسير البغوي» (4/ 341)، و«التفسير القيم» (ص505)، و«التفسير المظهري» (9/ 159).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 246)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 387)، و«تفسير السمعاني» (5/ 335)، و«تفسير البغوي» (4/ 341)، و«تفسير القرطبي» (17/ 181)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 504).

القرآن من أجلها، ويصبح شغل القارئ للقرآن هو هذه المسائل المتكلَّفة التي لا جَدْوى من ورائها، ولا قيمة لها تُذكر.

* ﴿ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾:

أي: في جمالهن وصونهن وتنوع ألوانهن[1].

* ﴿وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ﴾:

لقد كانوا محسنين في طاعتهم، فأحسن الله تعالى جزاءهم، وكانوا محسنين إلى عباده، فأحسن إليهم، فهم ممن أَعطَى فأُعْطِي، وأَنْفَق فأَنْفَقَ الله عليه، وجاد فجاد الله له، والله أكرم وأجود، وحتى إحسانهم هو فضل من الله: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف: 43]، فمن فضله عليهم أن وفَّقهم للطاعة والعبادة، ثم كافأهم عليها.

وقوله: ﴿مَّعۡرُوفٗا﴾ هذا يرجِّح أن هاتين الجنتين فوق الجنتين التاليتين، فهما جنتان من ذهب للمحسنين؛ لأن الإحسان أعلى الدرجات، كما في حديث جبريل عليه السلام الذي بدأ بالإسلام، ثم ارتقى إلى الإيمان، ثم انتهى إلى الإحسان، وهو أن تعبد اللهَ كأنك تراه[2].

* ﴿ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 249)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 387)، و«تفسير السمعاني» (5/ 336)، و«زاد المسير» (4/ 214)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 331)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 504).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (50)، و«صحيح مسلم» (8، 9).

إما أن يكون من دونهما في المكان، أو من دونهما في المنزلة لَمن هو متأخِّر عن رتبة الإحسان من أهل الإيمان والخير، **وهو قوي**[1].

* ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾:

يعني لونهما يميل للسواد، من كثرة الخضرة وجودة الشجرة وروائه[2].

* ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ﴾:

في الأولى عينان تجريان، والجريان أقوى من النضخ[3]، فهذه العيون تفيض، ولكن الأولى أقوى منها.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ﴾:

وهذا إشادة بما ذكر تعالى من الفاكهة، ولكن في الجنتين الأوليين وصفهما بأن ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ﴾، ففيهما كل الفواكه، ومن الفاكهة الواحدة أزواج، أما هنا فذكر الفاكهة إجمالًا، وخصَّ منها: النَّخْل والرُّمَّان[4].

* ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 254)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 193)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 228)، و«تفسير البغوي» (4/ 343)، و«المحرر الوجيز» (5/ 234)، و«زاد المسير» (4/ 215)، و«تفسير القرطبي» (17/ 183)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 501).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 254)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 103)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 193)، و«تفسير الخازن» (4/ 232)، و«روح المعاني» (14/ 120)، والمصادر السابقة والآتية.

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 441)، و«تفسير الرازي» (29/ 379)، و«تفسير القرطبي» (17/ 183)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 331)، و«روح البيان» (9/ 311).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 260)، و«معاني القرآن» للزجاج (1/ 320)، و«تفسير البغوي» (4/ 344)، و«الكشاف» (4/ 453)، و«زاد المسير» (4/ 215)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 507).

في الأولى ذكر ﴿فِيهِنَّ﴾، وفي هذه وصفهن بأنهن ﴿ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾، كما قيل[1]:

قُصِرْنَ على حبِّ أزواجهنـ ***ـنَ مُشتاقةٌ تَتَلَقَّى مَشُوقًا

ولكن متعلّق القصر في الأولى واضح، وهو الطَّرف والنَّظَر، وفي الثانية لم يذكر، فيحتمل أن يكون عامًّا، مقصورات الطرف والمشي وغير ذلك.

والخيام ليست كخيام الدنيا، ولكنها خيام من لُؤلُؤ، ومن ذهب[2]، بما لا يمكن تصوره، ولكن في حكمة الله أن يُقرِّب لنا هذه المعاني حتى نتشوَّف ونتشوَّق، والشيء الذي في الجنة ليس بالذي يخطر في بالك مطلقًا؛ ولذلك يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الجنة مما في دنياكم إلا الأسماءُ»[3]. فكل ما ذكره الله تعالى من فواكه الجنة مما نعرفه في الدنيا، فهي ليست كمثلها في الطعم والحلاوة والجمال، إنما التوافق في الاسم فحسب، وكذلك ما يتعلَّق بالمتعة بين الزوجين.. والذي في الجنة شيء آخر مختلف؛ لأنك لا تعرف جنسه، ولم تر مثله ولا شبهه؛ وهذا لا ينافي أن يتخيَّل المرء نفسه مقبلًا على إحدى هذه الخيام الجميلة الفارهة، ثم داخلًا من بوابتها، مذهولًا بجمالها، وجمال أثاثها النادر، وجمال مَن فيها، متعجِّبًا أنها له، وله هو دون سواه.

والخيام معروفة، وهي نمط من المسكن الخاص في البر، أو للمتعة، أو للضيوف، ولهم في الجنة مساكن أخرى وقصور وغرف ودور وما شاء الله مما نعلم وما لا نعلم.

* ﴿رَقِيبًا ۝١ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ﴾:

---

(1) ينظر: «التبصرة» (1/ 442)، و«بساتين الواعظين ورياض السامعين» لابن الجوزي (ص49).

(2) ينظر: «صحيح البخاري» (4879)، و«صحيح مسلم» (2838).

(3) أخرجه الطبري في «تفسيره» (1/ 416)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (1/ 66)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (124)، والبيهقي في «البعث والنشور» (332). وسيأتي تخريجه في «سورة الملك»: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾.

والرَّفْرَف هي: البُسُط أو الوسائد[1]، يعني متَّكئين على ألوان مما يُتَّكأ عليه مما يحتاجه الناس في الاتِّكاء، وعادةً ما يكون اللون الأخضر أجمل وأكثر من يستعمله الملوك والعظماء.

﴿ إِنَّهُۥ﴾: **والعَبْقَري** هو: الشيء النَّفيس الذي يصعب تصوره، والعرب إذا رأوا شيئًا عظيمًا نسبوه إلى وادي عَبْقَر، وهو وادٍ يعتقدون أنه للجن[2]؛ وذكر النبيُّ صلى الله عليه وسلم هذا اللَّفظ في قصة الرُّؤيا، قال: «**فلم أَرَ عَبْقَرِيًّا في الناس يَفْرِي فَرِيَّهُ**»[3]. يقصد: عمر رضي الله عنه ، أي: لم أَرَ إنسانًا عظيمًا منجزًا قويًّا[4]، مثل عمله، فأهل الجنة متَّكئون على متَّكآت وبُسط ووسائد حسنة جميلة، لا تخطر على بال.

* ﴿أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ ﴾:

والبركة هي: الخير الكثير العظيم[5]، تبارك ربك، وتباركت أسماؤه، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ [الأعراف: 180]، ومن أسمائه ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا﴾، فله الجلال والعظمة

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 443)، و«تفسير البغوي» (4/ 346)، و«تفسير القرطبي» (17/ 190)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 332)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 509)، و«التحرير والتنوير» (27/ 274).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 454)، و«تفسير القرطبي» (17/ 192)، و«التحرير والتنوير» (27/ 275).

وينظر أيضًا: «غريب الحديث» للقاسم بن سلَّام (1/ 88)، و«لسان العرب» (4/ 535)، و«تاج العروس» (12/ 514) «ع ب ق ر».

(3) أخرجه البخاري (3633)، ومسلم (2393) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(4) ينظر: «شرح المشكل من أحاديث الصحيحين» (2/ 504)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (15/ 162)، و«فتح الباري» (12/ 413).

(5) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 383)، و«فتح القدير» (5/ 173)، و«التحرير والتنوير» (27/ 276)، وما سيأتي في أول «سورة الملك».

والكبرياء، وهو الذي يفيض الخير والفضل على عباده، ويجازي الإحسان بالإحسان، ويجازي الذنب للنادم بالصفح والغفران؛ لأنه الرحيم الرحمن[1].

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «مع الله» للمؤلِّف (ص285).

سورة الواقعة

* تسمية السورة:

تُعرف بـ«**سورة الواقعة**»؛ نظرًا للكلمة ذاتها في الآية الأولى، باعتبار ورودها في الآية الأولى.

وهو في المصاحف، وكتب التفسير[1]، والحديث، وورد في غير ما حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، منها الحديث المشهور: قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسولَ الله، قد شِبْتَ؟ قال: «**شَيَّبَتْني هودٌ، والواقعةُ، والمرسلاتُ، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ﴾**»[2]. وهو حديث مضطرب، كما ذكر ابن الصلاح، وغيره[3].

وكذلك الحديث المروي أن عثمانَ زار عبدَ الله بنَ مسعود رضي الله عنهما في مرض موته، وقال له: أَلَا ندعو لك الطَّبيبَ؟ قال: الطَّبيبُ أمرضني. قال: هل تُوصي لأهلك

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص640)، و«صحيح البخاري» (6/ 146)، و«جامع الترمذي» (5/ 400)، و«السنن الكبرى» للنسائي (10/ 286)، و«تفسير الطبري» (22/ 279)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 231)، و«تفسير القرطبي» (17/ 194)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 512)، و«التحرير والتنوير» (27/ 279).

(2) أخرجه الترمذي (3297)، والحاكم (2/ 343)، والبغوي في «تفسيره» (2/ 473)، والضياء (12/ 202) (219) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(3) ينظر: «علل ابن أبي حاتم» (1826، 1894)، و«علل الدارقطني» (1/ 193- 211)، و«النكت على كتاب ابن الصلاح» لابن حجر (1/ 118)، و«فتح المغيث» (1/ 294)، و«تدريب الراوي» (1/ 312)، و«الإرشادات في تقوية الأحاديث بالشواهد والمتابعات» (ص351- 354)، و«السلسلة الصحيحة» (955).

وبناتك بشيء؟ قال: إني أوصيتُهم بما سمعتُه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه «مَن قرأَ سورةَ الواقعة كلَّ ليلة لم تصبه فاقةٌ»[1].

والحديث على تعدد طرقه، إلا أنه لا يثبت، والصحيح أن الفاقة إنما تُدفع بالأسباب التي خلقها الله تعالى، وأرشد عباده إليها لطلب الرزق، ومن ذلك الضرب في الأرض، كما قال تعالى: ﴿أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [المزمل: 20]، ﴿وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ﴾ [الجمعة: 10]، وتُدفع بالإحسان والإنفاق؛ فإن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: «يا ابنَ آدَمَ، أَنْفِقْ أُنْفِقْ عليك»[2]. و﴿وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الرحمن:60].

وأما قراءة القرآن فللعلم والعمل، ورجاء الآخرة، وإصلاح النفس والمجتمع، وليس تواكلًا ليأتي الرزق به دون سعي، فالحديث لا يصح سندًا ولا متنًا.

ومن أمثل ما ورد في الباب ما رواه أحمد عن جابر رضي الله عنه ، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يقرأُ في صلاة الفجر بالواقعة ونحوها من السور[3].

* **عدد آياتها:** تسع وتسعون آية، وهو الموجود في مصاحف المدينة النبوية[4].

---

(1) أخرجه القاسم بن سلَّام في «فضائل القرآن» (ص257)، وأحمد في «فضائل الصحابة» (1247)، والحارث في «مسنده» (721- بغية)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (680)، والثعلبي في «تفسيره» (9/ 199)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (2267)، والبغوي في «تفسيره» (5/ 25).

وينظر: «المنتخب من علل الخلال» (49)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (3/ 411)، و«نتائج الأفكار» (3/ 262- 264)، و«السلسلة الضعيفة» (289).

(2) أخرجه البخاري (4684)، ومسلم (993) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(3) أخرجه أحمد (20995)، وابن خزيمة (531)، وابن حبان (1823)، والحاكم (1/ 240)، والبيهقي (3/ 169).

(4) ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص239)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص311)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 548)، و«مصاعد النظر» (3/ 50).

وقيل: سبع وتسعون آية، أو ست وتسعون، على اختلاف علماء العدِّ[1].

* **وهي مكية** عند جمهور المفسرين، وهو الراجح، واستثنى بعضهم آيات منها، والراجح أن السورة كلها مكيَّة[2].

* ﴿لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ﴾:

و﴿لَكُم﴾: ظرفٌ لما يُستقْبَل من الزمان[3]، أنه شيء سوف يأتي، وفيه معنى الشرط فـ﴿لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ حدث عظيم فيه خفض ورفع، وجزاء وحساب.

و﴿ٱلنِّسَآءِ﴾: اسم من أسماء يوم القيامة، مثل: ﴿فَكُلُوهُ﴾، و﴿يَكْبَرُواْ﴾، و﴿نَفْسًا﴾، و﴿ٱلْأَزِفَةُ﴾، و﴿ٱلسَّاعَةُ﴾[4].

* والآية إشارة إلى عظم هذا الأمر، فهو شيء له دَوِيٌّ وهزة عنيفة؛ ولهذا قال بعدها مباشرة: ﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ﴾ أي: أن وقوعها حقٌّ، لا ريب فيه ولا تكذيب.

وجاء التعبير بقوله: ﴿وَرُبَٰعَ﴾، ولم يقل: «**لوقوعها**»؛ لأن كلمة «وقعتها» أسرع، كأنها وقعة واحدة سريعة مفاجأة.

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 280)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 445)، و«الكشاف» (4/ 455)، و«المحرر الوجيز» (5/ 238)، و«زاد المسير» (4/ 218)، و«تفسير القرطبي» (17/ 194)، و«فتح القدير» (5/ 176)، و«التحرير والتنوير» (27/ 279).

(3) ينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (4/ 215)، و«مشكل إعراب القرآن» (2/ 709)، و«روح المعاني» (14/ 129)، و«الجدول في إعراب القرآن» (27/ 109)، والمصادر السابقة والآتية.

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 279)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 390)، و«تفسير القرطبي» (17/ 194)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 75)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 513)، و«التحرير والتنوير» (27/ 281).

ويحتمل أيضًا أن يكون قوله: ﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أي: ليس فيها تراجع[1]، وأنها إذا وقعت فإنها لا تُرفع[2]؛ ولهذا قال: ﴿إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الحاقة: 15- 17]، فهي إذا وقعت لا تُرفع ولا تُدفع، وإنما تمضي في أحداثها المرسومة دون تعديل.

والعرب تُسمِّي المعركة الحربية: الوقعة، أو الواقعة، وقد تعلن الحرب أو تبدؤها على سبيل التهديد والزجر والوعيد، بينما يؤكِّد النص هنا أن تلك الواقعة صادقة حاقة ماحقة ماضية، لا تُقال للتهديد فحسب، بل هي محقَّقة الوقوع، وحين وقوعها تراها العيون والقلوب فتصدِّق ولا تكذِّب.

* ﴿خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾:

وهذا من أخص معانيها، قال بعضهم: إنها رفعت الصوت فأسمعت البعيد، وخفضت فأسمعت القريب[3].

ومن معانيها: أنها تخفض أقوامًا، وترفع آخرين.

وهذا جاء عن عمر وعليٍّ رضي الله عنهما[1]، فإن الموازين يوم القيامة تتغيَّر؛ فيُؤتى بالرجل السَّمين العظيم، فلا يَزِنُ عند الله تعالى جناحَ بعوضة[2]، ويُؤتى بالفقير

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 279)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 390)، و«المحرر الوجيز» (5/ 238)، و«تفسير القرطبي» (17/ 195)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 333)، و«فتح القدير» (5/ 176).

(2) ينظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7253)، و«تفسير الماوردي» (5/ 446)، و«تفسير السمعاني» (5/ 341)، و«زاد المسير» (4/ 218).

(3) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 275)، و«تفسير الطبري» (22/ 280)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 200)، و«تفسير الماوردي» (5/ 446)، و«زاد المسير» (4/ 218)، و«تفسير القرطبي» (17/ 195)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 514).

الضعيف المغمور ذي الثياب البالية، لا يُؤْبَه له، فيكون ثقيل الميزان عند الله، وفي أعظم المنازل في الجنة[3].

ونلحظ أن الوصف جاء مطلقًا، فلم يقل: «إنها خافضة لشيء أو رافعة لشيء»؛ ليكون المعنى شاملًا لكل ما يحتمله الرفع والخفض؛ رفع الأشخاص وخفضهم، ورفع الأعمال وخفضها، ورفع الصوت وخفضه، ورفع الميزان وخفضه، ورفع الحق وخفض الباطل.

* **أما متى حينها؟ فجوابه:** ﴿فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾:

والرَّجُّ هو: الحركة الشديدة[4]، وهو تعبير عن الزلزال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾ [الزلزلة:1]، ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: 1].

* ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا﴾:

والبَسُّ يحتمل معنيين:

التفتيت[1]، فتصبح ﴿شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [المزمل: 14]، وتكون ﴿رَقِيبًا ۝١﴾ [القارعة: 5]، فليست كما هي الآن بمتانتها وقوتها وتماسكها وصلابتها.

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 446)، و«تفسير القرطبي» (17/ 195)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 514)، و«الدر المنثور» (14/ 175)، و«السراج المنير» للخطيب الشربيني (4/ 179)، و«فتح القدير» (5/ 181)، والمصادر السابقة.

(2) كما في «صحيح البخاري» (4729)، و«صحيح مسلم» (2785) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**إنه ليأتي الرجلُ العظيمُ السَّمينُ يومَ القيامة، لا يزنُ عند الله جناحَ بعوضة، اقرؤوا:** ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥﴾ [الكهف: 105]».

(3) كما في «صحيح البخاري» (4918)، و«صحيح مسلم» (2853) من حديث حارثة بن وهب الخُزاعي رضي الله عنه مرفوعًا: «**أَلَا أخبركم بأهل الجنة؟ كلُّ ضعيف متضعِّف، لو أقسمَ على الله لأَبَرَّه**».

(4) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 108)، و«لسان العرب» (2/ 282)، و«تاج العروس» (5/ 594) «ر ج ج».

والمعنى الثاني: ﴿وَبُسَّتِ﴾ أي: ﴿وَسِيقَتِ﴾ وسيقت[2]: ﴿وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا﴾ [التكوير:3]، ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: 88]، بأمر الله تعالى.

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم عن آخر الزمان: «**فيأتي قومٌ يُبِسُّونَ، فيتحمَّلُونَ بأهليهم ومَن أطاعهم**»[3]. أي: يخرجون بأموالهم وأهليهم وإبلهم من المدينة يسوقونها سَوْقًا[4].

والبَسُّ عند العرب يحتمل هذا وهذا، فتقول: بسَّ الشيء، إذا فتَّتَه، وتقول: بسَّ عقاربه على فلان، إذا أرسلها، بمعنى الوقيعة والأذى.

* ﴿فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾:

والهباء هو: الشيء التافه الذي لا قيمة له، وهو الغبار[5].

وقال بعضهم: هو الغبار إذا تسلَّطت عليه أشعة الشمس، فأصبح يُرى في الجو متطايرًا[6].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص640)، و«تفسير مقاتل» (4/ 215)، و«تفسير الطبري» (22/ 282)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 390)، و«تفسير السمعاني» (5/ 342)، و«تفسير القرطبي» (17/ 196)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 514)، و«التحرير والتنوير» (27/ 284).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص122)، و«بصائر ذوي التمييز» (2/ 245) «ب س».

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 487)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 200)، و«تفسير الماوردي» (5/ 446)، و«تفسير البغوي» (5/ 5)، والمصادر السابقة.

(3) أخرجه البخاري (1875)، ومسلم (1388) من حديث سفيان بن أبي زُهير رضي الله عنه.

(4) ينظر: «إرشاد الساري» (3/ 335)، و«فيض القدير» (3/ 260).

(5) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 447)، و«تفسير القرطبي» (17/ 197)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 514- 515)، و«روح البيان» (9/ 317)، و«فتح القدير» (5/ 177)، و«روح المعاني» (14/ 131).

(6) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 215)، و«تفسير الطبري» (22/ 284)، و«مقاييس اللغة» (6/ 31) «هـ ب و»، و«تفسير الرازي» (29/ 386)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 333)، و«التحرير والتنوير» (27/ 284).

والمُنْبَث: المنتشر، وهذا التغير للظواهر الكونية مقصود من أجل الإنسان الذي هو محل التكليف، فذكره وتكراره خَلِيق أن يوقظ النائم، ويصحِّي السكران، وينبِّه الغافل.

* ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن﴾:

والعادة أن الله تعالى يذكر زوجين ويسمِّيهم: ﴿أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾، و﴿ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، وهو في معظم آيات القرآن الكريم، وفي هذه السورة قسَّم الناس إلى ثلاثة أزواج أو مجموعات أو طبقات، والخطاب للناس كلهم، للمؤمن والكافر، والبر والفاجر.

والسبب في ذلك أنه هنا قسَّم ﴿أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾ إلى فئتين: ﴿أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾، و﴿أَمۡوَٰلَكُمُ﴾، وأما في «سورة فاطر» فقسَّمهم ثلاثة أقسام: ﴿كَانَ عَلَيۡكُمۡ﴾، و﴿(١)﴾، و﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ [فاطر: 32].

وفي «سورة المطففين» ذكر ﴿مَلَكَتۡ﴾، و﴿فَإِن﴾، وفي «سورة الإنسان» ذكر قريبًا من ذلك، وهو من باب التنويع والتفصيل والتمييز.

* ﴿طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾:

سمَّاهم: «أصحاب الميمنة»، وسمَّاهم: «أصحاب اليمين»، وهم في معظم آيات القرآن الكريم.

سُمُّوا بذلك؛ لأنهم يكونون عن يمين الرحمن عز وجل، أو لأنهم يأخذون كتبهم بأيمانهم، أو لأنهم يُذهب بهم ذات اليمين إلى منازلهم في الجنة[1]، وسمُّوا كذلك تفاؤلًا؛ لأن العرب تقول: هذا فلان له يمنٌ وذاك له شؤم، فالذي له يمن أو يمين يكون خيرًا على نفسه وعلى أهله وعلى الناس الذين يلقاهم أو يعاملهم، ولذلك أصبح

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 286)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 391)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 201)، و«تفسير البغوي» (5/ 5)، و«تفسير القرطبي» (17/ 198)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 515)، و«فتح القدير» (5/ 178).

اليمين محمودًا في الشريعة؛ في الأكل والشرب والقيام والقعود والدخول والخروج واللُّبس وغيرها، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يعجبُه التيمُّنُ في تنعُّله وترجُّله وطُهوره وفي شأنه كلِّه[1].

والمقصود من السؤال في قوله: ﴿عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ﴾ التفخيم والتعظيم[2]، وكأنه مبتدأ وخبر، قال «**أصحاب الميمنة**»، وأخبر عنهم بمثل السؤال: ﴿عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ﴾، فالأمر أعظم وأكبر من أن يُوصف، ويكفي أن يقال عنهم؛ ليدل على تناهي ما هم فيه في الفضل والمكانة والمنزلة والرِّضا والسرور والحُبور وقرَّة العين.

* ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ﴾:

أي: في العذاب والنَّكال والرُّعب والخوف، والمقصود: ﴿ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، كما في السورة ذاتها، ومواضع أخرى من القرآن الكريم، وسمُّوا: ﴿ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾؛ لما سبق، ولأنهم يأخذون كتبهم بشمالهم، ولأنهم كانوا عن شمال آدم عليه السلام لما رآه النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وكان عن يمينه أَسْوِدَةٌ، وعن يسارِه أَسْوِدَةٌ، فإذا نظرَ قِبَلَ يمينه ضحكَ، وإذا نظرَ قِبَلَ شماله بَكَى[3]؛ ولأنهم ﴿ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ الذين كتب الله عليهم الهلاك.

* ﴿ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾:

بدأ بـ﴿شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾، ثم ﴿٤ وَلَا تُؤۡتُواْ﴾، ومر عليهم دون أن يقف السياق عندهم إلا لمجرد التفخيم والتعظيم، ثم ذكر ﴿أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ في المرحلة الثالثة، وهذا- والله أعلم- من أجل أن يفرغ السياق للكلام عنهم، لأنه لما ذكرهم استوفى الكلام

(1) كما في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري (168)، ومسلم (268).

(2) ينظر: «تفسير القشيري» (3/ 517)، و«تذكرة الأريب في تفسير الغريب» (ص387)، و«تفسير القرطبي» (17/ 199)، و«التفسير المظهري» (9/ 171)، و«فتح القدير» (5/ 178)

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (3342)، و«صحيح مسلم» (163).

المراد بشأنهم، ثم رجع إلى ﴿أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾ و﴿ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، فقال: ﴿ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾، وهذا مبتدأ وخبر، معناه: السابقون إلى الخيرات، السابقون إلى الجنات، هم السابقون إلى العمل، السابقون إلى الفضل، وكأنه أخبر بهم عنهم، وهذا معروف عند العرب، كما يقول قائلهم[1]:

أنا أبو النَّجْمِ، وشِعْرِي شِعْرِي

أي: فلان هو: فلان، ما يحتاج إلى المزيد من الكلام والتفصيل، فهنا إشارة إلى علو السابقين وفضلهم ومنزلتهم عند الله.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ جمع: مقرَّب، أي: مقرَّبون عنده سبحانه، و**المقرَّب** أفضل من **القَرِيب**، ففلان مقرَّب عندي، أي: أنني قرَّبته واصطفيته، أما القريب فقد يكون قريب نسب؛ أو هو الذي يحاول أن يتقرَّب مني[2]، فهؤلاء المقرَّبون هم ممن اختارهم واصطفاهم وفضَّلهم في الدنيا بلزوم الطاعة، وفي الآخرة بالفضل والمكانة.

وهذا لا ينافي ذكر أعمالهم الصالحة لأن الله تعالى لا يُقرِّب أحدًا لأنه يسكن في المدينة أو في مكة، أو لأنه من قريش أو من العرب، ولا لأنه أبيض أو جميل الهيئة، وإنما ﴿مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣﴾ [الشورى: 13]، فهو يختارهم على علم، ويقرِّبهم؛ لصفاء قلوبهم، وصدق نواياهم، وسلامة سرائرهم، وكمال إشراقهم وعملهم الصالح، ويُقرِّبهم لتواضعهم، ولهذا قيل في معاني: ﴿خِفۡتُمۡ أَلَّا﴾: أنها تخفض المرفوع وترفع

(1) ينظر: «المنصف» لابن جني (ص10)، و«المُفَصَّل في صنعة الأعراب» (ص46)، و«معاهد التنصيص» (1/ 26) منسوبًا إلى أبي النَّجْم.

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 288).

المخفوض، تخفض المتكبِّر المتعجرف المتعالي، وترفع المتواضع المخبت لربه[1]، فكلما كان الإنسان أكثر ضعفًا وانكسارًا وتواضعًا وأبعد عن رؤية الذات، كان أقرب إلى النجاة.

* ﴿قِيَمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾:

يحتمل أن يكون هذا ظرف لتقريبهم، فهم مقرَّبون في الجنة.

ويحتمل أن يكون خبرًا ثانيًا أو ثالثًا عنهم بأن مقرَّهم ومصيرهم ﴿قِيَمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾.

* ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰ﴾:

الثُّلَّة: الجماعة من الناس، قلَّت أو كثرت[2].

و﴿لَهُمْ قَوْلًا﴾ **هذا يحتمل معنيين:**

أنهم من أتباع الأنبياء السابقين، كنوح وموسى وعيسى وشعيب وصالح عليهم السلام، والرسل أنفسهم يدخلون دخولًا أوليًّا في ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾، وعلى هذا يكون المقصود بـ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وعليه يصبح ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ من الأمم السابقة أكثر منهم في هذه الأمة؛ لأن الأمم السابقة كثيرة، والأنبياء كثيرون،

---

(1) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 232)، و«تفسير البغوي» (5/ 5)، و«تفسير القرطبي» (17/ 195)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 514)، و«الدر المنثور» (14/ 176)، وما تقدم في قوله تعالى: ﴿خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾.

(2) ينظر: «مجاز القرآن» (2/ 248)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص446)، و«مقاييس اللغة» (1/ 368)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص175)، و«زاد المسير» (4/ 220)، و«لسان العرب» (11/ 89)، و«تاج العروس» (28/ 162) «ث ل ل»، و«التحرير والتنوير» (27/ 289).

وثمة الأنبياء والرسل والشهداء والصِّدِّيقون والصالحون والحواريون، فكل هؤلاء من السابقين، وكلهم من المقرَّبين.

وقد ذهب إلى هذا أكثر المفسرين، ونُقل عن جمع من السلف(1).

والقول الثاني: أن هؤلاء جميعًا هم من هذه الأمة، فـ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا﴾ أي: من الذين صحبوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم، ﴿ ٥ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ أي: من التابعين ومَن بعدهم إلى قيام الساعة(2).

وعليه، فالله تعالى لم يذكر الأمم السابقة، ليس لأنه لا سابقون فيها، ولكن لأن الخطاب موجَّه لهذه الأمة، فذكر تعالى من هذه الأمة من السابقين ثُلَّة من المتقدِّمين من الصحابة رضي الله عنهم، ولهذا قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**خيرُ الناس قَرْني، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يَلُونهم**»(3). وقال صلى الله عليه وسلم: «**لا تَسُبُّوا أصحابي، لا تَسُبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدَكم أَنْفَقَ مثلَ أُحُدٍ ذهبًا، ما أدركَ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَهُ**»(4). وذكر في فضل الصحابة رضي الله عنهم وسابقتهم، بل ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم مما يعزِّز هذا المعنى؛ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ﴾ [التوبة: 100]، وقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الحشر: 8]، فهذا يعزِّز المعنى، ولا ينفي

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 216)، و«تفسير الطبري» (22/ 291)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 392)، و«تفسير السمعاني» (5/ 344)، و«تفسير البغوي» (5/ 6)، و«تفسير الرازي» (29/ 392)، و«تفسير القرطبي» (17/ 200)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 517)، و«التحرير والتنوير» (27/ 290).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 489)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 213)، و«الكشاف» (4/ 458)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 334)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 518).

(3) أخرجه البخاري (2652)، ومسلم (2533) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(4) أخرجه البخاري (3673)، ومسلم (2541) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أن يكون من السابقين، ومن المقرَّبين الرُّسل والأنبياء وأتباعهم، لكنه طُوي ولم يُذكر هاهنا؛ لأن السياق يخص أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا المعنى نُقل عن الحسن البصري وابن سِيرين وجماعة[1]، ورجَّحه ابن كثير في تفسيره[2]؛ لفضل هذه الأمة، ولاستبعاد أن يكون ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلًا﴾ من الأمم السابقة، ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ﴾ من هذه الأمة، فهذا نوع من النقص في حق هذه الأمة، مع أن السياقات والنصوص لم يُعهد منها مثل هذا المعنى، وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**والذي نفسي بيده، إني أرجو أن تكونُوا رُبُعَ أهل الجنة**». فكبَّرْنا، فقال: «**أرجو أن تكونوا ثُلُثَ أهل الجنة**». فكبَّرْنا، فقال: «**أرجو أن تكونُوا نصفَ أهل الجنة**». فكبَّرنا[3]، والنصوص تدل على فضلهم وسابقتهم.

وقد يقال بأن الأمم السابقة كثيرة ممتدة من عصر التكليف ونزول الرسل إلى بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، وحتى مع ذلك فهذه الأمة ممتدة أيضًا، فهي من بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة، فالأمة كثيرة جدًّا، وجاءت نصوص كثيرة تدل على ذلك، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «**إذ رُفِعَ لي سَوادٌ عظيمٌ، فظننتُ أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى صلى الله عليه وسلم وقومُه، ولكن انظرْ إلى الأُفُق. فنظرتُ فإذا سَوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: انظرْ إلى الأُفُق الآخر. فإذا سوادٌ عظيمٌ، فقيل لي: هذه أُمَّتُكَ، ومعهم سبعونَ ألفًا يدخلونَ الجنةَ بغير حساب ولا عذاب**». فسُئل عنهم

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 344)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 519).

(2) ينظر: «تفسير ابن كثير» (7/ 518).

(3) أخرجه البخاري (3348)، ومسلم (222) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فقال: «**هم الذين لا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَيَّرُونَ، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكَّلُونَ**»[1].

وفي رواية صحيحة قال صلى الله عليه وسلم: «**وعدني ربي سبحانه أن يُدْخِلَ الجنةَ من أمتي سبعينَ ألفًا لا حسابَ عليهم ولا عذابَ، مع كل ألف سبعونَ ألفًا**...»[2]. وهذا عدد ضخم وكبير.

ومع أن الأمر محتمل، فالذي يظهر- والله تعالى أعلم- أن القول بأن ﴿قَوَّلَا﴾ و﴿ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ هم من هذه الأمة أليق بالسياق وبالنصوص الأخرى، مع غير بخسٍ لِمَن جاؤوا قبل هذه الأمة.

وفي كل دعوة خير، فمن الناس مَن يبادر ويقول: أنا لها، ويندفع برغبة وبصيرة، ومنهم مَن يكون عنده تردد وإحجام، يراعى المصالح والمفاسد، فإذا رأى الناس أقبلوا واندفعوا تنشَّط وصحبهم، وهذا فائدة الصحبة الطيبة، وإذا ثقل الناس فإنه يثقل معهم.

وفي هذه الآية الكريمة دعوة إلى المبادرة، وأن على المؤمن أن يسارع في عمل الخير، وإذا كان هؤلاء هم السابقون، فالله يأمرنا أن نجتهد أن نكون منهم فيقول: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [الحديد: 21]، فـ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ لديهم مسارعة وفتح لأبواب الخير وطرائقه وذرائعه، وتشجيع لغيرهم على سلوك الطريق؛ لأنهم جمعوا بين الإيمان الصادق بالله، وبين شدة الرغبة والحماس في الخير، وقلة المبالاة بالمعوِّقين والمثبِّطين وغيرهم تبعٌ لهم في ذلك.

---

(1) أخرجه البخاري (5705)، ومسلم (220) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(2) أخرجه أحمد (22156)، والترمذي (2437)، وابن ماجه (4286)، وابن حبان (7246) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2179).

وفيها دليل على فضل هذه الأمة وفضل السابقين منها؛ لأنه تعالى جعلهم بخير المنازل والمكانة، فهم الذين جاهدوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك يصح أن نسمِّيهم جميعًا سابقين، كما سماهم ربهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى﴾ [التوبة: 100]؛ وحين جبن الناس وكذَّبوا وتأخَّروا وتراجعوا وتردَّدوا وخافوا أقدم هؤلاء وسبقوا غيرهم وتحمَّلوا التَّبِعة وآمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم ﴿أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [الأعراف: 157]، فسماهم تعالى: ﴿أَمۡوَٰلَكُمۡ﴾، وهذا يشمل جمهور الصحابة رضي الله عنهم، وقد يشمل قريبًا أو قليلًا ممن كانوا بعدهم من التابعين، كما قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ﴾ [التوبة: 100].

ولا غرابة؛ فهم الذين ربَّاهم الرسولُ صلى الله عليه وسلم؛ بل اختارهم الله تعالى على عينه، وشهدوا التنزيل، وسمعوا القرآن رَطْبًا يُتلى من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصلَّوْا خلفه، وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم «**سمعَ اللهُ لمَن حمدَه**». فقالوا هم من ورائه: «**ربنا ولك الحمدُ**». وقال: «**ولا الضالينَ**». فقالوا من ورائه: «**آمين**». وأمرهم، فقالوا: سمعنا وأطعنا. ونهاهم، فقالوا: انتهينا انتهينا. وجاهدوا معه، وقُتلوا بين يديه، وفضَّلوا الموت على الحياة؛ فداءً له صلى الله عليه وسلم، كما قال عُبيدة بن الحارث وهو يُصرع بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم: أما والله، لو أدرك أبو طالب هذا اليوم؛ لعلم أني أحق منه بما قال حين يقول:

كَذَبتُم وبَيتِ اللهَ نُبزَى[1] مُحَمَّدًا *** ولمَّا نُطاعِن دونَهُ وَنُناضِلِ
ونُسلِمهُ حَتّى نُصَرَّعَ حَولَهُ *** وَنذهلَ عَن أَبنائِنا والحَلائِلِ[2]

(1) أي: نُسلَب ونُغلَب عليه.

(2) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (1/ 275).

وإذا كان هؤلاء يرتقي إليهم شك أو ريب، فمَن هو المربِّي أو القدوة أو السياسي أو القائد الذي سوف يصنع أتباعًا، ويقيم مجتمعًا، ويبني دولة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!

إن التشكيك في الجيل الأول هو تشكيك في جنس الإنسان، وإذا أصابنا شك في جدارة الأولين الذين ربَّاهم محمد صلى الله عليه وسلم، فهل يمكن أن نثق بغيرهم، أو نتوقع نجاحًا من سواهم؟

وقد يحتج بعض الناس بمثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَثَلُ أمتي مَثَلُ المطر، لا يُدْرَى أَوَّلُه خيرٌ أم آخرُهُ**»[1].

وهذا الحديث رواه أحمد، وغيره من طرق، وهو حسن بمجموع الطرق، وهو دليل أيضًا على فضل آخر هذه الأمة، وأن فيها من السابقين فضلًا عن أصحاب اليمين، وفيها خير كثير، ولكن لا يدل الحديث على تساوي الأولين والآخرين، وإنما تشبيه الصالحين المتأخِّرين بالسابقين الأولين.

* ﴿إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ﴾:

هذا طرف من نعميهم ﴿قِيَمًا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾.

والمَوْضُون هو: المَرْمُول أو المنسوج[1]؛ لأن السُّرُر قد تُصنع من الخشب، وقد تُصنع من الحديد، لكن الله سبحانه وتعالى هنا بيَّن أن سُرُرهم أنعم من ذلك، فهي

---

(1) أخرجه الطيالسي (682)، وأحمد (18881)، وابن حبان (7226) من حديث عمار رضي الله عنه.

وأخرجه الطيالسي (2135)، وأحمد (12327، 12461)، والترمذي (2869) من حديث أنس رضي الله عنه. وينظر: «العلل» لأحمد (3/ 314- 315)، و«الضعفاء» للعقيلي (1/ 309)، و«شرح علل الترمذي» (2/ 501- 502)، و«تحقيق منيف الرتبة لَمن ثبت له شريف الصحبة» للعلائي (ص84- 90)، و«المنتخب من علل الخلال» لابن قدامة (12)، و«السلسلة الصحيحة» (2286).

منسوجة من خيوط من الذهب، ولا يذهب وَهْلك إلى أنه الذهب عيار واحد وعشرين، أو أربع وعشرين الذي عند الصَّاغة! اسمه ذهب، لكنه في الجنة شيء آخر؛ لأنه «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء»[2]، فهو منسوج من ذهب الجنة، وهكذا عادة الأَسِرَّة التي فيها كمال المتعة، تكون منسوجة من هذه الخيوط المتداخلة، ويقعد عليها أصحابها المنعَّمون.

ويُسَمَّى الحبل الذي في بطن النَّاقة: الوَضِين[3]، كما قال الشاعر في الناقة التي حجَّ عليها[4]:

إليكَ تَعْدُو قَلِقًا وضِينُها *** مُعترضًا في بطنها جَنِينُها

مخالفًا دينَ النصارَى دينُها

* ﴿ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ﴾:

أي: لا ينظر بعضهم إلى ظهر بعض، وإنما ينظرون إلى وجوه إخوانهم[1].

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 110)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 203)، و«تفسير البغوي» (5/ 6)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 520)، و«فتح القدير» (5/ 179).

(2) كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، وسيأتي تخريجه في «سورة الملك»: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 291)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 203)، و«زاد المسير» (4/ 220)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (10/ 198).

وينظر أيضًا: «العين» (7/ 61) «و ض ن»، و«جمهرة اللغة» (2/ 912) «ض ن و»، و«تاج العروس» (36/ 258) «و ض ن».

(4) ينظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (5/ 390)، و«سبل الهدى والرشاد» (6/ 422) منسوبًا إلى أبي علقمة بشر بن معاوية.

ونسبه في «نهاية الأرب في فنون الأدب» (18/ 122)، و«الإصابة» (5/ 438) إلى كُرْز بن علقمة النجراني.

وهذا من كمال الإكرام والاحترام والمتعة؛ أن بعضهم ينظر إلى بعض، وقد جعلهم تعالى في الجنان إخوانًا، كما قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:47]، فمن كمال المتعة المتعة بالمؤانسة والمجالسة، وهذه متعة محسوسة؛ فإن سهرة مع صديق تحبه ويحبك تعد من متع الدنيا، ولهذا ذكر هذا المعنى في الجنة بكونهم ﴿إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ يتحدَّثون ويتضاحكون ويتذكرون ويستمتعون، فهذا جمع النعيم الحسِّي والنعيم المعنوي.

* ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾:

يدورون عليهم مرة بعد مرة[2]، **والوِلْدَان** جمع: ولد، وهم الصبيان قبل سن البلوغ أو مع سن البلوغ[3]، ذكرهم تعالى في القرآن الكريم في أكثر من موضع، كما في «سورة الإنسان»، **فمَن هؤلاء الولدان؟** قال بعضهم: هم أولاد المؤمنين الذين ماتوا قبل الحُلُم قبل البلوغ[4]، ﴿خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ﴾ [الطور: 21]، وهذا القول ليس بذاك.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 294)، و«تفسير السمعاني» (5/ 346)، و«تفسير القرطبي» (17/ 202)، و«تفسير النسفي» (3/ 421)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 520).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 293).

(3) ينظر: «المجموع المغيث» (3/ 451)، و«المصباح المنير» (2/ 671) «و ل د».

(4) ينظر: «تفسير القرطبي» (17/ 203)، و«حادي الأرواح» (ص215)، و«تفسير الخازن» (4/ 235)، و«فتح القدير» (5/ 180).

وقيل: هم أولاد المشركين الذين ماتوا دون الحُلُم، وهذا قول جيد، ونُقل عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم، واختاره البخاري، وجماعة من أهل العلم[1].

وجاء في حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه، حديث الرُّؤْيا، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أخبر أن إبراهيم عليه السلام في روضة وحوله ولدان، وأنهم «**كلُّ مولود مات على الفطرة**». فقيل له: وأولادُ المشرِكين؟ قال: «**وأولادُ المشركين**»[2]. لأن هؤلاء غير مكلَّفين، فماتوا قبل سن التكليف.

وإذا تذكرت أن هؤلاء وأمثالهم ممن ماتوا قبل البلوغ أنهم إلى رحمة الله سبحانه، فإن هذا يسكب على قلبك سكينة وراحة، والمؤمن يفرح برحمة الله للعباد، ولذلك ذكر بعضهم هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [التكوير: 8- 9]، أن ﴿رَقِيبًا﴾ ورد أنها في الجنة[3]، وإن كان الحديث في ذلك لا يصح؛ لكن يصدق على هذا القول الذي اخترناه، يعني ممن كانوا دون الحُلُم والبلوغ.

ويمكن أن يكون مع الوِلدان أيضًا ولدان ممن خلقهم الله سبحانه وتعالى للخدمة، كما خلق الحور العين في الجنة للتنعم، والحور العين فيهم نساء من نساء الدنيا، وفيهم ممن خلق الله سبحانه وتعالى، فكذلك الوِلدان يكون فيهم ممن خلق الله سبحانه وتعالى وأنشأهم لهذا العمل، وفيهم الوِلدان الذين ماتوا قبل البلوغ وقبل الحُلُم، وأمثالهم ممن وسعتهم رحمة الله ولم تقم عليهم حجة الرسالة.

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 392)، و«تفسير القرطبي» (17/ 203)، و«أحكام أهل الذمة» (1/ 944)، و«فتح الباري» (3/ 246)، و«تفسير الثعالبي» (4/ 78)، وما سيأتي في «سورة التكوير»: ﴿ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا ﴾.

(2) أخرجه البخاري (7047).

(3) ينظر: «تفسير يحيى بن سلام» (2/ 657)، و«مسند أحمد» (20585)، و«سنن أبي دواد» (2521).

ووصف هؤلاء الوِلدان بالخلود، أي: أنهم في عمر واحد، وأهل الجنة أعمارهم ثلاثة وثلاثون سنة[1] في سنِّ عيسى عليه السلام حين رُفع، ذكورهم وإناثهم، وكأن هذا هو اكتمال النضج للإنسان- والله أعلم- وقبل بداية النقص فيه، أما هؤلاء الوِلدان فهم صغار، وهؤلاء وأولئك لا يجري عليهم الزمن ولا يصيبهم الضعف أو التغير في وجوههم أو أجسادهم، لا تجري عليهم نواميس الدنيا وقوانينها من الكبر والهَرَم والضعف والشيخوخة، وإنما هم ﴿رَبَّكُمُ﴾ في هذا السِّنِّ[2].

وهؤلاء الوِلدان يطوفون على أهل الجنة ﴿خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ﴾، **والأكواب** هي: الأواني التي ليس لها يد تمسك بها، وليس لها خرطوم يصب منه الماء، وأما **الأبارِيق** فهي: الأواني التي يكون لها مقبض تمسك به، ولها خرطوم يصب منه الماء[3]، وكلمة «إبرِيق» فارسية معرَّبة[4].

والكلام هنا عن الخمر، وأفرد الكأس؛ لأنه هو المقصود، فالإنسان لا يشرب بأكواب ولا بأباريق، وكأن الأكواب والأباريق هي الوعاء الأصلي الذي تُوضع فيه الخمر، ثم يسكب منها بالكأس للشارب، وإنما يشرب بكأس واحد، ولذلك أفرده.

وأيضًا فكلمة «كؤوس» ثقيلة لأن فيها همزات متعدِّدة، ولذلك أفردها، فصارت ذات رشاقة وجمال.

---

(1) ينظر: «مسند أحمد» (7933)، و«جامع الترمذي» (2545)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 209)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (2/ 68- 69)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (3/ 408).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 294- 295)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 392)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7262)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 520)، و«التحرير والتنوير» (27/ 293).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 110)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 491)، و«تفسير السمعاني» (5/ 346)، و«تفسير البغوي» (5/ 7)، و«تفسير القرطبي» (17/ 203)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 520)، و«التحرير والتنوير» (27/ 293- 294).

(4) ينظر: «فقه اللغة» للثعالبي (ص208)، و«الإتقان» (2/ 129).

والمَعِين ذكره الله تعالى في أكثر من موضع، والمقصود به هنا: الخمر؛ إشارة إلى أن هذه الخمر تجري، كما قال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: 15]، فالكأس من هذا المَعِين، ومعناه أنها خمر صافية ليست كخمر الدنيا، ولذا عقَّب بقوله: ﴿زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا﴾ أي: لا يصيبهم الصُّداع الذي تسبِّبه خمر الدنيا[1]، ولذلك قال: ﴿مِنْهُمَا﴾ أي: بسببها[2].

ومن المعاني الصحيحة أنهم لا يتفرَّقون[3] عنها أو بسببها؛ لأن الذين يشربون في الدنيا إذا سَكِروا هَذَوْا، وربما تفرَّقوا بسبب تعكر المزاج أو عدوان بعضهم على بعض.

﴿رِجَالًا كَثِيرًا﴾ أي: لا تذهب عقولهم[4]، بخلاف خمر الدنيا فإنه يكون من جرائها السُّكر، فهذا المقصود به نزِيف العقول، ونزِيف العقول هذا مصطلح حديث، ولكن الخمر تنزف العقل وتذهب به.

* ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ﴾:

---

(1) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص447)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 110)، و«تفسير الماوردي» (5/ 451)، و«المحرر الوجيز» (5/ 242)، و«زاد المسير» (4/ 221).

(2) ينظر: «الكشاف» (4/ 460)، و«تفسير النسفي» (3/ 421)، و«الدر المصون» (10/ 200)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 191)، و«روح المعاني» (14/ 136)، و«التحرير والتنوير» (27/ 294).

(3) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص447)، و«الكشاف» (4/ 460)، و«زاد المسير» (4/ 221)، و«تفسير القرطبي» (17/ 203)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 178)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 80)، و«فتح القدير» (5/ 180).

(4) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 123)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 392)، و«تفسير السمعاني» (5/ 347)، و«تفسير البغوي» (5/ 7)، و«تفسير القرطبي» (17/ 203)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 520).

بدأ بالفاكهة؛ لسرعة هضمها وسهولته، ولذا ينصح علماء التغذية وخبرائها بتقديم أكل الفاكهة قبل اللَّحم، ويقولون: إن أكل الفاكهة بعد اللحم يذهب بعض فوائده وخصائصه[1].

وفي قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ إشارة إلى كثرة أنواعها: ﴿ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [الرحمن:52].

وأما اللَّحم فقال: ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾، وذلك لأن لحم الطير مفضَّل على غيره، وقال: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ لأن الفاكهة لا تمنع من اشتهاء اللَّحم، فسرعان ما تُهضم ويشعر الآكل بالفراغ والحاجة إلى الطعام.

❊ ﴿ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ﴾:

قراءة الجمهور بالرفع: ﴿ٱللَّهَ كَانَ﴾؛ لأنها معطوفة على ما قبلها، وفي قراءة بكسر الراء والنون: ﴿وَحُورٍ عِينٍ﴾[2] على الإتْباع اللَّفْظي[3]؛ لقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن﴾، وإن اختلفت في المعنى، فالحور لا يطوف بها الوِلدان المخلَّدون، بل هي معهم على السُّرُر متقابلين.

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 396)، و«روح المعاني» (14/ 137)، و«التحرير والتنوير» (27/ 295).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 301- 302)، و«السبعة في القراءات» (ص622)، و«معاني القراءات» للأزهري (3/ 49)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص207)، و«معجم القراءات» (9/ 296).

(3) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص340)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 255)، و«حجة القراءات» (ص695)، والمصادر السابقة.

والحُور جمع: حَوْراء، وهي شديدة البياض مع شدة الجمال والصفاء في الألوان[1]، وعِينٌ جمع: عَيْناء، وهي واسعة حدقة العين مع صفاء العين وجمالها[2].

والجمال هنا في وجوه أهل الجنة، وفي أزواجهم، وفي مجالسهم، وفي متَّكآتهم، وفي طعامهم، فهي جمال تام، لا نقص فيه بوجه من الوجوه، مما يعطي متعة النظر والسمع والقلب وسائر الجوارح.

* ﴿رَقِيبًا ۝١ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ﴾:

أي: في جمالهن وصفائهن وصيانتهن[3].

* ﴿أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾:

إشادة بهم، وأنهم مقرَّبون، فضلًا من الله، لكن بسبب أعمالهم الصالحة وأخلاقهم الجميلة واحتسابهم لما عند الله.

وفيه دعوة إلى العمل؛ فالعمل الصالح سبب لدخول الجنة، وهذا الجزاء بسبب عملهم.

* ﴿بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾:

اللَّغو هو: الكلام الذي لا فائدة فيه[1]، وكثير من الكلام لغو، وكذلك اللَّغو فيه السَّب والشتم والقيل والقال وغيره مما يُنزَّه عنه أهل الجنة.

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 111)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص262)، و«بصائر ذوي التمييز» (2/ 506).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 302)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 111)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 338)، و«روح البيان» (9/ 323).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 302)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 111)، و«تفسير الماوردي» (5/ 452)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 335)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 524).

وأما التأثيم فهو: نسبتهم إلى الإثم[2]، أي: لا يسمعون من ينسبهم إلى الإثم أو ينتقصهم، أو يثيرهم ليقعوا في المآثم، فالجنة منزَّهةٌ عن ذلك، ولكنه إشارة إلى أنهم كانوا في الدنيا كذلك، كانوا يتجنَّبون اللَّغو: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [القصص: 55]، ولا يردُّون اللَّغو بمثله، فهم قد أمسكوا ألسنتهم عن مثل هذا، يختارون أطيب الكلام، كما يختار آكلُ الطعام أطيبه، فلا يتكلَّمون إلا بخير، وإذا زلَّ واحد منهم بكلمة أسرع في الاعتذار.

وخص «السماع»؛ لأن تمكين أذنك من سماع اللَّغو تشجيع عليه، والذي لغا أو اغتاب أو سبَّ أو شتم، لو لم يجد مَن ينصت إليه لما تكلَّم، وهم لا يقولونه أيضًا، فما ثَمَّ في الجنة إلا صالحون لا يقولون اللَّغو، ولذا لا يسمعونه، بخلاف الدنيا، ففيها الصالحون عفيفو الألسن، وفيها الهجَّاؤون والشتَّامون والعيَّابون وأهل اللَّغو.

وفي ذلك تذكير بخطر اللِّسان، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه، وقد أخذَ بلسانه: «**كُفَّ عليكَ هذا**». قال: يا نبيَّ الله، وإنَّا لَمُؤاخذُونَ بما نتكلَّمُ به؟ فقال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا معاذُ! وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم**- أو: **على مناخرهم- إلَّا حصائِدُ ألسنتهم!**»[3].

* ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (17/ 206)، و«تفسير الخازن» (4/ 236)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 524)، و«فتح القدير» (5/ 181)، و«التحرير والتنوير» (27/ 296).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 305)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 338)، و«تفسير الماوردي» (5/ 452)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 234)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 179)، والمصادر السابقة.

(3) أخرجه الطيالسي (561)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (3/ 26)، وأحمد (22016)، والترمذي (2616)، وابن ماجه (3973)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (6)، وابن حبان (214)، والثعلبي في «تفسيره» (7/ 331- 332). وينظر: «السلسلة الصحيحة» (1122، 3284)، و«إرواء الغليل» (413).

لا يسمعون في الجنة ﴿ إِنَّهُۥ﴾ أي: قولًا ﴿ كَانَ حُوبًا ﴾، وهنا جعل ﴿كَانَ﴾ منصوبة مع أن السلام بالرفع أبلغ وأقوى، كما في قصة إبراهيم عليه السلام ﴿ مَّعْرُوفًا ۝٥ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ ﴾ [الذاريات:25]، وإنما نُصبت ﴿كَانَ﴾ هنا؛ لأنها بدل من «قيل»، وهي في مقام مفعول به منصوب[1].

وهذا التكرار ليس للتوكيد، وإنما هو للإعادة مرة بعد مرة، مثلما تقول: قرأتُ القرآن سورةً سورةً، وقرأت الكتاب بابًا بابًا، وهذا الشهر قضيته في المدينة يومًا يومًا. **فالمعنى**: سلام بعد سلام، مرة بعد مرة[2].

* ﴿ ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ﴾:

سماهم مرةً: ﴿شَىْءٍ مِّنْهُ﴾، ثم نوَّع وتفنَّن، فسماهم: ﴿أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى﴾، وسماهم مرةً: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، كما في قوله سبحانه: ﴿ فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ ۝٥﴾ [الإنسان:5]، وقوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم ٱلنِّكَاحَ ﴾ [الانفطار:13]، ولكن ﴿أَلَّا تُقْسِطُواْ﴾ أوسع؛ فهو يشمل «الظالم لنفسه»، ومَن له ذنوب وكبائر استوجب بها النار ثم أُخرج منها وطُهِّر، فهؤلاء معدودون من ﴿أَلَّا تُقْسِطُواْ﴾ لأنه ليس ثمة إلا ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾، و﴿أَلَّا تُقْسِطُواْ﴾، وهم مؤمنون، فليسوا من ﴿ٱللَّهُ لَكُمْ يَكْبَرُواْ﴾.

كما يشمل «المقتصد»، ويشمل «السابق بالخيرات»؛ إذا لم يُذكر منفردًا، كما ذُكر في هذه السورة المباركة.

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 460)، و«التبيان في إعراب القرآن» (2/ 1204)، و«تفسير القرطبي» (17/ 206)، و«تفسير النسفي» (3/ 422)، و«فتح القدير» (5/ 181).

(2) ينظر: «تفسير ابن جزي» (2/ 335)، و«روح المعاني» (14/ 139)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (13/ 365)، والمصادر السابقة.

* ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ﴾:

﴿فَٱنكِحُواْ﴾ جمع: سِدْرة، وهو شجر معروف من شجر الحجاز، وليس بالكبير[1].

وقد ورد أن أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون: إن اللهَ ينفعُنا بالأعراب ومسائلهم، أقبل أعرابيٌّ يومًا فقال: يا رسولَ الله، لقد ذكرَ اللهُ في القرآن شجرةً مؤذيةً، وما كنتُ أَرَى أن في الجنة شجرةٌ تُؤذِي صاحبها! فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**وما هي؟**». قال: السِّدْرُ؛ فإن لها شوكًا. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا﴾ يَخْضِدُ اللهُ شوكَه، فيجعلُ مكانَ كلِّ شوكة ثمرةٌ، فإنها تُنْبِتُ ثمرًا تُفْتَقُ الثمرةُ معها عن اثنين وسبعينَ لونًا، ما منها لونٌ يُشبهُ الآخرَ**»[2].

و**المَخْضود** هو: الذي نُزع شوكه، فليس كسِدر الدنيا، وإنما الاسم للتقريب فحسب، إذ هو من جنس السِّدر، وبدل كل شوكة ثمرة؛ فهو سِدر قد خُضِدَ شوكه وكثر طلعه[3].

* ﴿لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

أي: بعضه بجنب بعض، وهو منضود بكثرة الثَّمَر[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 404)، و«التحرير والتنوير» (27/ 298).

(2) أخرجه الحاكم (2/ 476)، والبيهقي في «البعث والنشور» (276)، والمقدسي في «صفة الجنة» للمقدسي (73) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 306)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 112)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 206)، و«تفسير السمعاني» (5/ 347)، و«تفسير البغوي» (5/ 8)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 525)، و«التحرير والتنوير» (27/ 299).

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 218)، و«إيجاز البيان» (2/ 795)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 526)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 364)، و«التحرير والتنوير» (27/ 299).

والطَّلْح هو: شجر ضخم من شجر البوادي، عريض، كثير الورق، شديد الخُضرة[1]، فكأنه ذكر الشجر الصغير وإلى جواره الشجر الكبير، وهي ألوان من التفنُّن بالنعيم، ولا يعني حرمان هؤلاء مما عند الأولين، ولا أن ما عند هؤلاء ليس عند السابقين، وإنما المقصود الإشارة إلى أن منزلتهم أقل من منزلة الذين من قبلهم، كما في «سورة الرحمن»[2].

وقيل: الطَّلْح هو: شجر المَوْز، رُوي هذا عن علي رضي الله عنه[3]. وهو كذلك بلغة اليمن، حيث يسمون المَوْز: الطَّلْح، أو: الطَّلْع[4].

والنص يشمل الطَّلْح المعروف، ويشمل شجر الموز، وهو غالبًا لا ينبت في بلاد العرب؛ لكون المناخ فيها لا يوائمه.

* ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾:

أي: طويل[5]، وفي الحديث يقول النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**إن في الجنة شجرةً يسيرُ الراكبُ الجوادَ المُضَمَّرَ السريعَ مئةَ عامٍ ما يقطعها**». ثم قرأ: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ﴾[1]،

---

(1) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص448)، و«تفسير الطبري» (22/ 309)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 230)، و«تفسير القرطبي» (17/ 208)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 526)، و«التحرير والتنوير» (27/ 299).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة الرحمن»: ﴿١ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا﴾.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 311)، و«تفسير القرطبي» (17/ 208)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 335)، و«اللباب» (18/ 396)، و«الدر المنثور» (14/ 193)، و«فتح القدير» (5/ 186).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 312)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 526).

وينظر أيضًا: «مختار الصحاح» (ص191)، و«لسان العرب» (2/ 533)، و«تاج العروس» (6/ 580) «ط ل ح».

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 313)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 207)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 234)، و«تفسير القرطبي» (17/ 209)، و«فتح القدير» (5/ 183).

فلو أن إنسانًا يركب جَوَادًا مُضَمَّرًا وسريعًا فيسير به مئة عام لم يقطع ظل شجرة واحدة من هذا الطَّلْح.

وهذا الحديث حكم جماعة من أهل العلم بأنه متواتر؛ لوروده عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم(2).

* ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾:

أي: يجري على ظهر الأرض أنهارًا لا تحتاج إلى حواف حتى تحفظ الماء(3)؛ لأن النظام في الجنة ليس كالناموس في الدنيا، فالماء مسكوب يجري للمؤمنين ويجري من تحتهم دون حاجة إلى مجرى.

* ﴿أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾:

ليست مثل فاكهة الدنيا تأتي في موسم ثم تنقطع بقية العام، أو تكون خاصة ببلد دون آخر، وإنما هي كثيرة متنوِّعة، وليست في وقت دون وقت، ولا ممنوعة عنهم(4).

وقد يرى المرء الفاكهة في الدنيا ثم تُمنع عنه؛ لندرتها أو غلائها أو لأسباب صحية، كما يترك التمر خوف ارتفاع السكر مثلًا.

---

(1) أخرجه البخاري (3252، 4881)، ومسلم (2826) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري (6552)، ومسلم (2827) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما.

وأخرجه البخاري (6553)، ومسلم (2828) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري (3251) من حديث أنس رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري (6553)، ومسلم (2828) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(2) ينظر: «تفسير ابن كثير» (7/ 528).

(3) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 208)، و«تفسير البغوي» (5/ 8)، و«تفسير القرطبي» (17/ 209)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 529)، و«روح البيان» (9/ 325).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 318)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 393)، و«زاد المسير» (4/ 223)، و«تفسير القرطبي» (17/ 210)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 530).

❊ ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا﴾:

فهم على فُرُش و﴿أَيۡمَٰنُكُمۡ أَدۡنَىٰٓ﴾ [الغاشية: 13]، والرفع هنا بقدر ما بين السماء والأرض[1].

إنك في هذا المشهد الأخروي الغيبي أمام عالم آخر مختلف، والسياق فقط للتقريب، وإلا فالأمر مما لا يمكن تخيله! ورفعها بنقائها، بطهارتها، بطيبها.

❊ ولما ذكر الفُرُش ذكر النساء، بقرينة التلازم، فقال: ﴿تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾:

وهذا يشمل نساء الدنيا، كما قال جمهور المفسرين[2]، وورد في آثار مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولا تصح.

وقد أتت عجوزٌ من الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسولَ الله، ادعُ الله أن يُدخلَني الجنةَ. فقال نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الجنةَ لا يدخلُها عجوزٌ**». فأُخبرَ النبي صلى الله عليه وسلم أنها لَقِيَتْ من كلامه مشقةً وشدةً! فقال نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ ذلك كذلك؛ إنَّ الله إذا أدخلَهنَّ الجنةَ حَوَّلَهن أَبكارًا**»[3].

❊ ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 319)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 208)، و«تفسير السمعاني» (5/ 350)، و«تفسير القرطبي» (17/ 210)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 530)، و«فتح القدير» (5/ 187).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 495)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 393)، و«تفسير الماوردي» (5/ 455)، و«تفسير البغوي» (5/ 11)، و«تفسير القرطبي» (17/ 210)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 531)، و«التحرير والتنوير» (27/ 301)، والمصادر السابقة.

(3) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٥٤٥)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم» (١٨٥)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (٣٩١)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٧٩) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

وأخرجه الترمذي في «الشمائل» (٢٤١)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٣٨٢) عن الحسن مرسلًا. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2987).

هنا البكارة دائمة مستمرة، ومثلما قلنا في الوِلدان: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ فكذلك نساء الجنة أبكار دائمًا وأبدًا في الجسد والسِّنِّ والروح والجمال، لا يؤثِّر فيها الزمن، ولا يغيِّر حالها إلا إلى الأطيب والأفضل.

* ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ﴾:

﴿فَإِن﴾ جمع: عَرُوبة[1]، و**العَرُوبة** قل فيها ما شئتَ من معاني الكمال والجمال والزينة، **العَرُوبة** هي: المتحبِّبة لزوجها، تتغزَّل به، وتعرب عن مشاعرها وعن حبِّها، هي العاشقة لزوجها[2].

و﴿طِبۡنَ﴾: **الأَتْراب**: المتساويات في السِّنِّ- وغالبًا ما تُوصف به النساء- أما الرجال فيقال عنهم: أقران- كما قال تعالى: ﴿نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النبأ:33]، يعني في سِنٍّ واحد[3]، ﴿عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ﴾.

* ﴿نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ﴾:

وهذا يقال فيه ما قلنا سابقًا في الخلاف في المقصود بـ﴿هَنِيٓـٔٗا﴾ و﴿تُؤۡتُواْ﴾، هل هم الأمم السابقة وهذه الأمة، أو أول هذه الأمة وآخرها؟

والأقرب أن ﴿هَنِيٓـٔٗا﴾ هم: الصحابة رضوان الله عليهم، و﴿تُؤۡتُواْ﴾ هم: آخر هذه الأمة[1].

---

(1) ينظر: «المفردات في غريب القرآن» (ص557)، و«بصائر ذوي التمييز» (4/ 38- 39)، و«لسان العرب» (1/ 591)، و«تاج العروس» (3/ 338) «ع ر ب».

(2) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 278)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 235)، و«تفسير القرطبي» (17/ 211)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 533- 534)، و«فتح القدير» (5/ 184)، و«التحرير والتنوير» (27/ 302).

(3) ينظر ما سيأتي في «سورة النبأ».

* ﴿أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ﴾:

و**السَّموم**: الرِّيح الحارة الشديدة[2]، **قيل**: مأخوذة من السُّم؛ لأنها كالسُّم ينغرس في جسد الإنسان لشدة حرارتها وما تورثه من العطش، ولذلك جمع الله بينهما فقال: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾.

و**الحَمِيم** هو: الماء الحار الذي بلغ النهاية في الحرارة[3]، فإذا جاءتهم السَّمُوم ولَّدت عندهم العطش، طلبوا الماء فسُقوا هذا الماء الحَمِيم.

* ﴿لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥﴾:

والذي يسير في الصحراء فتهب عليه السَّموم يهرب إلى الظلِّ يأوي إليه، أما أهل النار فهو ظلٌّ يزيدهم عذابًا فوق عذابهم، هو ظلٌّ من دخان، مأخوذ من الحُمَم، وهو الفحم، فهو ظل من دخان جهنم شديد الحرارة[4]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ﴾ [المرسلات:31،30]، هو ليس ظلًّا

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 113)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 213)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 235)، و«تفسير البغوي» (5/ 15)، و«تفسير القرطبي» (17/ 212)، وما سيأتي في «سورة الحديد»: ﴿مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ﴾.

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 497)، و«تفسير البغوي» (5/ 16)، و«تفسير الرازي» (29/ 409)، و«تفسير القرطبي» (17/ 213)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 537)، و«فتح القدير» (5/ 184)، و«التحرير والتنوير» (27/ 304).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص424)، و«بصائر ذوي التمييز» (3/ 256).

(3) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 352)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص643)، و«تفسير السمعاني» (5/ 352)، و«تفسير القرطبي» (17/ 213)، و«فتح القدير» (5/ 184)، و«التحرير والتنوير» (27/ 304).

ظليلًا كظل أهل الجنة ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: 57]، ولا يغنيهم من اللَّهب، بل هو من اللَّهب، وهو عذاب لهم أيضًا[1].

* ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟﴾:

ليس الظل باردًا يُطلب لاتقاء الشمس، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ يُطلب لتقدير الإنسان وكرامته[2].

* ﴿ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟﴾:

هل كان ترفهم في الدنيا موجبًا للعقوبة؟ هل الترف كله حرام يستوجب ذلك؟

من أجود الأجوبة عندي في ذلك أن يقال: ليس قوله: ﴿رُشْدًا﴾ بيانًا لسبب عقوبتهم، وإنما مقارنة بين حالهم الآن في النار، وبين حالهم في الدنيا، فهم الآن ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾، وقد كانوا كلهم أو بعضهم ﴿ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ في ترف ونعيم في الدنيا، لم يتعوَّدوا على تحمل الشدائد والصِّعاب، والتعرَّض للرِّياح السَّموم والشمس والرَّمْضاء، وهذا على سبيل الأغلب؛ لأن الغالب ممن يعادون الرُّسل والأنبياء يكونون متمسكين بمصالحهم الدنيوية ورياساتهم وأموالهم، وقد يكون فيهم مَن كانوا في الدنيا فقراء لم يستمتعوا بشيء من طيباتها، ثم كانوا في عذاب من جنسه في الآخرة بسبب كفرهم وجحودهم للحق واتِّباعهم لساداتهم وكبرائهم.

---

(1) ينظر ما سيأتي في «سورة المرسلات».

(2) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 456)، و«تفسير الرازي» (29/ 410)، و«تفسير الخازن» (4/ 239)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 85)، و«مراح لبيد» (2/ 484)، والمصادر السابقة.

ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿رُشْدًا﴾ ترفًا متجاوزًا للحدود، مضيِّعين للحقوق، مغترِّين بما هم فيه، زاعمين أنهم إن رُدُّوا إلى ربهم وجدوا منقلبًا حسنًا ومردًّا فاضلًا، دون أن يعملوا صالحًا أو يتَّقوا النار بإحسان في عبادة الله أو إحسان إلى عباده(1)!

* ﴿إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا﴾:

وليس المقصود- والله أعلم- مجرد الحِنْث باليمين؛ لأن مثل هذا يوجد فيمَن هم من ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا۟﴾ من الظالمين لأنفسهم، بل المقصود: أَيْمانهم الكاذبة على مخالفة الدين(2)، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: 38]، فهذا من ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ﴾، وكذلك حلفهم أَلَّا يُصاب المؤمنون بخير، قال سبحانه: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ [الأعراف:49]، فكانوا في حالة من الترف والاستكبار والإصرار على اعتقاداتهم الباطلة، إلى حد أن يحلفوا عليها، ثم يصرُّون دون مراجعة أو توبة، فهذا معنى ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ﴾.

وقيل: المقصود بـ﴿وَلَا﴾: اليمين الغموس(3)، وهي اليمين التي يحلف صاحبها على أمر يقتطع به مال امرئ مسلم، وسُمِّيت: غموسًا؛ لأنها تغمس صاحبها في النار، ولا كفارة لها، ولو أطعم ألف مسكين؛ لأن فيها اقتطاع مال امرئ مسلم، وفي الحديث

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 457)، و«التحرير والتنوير» (27/ 306)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 498)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 236)، و«المحرر الوجيز» (5/ 246)، و«تفسير القرطبي» (17/ 213)، و«التحرير والتنوير» (27/ 306)، و«أضواء البيان» (7/ 458).

(3) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 395)، و«تفسير السمعاني» (5/ 353)، و«تفسير البغوي» (5/ 16)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 538)، و«فتح القدير» (5/ 185).

«مَن حلفَ على يمين صَبْرٍ، يقتطعُ بها مالَ امرئ مسلم، هو فيها فاجرٌ، لَقِيَ اللهَ وهو عليه غضبانُ»[1].

وفي الحديث دليل على تعظيم حقوق الناس، ليس فقط المال، بل العرض والمال والنفس وكل حق وإن دق.

والصواب أن ﴿وَلَا﴾ هو: الإثم، يقال: بلغ الغلام الحِنْث، إذا صار مكلَّفًا محاسبًا على أعماله، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يتحنَّث في غار حراء، أو يتحنَّف، أي: يتعبَّد، كأنه يتخلَّص من الحِنْث، أي: من الإثم، وإن كان غلب على اللفظ اتصاله بالحِنْث في اليمين، أي: الإثم بقطعها، والحِنْث بالعهد والوعد، أي: إخلافه، ولكن أصل الكلمة هو: الإثم[2].

* ﴿وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ﴾:

على سبيل الاستبعاد والنفي، ﴿كَانَ فَقِيرًا﴾ هل سيبعثون معنا أيضًا؟ وقد كانوا يقولون: إن الرسل يَعِدُوننا بالبعث، ونحن لم نر أحدًا بُعث، آباؤنا وأجدادنا ماتوا، وما رأينا أحدًا منهم عاد إلى الدنيا، هكذا بسذاجة واستعجال[3].

* ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾:

أنتم وآباؤكم الأولون ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾، فالبعث ليس تدريجًا أو تقسيطًا أو جيل يُبعث وجيل يموت، كلا! بل البعث للناس كلهم في لحظة واحدة؛ ولهذا قال سبحانه:

---

(1) أخرجه البخاري (6676)، ومسلم (138) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 113)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 498)، و«تفسير السمعاني» (5/ 353)، و«المحرر الوجيز» (5/ 246)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 368).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 340)، و«تفسير السمعاني» (5/ 353)، و«تفسير القرطبي» (17/ 214)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 180)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 538)، و«التحرير والتنوير» (27/ 307).

﴿لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، أخبر أنها واقعة ووقعة واحدة للناس كلهم جميعًا وللأجيال كلها جميعًا، وفي الوقت الذي يريده الله عز وجل، فلا تنتظروا أن يُبعث أجدادكم أو آباؤكم قبل قيام الساعة، وإنما ستبعثون أنتم وآباؤكم وأجدادكم وغيركم عند ميقات محدَّد لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، ولم يقل: «لمجموعون لميقات»؛ لأن ﴿فَأَشْهِدُواْ﴾ تدل على الإمهال والتأجيل، كأنه قال: أنتم جميعًا مُنْظَرُون أو مؤجَّلون إلى ذلك الميقات الذي جعله تعالى لقيام الأرواح والأجساد[1].

وفي وصفه باليوم المعلوم نسبة لهم إلى الجهل فهو ﴿وَكَفَىٰ﴾، معلوم عند الرسل والأنبياء، ومعلوم في الكتب السماوية، ويكاد أن يُجمع البشر عليه، والعقول والفطر السليمة تدل عليه؛ لأن الذي خلق هذه الحياة بكل ما فيها من الحكمة والرحمة من كمال حكمته سبحانه أن يكون لها بقية، فهي فصل قصير عابر، يكون فيه المظلومون والظالمون، ثم يموتون دون أن يقتص لبعضهم من بعض، ولا بد من فصل آخر يعود فيه الأمر إلى نصابه، وينتصر المظلوم من الظالم، ويأخذ كل ذي حق حقه، وتبين من ورائه الحكمة في خلق الناس وامتحانهم.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا﴾:

قدَّم وصف ﴿رَبَّكُمُ﴾ على وصف ﴿ٱلَّذِي﴾، عكس ما سيأتي في قوله: ﴿تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾؛ مراعاة لترتيب الحصول؛ لأنهم ضلُّوا عن الحق، فكذَّبوا بالبعث، ليحذروا من الضلال ويتدبَّروا في دلائل البعث، وذلك مقتضى خطابهم بهذا الإنذار بالعذاب المتوقَّع[2].

---

(1) ينظر: «تفسير ابن كثير» (7/ 538)، و«التحرير والتنوير» (27/ 308- 309).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 309).

وشجر الزَّقُّوم هو: من شجر النار، يتزقَّمونه، وهو شديد المرارة، كثير الشوك، عظيم الضر[1]، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا﴾.

* وكما كانوا منعَّمين مترفين في الدنيا يتَّخمون من الأكل، ثم يميلون إلى الشراب، فهم كذلك في النار يأكلون من شجر الزُّقُوم، حتى يملئوا منه بطونهم، ثم يشربون عليه من الحَمِيم، قال تعالى: ﴿وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾.

وفي قوله: ﴿مِّن﴾، ﴿وَنِسَآءً﴾ إشارة إلى أن هذا حال دائم لهم أصبح جزءًا من حياتهم، وليس شيئًا عارضًا أو عابرًا.

﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾، **والهِيم** عند الجمهور هي: الإبل العِطاش، والإبل يصيبها داء يُسَمَّى: داء الهُيام، فتشرب دائمًا ولا تُروى[2].

وقيل: إن المقصود بها الرمال الممتدة التي تشرب كل ماء يُصب عليها[3].

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾:

ليس هذا هو كل ما هنالك، بل هذا النُّزل فحسب، والنُّزل: الضيافة الأولية التي تُقدَّم للزائر[1] قبل أن يُقدَّم له الطعام، فهو كالمقبِّلات والمشهِّيات، وإلا فإن ما ينتظرهم من النَّكال والعقاب أشد من ذلك[2].

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (8/ 145)، و«تفسير البغوي» (4/ 32)، و«تفسير أبي السعود» (7/ 193)، و«روح البيان» (7/ 464).

(2) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص644)، و«تفسير مقاتل» (4/ 222)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 280)، و«تفسير الطبري» (22/ 342- 343)، و«تفسير القرطبي» (17/ 214- 215)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 538)، و«الدر المنثور» (14/ 212)، و«التحرير والتنوير» (27/ 310).

(3) ينظر: «تفسير القشيري» (3/ 521)، و«تفسير السمعاني» (5/ 354)، و«المحرر الوجيز» (5/ 247)، و«الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» (10/ 212)، و«فتح القدير» (5/ 186).

* ﴿ ① وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ ﴾:

وكان أكثر ما يكذِّب به المشركون هو أمر البعث والنشور، ولذا بدأ في المجادلة معهم بتقرير الخلق، فنحن أنشأناكم من العدم[3]، فلم لا تصدِّقون بذلك، أَلَا يحملكم هذا على الإيمان بأن نشأة الآخرة هي أهون عليه؟! والأمر بالنسبة له عز وجل هَيِّن، ولا يختلف، ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ [الأنبياء: 104]، وهو في قوله: ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ﴾ [البقرة: 117]، ولكن على سبيل الحساب والنظر العقلي أن الإعادة في العادة وعند الناس أهون من الابتداء.

* ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾:

وهم يعرفون أن الإنسان تخلَّق بسبب تلاقح ماء الرجل وماء المرأة، وهم كذلك خُلقوا من ذلك، خُلقوا من هذا الماء وعرفوه، فهو يسألهم: هل أنتم الذين تخلقون هذا الماء؟ ثم تخلقون منه إنسانًا سويًّا؟ ﴿تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ﴾؟

هم يعرفون أنه لا يد لهم في ذلك، وإنما هي قدرة الله سبحانه وتعالى، وهم أدوات بيد القدرة الباهرة التي تختار من مئات الملايين من الحيوانات المندفعة واحدًا يفوز بالسَّبْق ويلقِّح البُويضة، حتى حين يكون المرء غافلًا، أو جاهلًا أو مجنونًا، فالعمل يتم وفق آلية إلهية دقيقة محكمة.

---

(1) ينظر: «العين» (7/ 367)، و«مجاز القرآن» (2/ 170)، و«معاني القرآن» للنحاس (4/ 298)، و«لسان العرب» (11/ 658) «ن ز ل»، و«بصائر ذوي التمييز» (5/ 41).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 247)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 368)، و«التحرير والتنوير» (27/ 311)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 345)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 237)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 539)، و«البحر المديد» (7/ 296)، و«تفسير القاسمي» (9/ 125).

* ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾:

كما قدَّرنا الحياة والخلق، ولم يقل: «قدَّرنا عليكم»؛ لأن الموت موزَّع بين الناس، كلٌّ له منه نصيبه، فنحن قدَّرناه بينكم في وقت معين، وكما أنه مقسوم مقدَّر بين الناس لكل واحد منهم أجله الذي لا يتخطَّاه إلى غيره، بل يتخطَّى غيره إليه، فهو الفاصل والحاجز الذي يحول بين بعضهم وبعض، ويمنع الأحفاد من رؤية الأجداد، ويفرِّق الأحبة، فهو هاذم اللَّذَّات.

والمقصود: نحن قادرون على أن نميتكم، ونأتي بأجيال بعدكم تخلفكم في هذه الأرض وتعيش كما عشتم[1]، ﴿فَٱنكِحُواْ﴾ أنتم أيها المخاطبون ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ﴾ أي: في حياة أخرى بعد الموت في البَرْزَخ ثم القيامة ثم الحشر ثم الجنة أو النار، فهذه مراحل لا تعلمونها، ولهذا جمع سبحانه بين وصفه بـ﴿ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ ﴾، ووصفه بـ﴿ طَابَ لَكُم مِّنَ ﴾، فهو معلوم إجمالًا من حيث ضرورة الوقوع، وغير معلوم من حيث الماهية؛ لأنكم لم تروه ولم تعيشوه، وهو معلوم إجمالًا لدى المؤمنين الذين أُوتوا العلم، وغير معلوم لدى أولئك المكذِّبين المجادلين.

* ﴿ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا ﴾:

لقد علمتم أن نشأتكم الأولى كانت من العدم، ثم من ﴿ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي ﴾ [المرسلات: 20]، فهلَّا تذكَّرتم، فحملكم ذلك على الاعتبار بأن الذي خلقكم أول مرة قادر على إعادة خلقكم وبعثكم، على أن تتذكَّروا أن الشيء الذي خُلقتم منه لا يصلح أن يكون سببًا في التعاظم والكِبْر والعُجب، وإنما كمال الإنسان في إيمانه وأخلاقه وسلوكه؛

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 346)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 237)، و«تفسير البغوي» (5/ 17)، و«فتح القدير» (5/ 188)، و«التحرير والتنوير» (27/ 317).

ولهذا مدح السابقين بقوله: ﴿أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾، ولما ذكر أصحاب المشأمة قال: ﴿ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا﴾، فالعبرة بفعل الإنسان لا بأصله.

وعلمكم بالنشأة الأولى يرشدكم إلى أن وراء الأمر خالقًا مدبِّرًا قديرًا عليمًا حكيمًا رحيمًا، فليس للإنسان استقلال بذاته، ولا قوة ولا تحكُّم في نفسه أو فيما حوله، بل هو مربوب مدبَّر مخلوق ضعيف، فإذا اتَّصل بربه وعَبَده وأحبَّه استمد منه القوة والعزة والسعادة والأمل.

* ﴿تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا﴾:

فهم يضعون الحَب في الأرض، لكن الله هو الذي خلق في الحَبِّ الحياة، وجعل الحبة مثل الحيوان المنوي للإنسان، تتخلَّق منها الزروع والشجر، سُنَّة وضعها تعالى في الزرع كما وضعها في الإنسان، والزارع الحقيقي في الحالين هو الله تعالى، وإن كان هذا لا يمنع أن يسمى الإنسان: فلَّاحًا أو زارعًا، كما قال سبحانه: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: 29]، والمقصود الإشارة إلى أنه تعالى هو الزارع الحقيقي الذي قدَّر لهذه الأشياء مقاديرها.

* ﴿تَعُولُوا۟ ۝٣ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ﴾:

أي: أرسلنا عليه ريحًا أو مطرًا أو بَرَدًا فحطَّم هذا الزرع قبل أوان الانتفاع به وحصاده[1]، ولو حدث هذا وجُعل الزرع ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ فماذا تستطيعون وكيف تتصرَّفون ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ أي: بقيتم تفكَّهون، **وأصل التفكُّه** هو: الشيء الذي يتمتع به

(1) ينظر: «تفسير ابن كثير» (7/ 540)، و«التحرير والتنوير» (27/ 322).

الإنسان[1]، ومنه الفكاهة المضحكة، ومنه الفاكهة، **والمعنى**: لو جعلناه هَشِيمًا يابسًا وحُطامًا فإنكم تتحوَّلون إلى محلِّلين ومتكلِّمين تبحثون عن أعذار لما جرى، وتتفنَّنون في تصريف الكلمات والعبارات والأسباب[2]، والمقام مقام غم وهم وحزن على فوات ما عولوا عليه وأمّلوا من الرزق والثمرة، ولكنه عبَّر بالتفكُّه، إما على معنى التفنُّن في القول ومذاهبه، أو على معنى الندم، كما ذكر بعض أهل اللغة.

وقيل: ﴿نَّحَلَةٌ﴾: تتناولون الفاكهة بدل الحَب[3]، والله أعلم.

* ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾:

﴿طِبْنَ﴾ أي: لمعذَّبون، **والغَرام**: العذاب[4]، ﴿عَن شَيْءٍ مِّنْهُ﴾، يصرفون الرأي عن احتمال الغَرام، ويقولون: ﴿شَيْءٍ مِّنْهُ﴾ أي: غير محظوظين[5].

وهذا تقريع لهم على صدودهم عن معرفة الأسباب الصحيحة لما وقع لهم، كما جرى لأصحاب الجنة في «سورة القلم»، وكما جرى لصاحب الجنتين في «سورة الكهف»، فما الذي ذهب بعقولكم وصرفكم عن معرفة السبب الأكبر، وهو الجحود وحبس حقوق الفقراء وكفر النعمة؟

---

(1) ينظر: «مقاييس اللغة» (4/ 446) «ف ك هـ»، و«شمس العلوم» (8/ 5242)، و«تفسير القرطبي» (17/ 219)، و«لسان العرب» (13/ 524) «ف ك هـ»، و«روح المعاني» (14/ 148).

(2) ينظر: «تفسير ابن كثير» (7/ 540).

(3) ينظر: «التفسير المظهري» (9/ 179)، و«التفسير القرآني للقرآن» (14/ 778)، و«التفسير الواضح» (3/ 601)، و«الموسوعة القرآنية» (8/ 433).

(4) ينظر: «لسان العرب» (12/ 436)، و«تاج العروس» (33/ 170) «غ ر م».

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 352)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 216)، و«تفسير البغوي» (5/ 18)، و«المحرر الوجيز» (5/ 249)، و«تفسير القرطبي» (17/ 219)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 89)، و«التفسير المظهري» (9/ 179).

* ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾:

وهو دليل ثالث على البعث مثل الحياة والنبات، وكثيرًا ما يأتي الاستدلال على البعث بإحياء الأرض: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ﴾ [الحج: 5]، ولما ذكر تعالى نبات الأرض وخروج الثمر فيها قرن ذلك بمسألة البعث، كما في قوله: ﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧ ﴾ [ق: 6- 7]، وقوله: ﴿ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ۝٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ ﴾ [فاطر: 9]، وهنا انتقل إلى نزول الماء وحياة الناس والأرض به.

والماء أصل الحياة، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ ﴾ [الأنبياء: 30]، ولهذا امتن به تعالى فقال: ﴿ تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي ﴾، و**المُزْن** هو: السَّحاب[1]، ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾، فالله تعالى هو الذي يجري السَّحاب، فتمطر الغيث الذي به حياة الأرض.

﴿ وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا ﴾: فلو شاء سبحانه لجعل الماء العذب الحلو الذي يشربونه أُجاجًا، ولهذا ذكَّرهم به ووجوب الشكر لله عليه.

وهنا سؤال: لماذا قال في الزرع: ﴿ تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ ﴾ وقال في الماء: ﴿ وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ ﴾ بدون اللام، واللام للتوكيد؟

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 353)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 114)، و«تفسير القرطبي» (17/ 220)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 541)، و«التحرير والتنوير» (27/ 324).

وقد قرأتُ في كتب التفسير، ولم أهتد إلى شيء واضح في الفرق بينهما، وخطر في بالي معنى محتمل، وهو أنه بالنسبة للأول جاء باللام في شأن الزرع؛ لأنه أمر كثير الحدوث متكرِّر أن المزارع إذا اكتمل زرعه أنزل الله تعالى عليه بَرْدًا أو مطرًا أو ريحًا فحطَّمته، ومن ذلك ما ذكره تعالى في «سورة القلم»: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [القلم:17- 18]، في حين لما كان الأمر يتعلَّق بالماء المشروب لم يذكر لام التوكيد؛ لأن المقصود الإشارة إلى القدرة والإمكانية مع قلة حدوث ذلك أو ندرته، والله أعلم؛ لأن الماء من ضروريات الحياة الإنسانية خاصة ماء الشرب العذب.

ولذا يموت مَن يتيه في الصحراء عطشًا أكثر مما يموت جوعًا، فكان من فضل الله ورحمته مع قدرته على ذلك، ومع عدم شكركم، أن مَنَّ عليكم بالماء العذب الفرات السائغ الذي لا لون له ولا طعم ولا رائحة، ومع هذا فهو للعطشان ولغيره ألذ شراب وأطيبه وأسوغه.

والأُجاج هو: المر أو المالح، قال سبحانه: ﴿قِيَمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥ وَٱبْتَلُوا۟﴾ [الفرقان: 53]، فالأُجاج هو: الملح شديد الملوحة[1].

* ﴿۝٥ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا﴾:

وهذا دليل رابع على البعث من وجه لطيف؛ فهو لم يشر إلى النار كلها، بل أشار إلى ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ﴾ أي: تستخرجونها بالقَدْح من الشجر[1]، فثمة أنواع من

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 223)، و«تفسير الطبري» (22/ 354)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 396)، و«تفسير القرطبي» (17/ 221)، و«فتح القدير» (5/ 190).

الشجر له خاصية الاشتعال إذا قُدح غصن منها بالآخر اشتعل، فهذه النار الكامنة داخل الغصن الأخضر من آيات الله العظيمة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:80].

وهنا يسألهم: هل أنتم خلقتم هذا الشجر؟ هل أنتم وضعتم النار في جوف الغصن الأخضر؟ ﴿ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾؟ بل هو المنشئ سبحانه.

ولعل في ذلك إشارة إلى قضية الروح، ووجودها في جسد الإنسان، مثل وجود النار الكامنة في الغصن، فإذا قدحته ظهرت النار فيه، فكذلك جسد الإنسان الميت هو خاوٍ ثاوٍ، ليس فيه روح، ولكن يأتي يوم ويُؤمر المَلَك فيصيح تلك الصيحة وينادي المنادي فتذهب الأرواح إلى أجسادها، فيكون ذلك بمثابة قدح الزِّناد واستخراج الروح من داخل هذا الجسد.

﴿إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ﴾: تُذكِّر بنار الآخرة ﴿ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ﴾ [ق: 37]، فإن الإنسان الذي يكون في قلبه بعض الحياة يلتقط الذِّكرى من أي شيء؛ ولذلك كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يعظ بنار الدنيا للتخويف من نار الآخرة، فيقول: «**نارُكم هذه التي يُوقِدُ ابنُ آدمَ جزءٌ من سبعينَ جزءًا من حَرِّ جهنمَ**». قالوا: والله، إن كانت لكافيةً يا رسولَ الله. قال: «**فإنها فُضِّلَتْ عليها بتسعة وستِّينَ جزءًا، كلُّها مثلُ حَرِّها**»[2].

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 355)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 115)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 396)، و«تفسير الماوردي» (5/ 461)، و«تفسير البغوي» (5/ 18)، و«زاد المسير» (4/ 227)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 541).

(2) أخرجه البخاري (3265)، ومسلم (2843) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والمُقْوِي هو: المسافر[1]؛ لأنه دخل في القَوَاء، وهو البَر، يُسمَّى: قوًّا؛ لأنه فارغ، تقول: أَقْوَتِ الدار، إذا رحل عنها أهلها[2].

وقال كعب بن زُهير[3]:

أَمِنْ دِمْنَةِ الدَّارِ أَقْوَتْ سِنِينا *** بَكَيْتَ فظَلْتَ كئيبًا حزينًا

بها جرَّت الريحُ أذيالَها *** فلم تُبْقِ من رسمِها مُسْتَبينًا

وذكر المسافر؛ لأنه يحتاج النار أكثر من المقيم، فهو يوقد النار ليستدفئ بها، حيث لا يجد ما يُكِنُّه ويُظِلُّه، ويهتدي بها في الطريق، أو يتعرف على ما حوله، أو ليراه أحد فيأتي إليه، أو ليطرد عنه الهوام، إلى غير ذلك من الفوائد.

وفي الآية الكريمة إلهام البحث عن فوائد النار في رُقِيِّ الحضارة وفي حياة الناس الآن، وهي ضلع المثلث المشهور: الماء والهواء والنار، كما تلهم آية موسى عليه السلام: ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ...﴾ [طه: 18]، البحث عن فوائد العصا، وقد كتب في ذلك طائفة من العلماء[4].

وقيل: المراد بالمُقْوِين: كل مَن احتاج إلى النار من مسافر ومقيم[5].

* ﴿وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن﴾:

---

(1) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص451)، و«تفسير الطبري» (22/ 356)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 115)، و«تفسير الماوردي» (5/ 461)، و«تفسير السمعاني» (5/ 357)، و«تفسير القرطبي» (17/ 221- 222)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 542).

(2) ينظر: «غريب القرآن» للسجستاني (ص451)، و«لسان العرب» (15/ 211)، و«تاج العروس» (39/ 365) «ق و ي».

(3) ينظر: «ديوان كعب بن زهير» (ص93).

(4) ينظر: «البيان والتبيين» (3/ 46)، و«تفسير القرطبي» (11/ 187- 189)، و«العصا» لأسامة بن منقذ، كما في «نوادر المخطوطات» لعبد السلام هارون (1/ 175-215).

(5) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 238)، والمصادر السابقة.

الذي هذا خَلْقُه، وهذا كونه، وهذه مخلوقاته، وهذا وعده، وهذا وعيده، وهذا كلامه.

فسبِّح باسمه تعالى، أي: نزِّه اللهَ عن كل ما لا يليق به، من العبث أن يخلق الخلق من غير شيء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ﴾ [الطور:35]، أو أن يخلق الخلق ولا يعيد بعثهم إليه، أو أن يعد عباده ويوعدهم ثم لا يكون هذا الذي وعدهم به.

ونزِّهه سبحانه عن الأوثان التي عبدوها من دونه، واشتقُّوا لها أسماءً من أسمائه؛ تشبيهًا وتلبيسًا على الجاهلين والمغفَّلين؛ اللَّات والعزَّى ومَنَاة الثالثة الأخرى.

﴿وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ﴾: و«اسم» هنا قد تكون للتوكيد والتفخيم، أي: سبِّح ربَّك العظيم، وسبِّح باسمه، يعني: انطق باسمه[1].

و﴿ۚ﴾ من أسمائه تعالى؛ ولذلك جعل هذا التسبيح للركوع: «سبحان ربي العظيم»؛ تعظيمًا وإجلالًا لله عز وجل، وتمهيدًا للسجود الذي هو قمة العبادة ونهاية الخضوع وذِروة النُّسك[2]، وقد روى أحمد، وأبو داود، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ﴾ قال صلى الله عليه وسلم: «**اجعلوها في ركوعكم**». ولما نزلت: ﴿أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣﴾ قال: «**اجعلوها في سجودكم**»[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 424)، و«التفسير القيم» (ص527)، و«التحرير والتنوير» (27/ 328).

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة الحاقة»: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا﴾. و«سورة الأعلى»: ﴿أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣ وَءَاتُواْ﴾.

(3) أخرجه الطيالسي (1093)، وأحمد (17414)، وأبو داود (869)، وابن ماجه (887)، وابن خزيمة (600، 670)، وابن حبان (1898)، والطبراني في «الدعاء» (584)، والحاكم (1/ 225)، (2/ 477)، والبغوي في «تفسيره» (8/ 27). وينظر: «إرواء الغليل» (334)، و«فقه العبادة» للمؤلِّف (2/ 187).

ويشهد للحديث فعل النبي صلى الله عليه وسلم في صلاته، حيث كان يفعل ذلك، كما في حديث حُذيفة رضي الله عنه، وغيره[1].

ليس ثمة عبادة أعظم من أن تسجد لله، وتقول: «سبحان ربي الأعلى»، ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ، فأكثروا الدعاءَ**»[2].

وتأمَّل كلمة «**أقربُ**» اقرنها بالآية الآمرة بالتسبيح، ثم ضم إليها قوله: ﴿**ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ إِسۡرَافٗا جَعَلَ ٱللَّهُ** ﴾، فالسجود قُرب من الله؛ ولذلك «**إذا قرأَ ابنُ آدمَ السجدةَ فسجدَ، اعتزلَ الشيطانُ يبكي، يقولُ: يا وَيْلَهُ**- وفي رواية: **يا وَيْلي- أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسجود فسجدَ فلهُ الجنةُ، وأُمرتُ بالسجود فأَبيتُ فلي النارُ**»[3].

والسجود الخاشع هو سر التواضع لله، وكمال التواضع هو كمال العبودية، والسابقون هم الفائزون في سباق الذُّلِّ لله والتواضع لعظمته والخضوع بين يديه.

إن المؤمن المصلِّي حين ينخرط في تسبيح واعٍ صادق يشاركه الكون كله في السجود: ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ [الرحمن:6]، فإذا سجد فثَمَّ نهاية الخضوع حينها يقول: «سبحان ربي الأعلى»؛ إشارة إلى كمال العلو لله عز وجل.

* ﴿**كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ**﴾:

(1) أخرجه مسلم (772).

(2) أخرجه مسلم (482) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) أخرجه مسلم (81) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذا قَسَم، وإن كان ظاهره النفي[1]، كما في نظائره في مواضع عديدة في الكتاب الكريم[2]، وبعضهم قال: لا أقسم أي: الأمر لا يحتاج إلى قسم[3]؛ **والأقرب** أن هذا قَسَم، وأصله عند العرب أنه كان يقول الواحد منهم: لا أقسم على هذا الشيء، يعني كأنه يقول: إن الأمر أظهر من أن يحتاج إلى قَسَم، ثم جرت وأصبحت هذه كلمة دارجة على ألسنتهم على معنى القَسَم، فإذا قال: «**لا أقسم**» فهو حلف ويمين، ولذلك قال: ﴿فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا﴾، فأثبت أنه قَسَم، وإن كان لفظه النفي؛ لأن «لا» هنا أشبه ما تكون بالتوكيد، أو بأنها جارية مجرى الإثبات[4].

ومواقع النجوم هي: مساقط النجوم، أي: أماكن مغيبها[5].

وقد ذكر تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: 1]، وهو قَسَم أيضًا، فيكون قَسَمَه **بمواقع النجوم** مثل قسمه **بالنجم إذا هَوَى**، أي: أقسم بأماكن النجوم التي تختفي فيها، وكما قال: ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ صَدُقَاتِهِنَّ مِّنَ النِّسَاءِ هَنِيئًا﴾ [التكوير:15- 16]، و﴿النِّسَاءِ﴾ هي: الظِّباء التي تختفي في الكِناس، وهو بيت الظَّبْي، فكذلك النَّجم كأن له بيتًا مثل الظَّبْي يختفي فيه، يُقسم تعالى بالنجم إذا هَوَى، أي: إذا غاب[6].

---

(1) ينظر: «الكشاف» (4/ 468)، و«المحرر الوجيز» (5/ 250)، و«زاد المسير» (4/ 227)، و«تفسير القرطبي» (17/ 223)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 543)، و«التحرير والتنوير» (27/ 330).

(2) كما في قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ﴾، وقوله: ﴿أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ﴾.

(3) ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 330).

(4) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 115)، و«الكشاف» (4/ 468)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 338)، و«فتح القدير» (5/ 192)، و«التحرير والتنوير» (27/ 330).

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 360)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 115)، و«تفسير السمعاني» (5/ 358)، و«تفسير البغوي» (5/ 19)، و«تفسير القرطبي» (17/ 223).

(6) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 602)، و«تفسير الطبري» (24/ 152)، و«تفسير القرطبي» (19/ 237)، وما تقدم في «سورة النجم»، وما سيأتي في «سورة التكوير».

أو يكون المقصود: القَسَم بالشِّهاب الذي يسقط، أو القَسَم بمحل النجوم، سواء كان ظاهرًا أو غير ظاهر.

وقد اكتشف علماء الفضاء أن ثمة نجومًا خُلقت ولا نراها؛ لأن ضوءها لا يزال في طريقه إلينا، وأن ثمة نجومًا احترقت منذ آماد طويلة ونحن لا نزال نرى ضوءها الذي وصل إلينا بعد مسافة طويلة قطعها بين مصدر الضوء الذي قد احترق، وسوف يتوقف الضوء عنا بعد آماد طويلة الله تعالى أعلم بها.

﴿فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا﴾: إشارة إلى أن عالم الكواكب والفضاء والنجوم واسع لا يحيط به البشر، وكل الذي نراه أو نقرؤه ليس إلا شيئًا يسيرًا بالقياس إلى ما لم تره، والأفلاك والكواكب والمجرَّات التي لم يكتشفها علم الإنسان أكثر مما اكتشفه بكثير، فلا زال العلم قاصرًا جدًّا.

وثَمَّ معنى لطيف، وهو أن السابقين من هذه الأمة ربما كانت معلوماتهم عن الفضاء والكواكب والمجرَّات محدودة، ولكن كان إيمانهم قويًّا، والقدر المحدود من علمهم أورثهم يقينًا وصدقًا وإخلاصًا، بخلاف حال أكثر الناس اليوم!

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المقصود ﴿وَمَن﴾: مواقع نزول الآيات من القرآن الكريم[1]؛ فإن القرآن نزل مُنَجَّمًا على ثلاث وعشرين سنة، بحسب الوقائع والأسباب، كما قال سبحانه: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:106]، ولكن القول الأول أقوى.

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص645)، و«تفسير الطبري» (22/ 359)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 239)، و«تفسير البغوي» (5/ 19)، و«تفسير القرطبي» (17/ 224)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 544)، و«الدر المنثور» (14/ 219).

هذا الذي تقرؤونه وتسمعونه وتخاطبون به هو قرآن مقروء يُتلو بالألسن، وهو مكتوب مسطور، ولذلك سماه كتابًا: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [البقرة: 2]، و﴿ٱتَّقُواْ﴾ عظيم من الله سبحانه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن﴾: وهذه من الآيات التي أَشْكَلت على بعض المفسرين، هل المقصود بـ﴿خَلَقَكُم مِّن﴾: المصحف الذي كُتب فيه القرآن، ولم يكن موجودًا آنذاك؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم مات والقرآن لم يُجمع في كتاب واحد، ولكن الإشارة إليه باعتبار علم الله سبحانه بأن ذلك سيحدث[1].

فعلى هذا يكون المعنى: في كتاب محفوظ من الزيادة والنقصان، كما قال سبحانه: ﴿تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾ [الحجر:9]، وعليه يكون قوله: ﴿وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ دليل على أنه لا يجوز أن يلمس المصحف إلا إنسان متطهِّر من الحدثين الأصغر والأكبر.

وقد ضعَّف ابن القيم رحمه الله هذا القول في تفسير الآية من عشرة أوجه[2]، وذكر أن الآية مكية، لم يكن ينزل كثير من تفصيل الأحكام بمكة، ولم يكن القرآن مجموعًا في كتاب آنذاك، ثم إن المصحف قد يلمسه غير المسلم.

أما القول الثاني في المقصود: بـ﴿خَلَقَكُم مِّن﴾: فهو إنه اللَّوح المحفوظ[1]: ﴿رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا﴾ [البروج:21- 22]، المحفوظ عند الله سبحانه وتعالى في السماء السابعة[2].

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 463)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 239)، و«زاد المسير» (4/ 228)، و«تفسير القرطبي» (17/ 225)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 545)، و«فتح القدير» (5/ 193).

(2) ينظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص226- 229). وينظر أيضًا: «فقه العبادة» (1/ 460).

والقول الثالث: أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة[3]؛ ولذلك قال مالك: «أحسن ما سمعتُ في هذه الآية: ﴿وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ إنما هي بمنزلة هذه الآية التي في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ﴾ [عبس: 11– 16][4]. فأصح ما تُفسَّر به الآية: قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ﴾.

فهذا يدل على أن المقصود: كتاب في أيدي الملائكة، وعليه يكون المقصود بالمطهَّرين: الملائكة.

وهذا القول فيه وجاهة، فالله تعالى طهَّرهم مثلما وصفهم بأنهم: ﴿عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ [الأنبياء: 26]، وأنهم ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ﴾، والمؤمن طاهر، وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**إن المؤمنَ لا يَنْجُسُ**»[5].

* ﴿مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾:

فيه إثبات علو الله سبحانه، ولهذا نقول: «سبحان ربي الأعلى»، وأنه أنزل الكتاب على نبيِّه صلى الله عليه وسلم.

* ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾:

سماه: حديثًا؛ لأنه كلام الله الذي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ [الزمر: 23].

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 224)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 115)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 398)، و«تفسير الماوردي» (5/ 463)، و«تفسير القرطبي» (17/ 224).

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة البروج».

(3) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 359)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 339)، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» (13/ 384)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «موطأ مالك» (2/ 279) (682).

(5) أخرجه البخاري (285)، ومسلم (371) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

و﴿تَسَآءَلُونَ﴾ أي: شاكُّون.

وتحتمل الآية معنى آخر، وهو: أنكم مجاملون لغيركم، أو مداهنون لهم[1].

وكأن السياق عتاب لبعض المشركين الذين كان في قلوبهم ميل إلى الإيمان، ولكنهم يجاملون كبراءهم وجلساءهم، فلا يظهرون إيمانهم، بل يكتمونه، ويتظاهرون بالكفر، وهم بذلك كفار قطعًا، فيوافقون جماعتهم على أن هذا سحر أو شعر أو كهانة، وربما في داخلهم اعتقاد آخر، فالله تعالى يعاتبهم ويقول: أنتم أمام حديث واضح البيان قوي الحجة، فلماذا تكتمون الحقَّ، وتجاملون غيركم بالباطل؟

وفيه دعوة إلى أن ينفكَّ المسلم عن التفكير على طريقة «العقل الجمعي»؛ لأن الإنسان حين يكون منتظمًا في مدرسة أو جماعة أو طائفة بينه وبينهم علاقة، فهو يوافقهم على ما يقولون وينتحلون ويختارون من الآراء والاجتهادات والأقوال الفقهية والسياسية؛ لأنه لو خالفهم ربما سبُّوه أو آذوه أو اتهموه أو عيَّروه أو انتقدوه أو نفوه من بينهم، فأصبح خليعًا منبوذًا من جماعته أو عشيرته، حتى أولاده وبناته ينظر إليهم بريبة ويحاذرهم الناس لئلا يُقال عنهم ما يُقال، والفرد عادة حريص على التواصل مع نظرائه، وألا يتعرَّض لتأثيم أو تعيير أو عيب.

وهذا مدعاة أن يهز رأسه بالموافقة على الخطأ المشهور، والإعراض عن الحق المهجور، وبهذا يتميز المصلحون والقادة والمجدِّدون بأنهم يشقون طريقًا مختلفًا، ويصبرون ويتحملون، ويكون لديهم من سعة المعرفة وقوة الحجة، وسلامة المنطق واللسان، وعظمة الأخلاق ما يحفرون به مجرى جديدًا وتصحيحًا وتصويبًا، يحاربه

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 398)، و«تفسير القرطبي» (17/ 227)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 340)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 372)، و«التحرير والتنوير» (27/ 338- 339).

الناس أول الأمر، ثم يتقبَّلونه، ثم يتعصَّبون له على غير وعي، فيحتاجون إلى مجدِّد آخر يزيل عنهم الغشاوة، والله المستعان.

ولذلك قال سبحانه: ﴿قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [سبأ: 46]، فإذا عزلتَ إنسانًا عن مجموعته المؤثِّرة وجعلته في جو انفرادي، بدأ يفكِّر باستقلاله بعيدًا عن المؤثرات الخارجية، فيستخدم عقله وخبراته ونفسيته وروحانيته ويتضرَّع إلى الله سبحانه، فيصل إلى نتائج مختلفة فيها كثير من التجرُّد، ولهذا قال هنا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾، **والمعنى:** أنكم تكذِّبون بهذا الحديث، وتُداهنون من أجل الحفاظ على مصالحكم، وتظنون أن رزقكم لا يتم إلا بهذا، كمثل موظف يوافق مَن حوله على ما يقولون؛ لأنه لو خالفهم يخسر وظيفته، فيكذب من أجل الوظيفة أو المنزلة أو المكانة أو العطاء، فهذا عتاب لَمن يفعل هذا.

وهذا قول ليس بالمشهور، لكن له وجاهة وسلاسة وترابط مع السياق.

والقول المشهور عند جماهير المفسرين: أنكم تجعلون بدلًا من شكركم لربكم أن تكذِّبوا[1]، فتقابلون نعمه التي لا تُحصى بالتكذيب؛ ولذلك قال علي رضي الله عنه- لا

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 368)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 116)، و«تفسير البغوي» (5/ 21)، و«زاد المسير» (4/ 229)، و«تفسير القرطبي» (17/ 228)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 545)، و«فتح القدير» (5/ 194).

على سبيل القراءة ولكن على سبيل التفسير-: «وتجعلون شكركم أنكم تكذِّبون»[1]. ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا[2].

الرزق يأتي في اللغة بمعنى: الشكر[3]، وفي الحديث عن زيد بنِ خالد الجُهني رضي الله عنه، أنه قال: صَلَّى لنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم صلاةَ الصبح بالحُدَيْبِيَة على إِثْرِ سماء كانت من الليلة، فلما انصرفَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أقبلَ على الناس فقال: «**هل تدرونَ ماذا قال رَبُّكُمْ؟**». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**أصبحَ من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأما مَن قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأما مَن قال: بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب**»[4]. وذلك لأن العرب في الجاهلية كانوا يعتقدون أن النجوم تأتي بالمطر ويعتقدون أن الشِّعْرى أو الزُّهَرة لهما تأثير في الأَنْواء ونزول الأمطار، فنفى تعالى ذلك وبيَّن أن الأمر من عنده فكيف تشكُّون وتجعلون شكركم لنعمة الله تعالى بالمطر أو غيره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾؟ وتنسبونه إلى النجم أو الوثن، فهذا هو المعنى.

وقد جاء هذا الحديث عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، وقال الشافعي وغيره من العلماء: إن من قال: «مُطرنا بنَوْء كذا»، وهو يقصد أن النجم هو الذي يُحدث المطر، أن ذلك من الشرك بالله سبحانه وتعالى، ومن قالها وهو يقصد أن هذا هو

---

(1) أخرجه الطبري في «تفسيره» (22/ 371)، والثعلبي في «تفسيره» (9/ 222).

وينظر: «إعراب القرآن» للنحاس (4/ 229)، و«تفسير الماوردي» (5/ 465)، و«الكشاف» (4/ 469)، و«المحرر الوجيز» (5/ 252)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «فضائل القرآن» للقاسم بن سلَّام (ص214)، و«تفسير الطبري» (22/ 370).

وينظر: «الحجة للقراء السبعة» (6/ 265)، و«المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» (2/ 310).

(3) ينظر: «جمهرة اللغة» (2/ 707)، و«مقاييس اللغة» (2/ 388) «ر ز ق».

(4) أخرجه البخاري (1038)، ومسلم (71).

موسمه وحينه المعتاد فلا بأس بذلك، وهو كقوله: مُطرنا في شهر كذا، أو يوم كذا، وإن كان تجنبه أفضل[1].

ولذلك لما استسقوا في عهد عمر رضي الله عنه، وقال عمر للعباس: «يا عباسُ، يا عمَّ رسول الله، كم بقي من نَوْءِ الثُّرَيَّا؟». فقال العباسُ رضي الله عنه: «العلماء بها يزعمون أنها تعترض بعد سقوطها في الأُفق سبعًا». قال: فما مضت سابعةٌ حتى مُطرنا[2].

فعلى هذا فقد علم عمر رضي الله عنه أن نَوْء الثُّرَيَّا وقت يُرجى فيه المطر، ولذا سأل العباس، والثُّرَيَّا- كما ذكر ابن عبد البر والبيهقي وابن حجر وغيرهم من أهل العلم-: نجم يطلع صباحًا في أول فصل الصيف عند اشتداد الحر في بلاد الحجاز.

* ﴿عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ﴾:

إذا كان الأمر عندكم على هذا التكذيب والإصرار، فهلا أعدتم الرُّوح إذا بلغت الحُلقوم عند النزع والاحتضار؟[3].

ولم يذكر ما هي التي بلغت الحُلقوم؛ لأن أمرها معلوم، والمعلوم قد يُستغنى عن ذكره عند العلم به، وخاصة أن الروح أمر خفي، فأخفاها تعالى في السياق ولم يذكرها، ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]، وللإشارة إلى عظمة الأمر، وفيه تحدٍّ مناسب

(1) ينظر: «الاستذكار» (2/ 437- 438)، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (2/ 60- 61)، و«تيسير العزيز الحميد» (ص394- 395)، و«القول المفيد على كتاب التوحيد» (2/ 31).

(2) ينظر: «مسند الحميدي» (1009)، و«تفسير الطبري» (22/ 370- 371)، و«سنن البيهقي» (3/ 500-501)، و«الاستذكار» (2/ 435).

(3) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 241)، و«تفسير القرطبي» (17/ 231)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 341)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 547- 548)، و«فتح القدير» (5/ 194).

للمقام؛ لأنه سيقول: أعيدوا الرُّوح، فإذا كان الناس لا يعرفون ماهية الروح ولا أين تسكن، ولا شيئًا من نواميسها، فكيف لهم أن يعيدوها إلى الجسد؟!

* ﴿أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا﴾:

تنظرون إلى المحتضَر الذي بلغت روحه الحُلقوم، ليس بيدكم شيء غير النظر بعيونكم، تجعلونها يمنة ويسرة، ولم يذكر متعلّق النظر؛ ليبقى متعدِّدًا، تنظرون إلى المحتضَر مشفقين حزينين، وينظر بعضُكم إلى بعض نظر المتحيِّر العاجز، وينظرون إلى الطبيب، وينظرون إلى الأطفال الصغار[1].

* ﴿الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾:

﴿الْخَبِيثَ﴾: فيه تضخيم وتفخيم وتعظيم، وأنتم أقرب الناس إليه في رأي العين، ولكن الله تعالى بسلطانه وبعلمه وقدرته وبملائكته الذين نزلوا لقبض الروح ﴿بِالطَّيِّبِ وَلَا﴾ أيها الأقربون[2].

﴿تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ﴾: تأمَّل كيف قال في الآية الأولى: ﴿وَلَا﴾، وهنا قال: ﴿أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ﴾، وهذا عجيب؛ فهم ينظرون وعيونهم مفتوحة يشاهدون هذا المحتضَر؛ لكن لا يبصرون الرُّوح ولا الملائكة.

* ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي﴾:

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للفراء (3/ 130)، و«تفسير الطبري» (22/ 373)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 116)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 398)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 223)، و«الوجيز» للواحدي (ص1064)، و«تفسير السمعاني» (5/ 361)، و«تفسير البغوي» (5/ 22)، و«تفسير القرطبي» (17/ 231)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 548).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 373)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 223)، و«تفسير السمعاني» (5/ 361)، و«التحرير والتنوير» (27/ 344)، والمصادر السابقة.

أي: أعادها مرة أخرى بسبب طول الفاصل، فأعاد الاقتراح عليهم والتحدِّي، فإذا كنتم تقولون: لا موت، ولا بعث، ولا جزاء، ولا حساب، وتزعمون أنكم ﴿حُوبًا كَبِيرًا ﴾ أي: غير مجزيين[1]، **فالدِّين** هو: الجزاء[2]، وإذا كنتم مصرِّين على الكفر والتكذيب بالبعث، فارجعوا الروح إلى الجسد! وهو عالَم ليس لهم عليه سلطان.

وهذا التحدِّي أقوى وأوضح في عصر تقدمت فيه علوم الطب والعمليات المعقَّدة وزراعة القلب ومراكز الأبحاث المتقدِّمة التي لا سقف لها في نظر القائمين عليها، ومع هذا كله يظل الطب عاجزًا عن رد الموت إذا حان حينه، أو تأخير وقوعه ولو لحظة.

* ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾:

في نهاية السورة أعاد ما فصَّله في أولها بإجمال واختصار، كما هي العادة في سائر سور القرآن الكريم.

﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا﴾ هذا المحتضَر ﴿طَابَ لَكُمُ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: **والروح**: الراحة[3]، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «**مُسْتَرِيحٌ، ومُسْتَرَاحٌ منه**». قالوا: يا رسولَ الله، ما المُسْتَرِيحُ والمُسْتَرَاحُ منه؟ قال: «**العبدُ المؤمنُ يستريحُ من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبدُ الفاجرُ يستريحُ منه العبادُ والبلادُ وَالشجرُ والدَّوابُّ**»[4].

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للأخفش (2/ 533)، و«تفسير الطبري» (22/ 373)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 267)، و«تفسير القرطبي» (17/ 231)، و«اللباب» (18/ 444)، و«فتح القدير» (5/ 194)، و«التحرير والتنوير» (27/ 345).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة الذاريات»: ﴿تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن ﴾.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 376)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7298)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 548)، و«الدر المنثور» (14/ 240)، و«التحرير والتنوير» (27/ 347).

(4) أخرجه البخاري (6512)، ومسلم (950) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

فهنا مستَرِيح، وقوله: ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: راحة بعد الموت[1]، الإيمان بهذا يجعل للحياة معنى مضاعفًا، وحتى الموت يستقبله المؤمن بطُمأنينة ورضا، وإن كان يكره الموت، كما قالت عائشة رضي الله عنها، ولكن إذا بُشِّر برضوان الله تعالى ورَوْح ورَيْحان أحبَّ لقاءَ الله وأحبَّ اللهُ لقاءه[2].

والرَّيْحان هي: الرِّيح الطيبة، ومنه: الورد المعروف ذو الرائحة الزكية[3].

﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ تنتظره عند الله تعالى.

* ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا﴾: وهم الفئة الثانية ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا﴾ أي: تسلِّم عليه الملائكة وتبشِّره أنه ﴿تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ﴾ أي سلام لك فأنت ﴿تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ﴾[4].

ويحتمل السياق معنى آخر، وهو أن ﴿فَوَٰحِدَةً أَوْ﴾ يسلِّمون على المحتضَر الذي هو من إخوانهم، ويقولون له: سلام لك. والملائكة تقول له: لك سلام نبلِّغه إليك

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 376)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 117)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 399)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 225)، و«تفسير الماوردي» (5/ 466)، و«تفسير القشيري» (3/ 527)، و«الوجيز» للواحدي (ص1064)، و«تفسير السمعاني» (5/ 362)، و«تفسير البغوي» (5/ 22).

(2) ينظر: «صحيح مسلم» (2684).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 377)، و«تفسير البغوي» (5/ 22)، و«تفسير القرطبي» (17/ 233)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 341)، و«فتح القدير» (5/ 195)، و«التحرير والتنوير» (27/ 348).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 380)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 510)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7300)، و«زاد المسير» (4/ 231)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 550).

من إخوانك ﴿فَوَاحِدَةً أَوْ﴾ في الجنة الذين يستبشرون بمقدمك عليهم[1]، كما قال ربنا سبحانه: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران:170].

* ﴿تَعُولُوا۟ ۝٣ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾:

﴿تَعُولُوا۟ ۝٣ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ أي: وأما إن كان المحتضَر ﴿ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ بالحق ﴿نِحْلَةً﴾ عن الهُدى.

وقدَّم هنا وصف ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ على وصف ﴿نِحْلَةً﴾، عكس ما تقدَّم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾؛ لمراعاة سبب ما نالهم من العذاب، وهو التكذيب؛ لأن الكلام هنا على عذاب قد حان حينه، وفات وقت الحذر منه، فبيَّن سبب عذابهم، وذُكِّروا بالذي أوقعهم فيه؛ ليحصل لهم ألم التندُّم.

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ﴾: **النُّزُل** هو: الضيافة التي تقدَّم للضيف من القِرَى.

وإطلاقه هنا تهكُّم، كما تقدَّم قريبًا في هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

والحَمِيم هو: الماء الذي أُغلي حتى انتهى حرُّه، فإذا سُقُوه غلت منه بطونهم، كما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ۝١٥﴾ [محمد: 15].

﴿شَىْءٍ مِّنْهُ﴾ **التَّصْلِية**: الإحراق والشَّوْي، يُقال: صَلَى اللحم، إذا شواه.

والجحيم يُطلق على النار المؤجَّجة، ويُطلق على جهنم، دار العذاب في الآخرة.

* ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤ وَلَا تُؤْتُوا۟﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 399)، و«تفسير السمعاني» (5/ 363)، و«تفسير الرازي» (29/ 438)، و«فتح القدير» (5/ 195)، و«التحرير والتنوير» (27/ 349).

ليس هو ﴿وَلَا﴾ فحسب، بل هو ﴿﴿٤﴾ وَلَا﴾ الذي لا مرية فيه ولا جدل[1]؛ لأنه علم ضروري قطعي لا ريب فيه.

* ﴿ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ﴾:

فسبحان ربنا العظيم وبحمده، ونسأله أن يلهمنا ذكره وشكره وحسن عبادته.

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 226)، و«تفسير الطبري» (22/ 382)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 510)، و«تفسير ابن كثير» (7/ 551)، و«تفسير الخازن» (4/ 244).

سورة الحديد

*** تسمية السورة:**

اسمها: «**سورة الحديد**»، ولا يُعرف لها اسم إلا هذا، وهكذا جاءت في عدد من الأحاديث النبوية، والآثار عن الصحابة، وهو اسمها في كتب التفسير، وفي المصحف، وفي كتب الحديث[1]، وذلك لقوله فيها: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا﴾ [الحديد: 26].

*** عدد آياتها:** تسع وعشرون آية، وقيل: ثمان وعشرون[2].

*** وهي مدنية في قول الجمهور، وحُكي إجماعًا.**

وفيها شيء من الطول، خلافًا للسور التي قبلها وبعدها، ولذلك قيل: إنها مدنيَّة[3].

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص647)، و«تفسير مقاتل» (4/ 227)، و«تفسير عبد الرزاق» (3/ 286)، و«جامع الترمذي» (5/ 403)، و«السنن الكبرى» للنسائي (10/ 288)، و«تفسير الطبري» (22/ 384)، و«المستدرك» (2/ 478)، و«تفسير القرطبي» (17/ 235)، وو«روح المعاني» (14/ 164)، و«التحرير والتنوير» (27/ 353).

(2) وقد اختلفوا في قوله: ﴿مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾، وقوله: ﴿فَأَنكِحُوهَا﴾ [الحديد: 27]. ينظر: «البيان في عدِّ آي القرآن» (ص241)، و«فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» (ص313)، و«جمال القراء وكمال الإقراء» (2/ 549)، و«بصائر ذوي التمييز» (1/ 453)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 468)، و«تفسير السمعاني» (5/ 364)، و«المحرر الوجيز» (5/ 256)، و«زاد المسير» (4/ 232)، و«الإتقان» (1/ 50)، و«التحرير والتنوير» (27/ 353).

والصواب أن غالبها مدني، وفيها بعض الآيات المكية، ومطلع السورة مكيٌّ في بضع آيات من أولها.

وموضوعها هو موضوع القرآن المكي من الحديث عن البعث والألوهية وما يتعلق بقضايا العقيدة الكبرى.

وفي أثناء السورة حديث عن الإنفاق وحديث عن الشهادة ومناظرة مع أهل الكتاب، وحديث عن المنافقين، وهذه كلها من موضوعات القرآن المدني.

ولكن نظام السورة واحد مما يبيِّن أن الله سبحانه وتعالى قد يحجب صدرًا من السورة أو جزءًا منها ثم ينزله وقتما يشاء، فيلحقه النبيُّ صلى الله عليه وسلم بموضعه من السورة.

* ﴿لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥ وَٱبْتَلُوا۟﴾:

التسبيح هو: التنزيه[1]، وإثبات صفات الكمال له سبحانه، ونفي صفات النقص.

وقد ورد الاستفتاح بالتسبيح في صدر العديد من السور التي تسمَّى: «المسبِّحات»، كـ«سورة الجمعة»، و«سورة التغابن»، و«سورة الأعلى»، كما ورد في طي كثير من السور، كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44].

وفي بعض السور استفتح بالتسبيح بلفظ الماضي، ومنه هذه السورة، وهي أول المسبِّحات، حيث قال: ﴿لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾، فهو خبر عن الماضي.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 511)، و«تفسير القشيري» (3/ 530)، و«المحرر الوجيز» (5/ 256)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 100)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 377).

وينظر أيضًا: «المفردات في غريب القرآن» (ص392)، و«تاج العروس» (6/ 447) «س ب ح»، وما سيأتي في أول «سورة الحشر»، وأول «سورة التغابن».

وفي بعضها استفتحه بالمضارع، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا قِيَمًا﴾ [الجمعة: 1]، وفي مواضع ذكر التسبيح بلفظ الأمر للمستقبل، كما في «سورة الأعلى»: ﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ﴾، والمقصود التنويع، ثم الإشارة إلى أن التسبيح لله كان منذ الأزل، فكل هذه المخلوقات منذ أن خُلقت وهي تسبِّح، فهي قد سبَّحت في الماضي، والآن تسبِّح، فليس تسبيحًا مضى وانتهى، وإنما هو تسبيح دائم مستمر، والأمر يدل على التسبيح في المستقبل، كما يدل على التسبيح الاختياري التعبدي الذي كُلِّف به الإنسان خاصة، حيث أُمر بذلك أمرًا شرعيًّا تعبديًّا، بخلاف المخلوقات الأخرى التي أُمرت به أمرًا تكوينيًّا قدريًّا[1].

وتأمَّل كيف قال هنا: ﴿لَكُمْ قِيَمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ﴾، ولم يقل: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النور:41]؛ لأنه لو قال: ﴿جَعَلَ﴾ لكان المقصود به البشر العقلاء، فلما عبر بـ﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ ﴾ دلَّ على أن المقصود المخلوقات كلها، لا سيما من غير البشر، فيشمل ذلك الحيوانات والنباتات وغيرها، كما يشمل الجماد؛ لأنها مخلوقات كغيرها[2].

أما كُنْه تسبيح هذه المخلوقات، فقد قال بعضهم: إن تسبيحها هو كونها مخلوقة له سبحانه، فهو الذي خلقها، فهي تدل عليه وترشد إليه[3]، كما قال الشاعر[4]:

فَيا عَجَبًا كَيفَ يُعصى الإِلَـ *** ـهُ أَم كَيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ؟

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 441- 442)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 185)، و«تفسير الخازن» (4/ 245)، و«روح البيان» (9/ 344- 345)، و«التفسير المظهري» (9/ 187).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 400)، و«تفسير الماوردي» (5/ 468)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 5)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 203)، و«فتح القدير» (5/ 198)، و«روح المعاني» (14/ 165)، و«التحرير والتنوير» (27/ 357).

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 511)، و«تفسير القرطبي» (17/ 235)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 343)، و«تفسير الخازن» (4/ 245)، والمصادر السابقة.

(4) ينظر: «ديوان أبي العتاهية» (ص122)، و«طبقات الشعراء» لابن المعتز (ص207)، و«أحسن ما سمعت» للثعالبي (ص8)، و«شعب الإيمان» (104، 105)، و«تاريخ دمشق» (13/ 453).

وللهِ في كُلِّ تَحريكَةٍ *** وتَسكينَةٍ أبدًا شاهِدُ
وَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ *** تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ واحِدُ

فقالوا: تسبيحها هو إشارتها بالاعتراف والتعظيم لله الخالق الواحد سبحانه.

وقال آخرون: تسبيحها: انضباطها بمقتضى السُّنن والنواميس التي وضعها الله سبحانه[1]، كما قال: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن:5]، فقالوا هذا الحسبان هو التسبيح، أنها منضبطة مأمورة في جميع حركاتها وسكناتها.

وقال آخرون: التسبيح يشمل هذا وغيره[2]؛ بدليل قوله سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: 44].

إذًا ثمة تسبيح نفقهه، وهو إشارتها إلى خالقها، أو انضباطها بأوامره وسننه ونواميسه، وثمة تسبيح لا نفقهه، وهو نوع من التسبيح والعبودية لله سبحانه وتعالى بهذه الكائنات، لا نستطيع أن نحيط به علمًا، فنقر أن الكون كله منخرط في حالة من التسبيح لله تعالى، والمؤمن منسجم مع هذا الكون، يشعر بأن الكون صديق له، ولهذا لما رقى النبيُّ صلى الله عليه وسلم على جبل أُحُدٍ قال: «**أُحُدٌ جبلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّهُ**»[3].

﴿قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥﴾: فهذا اسمان من أسمائه سبحانه، و﴿مَّعۡرُوفٗا﴾: الذي عزَّ فغلب وقهر، ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ [المنافقون: 8].

---

(1) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 442- 443)، و«تفسير الخازن» (4/ 245)، والمصادر السابقة.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 384)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 121)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 400)، و«تفسير السمعاني» (5/ 364)، و«تفسير القرطبي» (17/ 235- 236).

(3) أخرجه البخاري (1481، 4422)، ومسلم (1392) من حديث أبي حُميد رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري (2889، 2893، 4083)، ومسلم (1365، 1393) من حديث أنس رضي الله عنه.

و﴿ ﴾: الحاكم الذي يحكم ما يريد[1].

ومن معانيها: الذي له الحكمة، فهو يضع الأشياء مواضعها، ويأمر بحكمة، وينهى بحكمة، ويضع السُّنن والنواميس وَفْق حكمة لا تُخطئ[2] ﴿نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [طه: 52].

* ﴿ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا﴾:

استفتح بالتسبيح، ثم عقَّب ببيان ملكية المخلوقات له تعالى، فهو مالكها، **والمُلك**- بضم الميم- معناه: أنه خالق السماوات والأرض، ورب السماوات والأرض، ومدبِّر السماوات والأرض[3]، فهي له ومنه وإليه، أما مِلك الناس إنما يسمى: «مِلكًا» بكسر الميم، وهو مِلك طارئ عابر ورثها من أبيه، وسوف يورِّثها لابنه، أو اشتراها وسوف يبيعها، وقد تُؤخذ منه بحق أو بباطل، أو يُنزع منها بالموت، فهو تسلُّط عابر محدود.

وكذلك الملوك ملكهم على أشياء دون أشياء، وهم لا يستطيعون أن يدفعوا عنهم العجز ولا الضعف ولا الموت.

---

(1) ينظر: «مع الله» (ص83، 84، 197)، وما سيأتي في «سورة الحشر»: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا﴾.

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة الحشر»: ﴿مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا﴾، و«سورة التغابن»: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، و«سورة الملك»: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ﴾.

(3) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 5)، و«تفسير السعدي» (ص837).

﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم﴾: فكما أنه خالق السماوات والأرض، كذلك له الإحياء والإماتة، فكل حيٍّ فالله الذي منحه الحياة، وهو الذي يسلبه الموت متى شاء، فهو حيٌّ لا يموت، ولا ينام، ولا يغفل ولا يخطئ ولا يضل ولا ينسى سبحانه وتعالى.

﴿رُشۡدًا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾: فقدرته سبحانه وتعالى ليست مقصورة على الحياة والموت فحسب، وإنما له القدرة التامة في كل شيء.

ويشبه هذا المعنى قوله سبحانه: ﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا﴾ [الرحمن:29].

* ﴿تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ﴾:

﴿إِسۡرَافًا﴾ في الأصل تُطلق على الشيء الذي يأتي أولًا، لكن في السياق الرَّبَّاني يعني: السابق، الذي ليس له ابتداء، كما كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: «**اللهمَّ أنت الأولُ، فليس قبلكَ شيءٌ**»[1]. فهو الأول أولية أزليَّة بلا ابتداء، والعقل البشري غير قادر على أن يستوعب هذا المعنى بجماله، لكنه قادر على أن يؤمن به وأَلَّا يَزُجَّ بنفسه في مضايق يعلم أنه إن دخلها لن يخرج منها، فأجمل وأحسن ما يكون الإيمان أن يتلقَّاه الإنسان ببصيرة ويتلقَّاه من مصدره الأصلي الذي هو كتاب الله الكريم.

﴿وَبِدَارًا﴾ أي بعد كل شيء، فهو الآخر بلا انتهاء، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «**وأنت الآخرُ، فليسَ بعدكَ شيءٌ**»[2]. وهو الذي يمنح الخلود الأبدي لَمن شاء من عباده، تفضُّلًا ومنًّا، كما قدَّر سبحانه خلود الملائكة بعد القيامة، وأهل الجنة والجنة

(1) أخرجه مسلم (2713) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) هو جزء من الحديث السابق.

والأشياء التي أذن الله تعالى أن يكون لها بقاء سَرْمَدي، فهذه لها آخرية، ولكنها ليست من ذاتها، وإنما هي منٌّ منه سبحانه، فهو الذي منحها الخلود والبقاء والدَّوام.

و﴿إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا﴾: اسمان متقابلان من أسمائه تعالى، وهما متعلِّقان بالزمان، وبعضهم يعبِّر بـ«القديم» أو «الأزلي»، و﴿إِسۡرَافٗا﴾ أولى[1].

والبعض قد يُطلقون على الله سبحانه وتعالى اسم: (القديم)، وهذا قد يُطْلَق على سبيل الخبر، لكنه ليس من أسماء الله تعالى الحسنى، وإن كان جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل المسجدَ قال: «أعوذُ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم».

لكن هذا من باب الخبر عن الله تعالى، واستخدامُ اللفظ القرآنيِّ الربانيِّ الثابت في النصوص الكثيرة وهو «الأول» أولى وأفضل.

﴿أَن يَكۡبَرُواْ﴾: اسمان متقابلان متعلِّقان بالمكان.

فالظاهر هو: الذي ليس فوقه شيء، وهو يدل على العلو؛ ولهذا قال: ﴿ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [الأعراف: 54]، ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ﴾ [الشورى: 4]، فله علو الذات وعلو الصفات وعلو القهر والغلبة.

ومن معاني الظاهر: القوي الغالب أيضًا: ﴿   ﴾ [الصف: 14]، أي: منتصرين[2]، فهو الغالب الذي يعطي النصر والقوة والغلبة والعاقبة لِمَن يشاء.

---

(1) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص59- 60)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص204)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص253).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 445)، و«تفسير القرطبي» (18/ 90)، و«التحرير والتنوير» (28/ 203).

ومن معاني الظاهر: البَيِّن الواضح الذي تقوم الحجج والبينات عليه؛ فإن الحجج شديدة الظهور على وجوده وألوهيته وربوبيته[1].

﴿ يَكْبُرُواْ ﴾: فسَّره صلى الله عليه وسلم بقوله: «**وأنت الباطنُ، فليس دُونكَ شيءٌ**»[2]. فهو العليم الذي لا يخفى عليه شيء، وليس دونه شيء، وكل شيء فهو في علمه وسمعه وبصره وسلطانه.

ومن معاني الباطن: الخفي من حيث أن البشر لا يحيطون به علمًا: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: 255]، وأن العقول لا تستطيع أن تصل إلى كُنْه ذاته ولا صفاته[3]، وفي هذا يقول الأول[4]:

العجزُ عن دَرَكِ الإدراكِ إدراكُ *** والبحثُ عن سِرِّ ذاتِ السِّرِّ إشراكُ

فهو الإله الذي تتأله فيه العقول وتتحير، كما قيل[5]:

فيك يا أعجوبةَ الكَوْ *** نِ غدا الفِكْرُ كليلا

أنت حيَّرْتَ ذوي اللُّبْـ *** ـبِ وبلبلتَ العقولا

كلما أَقْدَمَ فكري *** فيك شبرًا فرَّ ميلا

ناكصًا يخبط في عَمْـ *** ـياءَ لا يُهْدَى السبيلا

---

(1) ينظر: «مع الله» (ص259).

(2) جزء من الحديث المتقدم.

(3) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص60)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص208)، و«مع الله» (ص259- 262).

(4) نُسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ينظر: «ديوانه» (ص142).

ونُسب أول هذا البيت إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كما في «روض الأخبار المنتخب من ربيع الأبرار» (ص386)، و«الأشباه والنظائر» (2/ 203)، وقد ضعَّف ابن تيمية نسبته إليه. ينظر: «مجموع الفتاوى» (2/ 216).

(5) ينظر: «شرح نهج البلاغة» (13/ 51)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص10- 13).

وهو الخفي الذي لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللَّطيف الخبير.

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾: تأكيد لما سبق، وتمهيد لما يلحق؛ لأن المقصود من إظهار هذه الأسماء والصفات التأكيد على الربوبية التي هي الخلق والتدبير والمُلك، ثم الإلزام بالألوهية والطاعة والعبادة لله وحده لا شريك له.

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾:

انتقل السياق هنا إلى شأن ألصق بالإنسان؛ لأن ذكر السماوات والأرض يمهِّد لذكر ساكنيها، والأيام الستة هي من أيام الله، وليست من أيام الدنيا؛ لأنه قبل خلق السماوات والأرض لم يكن ثمة شمس ولا قمر ولا ليل ولا نهار، وإنما هي أيام الله تعالى أعلم بطولها.

﴿وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ ﴾: إشارة إلى علوه سبحانه وتعالى، **والاستواء**: صفة نؤمن بها كما أخبر سبحانه، ونمرها كما جاءت، ونقرها من غير تأويل، نؤمن بأنه تعالى له عرش، لا نُدْرك كيفيته، ولا ينبغي أن نقول بغير علم، وإنما نَدَعُ اللفظ على جلالته وهيبته وعظمته، كما قال إمام دار الهجرة مالك رحمه الله لما سأله سائلٌ عن ذلك، فقال: «الاستواءُ غير مجهول، والكيفُ غير معقول، والإيمانُ به واجب، والسؤالُ عنه بدعة»[1]؛ لأنه دخول في مضايق لا تزيد الإنسان إلا حيرة.

---

(1) ينظر: «الرد على الجهمية» للدارمي (104)، و«طبقات المحدثين بأصبهان» لأبي الشيخ (2/ 214)، و«معجم ابن المقرئ» (1003)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للَّالَكائي (664)، و«حلية الأولياء» (6/ 326)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (867)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص116)، و«ترتيب المدارك» (2/ 39)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (1/ 155)، و«سير أعلام النبلاء» (8/ 100).

والأجدر بالمؤمن حين يقرأ هذا النص الإلهي أن ينشغل بتدبره تدبرًا يورث الحب والتعظيم والهيبة والوقار للواحد القهار، دون تقبل أي صورة في الذهن يمليها الخيال المحدود، ودون تشاغل بالتأويل وصرف النص عن سياقه.

﴿مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ أي: ما يدخل في باطنها، و﴿رِجَالًا ﴾ عمومٌ يشمل كل شيء يدخل في الأرض من المياه أو البذور أو البشر، مما يعلم الناس ومما لا يعلمون.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى﴾ يعلمه قبل أن يخرج يوم كان في باطن الأرض، ويعلمه بعد خروجه، مثل خروج النبات والمعادن والبشر حين ﴿كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا﴾ [المعارج: 43]، والماء والهواء والبراكين وما كان وجهه الرحمة، أو ما كان وجهه العذاب[1].

﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ أي: من الوحي، ومن الملائكة، ومن المطر، وغير ذلك مما يحيط علمه تعالى به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: يصعد إلى السماء، كالملائكة والأرواح والأعمال[2].

والمقصود التأكيد على عظمة علم الله وإحاطته بخلقه، وأنه لا مفرَّ منه إلا إليه، وهو علمٌ يملأ قلب المؤمن شعورًا برقابة الله له: ﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ ﴾ [الرعد:10].

---

(1) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 401)، و«تفسير السمعاني» (5/ 365)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 348)، و«تفسير القرطبي» (17/ 237)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 9)، و«فتح القدير» (5/ 199).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 401)، و«تفسير السمعاني» (5/ 365)، و«تفسير القرطبي» (17/ 237)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 101)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 9)، و«روح البيان» (9/ 351).

﴿رَقِيبًا ۝١ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾: وهذه أيضًا آية عظيمة، فهو معكم بعلمه[1]، كما يقتضيه السياق، فلا تخفى عليه خافية: ﴿أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ [غافر:19].

﴿رَقِيبًا ۝١ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ بسلطانه[2]، فإن الإنسان لا يخرج من سلطانه تعالى ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [الرحمن: 33].

﴿رَقِيبًا ۝١ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ بحفظه وكَلاءته[3]، كما قال سبحانه: ﴿أَلَّا تَعُولُوا۟ ۝٣ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن﴾ [الرعد: 11]، فإذا جاء القدر خَلَّوْا بينه وبين الأمر الذي ينزل به، فإذا كانت عين الله تراقبكم وترعاكم، وعلمه معكم وسلطانه عليكم وحفظه وكَلاءته لكم، أفيجرؤا أحد أن يكون غافلًا عن ذلك صادًّا معرضًا عنه؟ وهو مع المؤمنين برحمته وعطفه ولطفه ونصرته وحمايته، خاصة حين يواجهون الأَذَى والعدوان، والظلم والطغيان، ولا يقدرون على دفعه عن أنفسهم ولا عن غيرهم، فيقاسون الغربة والسجن والتشريد والفقر والاضطهاد وتنكُّر الصديق، ولا يكون لديهم ملجأ إلا كنف الله اللطيف الخبير الحفيظ الذي يسكب في قلوبهم الصبر والرضا واليقين، ويطمئنهم بمثل هذه الآيات الكريمات.

ولهذا قال: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ فأثبت لله تعالى صفة البصر، وفيه إشعار بمراقبته سبحانه لما يبدر من المرء من قول أو عمل.

* ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾:

---

(1) ينظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 245)، و«زاد المسير» (4/ 232)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 343)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 101).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 514)، و«فتح القدير» (5/ 199).

(3) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 449)، و«تفسير الخازن» (4/ 246).

أعاد التذكير بأن له ملك السماوات والأرض؛ من أجل أن يبني عليها حقيقة أخرى، هي الرجوع إليه يوم الدِّين، فالخلق منه وإليه، و﴿حُوبًا﴾ جمع: أمر، وأول ما يشمله ذلك البشر أن رجوعهم إليه تعالى، كما قال: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا﴾ [العلق:8]، وكما قال: ﴿ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [الملك: 15]. فأثبت البعث بعد الموت، وحقَّق أن الرجوع إلى الله لا إلى غيره، فهو الحقيق بأن يحب ويخاف ويُرجى.

* ﴿(٣) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ﴾:

أي: يُدخل الليلَ في النهار، ويُدخل النهارَ في الليل.

ويحتمل المعنى: أن الليل يأخذ من النهار، والنهار يأخذ من الليل، فهذا يطول وهذا يقصر بتعاقب الفصول الأربعة، وفي كل يوم يتغير الليل عن النهار بالزيادة والنقصان، يأخذ هذا من ذاك وذاك من هذا.

وأجود منه أن يكون المعنى: أن النهار يحل محل الليل، والليل يحل محل النهار[1]، وذاك حين نرى الإسفار يبدِّد ظلمة الليل شيئًا فشيئًا، ثم غسق الليل حين تغيب الشمس، فتغطِّي ظلمة الليل ضوء النهار شيئًا فشيئًا.

﴿طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: تأكيد على العلم، وإشارة إلى أن علمه بالمكنون كعلمه بما ظهر وجهر به الخلق، لا يَعْزُب عن علمه شيء؛ فعلمه شامل حتى لذات الصدور، وهي: ما يسرُّه المرء في صدره مما لم يتحدَّث به لأحد[2]، بل ربما يوجد في قلبك سرٌّ كنتَ في غفلة منه، وهو ما يُسمى: العقل الباطن، أو اللَّاوعي، مما يؤثِّر على سلوكه وتصرفاته وانطباعاته وأحاسيسه، وهو في غفلة منها، فالله يعلم ذلك كله.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 387- 388)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 122)، و«المحرر الوجيز» (5/ 258)، و«تفسير القرطبي» (4/ 56)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 10).

(2) ينظر ما سيأتي في «سورة الملك»: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا﴾.

وسمَّاها: «ذات الصدور»؛ لأنها لا زالت ملازمة للصدر لم تخرج منه بعد، ولم يعلم بها أقرب الناس إلى صاحبها، وربما كان صاحبها عنها في غفلة.

وهذا القدر من السورة- والله أعلم- نزل بمكة، نحو ست آيات، وعدَّ فيه بعضهم ستة عشر اسمًا من أسماء الله الحسنى: الله، العزيز، الحَكِيم، المَلِك، الخالق، القَدِير، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، العليم، البَصِير، المُحْيي، المُميت، السُّبُّوح، العَلي، وفيها ما لا يثبت كونه من الأسماء الحسنى، ومنها ما يقع التردد في وجود دلالته في الآيات.

ولذلك قيل: إن اسم الله الأعظم في صدر «سورة الحديد». ورد ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وسعيد بن جُبير، وغيرهما[1].

وجعله آخرون صباحًا ومساءً من الورد الذي يقرؤه المسلم؛ لأنه جامع، بل إن بعض المعاني فيه، كـ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ لم ترد في القرآن إلا في هذا الموضع.

* ﴿وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾:

هنا بداية ما نزل بالمدينة من السورة، وفيه الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله، لَمن لم يؤمن بعد، ودعوة لتجديد الإيمان وتفقده لَمن آمن واتَّبع الرسول صلى الله عليه وسلم، كما يعني ترجمة الإيمان إلى أفعال تصدقه بالإنفاق في سبيل الله، فالإنفاق هو البرهان عليه، وفي الحديث: «**الصدقةُ برهانٌ**»[2].

---

(1) ينظر: «تفسير السمعاني» (5/ 364)، و«المحرر الوجيز» (5/ 255)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 377)، و«التحرير والتنوير» (27/ 367)، والمصادر السابقة والآتية.

(2) أخرجه مسلم (223) من حديث أبي مالك الأَشْعري رضي الله عنه.

دعاهم إلى الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم المبلِّغ عن ربِّه عز وجل، والذي أوحي إليه القرآن[1].

وعبَّر عن المال بقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ﴾، وفي بعض المواضع يذكر الله تعالى المال وينسبه إلى الإنسان، كما في قوله: ﴿تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ﴾ [الذاريات:19]، ومرة ينسبه لنفسه سبحانه، كما في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا﴾ [النور: 33].

والذي يظهر أنه إذا كان المقام مقام مدحٍ وثناءٍ على بذلهم، نسب المال إليهم فقال: ﴿تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ﴾ أي: هم يعتقدون أن في أموالهم حقًّا للسائل والمَحْروم؛ إشادة بكرمهم.

وفي نسبة المال لهم ثناءٌ عليهم؛ لسعيهم في كسبه بالحلال، ولتخلُّصهم من الشُّحِّ في تملكه مع كونه لهم من حيث الملكية الشرعية.

أما إذا كان المقام مقام دعوةٍ إلى الإنفاق وحَفْزٍ وحَثٍّ، فإنه ينسب المال إلى الله، كما هنا؛ تذكيرًا لمَن يبخل، أو تحدِّثه نفسه بالبخل بأنه يبخل عن نفسه، ويبخل بما ليس له، وإنما حقيقته لله، وهو صائر عنه إلى غيره[2]، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «**يقولُ ابنُ آدمَ: مالي مالي. قال: وهل لك يا ابنَ آدَمَ من مالكَ إِلَّا ما أكلتَ فأَفْنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فأَبْلَيْتَ، أو تَصدَّقْتَ فأَمْضَيْتَ؟**»[3]. وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس.

﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا﴾ على إنفاقهم.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 389)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 402)، و«الوجيز» للواحدي (ص1067)، و«زاد المسير» (4/ 232)، و«لباب التأويل» (4/ 247)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 11).

وقيل: إن الخطاب هنا للمشركين. ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 368).

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 369).

(3) أخرجه مسلم (2958) من حديث عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه.

* ﴿ ۞ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾:

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاضر بين أظهركم ويدعوكم للإيمان وأنتم ترونه وتسمعونه[1]، وحجج الله تجري على يديه، فما الذي يحول بينكم وبين الإيمان؟ ولا شك أن مَن عاصر الرسالة ورأى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم أَحْرَى بالتصديق والإيمان.

﴿ شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾، والذي أخذ ميثاقكم هو الله سبحانه وتعالى[2]، وهذا إشارة إلى قوله: ﴿ تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ ﴾ [الأعراف: 172]، وهي إحالة إلى ما يعلمه الإنسان في نفسه من أن الفطرة تدل على الله تعالى، وأن الإنسان لو استسلم لفطرته ولم يعاندها فإنها تدله على الله وتهديه إليه بإذنه تعالى وفضله؛ فإن الآيات المبثوثة في الكون وفي النفس، وكذلك العقل وهو من الفطرة التي فطر الإنسان عليها ترشد إلى الله وتدل عليه، وكذلك النفس فإن فيها فقرًا وعطشًا وجوعًا واضطرارًا لا يسدُّه إلا الإيمان بالخالق؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: 31]، فلا تتحقَّق إنسانية الإنسان إلا بالإيمان بالله الخالق عز وجل، ثم إن الرسل والأنبياء جاؤوا بالوحي والإعجاز والدلائل الباهرات القاهرات على وجود الله وكمال أسمائه وصفاته وألوهيته وربوبيته واستحقاقه للعبادة.

---

(1) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 11)، و«تفسير المراغي» (27/ 164)، والمصادر الآتية.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 390)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 402)، و«تفسير البغوي» (5/ 27)، و«المحرر الوجيز» (5/ 258)، و«تفسير القرطبي» (17/ 238)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 205)، و«التحرير والتنوير» (27/ 370).

والعرب يتداولون قصة حي بن يقظان، **ومغزاها:** أن الإنسان لو عاش منذ طفولته بين بهائم وحيوانات أو في غابة، فإنه يهتدي إلى الإيمان بالله الخالق المبدع بفطرته، ولكنه لا يستطيع أن يهتدي إلى تفاصيل صفات الله[1]، ولذلك تاه الفلاسفة الذين دخلوا في أبواب الصفات والأسماء، وخبطوا خبط عشواء، وذهب جهدهم في غير طائل، وقال قائلهم[2]:

نهايةُ إقدام العُقول عِقالُ *** وأكثرُ سعي العالمينَ ضلالُ

وأرواحُنا في وَحْشة من جسومنا *** وحاصلُ دُنيانا أذًى ووَبال

ولم نستفدْ من بحثنا طولَ عمرنا *** سوى أن جمعنا فيه: قيل وقالوا

* ﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ﴾:

فهذا من رحمته سبحانه أنه لم يكل الناس إلى أنفسهم، وإنما أنزل على رسله الآيات البينات التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وسماه: ﴿عَبۡدِهِۦ﴾، والعبودية تتكرَّر في سياقات الوحي: ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ﴾ [البقرة: 23]، ﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ﴾ [الفرقان: 1]، فهي اصطفاء وتكريم، وعلامة التواضع له سبحانه؛ ولذلك منع اللهُ رحمته وفضله الذين يستكبرون، والله

(1) ينظر: «الموسوعة العربية العالمية» (9/ 591- 592).

(2) ينظر: «معجم الأدباء» (6/ 2590)، و«عيون الأنباء في طبقات الأطباء» (ص468)، و«وفيات الأعيان» (4/ 250)، و«تاريخ الإسلام» (43/ 217)، و«البداية والنهاية» (17/ 13) منسوبًا إلى الفخر الرازي.

يحب المتواضعين المتنزِّهين عن العُجب والغرور، «**قال اللهُ عز وجل: الكِبْرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، فمَن نازعني واحدًا منهما قذفتُهُ في النار**»[1].

والعبد هنا هو: الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو ليس أي عبد، وإنما هو سيِّد العابدين، وفي ذلك تشريف لمقام النبي صلى الله عليه وسلم وثناءٌ عليه بالعبودية؛ فإن نسبته صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى هي أشرف نسبة، ولما خُيِّر بين أن يكون مَلِكًا رسولًا أو عبدًا رسولًا، اختار أن يكون عبدًا رسولًا[2]، فمقام العبودية أشرف المقامات التي وصف الله تعالى بها نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم[3].

﴿لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟﴾: وهذه من أسمائه الحسنى، والفرق بينهما أن «الرؤوف»: صفة في دفع المضرة عن العباد، و«الرَّحيم» صفة في تحصيل المصلحة لهم[4]، ولهذا قال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: 2]، فالرَّأفة هي في منع الضرر، فلا يترك تعذيبهم وجلدهم رأفة بهم.

والرحمة تقتضي إيصال البر والخير والجود إليهم؛ ولذا فـ«الرَّحيم» أعم وأوسع، والله تعالى أعلم.

---

(1) سيأتي تخريجه في «سورة الحشر»: ﴿مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا﴾.

(2) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أخرجه أحمد (7160)، وأبو يعلى (6105)، وابن حبان (6365)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (1002).

(3) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص739)، و«تفسير الطبري» (24/ 533)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 508)، والمصادر السابقة، وما تقدم في «سورة النجم»: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾، وما سيأتي في «سورة الجن»: ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، و«سورة العلق»: ﴿﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ﴾.

(4) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص62)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص86)، و«مع الله» للمؤلِّف (ص283).

* ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾:

دعاهم إلى الإيمان، ثم دعاهم إلى الإنفاق، ثم عاتبهم عل التباطؤ في الاستجابة للإيمان مع توفر أدلته وقيام براهينه، ثم عاتبهم على التباطؤ في الإنفاق في سبيل الله وهو لهم في عاقبته، فهو قرض حسن مضاعف، ولذا وصفه بأنه ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ﴾، وعقَّب بأن ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ هو لله، وليس لكم، فأنتم راحلون وتاركوا ما وراءكم لغيركم، وإنما مالكم ما قدَّمتم ومال وارثكم ما أخَّرتم، ولو فقهتم هذا لبادرتم بالإنفاق؛ لأنكم تنفقون لأنفسكم لا لغيركم.

وفي الآية التذكير بغنى الله عنكم إذ له ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾، كما قال سبحانه: ﴿تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ﴾ [الزمر: 7]، وقال: ﴿وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [محمد: 38].

وفيها الإشعار بأنه سبحانه يخلف على المنفقين، كما قال: ﴿غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا﴾ [سبأ: 39].

﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا﴾: فيه دليل صريح على أن الآية مدنية؛ لأن المقصود: فتح مكة[1]، فهي متأخِّرة النزول إذن.

وقوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا﴾ دليل على أن المؤمنين يتفاوتون في إيمانهم وفي أعمالهم الصالحة، وهذا تأصيل مهم؛ فالله خلق الناس متفاوتين وفضَّل بعضهم على بعض، حتى الرسل فضَّل بعضهم على بعض، وليست العبرة بالأشياء التي لا يد للإنسان

---

(1) على خلاف في ذلك، كما سيأتي.

فيها، وإنما بالعمل والإنجاز والفعل، فهي دعوة إلى التنافس والتسابق في الخير، والمبادرة واغتنام الفرص التي تسنح ثم تذهب، ويكون الفضل لمغتنميها، ويبقى لغيرهم الأسف والندم والحسرة على الفوات.

و﴿وَمَن﴾ المذكور هو: فتح مكة، عند جمهور المفسرين، ومنهم ابن عباس رضي الله عنهما[1].

وقيل: هو صلح الحُدَيْبِيَة، وهو فتح بحق، وقد سماه تعالى فتحًا، فقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:1]، ونُقل هذا عن أبي سعيد الخُدْري، ورجَّحه الطبري وجماعة[2]، والأمر واسع.

والآية تفضيل في المقام والأجر لأولئك الذين أنفقوا من قبل فتح مكة وأيام شَظَف العيش والفقر والمَسْغَبة، وكانوا ينفقون من قوتهم وقوت أولادهم، وأنهم لا يستوون مع الذين تحرَّكت هممهم للإنفاق بعدما رَأَوْا بوادر الفتح والنصر، لا يستوي هؤلاء وأولئك، فالله سبحانه وتعالى قدَّم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا؛ لأنهم السابقون المبادرون، الأصلح نية، والأكثر عطاء، والأقدم إسلامًا.

﴿ فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ ﴾: لدفع التوهم أن يكون هؤلاء الذين أنفقوا من بعد لم يُقبل منهم، فالله تعالى وعدهم جميعًا بالحسنى.

---

(1) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 286)، و«تفسير الطبري» (22/ 392)، و«زاد المسير» (4/ 233)، و«تفسير القرطبي» (17/ 239)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 12)، و«فتح القدير» (5/ 201).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 395)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 232)، و«المحرر الوجيز» (5/ 259)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 103)، والمصادر السابقة.

وهذا تشجيع للمسلمين على المبادرة والمسارعة والمسابقة في الخير: ﴿ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ [الواقعة:10- 11]، المبادرة في البذل، والإنجاز، والتغيير الإيجابي، حتى حينما يكون الناس مستوحشين منه، هذا له مزية، والله تعالى أشاد بأصحابها.

والمبادرة هي السنة الحسنة التي تفتح ذرائع الخير، وتسهِّل أسبابه، وتذلِّل صعابه، وأكثر الناس أَتْباع لا قادة؛ ولذا يحتاجون إلى مَن يشق لهم الطريق، ويبدأ التجربة، فيكتشفون من بعده قدراتهم الشخصية، ويعرفون مواطن الخير والبذل.

﴿إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ﴾: فكأن هؤلاء جميعًا من المحسنين السابقين واللَّاحقين، وفي ذلك إشادة بالجيل الأول، أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، سواء الذين أسلموا وجاهدوا وأنفقوا قبل الفتح أو بعده، المهاجرين منهم والأنصار، والذين أسلموا قبل فتح مكة، والذين أسلموا بعده.

وفي بعض كتب التاريخ وبعض ما يُطرح اليوم في الإعلام انتقاص وازدراء للذين أسلموا بعد فتح مكة ممن يسمُّوهم: «الطلقاء»؛ لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال لهم: «**اذهبوا فأنتم الطُّلَقاءُ**»[1]، فحين يقولون: فلان كان من الطُّلَقاء، في معرض اللَّمْز والطعن، والله تعالى وعدهم الحسنى؛ مما يدل على أنهم محسنون في الجملة، نعم يوجد آحاد فيهم ضعف ونقص، ولكن في الجملة كانوا مسلمين صادقي الإسلام، لم يكن فيهم منافق ولا مُدَّعٍ، وكانوا أهل صلابة في شخصياتهم، ولو أرادوا النفاق لعرفوا سبيله، بل فيهم مَن قاتل في صفِّ الباطل والشرك الممثَّل في كيان سياسي واجتماعي له

---

(1) ينظر: «سيرة ابن هشام» (2/ 411)، و«أخبار مكة» للأزرقي (2/ 122- 123)، و«الأموال» لابن زنجويه (1/ 214)، و«سنن النسائي الكبرى» (11298)، و«مسند أبي يعلى» (6647)، و«تاريخ الطبري» (3/ 60- 61)، و«شرح معاني الآثار» (3/ 325)، و«سنن البيهقي» (9/ 199)، و«زاد المعاد» (3/ 307- 309)، و«البداية والنهاية» (6/ 567- 568)، و«هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم» (159).

جذور تاريخية، وحين تهاوى البناء انكشف لهم الأمر، وحانت فرصة أن ينتصروا على أنفسهم ويلحقوا بالرَّكْب ولو متأخرين.

❊ ﴿□□□□□□□□□□□□□﴾:

دعوة مؤكّدة إلى الإنفاق، **والإقراض** هو: أن تعطي إنسانًا مالًا ليرد إليك بدله بعد حين من غير زيادة[1]، ولهذا قال هنا: ﴿□□﴾، فهو من غير ربا ولا زيادة؛ لأن القرض هنا إرفاق بهذا المحتاج، فالله سبحانه عبَّر عما يبذله المؤمن في سبيله بأنه: «قرض حسن»، كأنَّ المؤمن يقرضه ربَّه.

ومعنى كونه ﴿□□﴾: أنه لوجه الله، لا رياء ولا سُمعة، وباذله لا يتبع قرضه وإنفاقه منًّا ولا أذًى، ولا يطلب منه مصلحة أو زيادة أو غرضًا من أغراض الدنيا، وهو يبذله من طيب ماله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92]، ﴿أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا﴾ [البقرة: 267].

ولذلك لما نزلت هذه الآية- كما ذكر ابن كثير، وغيره[2]- قال أبو الدَّحْداح الأنصاريُّ رضي الله عنه: يا رسولَ الله، وإن اللهَ ليريدُ منا القرضَ؟ قال: «**نعم، يا أبا الدَّحْداح**». قال: أَرِني يدكَ يا رسولَ الله. فناوله يدَه، قال: فإني قد أقرضتُ ربي حائطي.

---

(1) ينظر: «أحكام القرآن» للجصاص (1/ 582)، و«النكت في القرآن الكريم» (ص485)، و«بصائر ذوي التمييز» (4/ 258)، و«التحرير والتنوير» (2/ 482).

وينظر أيضًا: «الصحاح» (3/ 1102)، و«لسان العرب» (7/ 217) «ق ر ض».

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 404)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 14- 15).

وله حائطٌ فيه سِتمئة نخلة، وأم الدَّحْداح فيه وعيالُها، فجاء أبو الدَّحْداح فناداها: يا أم الدَّحْداح. قالت: لبيك. قال: اخرجي؛ فقد أقرضتُه ربي عز وجل[1].

وفي رواية أنها قالت له: رَبح بيعُك يا أبا الدَّحْداح. ونقلت منه متاعها وصبيانها، وأن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «**كم من عِذْقٍ رَداحٍ لأبي الدَّحْداحِ في الجنة**»[2].

إن الارتباط بالحقل ليس مجرد حب مادي، بل هو اتصال عاطفي، فتحت كل شجرة ذكرى، وفي كل بقعة تاريخ؛ هذه الشجرة زُرعت يوم ميلاد فلان، وتلك يوم أَثْغَر، وهذا الجدول حُفر يوم زواج فلانة.. علاقة حميمية إنسانية تمثِّل جمال الحياة وروحها، يرضى المؤمن طائعًا مختارًا أن ينفصل عنها، كما رضي المؤمنون المهاجرون أن يخرجوا من ديارهم وبيوتهم في سبيل الله إلى أرض لم يعرفوها وبلاد لم يألفوها.

﴿ ﴾: هذا الوعد الإلهي يبيِّن أن لفظ القرض استعير لتشجيع النفوس على البذل، وإلا فالمال كله لله، والله هو الغني، لا يحتاج لأحد، ولذا ذكر معنى آخر يشجِّع على البذل والإنفاق، وهو خلاف ما يجب في أمر القرض الدنيوي وهو مضاعفة القرض الذي دفعه، ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: 245]، ومع هذا ﴿   ﴾، فالأجر عطاء من الله وقد يكون هو المغفرة؛ كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ

(1) ينظر: «سنن سعيد بن منصور» (417- تفسير)، و«مسند البزار» (2033)، و«مسند أبي يعلى» (4986)، و«تفسير الطبري» (4/ 430)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (2/ 460)، و«المعجم الكبير» للطبراني (22/ 301) (764)، و«شعب الإيمان» (3178).

(2) أخرجه أحمد (12482)، وعبد بن حميد (1334)، وابن حبان (7159)، والطبراني في «المعجم الكبير» (22/ 300) (763)، والحاكم (2/ 20)، والضياء (5/ 59) (1679) من حديث أنس رضي الله عنه، بدون ذكر سبب النزول.

وأصل الحديث في «صحيح مسلم» (965)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (2964).

﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [التغابن: 17]، فثَمَّ ترابط بين المغفرة والصدقة والإنفاق، ولذلك فالمبتلَى بذنب أو عيب عليه أن يكثر من الصدقة؛ فـ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: 114].

ولأن القرض كرم من الْمُقْرِض وصف الأجر الموعود بأنه ﴿ ﴾، ولكن الله أكرم منه، حيث ضاعف له ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

* ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾:

لما ذكر القرض والسَّداد والمضاعفة تشوَّفت النفوس لمعرفة وقت الوفاء والرد، فجاءت هذه الآية الكريمة، و﴿تَرَى﴾ هنا هي للنبي صلى الله عليه وسلم ولكل أحد يصلح له الخطاب يوم القيامة، وفي ذلك تأكيد على أن المرأة كالرجل في الأعمال الصالحة، هي كالرجل في الإيمان الذي هو أصل العبوديات كلها، وفي الإنفاق، كما في قصة أم الدَّحْداح؛ حيث المرأة تحفِّز الرجل على البذل أو تصدَّه تحججًا بالحاجة والخوف من العَوَز والتذكير بالصبية وخطر الجوع والفقر.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾: هو يوم ونهار، ولكن الجو ظلام، والشمس يوم القيامة تدنو من الخلائق، حتى يلجمهم العرق إلجامًا(1)، فهذا وقت وهذا وقت، فيأتي عليهم وقت يكون الناس فيه في ظلام دامس، لا شيء

(1) كما في «صحيح مسلم» (2864) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**تُدْنَى الشمسُ يومَ القيامة من الخلق، حتى تكونَ منهم كمقدار مِيلٍ، فيكونُ الناسُ على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم مَن يكونُ إلى كعبيه، ومنهم مَن يكونُ إلى ركبتيه، ومنهم مَن يكونُ إلى حَقْوَيْهِ، ومنهم مَن يُلْجِمُهُ العرقُ إلْجامًا**». وأشار رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى فِيهِ. وينظر ما تقدم في «سورة الرحمن»: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى﴾.

حولهم ولا يرون شيئًا، هذا جزء من مشاهد ذلك اليوم، وهذا منصوص عن جماعة من السلف في معنى الآية[1].

والآية تتحدَّث عن حالة خاصة يسير فيها الناس صَوْب شيء أمامهم، ولذا عبَّر بالسَّعي، وهو المشي الشديد[2]، ويقول المنافقون للمؤمنين: انتظرونا! فهي مرحلة اجتياز لمكان مظلم، وإن كانت ضمن أحداث ذلك ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾، الذي هو يوم القيامة.

فالله تعالى يعطي كل أحد نورًا، المؤمن والمنافق في بداية الأمر:

أما المؤمنون فـ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾، وقد يكون النور الذي بأيمانهم هو نور الكتاب، ﴿فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [الحاقة: 19].

ويمكن أن يكون هذا باعتبار أن المؤمنين والمؤمنات قسمان؛ منهم مَن يسعى نوره بين يديه، وهم السابقون، ومنهم مَن يكون نوره يسعى بيمينه، وهم أصحاب اليمين.

ويمكن أن يكون للمؤمن نوران: نور بين يديه، ونور عن يمينه، فهم يمشون والنور يمشي معهم يضيء لهم الطريق.

وهذا المعنى ورد في «سورة التحريم» في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ ٤﴾، ويقال لهم وهم كذلك: ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ فيُبشَّرون بالجنة[3].

---

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 474)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 248)، و«تفسير القرطبي» (17/ 245)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 16)، و«الدر المنثور» (14/ 269).

(2) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص330)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص411)، و«لسان العرب» (14/ 385) «س ع ا»، و«بصائر ذوي التمييز» (3/ 222).

(3) ينظر ما سيأتي في «سورة التحريم».

وعبَّر بالسَّعي؛ دلالة على سرعة المشي هناك، كما كانوا سراعًا إلى الخير في الدنيا، وفيه إشادة خفية بالذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا.

وكونه بين أيديهم، يعني أنه أمامهم، ولكنه قريب منهم غير بعيد.

* ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾:

المنافقون والمنافقات كان معهم نور ثم انطفأ في وسط الطريق، فالتفتوا ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يقولون لهم: ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ أي: انتظرونا، اصبروا قليلًا، ولا تسرعوا حتى نصحبكم ونقتبس من نوركم، ونتعرف به على الطريق.

وإما أن تكون القراءة: ﴿ ٱنظُرُونَا ﴾ بهمزة الوصل، وإما أن تكون: ﴿أَنظِرُونَا﴾ بهمزة القطع، من الإنظار، وهذه قراءة سبعية[1]، **والمعنى واحد**: انتظرونا[2].

ولا يصح أن يكون المعنى: انظرونا بعيونكم، وإن كان الفعل هو نفسه، لكن إذا كان النظر بالعين فإنه يُعدَّى بحرف الجر «إلى» ولذا لا يصح أن تقول: «انظرني»، وإنما تقول «انظر إلي»، ﴿ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ [الأنعام: 99]، وأما ﴿ ٱنظُرُونَا ﴾ فمعناه: انتظرونا توقَّفوا قليلًا[3]؛ ﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ أي: نأخذ من نوركم قبسًا يضيء لنا[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 400)، و«السبعة في القراءات» (ص625)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص208)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 384)، و«معجم القراءات» (9/ 334).

(2) ينظر: «الحجة في القراءات السبع» (ص342)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 269)، و«حجة القراءات» (ص699- 701).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 124)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 248)، و«تفسير القرطبي» (17/ 245)، و«فتح القدير» (5/ 204)، والمصادر السابقة والآتية.

(4) ينظر: «الوجيز» للواحدي (ص1068)، و«تفسير السمعاني» (5/ 370)، و«تفسير البغوي» (5/ 29)، و«الكشاف» (4/ 475)، و«المحرر الوجيز» (5/ 262)، و«التحرير والتنوير» (27/ 382).

﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾: يحتمل أن يكون قائل هذا: المؤمنين، **والأرجح** أنه من قول الملائكة، أي: ابحثوا عن نور هناك خلفكم[1].

وقوله: ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ تعريض بحالهم في الدنيا، وأن النور كان معهم، فربما حمل أحدهم المصحف، وربما صلَّى أو زكَّى أو صام تظاهرًا من دون إيمان، وربما قاربت قلوبهم أن تضيء، ولكنهم أعرضوا عنها، فهذا يشبه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ [البقرة:17].

﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾: يرجع المنافقون والمنافقات إلى المكان الذي كانوا فيه يلتمسون النور، فإذا رجعوا ضُرِبَ بينهم بسُور، أي: جدار مما يعلم الله من الغيب[2]، بعضهم يقول: إنه سُور بيت المقدس، وجاء في ذلك روايات وأساطير لا تثبت عن كعب الأحبار امتلأت بها كتب التفسير أنه سُور بيت المقدس[3]، والباب: باب الرحمة، وعندهم وادٍ اسمه: وادي جهنم، ويظنون هذا الفاصل ما بين الرحمة وما بين العذاب..

---

(1) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 239)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 288)، و«تفسير البغوي» (5/ 29)، و«المحرر الوجيز» (5/ 262)، و«زاد المسير» (4/ 234)، و«تفسير القرطبي» (17/ 246)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 345)، و«فتح البيان» (13/ 407)، و«التحرير والتنوير» (27/ 382).

(2) ينظر: «تفسير الرازي» (29/ 458)، و«تفسير القرطبي» (17/ 246)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 17)، و«تفسير السعدي» (ص839).

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 402- 403)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 238)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7317)، و«تفسير البغوي» (5/ 29)، و«زاد المسير» (4/ 234)، والمصادر السابقة.

وهذا كله مما ينبغي تنزيه كتاب الله عنه، فالشأن شأن الدار الآخرة، ولا علاقة له بها في بيت المقدس من هذه المسميات التي سماها الناس؛ اعتمادًا على حكايات إسرائيلية لا تثبت[1].

والضَّرب بالسُّور، يعني: وضعه، فأُقيم بينهم وبين المؤمنين سُور حاجز، وهو يدل على أن المنافقين أرادوا أن يلحقوا بالمؤمنين مرة ثانية ثم وجدوا السُّور مضروبًا أمامهم، ولم يقدروا على تجاوزه.

وهذا السُّور: ﴿ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾، يعني: سُور فيه المؤمنون، وفيه الجنة، ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ يعني: الوجه الثاني الذي إلى جهة المنافقين ﴿مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ يعني: فيه العذاب، فالمؤمنون في العناية والرِّعاية، والمنافقون في الطرد والإبعاد: ﴿لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ [النبأ: 26].

* ﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤﴾:

في خطابهم الأول للمؤمنين عبَّر بـ﴿ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ ﴾؛ لأنهم كانوا معًا بلا حاجز، أما الآن فقد فُصل بينهم بفصل سرمديٍّ ﴿بِسُورٖ﴾، وابتعد بعضهم عن بعض، ولذا استخدم لفظ النداء: ﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾، وهو استفهام تقرير، أي: كنا معكم في الدنيا، وكانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم، ويعيشون معهم، ويصلُّون، ويجاهدون، فيأتيهم الرد من المؤمنين والمؤمنات: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾، فربما وجد أحدُكم في قلبه ميلًا للإيمان أو رغبة في التوبة فلا يستجيب له، بل يكتمه

(1) ينظر: «تفسير ابن كثير» (8/ 18).

ويمضي قُدُمًا لا يَلْوي على شيء، طمعًا في مال أو دنيا أو سلطان أو شيء من هذا القَبِيل، وهذه فتنة للنفس.

﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾: فكانوا يتربَّصون بالمؤمنين الدوائر[1]، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ﴾ [النساء:141]، فهم يتربَّصون بالمؤمنين أن يأتيهم عذابٌ أو يرجعوا عن دينهم أو ينتصر عليهم عدوُّهم أو يحصل بينهم شقاق وافتراق.. وكانوا ينتظرون غفلة أو ضعفًا أو تكالبًا من عدو، لينضمُّوا إليه ويُجْهِزُوا على المؤمنين، ولذا لم يستجيبوا للحق.

﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾: وقع في قلوبكم رَيْب لم تحاولوا معالجته[2]، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾ [التوبة: 45]، ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ أي: التمنيات[3]؛ أنهم كانوا يتمنون أشياء في الدنيا ويواعدون أنفسهم بها ويتحرَّونها ويوهمون أنفسهم بها من عاجل الحياة الدنيا ومن سوء مصير المؤمنين، فهذه الأماني غرَّتهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ والمقصود هنا: الموت[4].

---

(1) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 124)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7318)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 290)، و«تفسير القرطبي» (17/ 247)، و«تفسير النسفي» (3/ 436)، و«اللباب» (18/ 475)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 384).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 263)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 187)، و«التحرير والتنوير» (27/ 386)، و«أضواء البيان» (7/ 545)، والمصادر السابقة.

(3) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 406)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7319)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 346)، و«التحرير والتنوير» (27/ 386).

(4) ينظر: «تفسير مقاتل» (4/ 240)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 351)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 239)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 249)، و«تفسير البغوي» (5/ 30)، و«تفسير القرطبي» (17/ 247)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 18)، و«التحرير والتنوير» (27/ 387).

﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾: و﴿ٱلۡغَرُورُ﴾: اسم من أسماء الشيطان الرَّجيم[1]،

* ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾:

لقد كانوا يُسألون في الدنيا القرض الحسن- ولو بالقليل من المال- فيبخلون، ويموتون والأموال مكدَّسة عندهم لم يبذلوها ولم يُقْرِضوها، فهل كانوا يدَّخرونها لتكون فِدْية تنجيهم من عذاب الله يوم القيامة؟

ففي ذلك الموقف مهما بذل الإنسان وأعطى، فإنه لن يُقبل، على أنه لا يوجد عنده شيء يمكن أن يفتدي به: ﴿لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ﴾ [المائدة: 36] ولكن ليس لهم شيء يوم القيامة حتى يفتدوا به، وإذن لا يُقبل منكم أيها ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾، ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾، و﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ أي: مصيركم النار، فهي أولى بكم وأجدر[2]؛ بحكم ما كنتم عليه من النفاق والتلون والخداع والتضليل وسوء الظن بالله عز وجل.

* ﴿۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾:

---

(1) ينظر: «تفسير مجاهد» (ص648)، و«تفسير الطبري» (22/ 406)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 523)، و«تفسير السمعاني» (5/ 371)، و«زاد المسير» (4/ 234)، و«تفسير الرازي» (29/ 459)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 18)، و«التحرير والتنوير» (27/ 387).

وينظر أيضًا: «مختار الصحاح» (ص225)، و«لسان العرب» (5/ 12)، و«تاج العروس» (13/ 215) «غ ر ر».

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 408)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 125)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 523)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 405)، و«الكشاف» (4/ 476)، و«تفسير القرطبي» (17/ 248)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 19)، و«فتح القدير» (5/ 205).

هذه الآية قيل: إنها مكية؛ حيث ورد أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتَبَنا اللهُ بهذه الآية، إِلَّا أربعُ سنينَ»[1].

وجاء عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم- منهم ابن عباس- أنهم قالوا: إنهم خُوطبوا بالآية بعد ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة من إيمانهم[2].

وفي ذلك آثار عديدة؛ فالأقرب أن الآية مدنية، والله أعلم، والسياق مدني.

وأما قول ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتَبَنا اللهُ بهذه الآية إِلَّا أربعُ سنينَ». فلعل هذا محمول على ملأ من الصحابة ممن تأخَّر إسلامهم، وليس على خصوص ابن مسعود رضي الله عنه.

وفي القصة معنى لطيف، وهو أن الإنسان يكون خشوع قلبه وحضوره في أول إيمانه أكثر؛ لأنه حديث عهد بالجاهلية والمعاصي، فإذا سمع القرآن أو صلَّى أو دعا أو سمع موعظة، أجهش وتأثَّر؛ لطراوة إيمانه وحماسه وحضور قلبه، فإذا مضى عليه وقت هدأت نفسه، وتحوَّلت بعض العبادات إلى شيء من المألوف، وعافس الأزواج والأولاد والضَّيْعات والأموال، ونسي ولابسته غفلة.

ولذلك رُوي أنه لَمَّا قدم أهلُ اليمن في زمن أبي بكر رضي الله عنه، وسمعوا القرآن، جعلوا يبكون، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «هكذا كنا، ثم قستِ القلوب»[3].

يعني إنه في فترة مضت كان أكثر رقة، وهذا نوع من عتاب النفس[1].

---

(1) أخرجه مسلم (3027).

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 240)، و«تفسير البغوي» (5/ 30)، و«تفسير القرطبي» (17/ 249)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 346)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 19)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 208)، و«فتح القدير» (5/ 208)، و«التحرير والتنوير» (27/ 353).

(3) ينظر: «الكشاف» (4/ 477)، و«تفسير الرازي» (29/ 460)، و«تفسير النسفي» (3/ 437)، و«تفسير النيسابوري» (6/ 256)، و«روح المعاني» (14/ 180).

فلذلك خاطبهم سبحانه وقال: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ﴾، وهو مأخوذ من «الإنى» بالألف المقصورة، وهو الوقت[2]، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 53]، أي: غير منتظرين وقت نضجه[3]، أي: ألم يحن؟ وهذا استفهام المقصود منه التقرير والاستدعاء والطلب[4]، أي: قد آن لكم أن تخشع قلوبكم بعد أن آمنتم وأن يتحوَّل الإيمان إلى حركة في الرُّوح ويقظة في الضمير[5].

فالخشوع هو: الإخبات والانكسار له سبحانه، وأن يكون في القلب يقظة للآيات والذِّكر، وقد دعاهم إلى الخشوع لذكر الله وما نزل من الحق، **والذِّكر** في الأصل شامل للقرآن وغيره، أما وقد عطف عليه ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾- وهو القرآن- فيكون المقصود بالذِّكر: التسبيح، وعموم الذكر والدعاء ونحوه[6].

---

(1) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص135)، وابن أبي شيبة (35524)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (1/ 33-34).

(2) ينظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص453)، و«تفسير الطبري» (22/ 408)، و«الوجيز» للواحدي (ص1068)، و«تفسير السمعاني» (5/ 372)، و«المحرر الوجيز» (5/ 264)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 346)، و«التحرير والتنوير» (27/ 390).

(3) ينظر: «إيجاز البيان» (2/ 675)، و«إبراز المعاني من حرز الأماني» (ص221)، و«تفسير القرطبي» (14/ 226)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 157)، و«التفسير المظهري» (7/ 371).

(4) ينظر: «العين» (8/ 400)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص390)، و«مقاييس اللغة» (1/ 143) «أ ن ى».

(5) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 408)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 125)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 352)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 524)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7320-7321)، و«تفسير الماوردي» (5/ 478)، و«التحرير والتنوير» (27/ 390).

(6) ينظر: «الكشاف» (4/ 477)، و«تفسير الرازي» (29/ 461)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 188)، و«تفسير النسفي» (3/ 437)، و«فتح القدير» (5/ 207)، و«التحرير والتنوير» (27/ 391)، و«أضواء البيان» (7/ 547).

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾: وهم اليهود والنصارى[1]، فهم أُوتوا الكتابَ، وحصل لأولهم إيمان وخشوع، ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: طال عليهم الزمن[2]، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ يحذِّر المؤمنين أن يكون مصيرهم كمصيرهم، فيطول عليهم الزمن، وتقسو قلوبهم، كما قال لليهود: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: 74]، وقال: ﴿زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [الزمر: 22].

وهنا سؤال: هل طول الأَمَد يسبِّب قوة الإيمان ورسوخه، أم يسبِّب ضعفه وقسوة قلب العبد؟

على الصعيد الفردي يعتمد الأمر على المجاهدة والعمل، فالزمن عنصر محايد يمكن توظيفه في ترسيخ الإيمان وحشد دلائله، وفي العبادة والخير وطلب العلم وصحبة الصالحين، فيكون طول العمر سببًا للقرب من الله.

ويحدث غالبًا أن يقع المَلَل والتثاقل والميل للشهوات وترك الجِد والحزم، فيكون الزمن سببًا للغفلة وضعف الإيمان.

والآية تشير إلى سُنَّة إلهية غالبة، في أن الأمم والدول تبدأ قوية، وفيها اندفاع واهتمام، ثم يدخلها الضعف والترهُّل والرُّكون إلى الدنيا والفساد والأَثَرة، ثم تحق عليهم السنة ويعم الضعف: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: 59].

---

(1) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 240)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 250)، و«تفسير السمعاني» (5/ 372)، و«تفسير البغوي» (5/ 30)، و«تفسير الرازي» (29/ 461)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 20).

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 240)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 250)، و«تفسير البغوي» (5/ 30)، و«زاد المسير» (4/ 235)، و«فتح القدير» (5/ 207).

وفي هذا الخطاب الربَّاني اللَّطيف دعوة إلى الوعي واليقظة؛ لأن الزمن ليس في صالحك دائمًا، فإذا لم توظِّف الزمن توظيفًا إيجابيًّا، فستكون سريع الانهيار، وهكذا الدول والقوى المختلفة.

ولذلك كان أفضل هذه الأمة: الصحابة، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وهذا شاهد على السُّنَّة الإلهية على أن الأمة لا تخلو من خير حتى في آخرها، ولكن الكلام عن المجموع[1].

وبعض الناس يغلبهم التشاؤم فلا يرى الناس إلا في هلاك وفساد، وأن العصر عصر انحلال، وبعضهم- مع هذا- يتخيل أن دولة الخلافة الراشدة على الأبواب.

وهذا توقع مجافٍ للسياق التاريخي، وليس له ما يسنده من سُنَّة ولا من واقع، والمطلوب الاعتدال والتوازن، فلا يأس ولا قنوط ولا تشاؤم، ولا تواكل ولا غفلة ولا مبالغة.

* ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾:

هذا مَثَل ضربه الله سبحانه وتعالى في الخشوع والإيمان[2]، فيا مَن تشعرون بقسوة في قلوبكم لا تيأسوا، و﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾، فكما أن الأرض الميتة تحيا بالمطر فتصبح خاشعة: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ [فصلت: 39]، كذلك أنتم

---

(1) وفي الحديث: «**خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**...». أخرجه البخاري (2652)، ومسلم (2533) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وفي حديث آخر: «**مَثَلُ أمتي مَثَلُ المطر، لا يُدْرَى أَوَّلُه خيرٌ أم آخرُهُ**»، وقد تقدم تخريجه، وينظر للتوفيق بينهما ما تقدم في «سورة الواقعة»: ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ﴾، و«سورة الجمعة»: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾.

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 264)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 188)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 387)، و«التحرير والتنوير» (27/ 394).

أيها المؤمنون إن شعرتم بقسوة في قلوبكم فتذكَّروا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: فيحيي قلوبكم بالإيمان كما أحيا الأرض بالمطر؛ ولهذا شبَّه النبيُّ صلى الله عليه وسلم الوحي بالمطر، فقال: «**مَثَلُ ما بعثني اللهُ به من الهُدَى والعلم، كمَثَل الغَيْث الكثير أصابَ أرضًا، فكان منها نَقِيَّةٌ، قَبِلت الماءَ، فأنبتت الكَلَأَ والعُشْبَ الكثيرَ، وكانت منها أَجَادِبُ، أمسكت الماءَ، فَنَفَعَ اللهُ بها الناسَ، فشربوا وسَقَوْا وزرعوا، وأصابتْ منها طائفةً أخرى، إنما هي قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فذلك مثلُ مَن فَقُهَ في دين الله، ونَفَعَهُ ما بعثني اللهُ به فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومثلُ مَن لم يَرْفَعْ بذلك رَأْسًا، ولم يَقْبَلْ هُدى الله الذي أُرْسِلْت به**»[1].

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: فالقرآن الكريم يبعث على الخشوع، فهو ﴿رَقِيبًا ۝١ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا﴾ [الزمر: 23]، وهو أهم سبب للإيمان ويقظة القلب؛ لأنه آيات الله البينات، وحججه الواضحة، وحديثه وكلامه إلى خلقه ﴿بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦ ﴾ [المرسلات: 50]!

واختار كلمة: ﴿تَعْقِلُونَ﴾ قصدًا؛ فالخشوع ليس نقيضًا للعقل، وليس هو حالة خاصة البسطاء السُّذَّج الذين ليس لديهم عقل يفكِّرون به، أو ليس لديهم قدرات ذهنية على التحصيل، فالإيمان دعوة إلى عقول نيِّرة تعقل وتتفكَّر، والعقل هو من أعظم الأدلة والشواهد على الله سبحانه وتعالى، على وجوده وعلى أسمائه وصفاته، ومن غير عقل لا يوجد تكليف أصلًا، والخشوع ليس نقيضًا لوجود العقل الرشيد الذي يهتدي به المؤمن في مصالح دنياه وأسرته ووظيفته ودراسته وأمته ومشاريعها في النهضة والتنمية والتقدُّم، فهما قرينان لا ينفصلان، وإذا انفصلا وقع في الأمة انحراف؛ إما إلى

---

(1) أخرجه البخاري (79)، ومسلم (2282) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

الغلو أو التفريط، فيكون السلوك التعبُّدي منفصلًا عن العقل، ومنفصلًا عن الفقه والشريعة، أو يتجَّه العقل المجرَّد المغرور للاتجاهات المادية.

إن الضعف حالة إنسانية أصيلة، وأعتى الناس وأطغاهم وأقساهم إذا مرض أو هَرِم أو يئيس أو تعرَّض لأزمة ما.. انكشفت بشريته المخبوءة تحت ستار الوهم والتعاظم والكبرياء الكاذب!

* ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١٨﴾:

في قراءة سبعية: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَدِّقِينَ وَٱلْمُصَدِّقَـٰتِ﴾، بتخفيف الصاد[1]، من الصدق، فعلى هذه القراءة تكون الآية ثناءً على المؤمنين والمؤمنات.

وفي القراءة الأخرى بالتشديد، يعني المتصدِّقين، وأدغمت التاء في الصاد[2].

فيكون الله تعالى أثنى على النساء والرجال بالإيمان والصدقة، كما قال سبحانه: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ﴾ [البلد:15- 18]، وقال هنا: ﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

وأثنى على النساء في الصدقة كما أثنى على الرجال، وفيه إشارة صريحة إلى حق المرأة في التملك؛ لأنها إنما تتصدَّق من مالها، وفي العالم الغربي قبل مئة وخمسين سنة لم تكن المرأة قادرة على التملُّك، في حين جاءت آيات تحثها على الصدقة، وهي لن

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 411- 412)، و«السبعة في القراءات» (ص626)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص208)، و«النشر في القراءات العشر» (2/ 384).

(2) ينظر: «معاني القراءات» للأزهري (3/ 56)، و«الحجة في القراءات السبع» (ص342)، و«الحجة للقراء السبعة» (6/ 274- 275)، و«حجة القراءات» (ص701).

تتصدَّق إلا من مال لا يتسلط عليه أبوها، كما يفعل بعض الآباء الجشعين الذين لا يخافون الله، فيتسلَّطون على رواتب بناتهم، وربما يحرمها من الزواج من أجل مالها، أو يسخط عليها إذا لم تعطه، ويحرجها من باب الأُبوة، وقد يعيِّرها أو يسبها، ولا يتسلط عليها الأزواج الذين يبحثون عن امرأة ذات غنى ومال، مع أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**فَاظْفرْ بذاتِ الدِّين، تَرِبَتْ يداكَ**»[1].

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ ﴾:

أثنى الله سبحانه وتعالى على المؤمنين بالله والرسل بأنهم ﴿مِّن﴾، و﴿مِّن﴾ هم: السابقون، أو من السابقين، وقد ذكر سبحانه في القرآن ألوانًا من الصِّدِّيقين، كما ذكر عن يوسف عليه السلام: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ [يوسف: 46]، وكما قال عن مريم عليها السلام: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾ [المائدة: 75]، ومن هذه الأمة أفضلها بعد نبيها: أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، ولو وُزن إيمانه بالأمة لوزنها ورجح بها[2]، **فالصِّدِّيقية** ليست شيئًا مستحيلًا، وهي أعلى درجات الإحسان، وهي الرتبة الرفيعة النادرة التي يصطفي لها الخلاصة والخاصة من عباده السابقين، وحين جعل الله درجات الإيمان والإحسان والإسلام كان ذلك لتحفيز الناس إلى أن يترقوا في درجات الإيمان والإحسان، ويتنافسوا فيها، ويتسابقوا إليها، كما يتسابق أهل الدنيا إلى مقاماتها ومنازلها.

---

(1) أخرجه البخاري (5090)، ومسلم (1466) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ورد ذلك من قول عمر رضي الله عنه، ورُوي مرفوعًا، ولا يصح. ينظر: «فضائل الصحابة» لأحمد (653)، و«السنة» لعبد الله بن أحمد (821)، و«السنة» للخلال (1134)، و«الإبانة الكبرى» (1161)، و«شعب الإيمان» (35)، و«تاريخ دمشق» (30/ 126- 127)، و«سير أعلام النبلاء» (8/ 405)، و«الفوائد المجموعة» (ص335)، و«السلسلة الضعيفة» (6343).

والصِّدِّيقية تعني سرعة التصديق، ولذلك سُمِّي أبو بكر رضي الله عنه بالصِّدِّيق؛ لأنه أول مَن صدَّق وأسرع مَن صدَّق، ولم يُقل له عن الرسول صلى الله عليه وسلم في شيء إلا قال: «صدق صدق»[1].

لكن حذار أن يفهم أحدٌ أن معنى التصديق أن يكون عقل الإنسان قابلًا لأن يصدِّق كل خبر دون نظر وتفكُّر، مستَقَرًّا للخرافات والأساطير، وإنما يُصدِّق بما هو مُتعبَّد بالتصديق به من قول الله سبحانه وقول رسوله صلى الله عليه وسلم الثابت بالإسناد الصحيح، ويصدِّق الحقائق العلمية النافعة في الدنيا أو في الآخرة، أما ما وراء ذلك فينبغي أن يكون تصديقه عن تعقل وتثبت وحسن نظر.

ومن معاني الصِّدِّيقية: أن يكون صادقًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:119]، ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: 21]، **والصدق** هنا خُلق عظيم، يشمل الصدق بالكلام فلا يكذب مهما كلَّفه الأمر، إلا فيما جاءت الرخصة فيه مما رُوعيت فيه المصلحة الغالبة، دون توسع في التأويل، أو وقوع في التدليس[2].

---

(1) تقدم تخريجه في «سورة النجم»: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

(2) كما جاء في «صحيح البخاري» (2692)، و«صحيح مسلم» (2605) من حديث أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها أنها سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**ليس الكَذَّابُ الذي يُصْلِحُ بين الناس، ويقولُ خيرًا ويَنْمي خيرًا**».

قال ابن شِهاب- الرواي عن حُميد بن عبد الرحمن، عن أم كلثوم رضي الله عنها-: «ولم أسمعْ يُرَخَّصُ في شيء مما يقولُ الناسُ كَذِبٌ إِلَّا في ثلاثٍ: الحربُ، والإصلاحُ بين الناس، وحديثُ الرجل امرأَتَهُ، وحديثُ المرأة زوجَها».

ورُويت الزيادة في آخره مدرجة في الحديث. ينظر: «فتح الباري» (5/ 300)، و«السلسلة الصحيحة» (545).

كما يشمل الصدق في الأفعال والإيمان، فلا يكون متلوِّنًا يدور حيث تدور به مصلحته، ولا يدعو إلى شيء ويكون أول مَن يسارع إلى مخالفته.

ومن أعظم ألوان الصدق: الصدق في القلب، صفاء القلب، صفاء النية، حسن المقصد، إرادة وجه الله تعالى والدار الآخرة، أن يسلم الإنسان في داخله من الغل والحقد والحسد على الناس، بل يفرح لهم، وأن يجاهد نفسه في دفع الغل والحسد والغيرة، فإن «الحِلم بالتحلُّم، والعلم بالتعلُّم»[1]، والصبر بالتصبُّر، ومن أسباب تحقيق ذلك أن يدعو للناس بخير في سجوده ولا يستثني أحدًا، فيدعو لنفسه ووالديه وزوجه وذريته والمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، والمؤمن في كل حالاته يتمثَّل قوله صلى الله عليه وسلم: «**عليكم بالصِّدق؛ فإن الصِّدقَ يَهدي إلى البرِّ، وإن البرَّ يَهدي إلى الجنة، وما يزالُ الرجلُ يصدُقُ ويتَحَرَّى الصِّدقَ حتى يُكْتَبَ عند الله صدِّيقًا**»[2].

ثم وصفهم بأنهم: شهداء ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا﴾، وهذه الأمة هي بالجملة أمة الشُّهداء على الناس، وهم شهداء على أنفسهم قبل ذلك، بالعدل والإنصاف والتحرِّي والنزاهة، فمؤمنو هذه الأمة مثل شهداء الأمم السابقة، وهم بمنزلة الشُّهداء عند الله، ولو ماتوا

(1) كما قال أبو الدَّرْداء رضي الله عنه. أخرجه أبو خيثمة في «العلم» (114)، وهناد في «الزهد» (1294)، وابن أبي الدنيا في «الحلم» (47)، وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص210)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (10254)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (617، 903).

ورُوي مرفوعًا، والموقوف أصح. ينظر: علل الدارقطني (6/ 218- 220)، و«العلل المتناهية» (1/ 76)، (2/ 222- 223)، و«السلسلة الصحيحة» (342).

(2) أخرجه البخاري (6094)، ومسلم (2607) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

على فرشهم، ﴿وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا﴾، فلهم أجر الصِّدِّيقية، ولهم النور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم[1].

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا﴾ استئنافًا لكلام جديد، فتكون الواو للاستئناف، أي: أن الشهداء الذين بذلوا أرواحهم وقُتلوا في سبيل الله لهم أجر عظيم[2].

وقد ورد: «**للشَّهيد ستُّ خصال: يُغفرُ له في أول دَفْعة، ويَرَى مقعدَه من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُوضع على رأسه تاجُ الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوَّج اثنتين وسبعينَ زوجةً من الحُور العين، ويشفع في سبعينَ من أقاربه**»[3].

وفي الحديث: «**إن في الجنة مئةَ درجة، أعَدَّها اللهُ للمجاهدينَ في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**»[4].

﴿كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ﴾: عادة القرآن في المقابلة بين هؤلاء وهؤلاء؛ ليكون العبد بين الخوف والرجاء.

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 412- 413)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 126- 127)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7323)، و«تفسير القرطبي» (17/ 253)، و«التحرير والتنوير» (27/ 397- 398).

(2) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 266)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 22)، والمصادر السابقة.

(3) أخرجه أحمد (17182)، والترمذي (1663)، وابن ماجه (2799) من حديث المقدام بن معديكرب رضي الله عنه. ينظر: «السلسلة الصحيحة» (3213).

(4) أخرجه البخاري (2790، 7423) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأخرجه مسلم (1884) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، بنحوه، وينظر ما سيأتي في «سورة الغاشية»: ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ﴾.

* ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾:

إذا وجدت الآية تُستفتح بهذا الأمر: ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾، فثمة أمر جَلَلٌ مهمٌّ، كما قال تعالى: ﴿ **فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ** ﴾ [محمد: 19]، وهي دعوة إلى التيقظ والمعرفة القلبية التي تتجاوز الكلام اللساني، والنظر العقلي، والقناعة الجافة، إلى ملامسة القلب والوجدان وصبغ الشخصية الإنسانية بصبغة الربانية الصادقة.

والحديث عن الدنيا ليس على سبيل الذم المطلق للحياة الدنيا، ولكنه وصف يهيِّئ المسلم إلى أن يقف موقف الاعتدال والاتزان، فيأخذ منها نصيبًا لا يشغله عن طلب الآخرة، ووصفها بأنها ﴿كَانَ﴾، **واللَّعب** ليس كله حرامًا ولا كله مذمومًا، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم كان يلاعب أهله، ويلاعب الصبيان ويمازحهم(1)، وإنما المذموم ما تعدَّى إلى أن ينقلب أذى للآخرين أو عدوانًا على الممتلكات، أو انشغالًا عن الفرائض.

واللَّهو يكون عادة للمراهقين والشباب، وكذلك النساء فيهن ميل للهو.

وليس كل اللَّهو مذمومًا، و«**الأنصارُ يعجبهم اللَّهو**»(2)، ويُثْنَى عليه في الأفراح والأعياد والمناسبات المشروعة، والمذموم منه ما تعدَّى الحدود، أو خالف الأمر، أو كان سببًا في تفويت فريضة، أو أشغل عن ذكر الله.

---

(1) كما في «صحيح البخاري» (6129)، و«صحيح مسلم» (2150) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم ليخالطُنا، حتى يقولَ لأخٍ لي صغير: «**يا أبا عُمير، ما فعل النُّغير**».

(2) كما جاء في «صحيح البخاري» (5162) من حديث عائشة رضي الله عنها.

والزِّينة مطلوبة، والله تعالى خلق النجوم زِينة، والمال زِينة، والخضرة زِينة، وما على الأرض زِينة، والحيوانات زِينة، فهذا من بديع حكمته وصنعه، والمذموم منها ما بلغ حد السَّرَف والتَّرَف، مثل أن يتزيَّن الإنسان بالذهب أو بالحرير، أو تتزيَّن المرأة بما لا يجوز، أو يكون المقصود به الفتنة والإثارة والإغراء، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**صِنفانِ من أهل النار لم أرهما**». وذكر منهما: «**ونساءٌ كاسياتٌ عاريَاتٌ مُمِيلَاتٌ مائلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المائلة، لا يدخلنَ الجنةَ، ولا يجدنَ ريحها، وإن ريحَها ليُوجدُ من مسيرة كذا وكذا**»[1]. فهذه زينة مبذولة لغير الزوج، بل للفتنة والإثارة والإغراء، ومعظم ما وردت فيه النصوص من النهي عن ألوان من الزِّينة، فإنما النهي عنها لأنها تفضي إلى ما لا يحل، أو كانت ذريعة موصلة للمنكر والمفسدة، أو كانت غشًّا وخداعًا وتلبيسًا.

ثم ذكر التفاخر، وهو غالبًا للكهول ومَن هم أكبر منهم[2]، فهم عادةً يتفاخرون بما هو لهم مجد زاهر، ومال وافر، وولد حاضر.

والتكاثُر في الأموال والأولاد في الغالب للكهول ومَن فوقهم في العمر، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**لا يزالُ قلبُ الكبير شابًّا في اثنتين: في حُبِّ الدنيا، وطول الأمل**»[3]. فهذا الشيخ الهَرِم يحب التكاثر في الأموال والأولاد، كما قال سبحانه: ﴿مَا طَابَ﴾ [التكاثر:1]، و﴿طَابَ﴾ **هنا يشمل معنيين:**

الأول: منافسة الآخرين.

(1) أخرجه مسلم (2128) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 403).

(3) أخرجه البخاري (6420)، ومسلم (1046) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والثاني: الحرص على الكثرة[1].

والمذموم منه هو المبالغة، وأن يكون مصدره حرامًا، أو أن يتحول إلى مفاخرة ومباهاة، أو حجب الحق عن المستحقين.

﴿ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ﴾: مثَّل تعالى الدنيا بالمطر الذي يعجب نباته الزُّرَّاع، والزَّارع يسمى: كافرًا، والقرية تسمى: كَفْرًا، وتشتهر هذه التسمية في مصر، وفي اختيار لفظ ﴿وَلَا﴾ تعريض بالكفار الذين كفروا بالله ورسله وغرَّتهم الحياة الدنيا، وغرَّهم بالله الغَرور[2].

﴿أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾: فهذا هياج يمثِّل مرحلة الشباب والكُهولة؛ لأن الزرع هنا قد اكتمل ونضج، ثم سَرْعان ما يصفر ويبدأ في الذُّبول[3]، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾: وهو تعبير عن النهاية والموت، فانظر إلى تناسب مراحل الحياة الدنيا مع مراحل الزرع في هذا المثل القرآني العظيم.

﴿٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا﴾: فالحياة الدنيا هي مزرعة الآخرة.

﴿طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ﴾ أي: أنها تغر صاحبها[4].

---

(1) ينظر: «التحرير والتنوير» (27/ 403)، وما سيأتي في «سورة التكاثر».

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 244)، و«تفسير السمعاني» (5/ 375)، و«تفسير القرطبي» (17/ 255)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 24)، و«التحرير والتنوير» (27/ 404).

(3) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 127)، و«تفسير السمعاني» (5/ 375)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 210)، و«فتح القدير» (5/ 210)، و«التحرير والتنوير» (27/ 405).

(4) ينظر: «تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 354)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 302)، و«تفسير البغوي» (5/ 32)، و«المحرر الوجيز» (5/ 267)، و«تفسير القرطبي» (17/ 256)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 24-25)، و«تفسير أبي السعود» (8/ 211).

* ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا ﴾:

ليس المقصود بالعَرْض هنا العَرْض المقابل للطول، وإنما المقصود بعرضها: سعتها[1]؛ إذ لا معنى من تخصيص العرض دون الطول، فالمقصود سعتها وهذا معروف عند العرب، كما قال قائلهم[2]:

ودونَ يدِ الحجَّاجِ من أن تَنالَني *** بَساطٌ لأَيْدي الناعجات عَريضُ

وفي قوله: ﴿ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ تشبيه يقصد به أنها شديدة السعة، ولذلك لا يقال كما يقول بعضهم إذا كانت الجنة عرضها السماء والأرض، فأين النار؟ ولا يقول هذا إلا جاهل يظن أن الكون ليس فيه إلا ما يعرفه من السماوات والأرض.

﴿ ﴾: فيه دليل على أن الجنة مخلوقة الآن، كما قال الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان»[3]. فالجنة موجودة، والأدلة على ذلك عديدة، منها هذه الآية[4].

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 530)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7327)، و«تفسير السمعاني» (5/ 376)، و«التحرير والتنوير» (27/ 408).

(2) ينظر: «البيان والتبيين» (1/ 309)، و«الشعر والشعراء» (1/ 401)، و«شرح ديوان الحماسة» (1/ 303)، و«لسان العرب» (7/ 259) منسوبًا إلى العُديل بن الفَرْخ العجلي.

(3) ينظر: «شرح الطحاوية» (ص420)، وما تقدم في «سورة الرحمن»: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾، وما سيأتي في «سورة النبأ»: ﴿مَرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا بِالطَّيِّبِ﴾.

(4) ينظر: «الفقه الأكبر» (ص63)، و«أصول السنة» لأحمد بن حنبل (ص59)، و«الاقتصاد في الاعتقاد» للمقدسي (ص176)، و«معالم أصول الدين» (ص127)، و«شرح الطحاوية» (ص420)، و«أعلام السنة المنشورة» (ص70-71)، و«شرح العقيدة الواسطية» للهراس (ص297-298).

* ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾:

ما مناسبة الكلام عن المصيبة في السياق؟

قال بعضهم: لما جرى الحديث عن الجهاد والشهادة ناسب أن يذكر المصيبة[1].

والأقرب أنه لما ذكر الحياة الدنيا وما فيها والأموال والأولاد، عُرف أن الحياة الدنيا مبناها على الخطر، وحال الإنسان فيها الشقاء والمكابدة، وأنها لا تسلم من العوارض، فلا أحد بمنجاة من مرض أو نكسة في ماله أو نفسه أو أهله أو ولده، وما من أحد قط إلا وحاول شيئًا في الدنيا ثم لم يحصل عليه أو حُرم من أمر كان يتمنَّاه أيًّا كان ذلك الشيء، فالحياة لا تخلو من مصائب؛ ولهذا قال: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي﴾، وقد تكون المصيبة في النفس مرضًا أو همًّا أو غمًّا أو كآبة، وبعض الناس قد يسلم من الإعاقة والعجز البدني؛ ولكن في داخله من الاكتئاب والأحزان والقلق ما يعيقه عن تحقيق سعادته وراحته واستقرار نفسه واطمئنان قلبه.

على أن تخفيف ذلك أو إزالته ممكن بالقرآن واتِّباع هَدْي الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن يخالط الناس السُّعداء الذين يعيشون التفاؤل، فإن هذا يُعدي.

وقوله: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ﴾: إشارة إلى نوع آخر من المصائب، وهي المصائب العامة، مثل الطوفان، والزلازل، والبراكين، وحالات الفقر والجوع، والأمراض المعدية التي تنتشر بين الناس.. ونحوها من المصائب العامة التي تقع للأمم، فهذه كلها مكتوبة عند الله، وقد علمها وقدَّرها، **وهذا من معاني الكتاب**، فعلمه كتاب سبحانه، والقدر مدوَّن في اللَّوح المحفوظ، وهو كتاب عند الله لا يضل ولا يتغيَّر.

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (17/ 258)، و«اللباب في علوم الكتاب» (18/ 493)، و«التحرير والتنوير» (27/ 409).

ومن معاني الكتاب: إذن الله بوقوعها، ولهذا قال: ﴿مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ﴾ [التغابن: 11][1].

ونصَّ على المصيبة، مع أن الحوادث كلها- خيرها وشرها، كبيرها وصغيرها- لا تقع إلا بقَدَر، لكنه خصَّ المصيبة؛ ليؤكِّد أن الاحتجاج بالقدر في المصائب لا في المعايب[2]، والاحتجاج بالقدر هنا يعطيك قوة ويمنحك إيمانًا، فبدلًا من أن تذهب نفسك حسرات في أمر لا يد لك فيه تركن إلى تقدير الله: «قَدَرُ الله، وما شاءَ فعل»[3]، فيكون الأمر بَرْدًا وسلامًا على قلبك، ويذهب ما تجد من الإحساس بالألم أو الفقد أو الخسارة أو ضياع الأحلام، وتتهيَّأ الروح للبدء من جديد.

وثَمَّ فرقٌ ما بين المصيبة الفردية، والمصيبة الجماعية: فالمصائب العامة هي بما كسبت أيدي الناس: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ﴾ [الروم: 41]، ولا يتعيَّن أن تكون مسؤولية فرد، وينزل البلاء عليهم جميعًا؛ لأنه لا يمكن إلا هذا، ثم يُبعثون على نياتهم.

ولا يحسن حينئذ أن نقول عن كارثة ما إنها مسؤولية قبيلة بعينها، أو أسرة بعينها، أو بلد بعينه؛ بحيث إذا نزل البلاء في بلد نتَّهم ذلك البلد تهمة عامة.

هذا ليس بسائغ شرعًا ولا عقلًا، فإذا وقع في بلد أمطار وأصيب الفقراء والمساكين والضعفاء، لم يحسن أن نقول: أنتم يا أهل البلد أهل معاصٍ وفجور.. فهذا

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 12)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (12/ 7508)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 308)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 138)، و«التحرير والتنوير» (27/ 410).

(2) ينظر ما تقدم في «سورة القمر»: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

(3) كما في «صحيح مسلم» (2664) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**وإن أصابَكَ شيءٌ فلا تقلْ: لو أنِّي فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ الله، وما شاء فعلَ**». وتُروى: «**قَدَّر اللهُ**».

توبيخ وتحكُّم، والمصيبة لا يلزم أن تكون عقوبة للأشخاص الذين نزلت بهم خاصة، وإنما هي عقاب عام، ودعوة إلى الاعتبار والتصحيح.

وكون المصيبة بسبب ذنب لا يمنع أن يكون ثمة آيات تُرسل للناس على سبيل الرحمة، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنكم تَعُدُّونَ الآيات عذابًا، وإنَّا كنا نَعُدُّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بَرَكَةً»(1).

ونظر ابن مسعود رضي الله عنه إلى معنى الاعتبار، فالله تعالى قد يعاقب أُناسًا ويترك مَن هم أشد منهم، حتى يذرهم في طغيانهم يعمهون: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: 182،183]، وقد تكون المصيبة تخويفًا وتنبيهًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ [الإسراء: 59]، فتكون خيرًا من جهة أنها لو تأخرت لكانت أهول وأطول وأعظم، ومن علم أن التدبير بيد الحكيم الخبير رضي وآمن وسلَّم، وأدار البحث الرشيد في معرفة مصدر البلاء، وكيف يمكن للمكلَّف تداركه أو تلافيه.

﴿قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا﴾: الضمير هنا يعود على المصيبة، أو يعود على النفس، أو يعود على الأرض، وكلها مما سبق في الآية: ﴿لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا﴾ أي: ضبط ذلك وحفظه(2).

---

(1) ينظر: «صحيح البخاري» (3579)، و«جامع الترمذي» (3633)، و«صحيح ابن خزيمة» (204)، و«صحيح ابن حبان» (2854)، و«الاعتقاد» للبيهقي (ص272).

(2) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 245)، و«غرائب التفسير وعجائب التأويل» (2/ 1189)، و«تفسير البغوي» (5/ 32)، و«تفسير الرازي» (29/ 467)، و«تفسير القرطبي» (17/ 257)، و«البحر المحيط في التفسير» (10/ 111)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 26)، و«التحرير والتنوير» (27/ 411).

* ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن﴾:

من مصالح حُرمتم منها، لا تحزنوا عليها؛ لأن فواتها قدر مكتوب، ﴿ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾، فرحًا طاغيًا يخرجكم عن التوازن والاعتدال إلى الأَشَر والبَطَر والطغيان الذي يكون سببًا في زوال النعمة وحلول النقمة.

وهل يلومنا الله تعالى إذا حَزِنَّا؟ كلا؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: «**تدمعُ العينُ، ويَحزَنُ القلبُ، ولا نقولُ إِلَّا ما يَرْضَي ربُّنَا**»[1]. بل المقصود بالأَسَى هنا: الحزن المفرط الذي يُقعد الإنسان عن العمل، أو يحمله على التسخُّط على القضاء والقدر، والكلام بما لا يجوز من هجر القول وفحشه والكفر بالله، فالقرآن يدعونا أَلَّا نستسلم للحزن واليأس.

وثمة آداب وأخلاق من شأنها أن تربِّي المسلم على مدافعة الحزن، وفي المجتمعات ثقافة عامة تقوم على تكريس الحزن وتعظيم مناسباته، كما يقيم الرافضة مناحات لذكرى وفيات مرَّت عليها مئات السنين، وبطريقة تُجَدِّد الحزن وتعذِّب النفس والجسد، وإنما يُثنَى على المرء إذا كان يقاوم الحزن ويسارع إلى تناسيه ومعالجته بالإقبال إلى تجديد حياته والتخطيط لمستقبله، اعتبارًا بما وقع له وتحرزًا من أسبابه؛ ولذا مدح عمرو بن العاص رضي الله عنه الرومَ، وأثنى عليهم بأنهم: «أسرعُ الناس إفاقةً بعد مصيبة»[2].

هذا أمر حسن أن يقاوم الإنسان الحزن ويتحرَّر من أغلاله، ولا يجعل نفسه مأسورة له، أن يحاول تجاوز الأزمة العارضة.

---

(1) أخرجه البخاري (1303)، ومسلم (2315) من حديث أنس رضي الله عنه.

(2) أخرجه مسلم (2898).

ولعل مقصود عمرو رضي الله عنه المصيبة العامة، كالهزيمة العسكرية أو النكبة أو الحرب الأهلية، وهذا مشاهد مقروء في التاريخ الأوربي الحديث والقديم، وكذلك الأزمة الخاصة من مرض أو فقد قريب على المؤمن أن يتذكَّر أن الأولاد عارية، كما قال لَبيد:

وما المالُ والأَهلونَ إِلَّا وَديعَةٌ *** ولا بُدَّ يومًا أن تُرَدَّ الوَدائعُ(1)

فما أعطاك الله تعالى في هذه الدنيا فهو عارية مسترجعة، وهي راحلة عنك أو أنت راحل عنها.

﴿ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾: وهذا ليس نهيًا عن الفرح؛ فالفرح مباح في الأصل، وقد يكون مستحبًّا: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: 58]، والله تعالى قال: ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ﴾ [النحل: 97]، ومن الحياة الطيبة السرور والرضا وقرة العين، لكن المنهي عنه فرح البَطَر والأَشَر، ولهذا قال: ﴿أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا﴾، فالمذموم الفرح الذي يؤدِّي إلى أذى الناس، والعدوان، والطغيان، والبَطَر، وتجاوز الحدود، والنسيان وكفر النعمة ونسيان الشكر، كما حدث لقارون، إذ قال له قومه: ﴿وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ [القصص: 76]، أما ما دون ذلك من الفرح فهو مأذون فيه، وهو من طبيعة الجِبِلَّة، والله قد أثنى على المؤمنين بالإنفاق وبالصدقة؛ مما يدل على أنهم ضربوا في هذه الأرض وكسبوا واتَّجروا وحصَّلوا مصالح، وبقدر مكانة الإنسان يكون تأثيره، فإذا كان له وظيفة كبيرة أو صوت مسموع أو مال أو جاه، كان أكثر تأثيرًا وأقدر على إيصال النفع والخير للخلق، وهذا مما يُفرح به أن يُدخل السرور على الناس، أو

(1) ينظر: «ديوان لَبِيد بن رَبِيعة» (ص89).

يساعدهم في حل مشكلة، أو يكون مستشارًا لهم في خير، أو يدفع عنهم ضرًّا أو يدعو لهم.

* ﴿يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا﴾:

لما ذكر تعالى الدنيا ودعا إلى الإنفاق وجعل في الدنيا ميزانًا معتدلًا لا يزيد ولا ينقص، ختم بذم ﴿يَكۡبَرُواْۚ﴾؛ لأن المصيبة قد تكون في المال، فهؤلاء يبخلون بأموالهم، فلا ينفقونها في سبيل الله، ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡ﴾، ويريدون أن يكون الناس مثلهم، ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ والله ليس بحاجة إلى أحد، وإنما المقصود ابتلاؤهم، و﴿﴾ **تشمل معنيين**[1]:

الأول: المحمود، فالله سبحانه وتعالى هو المحمود على إفضاله وإنعامه وعطاياه.

الثاني: الحامد، فإن الله تعالى يحمد عباده على الخير والبر والإيمان، وعلى ما قدَّموا من خير، فهو حامد ومحمود[2].

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾:

أما البينات فهي: الحجج الظاهرة[1]، ومنها: القرآن، وورثة الرسل والأنبياء هم العلماء يوضِّحون هذه البيِّنات، ويُقِيمُون الحُجج على العباد، مما يدل على أن أصل المهمة الرسالية هو البيان وإقامة الحجة، ودعوة الناس إلى الخير.

---

(1) ينظر: «تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (ص55)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (ص125)، و«مع الله» (ص227).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 613)، و«تفسير الرازي» (29/ 520)، و«التحرير والتنوير» (27/ 414).

ولم يقل: «بعثنا رسلَنا بالسيف»، وإن كان ثمة حديث مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**بُعثتُ بين يَدَي الساعة بالسَّيْف، حتى يُعبدَ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وجُعل رزقي تحت ظِلِّ رُمحي...**»[2].

وفي بعض ألفاظه نكارة، وفي سنده ضعف واضطراب[3]، وهو بظاهره يتعارض مع العديد من نصوص القرآن والسنة، ومنها هذه الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]، وإن كان من العلماء مَن حسَّنه[4].

فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ قضية قطعية حاسمة، ومهمة الرسل هي البيان.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ﴾: أنزل ﴿مِّن﴾ لإقامة الحجة، ﴿نَّفْسٍ﴾ لإقامة العدل[5]، وبالعدل قامت السماوات والأرض، ومما اشتهر: مقولة ابن تيمية في شأن العدل: «يُروى: اللهُ ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (14/ 230)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 253)، و«تفسير البغوي» (5/ 33)، و«الكشاف» (4/ 480)، و«زاد المسير» (4/ 237)، و«تفسير القرطبي» (17/ 260)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 27)، والمصادر السابقة.

(2) أخرجه ابن أبي شيبة (19401)، وأحمد (5115، 5667)، والبخاري (4/ 40) معلَّقًا ببعضه بصيغة التمريض، وعبد بن حميد (848)، وأبو داود (4031)- ببعضه- والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (231)، وابن الأعرابي في «معجمه» (1104)، والطبراني في «المعجم الكبير» (13/ 317) (14109)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (1154)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (2/ 142)، وابن عبد البر في «التمهيد» (11/ 76) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(3) ينظر تفصيل الضعف في تخريج «مسند أحمد»، (طبعة الرسالة).

(4) ينظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (1/ 269)، و«سير أعلام النبلاء» (15/ 509)، و«تخريج أحاديث الكشاف» (4/ 229)، و«فتح الباري» (6/ 98)، و«تغليق التعليق» (3/ 445- 446)، و«إرواء الغليل» (1269)، و«أنيس الساري في تخريج أحاديث فتح الباري» (7/ 4978).

(5) ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (3/ 287)، و«تفسير الطبري» (22/ 424)، و«تفسير البغوي» (5/ 33)، و«تفسير القرطبي» (17/ 260)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 27)، و«الدر المنثور» (14/ 287).

الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة». ويقول أيضًا: «العدل واجب لكل أحد، على كل أحد، في جميع الأحوال، والظلم لا يُباح شيء منه بحال»(1).

﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾: ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى إنزال الحديد أنه كان في السماء ونزل في الأرض، وليس هذا ببعيد(2).

والمعنى الآخر: أن الله تعالى أنزل سُنَّة هذا الأمر، فالأمر بخلقه هو من عند الله تعالى من السماء، والسنة في التعامل معه هي من عند الله، كما قال: ﴿وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا﴾ [الزمر: 6]، فيكون المقصود: خلقها وتشريع التعامل معها، رعاية وتملكًا وغير ذلك(3).

والبأس الشديد: وصف حيادي يدل على القوة التي قد تضر الناس وقد تنفعهم؛ وقد امتن الله على نبيِّه داود عليه السلام فقال: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ [الأنبياء: 80]، فهؤلاء الأنبياء علَّمهم ربهم صنعة تقيهم بأس المعتدين، وهو القتال بالحديد، كالدُّروع والتُّروس، كما في قوله: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [سبأ: 11]، فهذه الدُّروع عُلِّمها داود عليه السلام لحماية الناس من البأس؛ مما يدل على أن الشريعة جاءت لحفظ حياة الناس، وهم خلق الله مؤمنهم وكافرهم برِّهم وفاجرهم، والله امتحنهم على الأرض ووضعها لهم، وابتلاهم بالدعوة والأمر والنهي والتكليف، ورزقهم كلهم من فضله.

---

(1) ينظر: «مجموع الفتاوى» (28/ 63)، (30/ 339).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 129)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 246)، و«تفسير السمعاني» (5/ 378)، و«زاد المسير» (4/ 237)، والمصادر الآتية.

(3) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 537)، و«تفسير القشيري» (3/ 545)، و«تفسير البغوي» (5/ 33)، و«المحرر الوجيز» (5/ 269)، و«تفسير القرطبي» (17/ 261)، و«فتح القدير» (5/ 213)، و«التحرير والتنوير» (27/ 416).

﴿وَٱتَّقُواْ﴾: فالبأس الشديد ليس نفعًا محضًا، بل الغالب عليه الضرر، وكثير من الحروب تأتي بمضار عظيمة، وقد يتحقق المقصود بدونها، إلا أنها تكون في حالات كثيرة ردعًا ودفعًا لعدو مغرور مستكبر مخمور بالقوة والسلاح، فأشار هنا إلى منافع الحديد بالوقاية من السلاح أو بالمنافع التي أصبحنا نراها اليوم، من الصناعات المتقدِّمة التي صارت جزءًا جوهريًّا في حياة الناس اليوم.

﴿ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: فهذا الذي أنزله الله تعالى من الكتب والميزان والحديد مقصودها أن يعلم الله علم وجود وتحقق في واقع الحياة مَن ينصرُه ورسلَه ومَن يبغي ويتعدَّى ويظلم[1]، وعلمه تعالى قبل حصول الشيء هو علم آخر، فهو تعالى يعلم الشيء قبل حدوثه، ويعلم أنه حدث فعلًا، ﴿ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ فهو ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لا يُعجِزه شيء وهو ﴿رَقِيبًا﴾ لا يُغلب.

* ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ﴾:

وخص نوحًا وإبراهيم؛ لأنهما آباء الأنبياء، ولذلك قال: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ﴾، فالأنبياء الذين جاؤوا بعدهم هم من صلبهم ومن ذريتهم، ﴿تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أي: من ذريتهم مهتد، ﴿أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ﴾ أي: أن الأكثرين من ذرية نوح وإبراهيم فاسقون، وهذا قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم[2].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (23/ 201)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 537)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7333)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 313)، و«المحرر الوجيز» (5/ 269)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 190)، و«التحرير والتنوير» (27/ 418).

(2) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 538)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 318)، و«تفسير النسفي» (3/ 442)، و«البحر المديد» (7/ 329)، و«التفسير القرآني للقرآن» (14/ 791).

* ﴿حُوبًا كَبِيرًا ۝٢ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۝٣ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ﴾:

وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، ومعنى ﴿كَبِيرًا﴾ أي: أتينا من بعدهم برسل، مأخوذة من «القفا»[1]، أي: أرسلنا من بعدهم برسل منهم، ومن هؤلاء الرسل: عيسى عليه السلام، ﴿فَانكِحُوا﴾، وهو كتابه المنزَّل عليه، كما نزلت التوراة على موسى عليه السلام، ﴿طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ﴾ أي: لينًا، ﴿وَرُبَاعَ﴾، وذلك أن عيسى عليه السلام بُعث ليُلطِّف من القسوة والغلظة والمادية التي غلبت على اليهود، وكان في رسالته السماحة والرأفة والرحمة، ولذلك يتداولون في كتبهم الكلمة المروية عنه: «مَن ضربك على خدِّك الأيمن، فأَدِرْ له خدَّك الأيسر، ومَن نازعكَ ثوبك، فزده رداءَك»[2]. فبُعث عيسى عليه السلام بالرحمة؛ ليُخفِّف من غلواء اليهود وقسوتهم، ولذلك جعل تعالى ﴿لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ بالناس وتواضعًا وسكينة، ﴿ۖ﴾، ويمكن أن يكون هذا عطفًا على قوله: ﴿وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ على أن الرَّهبانيَّة ليست مثل الرأفة والرحمة، فالرأفة والرحمة مطلوبة مطلقًا، أما الرَّهبانيَّة ففيها نظر؛ لأنها تطوَّرت إلى ما لا تُحمد عقباه، ولذا أشار هنا إلى بدعيتها.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (9/ 538)، و«المحرر الوجيز» (5/ 270)، و«معترك الأقرآن» (3/ 138)، و«التحرير والتنوير» (27/ 420).

وينظر أيضًا: «غريب القرآن» للسجستاني (ص540)، و«مقاييس اللغة» (5/ 112) «ق ف ي»، و«مختار الصحاح» (ص258)، و«لسان العرب» (15/ 194) «ق ف ا».

(2) ينظر: «المِلَل والنِّحَل» للشهرستاني (2/ 18)، و«مجموع الفتاوى» (28/ 625)، و«مدارج السالكين» (2/ 428)، و«تفسير ابن كثير» (3/ 167).

وفي الآية احتمال أن يكون قوله: ﴿وَ﴾ مفعولًا لفعل يدل عليه ما بعده، فيكون تقدير الآية: ﴿طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، وابتدعوا رَهبانِيَّة أي: أنشؤوا واخترعوا من قِبل أنفسهم رهبانية[1]، ﴿خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ أي: أن الله تعالى لم يوجبها عليهم، قال سبحانه: ﴿فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ﴾.

وهذا فيه احتمال أن يكون المعنى: أن الله تعالى لم يكتب عليهم هذه الرَّهبانيَّة، لكن هم عملوها ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ﴾[2]، فالأولون منهم اتَّجهوا إلى الرَّهبانيَّة، **والرَّهبانيَّة** مأخوذة من الرَّهْب، وهو الخوف[3]، والغالب أن المقصود: الخوف من الله، فبسبب الخوف من الله كان المتقدِّمون من عُبَّاد النصارى يعتزلون الناس ويقيمون في الصوامع والدِّيارات في القُرى والصحراء، ولا يدخلون على أحد، ولا يدخل عليهم أحدٌ، ويتفرَّغون للعبادة.

وكان من جرَّاء هذه الرَّهبانيَّة أن تركوا الزواج زهدًا وتفرغًا للعبادة، فتخفَّفوا من ذلك، حتى تحول هذا إلى دين عندهم، وبسبب العزوف عن الزواج شاعت الخيانات والتحرش الجنسي والعدوان، وكم خرج للناس من تسجيلات وثائقية تفضح قساوسة

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 427)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 247)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 254)، و«تفسير البغوي» (5/ 33)، و«تفسير القرطبي» (17/ 263)، و«تفسير الخازن» (4/ 252).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 427)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 411)، و«الهداية إلى بلوغ النهاية» (11/ 7335)، و«المحرر الوجيز» (4/ 270)، و«تفسير القرطبي» (17/ 263)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 29).

(3) ينظر: «تفسير الماوردي» (5/ 484)، و«المحرر الوجيز» (5/ 270)، و«تفسير القرطبي» (17/ 263)، و«تفسير البيضاوي» (5/ 190)، و«التحرير والتنوير» (27/ 422).

وينظر أيضًا: «الصحاح» (1/ 140)، و«المفردات في غريب القرآن» (ص366)، و«لسان العرب» (1/ 436) «ر هـ ب»، و«بصائر ذوي التمييز» (3/ 100).

يتحرَّشون بالأطفال أو بالنساء أو بالراهبات؛ لأن هذا التشريع معاندة للفطرة البشرية في ميل الأنثى للذكر والذكر للأنثى.

فهم في الأصل فعلوها خوفًا من الله، ويمكن أن يكونوا فعلوها خوفًا من طغيان المتسلِّطين عليهم من اليهود والروم وغيرهم، فإن أتباع عيسى عليه السلام تعرَّضوا لحملات شديدة وأُحرقوا وقُتلوا وأُوذوا، ومن ذلك ما سيأتي في «سورة البروج»: ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾، فآل الأمر إلى التخفِّي والانعزال في الصوامع، علمًا أن الرَّهبانيَّة الصحيحة هي أن يُخالط الإنسان الناس ويصبر على أذاهم، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**المؤمنُ الذي يُخالطُ الناسَ ويصبرُ على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يخالطهم ولا يصبرُ على أذاهم**»[1].

وكما قيل: «ليس الناسك ناسك الصومعة، وإنما ناسك المدينة». أي: أن الرَّاهب الحقيقي هو الذي يختلط بالناس ويصبر عليهم ويدفع بالتي هي أحسن ويجتهد وسعه ما استطاع.

فالمعنى هنا أن الرَّهبانيَّة لم تُكتب عليهم، ولكن هم فعلوها ابتغاء رضوان الله، فكأن الله تعالى قَبِلها منهم أول الأمر وأذن لهم فيها، ولكنهم طوَّروها بعد ذلك إلى ما لا يجوز.

ويمكن أن يكون المعنى: أن الله تعالى لم يكتب عليهم ذلك، إلا أن يريدوا به رضوان الله عز وجل.

---

(1) أخرجه الطيالسي (1988)، وأحمد (5022)، والبخاري في «الأدب المفرد» (388)، والترمذي (2507)، وابن ماجه (4032)، والخرائطي في «اعتلال القلوب» (71)، والبيهقي (10/ 153) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وينظر: «السلسلة الصحيحة» (939).

والأقرب أن الله تعالى لم يكتب عليهم الرَّهبانيَّة، ولكن هم فعلوها[1].

﴿أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ﴾: فهم ابتدعوها، وما استطاعوا أن يقوموا بحقوقها[2]، وهذا أصل في عدم تكليف الإنسان نفسه ما لا يطيق.

وربما الرَّهبانيَّة في بني إسرائيل مثل النذر في هذه الأمة، فالنذر ليس مشروعًا، ولا يأتي بخير- كما قال صلى الله عليه وسلم- وإنما يُستخرجُ به من البَخِيل[3]، وامتدح اللهُ الموفون بنذورهم: ﴿وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ﴾ [الإنسان: 7]، وسأل عمرُ رضي الله عنه النبيَّ صلى الله عليه وسلم: إني نذرتُ في الجاهلية أن أعتكف ليلةً في المسجد الحرام. فقال: «**أَوْفِ بنذركَ**»[4]. بشرط أن يكون **النذر** في شيء مشروع أو مباح، وفي الحديث: بينا النبيُّ صلى الله عليه وسلم يخطبُ، إذا هو برجل قائمٌ، فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيلَ، نَذَرَ أن يقومَ ولا يقعدَ، ولا يستظلَّ، ولا يتكلمَ، ويصومَ. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**مُرْهُ فليتكلمْ وليستظلْ وليقعدْ، وليتمَّ صومَه**»[5]. وفي الحديث الآخر عن أنس رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم رأى شيخًا يُهَادَى بين ابنيه، فقال: «**ما بَالُ هذا؟**». قالوا: نَذَرَ أن يمشيَ. قال: «**إن اللهَ عن تعذيب هذا نفسَهُ لغنيٌّ**». وأمره أن يركَبَ[6].

---

(1) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 427)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 130)، و«تفسير السمرقندي» (3/ 411)، و«تفسير ابن أبي زمنين» (4/ 356)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 247)، و«تفسير الماوردي» (5/ 485)، و«التفسير البسيط» للواحدي (21/ 315- 316)، و«تفسير السمعاني» (5/ 379)، و«تفسير البغوي» (5/ 33).

(2) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 411)، و«زاد المسير» (4/ 239)، و«تفسير القرطبي» (17/ 263)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 29)، و«التحرير والتنوير» (27/ 425).

(3) ينظر: «صحيح البخاري» (6692)، و«صحيح مسلم» (1639).

(4) أخرجه البخاري (2032)، ومسلم (1656) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(5) أخرجه البخاري (6704) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(6) أخرجه البخاري (1865)، ومسلم (1642).

فنذر الإنسان طاعة من الطاعات إن حقَّق الله مراده يلزم الوفاء به عند القدرة، كقول أحدهم: نذرتُ لله إن شفى اللهُ مريضي أن أتصدَّق بكذا. هذا يجب عليه الوفاء.

وثَمَّ نوع آخر يسمَّى: نذر اللَّجاج، وهو أن يريد الإنسان تَرْكَ شيء فيرغم نفسه على تركه بالنذر لئن فعله ليصومن كذا وكذا أو ليتصدقن بكذا وكذا، فيجب عليه أن يوفِ بنذره لو فعل ذلك الشيء الذي علَّق عليه النذر، فإن لم يوفِ بنذره فعليه أن يكفِّر كفارة يمين: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: 89]؛ لأنه قصد بهذا النذر ما يقصد باليمين من فعل الشيء أو تركه[1].

ولهذا قال هنا: ﴿أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾ أي: ما حفظوها حقَّ حفظها، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾ أي ما رعوها رعايتها الحقة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ﴾ [آل عمران: 102]. وقال: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121].

﴿تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ أي: من بني إسرائيل من أتباع عيسى عليه السلام، ﴿فَإِن طِبْنَ﴾ أي: كافرون[2]، مثل الذين قالوا من أتباع عيسى: ﴿ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [المائدة: 73]، أو الذين قالوا: ﴿۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ [التوبة: 30]، أو الذين افتروا على الله الكذب، فهم في مقابل الذين آمنوا، والفسق يُطلق على الكفر، كما في قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٩﴾ [السجدة: 18- 19].

* ﴿عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا﴾:

---

(1) ينظر: «الموسوعة الفقهية الكويتية» (40/ 43).

(2) ينظر: «معاني القرآن» للزجاج (5/ 131)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 539)، و«تفسير السمعاني» (5/ 379)، و«زاد المسير» (4/ 238)، و«تفسير القرطبي» (17/ 262).

قدَّم الأمر بالتقوى استدراكًا على رهبانية بني إسرائيل، وإلفاتًا للبصائر إلى الحق المتعيَّن، وهو التقوى، وترك المفضول الذي لا يغني من الحق شيئًا، وهو الرَّهبانيَّة التي ابتدعها بنوا إسرائيل.

والتقوى: حال في القلب يحمل على فعل الطاعة وترك المعصية، أَلَّا يجدك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك(1).

وكما يقول ابن المعتز(2):

خلِّ الذنوبَ صغيرَها *** وكبيرَها ذاك التُّقى

واصنع كماشٍ فوق أر *** ضِ الشوكِ يحذرُ ما يرى

لا تحقرنَ صغيرةً *** إن الجبالَ من الحَصَى

والمقصود بـ﴿شَىْءٍ مِّنْهُ﴾: المسلمون من هذه الأمة(3)، وهذا محتمل وظاهر.

وقد يكون المقصود: الذين آمنوا من بني إسرائيل من أتباع عيسى عليه السلام(4)؛ الذين أشار إليهم بقوله: ﴿تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾.

والأولى شمول الخطاب لهذه الأمة ولبني إسرائيل الذين كانوا مؤمنين بعيسى، فقال: ﴿نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ صلى الله عليه وسلم ﴿لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ

---

(1) ينظر: «موسوعة فقه القلوب» (2/ 1888).

(2) ينظر: «ديوان ابن المعتز» (ص29)، و«شعب الإيمان» (6919)، و«محاضرات الأدباء» (2/ 411)، و«الكشكول» (2/ 270).

(3) ينظر: «تفسير السمرقندي» (3/ 411)، و«المحرر الوجيز» (5/ 271)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 395)، و«تفسير السعدي» (ص843)، و«التحرير والتنوير» (27/ 427).

(4) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 434)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (4/ 256)، و«زاد المسير» (4/ 239)، و«تفسير القرطبي» (17/ 266)، والمصادر السابقة.

وَقُولُواْ﴾ [الأعراف: 158]، النبي الخاتم، ﴿﴿٤﴾ **وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ**﴾ أي: ضعفين، **والكِفل** هو: المقدار العظيم[1].

وإذا كان الخطاب لبني إسرائيل، فقد شهد بمثل هذا شواهد من القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ** ﴾ [القصص:52-54]، هؤلاء الرهبان من بني إسرائيل الذين سمعوا القرآن فآمنوا: ﴿**وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ** ﴾ [المائدة:83]، فجعل لهم الأمر ضعفين، وصحَّ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**ثلاثةٌ يُؤْتَوْنَ أجرَهم مرتين: رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بنبيِّه وأدركَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فآمنَ به واتَّبَعهُ وصدَّقَهُ، فله أجران، وعبدٌ مملوكٌ أَدَّى حقَّ الله تعالى وحقَّ سيِّده، فله أجران، ورجلٌ كانت له أَمَةٌ، فَغَذَاها فأحسنَ غِذَاءَهَا، ثم أَدَّبَها فأحسنَ أَدَبَهَا، ثم أعتقها وتزَوَّجها، فله أجران**»[2].

وإذا كان الخطاب للمؤمنين من هذه الأمة، فهو تشريف لهم أن الله تعالى يُضاعف لهم الأجر أكثر مما كان يعطى مَن كان قبلهم من أهل الكتاب.

وهذا معنى مستقل صحيح؛ يشهد له حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**مَثَلُكم ومَثَلُ أهل الكتابين، كمَثَل رجل استأجرَ أُجراءَ، فقال: مَن يعملُ لي من غُدْوَةَ إلى نصف النهار على قيراط؟ فعملت اليهود، ثم قال: مَن**

---

(1) ينظر: «العين» (5/ 373) «ك ف ل»، و«معاني القرآن» للفراء (ص280)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص455)، و«جمهرة اللغة» (2/ 969) «ك ف ل»، و«الصحاح» (5/ 1810) «ك ف ل»، و«المفردات في غريب القرآن» (ص717)، و«شمس العلوم» (9/ 5859) «ك ف ل»، و«لسان العرب» (11/ 589) «ك ف ل»، و«التحرير والتنوير» (27/ 428).

(2) أخرجه البخاري (3011)، ومسلم (154) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

يعملُ لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ فعملت النصارى، ثم قال: مَن يعملُ لي من العصر إلى أن تغيبَ الشمسُ على قيراطين؟ فأنتم هم، فغضبت اليهودُ والنصارى، فقالوا: ما لنا أكثرَ عملًا، وأقلَّ عطاءً؟! قال: هل نقصتُكُم من حقِّكُم؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أُوتيه مَن أشاءُ»[1]. فهذا فضل الله يؤتيه مَن يشاء.

﴿ ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾: غير النور الذي في الآخرة، هذا نور في الدنيا؛ أي: نورًا في الدنيا[2]، ﴿قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ﴾ وهذا من فضله سبحانه، ﴿وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ﴾، وذكر النور الدنيوي هنا مناسب لما أخبر عنه في ثنايا السورة من أن المؤمنين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم[3].

* ﴿ مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ﴾:

أي: ليعلم أهل الكتاب، وهكذا كان ابن عباس رضي الله عنهما يقرؤها: (**لِيَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ**)[4]، وهذه قراءة تفسيرية ليست وحيًا، وإنما يقرؤها ليُعلِّم طلابه أن هذا هو المقصود، وأن «لا» هنا صلة أو زائدة في سياق الكلام[5].

---

(1) أخرجه البخاري (2268).

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (22/ 429)، و«معاني القرآن» للزجاج (5/ 131)، و«تفسير الماتريدي» (9/ 541-542)، و«تفسير الثعلبي» (9/ 250)، و«تفسير الماوردي» (5/ 486)، و«تفسير السمعاني» (5/ 380)، و«تفسير ابن كثير» (8/ 30).

(3) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

(4) ينظر: «المحرر الوجيز» (5/ 271)، و«تفسير ابن جزي» (2/ 350)، و«البرهان في علوم القرآن» (3/ 79)، و«تفسير الثعالبي» (5/ 395)، والمصادر الآتية.

(5) ينظر: «تفسير الثعلبي» (9/ 251)، و«تفسير الماوردي» (5/ 486)، و«تفسير البغوي» (5/ 36)، و«تفسير الرازي» (29/ 475)، و«تفسير القرطبي» (17/ 267).

والمعنى: حتى يعلمَ أهلُ الكتاب، أي: ليعلم ويدرك من قبلكم من اليهود والنصارى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾، فالفضل لله سبحانه ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن﴾.

وكأن أهل الكتاب كانوا يزدرون العرب ويتوعَّدونهم بنبي يُبعث، فيقتلونهم به قتل عاد وإِرَم[1]: ﴿وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ﴾ [البقرة: 89]، فلما وجدوا أن هذا الرسول صلى الله عليه وسلم هو من العرب من ذرية إسماعيل منعهم الحسد أن يؤمنوا، وقالوا: «هؤلاء أبناء أَمَة»[2]. يعنون: هاجرَ، واستكبروا عن الرسالة، ونسوا أن الفضل بيد الله، وأن السابق يدرك أحيانًا أكثر مما أدرك اللَّاحق.

وهذا يُقوِّي أن المقصود بقوله سبحانه في «سورة الواقعة»: ﴿نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ﴾، أنه في هذه الأمة؛ حيث كتب اللهُ لهم من الفضل ما لم يكتبه لسابقيهم[3]، والله أعلم.

❍ ❍ ❍

---

(1) ينظر: «سيرة ابن هشام» (1/ 211، 429)، و«تاريخ الطبري» (2/ 354)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (ص298)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (2/ 76، 434)، و«البداية والنهاية» (3/ 502)، (4/ 371)، وما سيأتي في «سورة البينة»: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ﴾.

(2) ينظر: «تفسير الطبري» (2/ 241)، و«تفسير الماتريدي» (1/ 509)، و«تفسير السمرقندي» (1/ 72)، و«تفسير البغوي» (1/ 142)، و«تفسير ابن كثير» (1/ 325).

(3) ينظر ما سيأتي في «سورة الواقعة».

فهرس المحتويات

❍ ❍ ❍